طه حسين والسياسة



طه حسين والسياسة

طه حسين والسياسة

مصطفى عبد الغنى



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف والإخراج الفنى

للفنان : الحسن أبو السعود

الطبعة الأولى ١٩٨٦

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة

ت ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

مقدمـــة

يُولى الكتّاب والدارسون جُهدا كبيرا للجانب الإبداعى والنقدى فى فكرِ طه حسين دونَ النفاذِ إلى الجانب السياسى ، وعلى الرغمِ من أنّ فكرَ ایّ انسانٍ لا يمكنُ فيه فصلُ جانبٍ عن جانبٍ آخر ، فإنه لا يمكنُ اغفالُ الجانبُ السياسى الذى لعبَ به صاحبُهُ دوراً لا يمكن انكارُه . ومما يصعُبُ معه الفصلُ بين هذا الجانبِ أو ذاك ، من جوانبِ حياتِهِ ، إنّ كثيرا من مناطقِ الإبداعِ لديه وراءها دافع سياسى ، كما أن كثيرا من المعاركِ السياسية التى أُثيرتْ حوله وراءها أيضا دافعٌ شخصىٌ أو فكرِى ، لا سيما أن طه حسين ارتدى مسوحَ السياسيةِ حين شارك فى دروسِ الأدب ، وارتدى مسوحَ أستاذِ الجامعةِ حين شارك فى السياسةِ وأكتوى بنارها .

ويمضى فى هذا الاتجاه . ان الكتاباتِ التى أشارتْ الى بعضِ مواقفه السياسية ، إنما كانت بهدفِ التأكيد على صلابتِهِ وقوةِ معارضته دونَ تمثلِ هذه المواقفِ فى تيارِ الحياةِ السياسية المصرية وربطِها بالبيئةِ التى عاشها والعصرِ الذى عاصره .

هذا أولُ الأسباب التى دفعتنى الى كتابةِ ذلك البحث ، أما السبب الآخر ، فيتمثل فى أن طه حسين هو مثال المثقف الذى ارتبطَ بعلاقات وثيقةٍ مع المؤسسة السياسية والحزبية ، فى وقتٍ لم يكن ليستطيع أن يَخْلص من دواعٍ خاصة به ، وبعصره ، حدّدَتْ اتجاهه مع هذا الحزب أو ذاك ، ومن هنا ، فإن دراسةَ موقفِ المثقفِ هى فى الحقيقةِ دراسةُ (حالة) لابد منها خاصةً وأنّ طه حسين هنا يمثّل شخصيةً ارتبطتْ فى الأذهانِ بكثيرٍ من المعانى ، فضلا عن أنه يظلُ واحدا من المثقفين الذين تدورُ حولهم المعاركُ من

آن لآخر ، وتقامُ المحاكاتُ وتنصبُ المشانقُ فى وقت لم تتعرضْ فيه مواقفُه للبحثِ الموضوعى أو تلمس الوثيقة التى تنيرُ الطريْق ، يضاف الى هذا ، أن أعمالَهُ وأخُصَّ منها (الأيام) يمكنُ إذا تُمُثلَتْ بوعيٍ كاملْ ، أن تفسرَ بعضَ أحداثِ الربعِ الأولِ من هذا القرنِ تمثلا صادقا للظواهرِ السياسيةِ والاجتماعيةِ فيه .

ويتسقُ مع هذا ويتوازى معه ، أنه لم يلقَ الاهتمامَ به كعميدٍ للأدب العربى ، كالاهتمامِ به كوزير فى وزارة حزبية إلا بالقدر الذى يُرصَدُ به جانبُ النتاج الفكرى ، دون تبين إسهام النتاج السياسى ، خاصةً وأنَّ أعمالَ طه حسين فى الجانب الأدبى منها تدهشنا لكون جُهدِهِ فى الجانب السياسى مفقوداً تماما ، وتزيدُ دهشتُنا حين نعلمُ أن كتاباتِهِ السياسيةِ تكونُ أسفارا من مقالاتِهِ التى لم تنقطع فى هذا الاتجاه الى درجةٍ أنه يذكرُ فى مَعْرِضِ الاشارةِ إليها أنها « لم تُجمع وهى تؤلفُ كتبا كثيرة » .

هذه هى أهمُّ الدوافعِ التى كانت وراء كتابةِ هذا البحث .. وقد كانت الصعوباتُ التى واجهتنى من نوعِ الدوافع .. فالى جانب افتقاد هذه الكتاباتِ التى تفسرُ موقفَهُ السياسىِ فقد عانيتُ كثيرا من نقصِ المصادرِ الأخرى التى يمكنُ الافادةُ منها ، فالوثائقُ البريطانيةُ حتى عام ١٩٤١ تفتقر إلى ملفٍ لطه حسين رغم حرصها على ملفاتٍ لشخصياتٍ مصريةٍ أخرى تقتربُ من مائةٍ وخمسين شخصية ، كما أن المراكزَ العلميةَ داخلَ مصرَ وخارجَها لا تملِكُ أيةَ وثائقَ وقرائنَ فى هذا الصددْ ، فإدارةُ البعثاتِ بمجمعِ التحرير لا تحتوى على ملفِ البعثاتِ الخاصِ وتجهلُ مكانَ وجودِهِ ، ودارُ الوثائق بالقلعةِ لا تملِكُ محفظةً أو ملفا واحداً يمكن أن يفسِّرَ كثيراً من علاقاتِ طه حسين ، حينئذ ، أللهم إلا ، بضعُ وريقاتٍ قديمةٍ فى أضابيرِ دهاليزِ الدارْ ، وكذلك فإنَّ د . محمد حسن الزيات زوجُ كريمتِهِ ينفى لى أكثرَ من مرةٍ وجودَ أيةِ وثائقَ هامةٍ بين أوراقِ طه حسين أو مكتبتِهِ ، ويدخُلُ ضمنَ هذا النطاقِ أيضا ، أن عدداً كبيرا من أقرباءِ طه حسين ومعارفِهِ لَمْ يعاونونى فيما انتويتُه ، بلْ إنَّ بعضَهُمْ أشارَ علىَّ بالانصرافِ ، بل بالاستغناءِ عن طرقِ الموضوعِ كُليةً لحساسيته ، وأذكرُ أن مؤنس (طه حسين الإبن) الذى يقيمُ خارجَ مصر لم يرسلْ إلىَّ أيةَ وثائقَ أو ملاحظاتٍ تفيدنى ، وذلك رغمَ إلحاحى عليه لموافاتى بما يفيدنى فى هذا الصدد .

أما عن الدورياتِ ، وقد كانتْ المعولَ الرئيسى لى على وجهِ التقريبِ ، فإننى

عانيتُ كثيرا من نقصانِها أو تلفَها .. فعلى الرغمِ من جهدِ العاملينَ بقسم الدورياتِ بدارِ الكتبِ الجديدةِ ، فإننى افتقدتُ كثيراً من هذه الدورياتِ التى كنتُ فى حاجةٍ ماسةٍ إليها ، فكثيراً ما كان يقال لى فى حالةِ طلبِ عددٍ جديدٍ إنه لا يمكنُ الاطلاعُ عليها أو يُقال إنه فى (الترميم) لتهرئته ، أو يقال إنه غير موجودٍ فى الأصل ، فضلا عن افتقادِ بعضِ النواحى التنظيميةِ هنا ، فكثيراً ما كان يحدُثُ أن أطلبَ مجلةً أو صحيفةً هامةً بالتاريخِ المدّونِ فى (سند الاعارة) فيعودُ إلى المسئولِ صفرَ اليدينِ بحجةِ نُقصانِ التاريخ الهجرى المؤرخ به هذه الدورية ، وهو ما حدثَ كثيرا فى دورية مثل (الفتح) .

وقد جهدتُ طويلا لتخليصِ البحثِ من استطراداتِ الأدبِ ومصطلحاتِ النقد ، التى يتورّطُ فيها الباحثُ عادةً تحت تأثيرِ الإغراءِ أو الاندفاعِ ، كما بذَلتُ فى هذا جهدا كبيرا ، وفى الوقتِ الذى استفدتُ به من الدراسات الأدبية الكثيرة ودلالالتها التاريخية وما أثير حولها ، فإننى قمت بوضعها فى السياق الذى قصدته وكتبت من أجله هذه الدراسة .

وقد اعتمدتُ فى هذا البحثِ على مجموعةٍ من المراجعِ يمكن تقسيمها كما يلى :

أولا : المراجعُ المعاصرة ، وهى مجموعةٌ من المصادرِ الأصلية ، أى ، الوثائقُ العربيةُ والأجنبيةُ المنشورة وغيرُ المنشورة . والتى أمدتْ هذا البحثَ بقدرٍ كبيرٍ من الضوءِ ، ومن أهمها وثائقُ عابدين ، وهى على ضآلتها لم نستطعْ إغفالها ، وأيضاً ، ملفُ طه حسين الوظيفى الذى عَثُرنا عليه فى دارِ المحفوظاتِ العموميةِ بالقلعةِ ، كما كانت مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية (مطبوعات سرية بدار الوثائق العامة) خير مَعينٍ لى فى إلقاءِ الضوءِ على كثير من جوانبِ شخصيتِهِ ، وأيضاً ، فإنّ أرشيف جامعةِ القاهرةِ أمدَّنى بمادةٍ لا أستطيعُ إنكارَها ممثلةً فى محاضرِ جلساتِ الجامعة ، فى الأوراقِ الرسميةِ فى المحافظِ التى تصورُ فترةَ وجودِ طه حسين وتطورِهِ العلمى فى الجامعة ، ومواقِفِهِ السياسيةِ فى كثيرٍ من القضايا المعاصرةِ له .

كما رجعتُ الى الصحفِ والمجلاتِ والدوريات التى صدرتْ خلال فترةِ البحثِ التى تُلقى الضوءَ الكثيفَ على فكرِ طه حسين وهى كثيرةٌ متنوعةٌ ، ولم نحاولْ أن نُقيّدَ أنفسنا خلالها بحزبٍ دون حزب ، فقد اطلعنا على صحفِ أحزابِ الأقليةِ أثناءَ ، وجودِهِ بها أو بعد خروجِهِ منها ، وأيضاً على صحف حزب الأغلبية أثناء وجودِهِ فيها أو تغيُّبِهِ السياسى أثناءَ فترةِ الانتماءِ السياسى .

ثانيا : البحوثُ والمؤلفاتُ والدراساتُ المنشورةُ التى ارتبطتْ بعلاقةِ ما مع هذا البحث ، سواء أكان منشورا منها باللغة العربية أو الفرنسية او الانجليزية ، والتى يكفى أن نشيرَ بشأنِها إلى أنها أثْرتْ البحثَ ليس بالمادةِ الخاصة بطه حسين فحسب ، وإنما بالجوانبِ التى يمكن من خلالها تقديمُ تحليلِ وتفتيتٍ كاملين للمادة الأصلية ، كما أنها أثرت المادة الأساسية بكثيرٍ من تطوراتِ العصر وتفسيراته .

غير أن أكثرَ المصادرِ أهميةً كانت تلك التى اصطلحَ على تسميتها بالمصادرِ الحية ممثلة فى بعضِ الشخصياتِ التى عملتْ مع طه حسين أو عاصرتْهُ أو التقتْ به ، وقد عَرَّفْتُ فى هذا الصدد باثنين منهم : أحدُهما ، محبٌّ لطه حسين ، والآخرُ معادٍ له .. ومع أننى حَرَصْتُ على الالتقاءِ بالنوعِ الأول ، أو الكتابةِ عنه ، فإننى لم اتجاهلْ النوع الآخر ، وإن لم التزمْ برأيِهِ إلا بعد تحليلِهِ فى ضوءِ ما توصَّلْتُ اليه من حقائق مرجحا ما يلتقى فى هذا مع وجه الحقيقة ، وقد عرفتُ من النوع الأول : د . محمد حسن الزيات زوج كريمة طه حسين ، ود . إبراهيم مدكور رئيس المجمع اللغوى الآن ، والأستاذ ابراهيم الابيارى سكرتير طه حسين لفترة من حياته ، والأستاذ المرحوم محمد زكى عبد القادر الكاتب الصحفى ، والأستاذ حسن يوسف الذى كان وكيلًا للديوان الملكى ورئيساً له بالنيابة لفترات ، كما حرصتُ على لقاء بعضِ الأجانبِ الذين قابلوا طه حسين وعرفوه عن قرب قبل أن يصدروا دراسات أكاديمية عنه ومن أهمِهِمْ الأستاذ بيير كاكيا وجاك بيرك .

وقد كانت هذه اللقاءاتُ تأخذُ شكلَ الحوارِ الصحفى من حيثُ الأسئلةِ المثارة ، إذ كنت كثيرا ما أقومُ بدراسة الموضوع الذى سيكونُ عُنوانَ المناقشةِ مع هذا المصدرِ أو ذاك ، ثم أحاولُ أن أثيرَ معه مزيداً من الأسئلةِ حول الإجاباتِ المطروحةِ ، وأحاولُ تسجيلها أولًا بأول .

ولا يفوتُنى أن أشير هنا إلى أن تحديدَ فترةِ البحثِ كانتْ أهم النقاطِ التى حَرَصْتُ عليها منذ البداية ، إذ سعيتُ إلى تحديد القضايا التى طرحت خلال هذا البحث ـــ إشكالية البحث ـــ منذُ بدءِ مشاركةِ طه حسين فى الحياةِ السياسيةِ المصرية قبل ثورة ١٩١٩ وبعدَها وحتى سقوطِ آخرِ وزارةٍ وفديةٍ كان وزيراً فيها فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، أى بين ثورتى ١٩ و ١٩٥٢ ، كما لم أغفِلْ تتبعَ موقفِهِ بعدَ قيام ثورة ١٩٥٢ مكتفيا من هذا بايضاح الخطِّ البيانى فى تطورٍ مُجملْ . وقد فصّلت لموقف طه حسين

من ثورة ٥٢ فى دراسة أخرى ستصدر قريبا بعنوان (طه حسين ـــ المثقف والثورة) .

كما يجب أن أشير الى التحديدِ الزمنى الذى التزمت بِهِ فى هذا البحث عن موقف طه حسين إنما جاء من قبيلِ اتباع منهج المزج بين الخطينِ الزمنى والموضوعى ، وإن لم اغفلْ التركيزَ على الخطِّ الموضوعى من التفتيتِ العلمى للقضايا ، إن الاهتمامَ التاريخىَ جاءَ دائما فى المرحلةِ الثانيةِ بعدَ الاهتمامِ بالموضوعِ والتركيزِ على القضايا وتحديدِها فى الاطارِ العامْ .

والحمدُ لله من قبل ومن بعد .

مصطفى عبد الغنى
يونيو ١٩٨٤

الفصل الأول

طه حسين وأحزاب الأقلية

- ظروف تكوين الأحزاب
- علاقة طه حسين بأحزاب الأقلية :
الوطنى ، الأمة ، الأحرار الدستوريين .
- علاقته بسعد زغلول
- فى أزمة الشعر الجاهلى
- علاقته بحزبى الاتحاد والشعب
- موقفه من صدقى وحكومته

تعد الفترة بين ١٨٨٢ (عام الاحتلال) و ١٩٠٧ (عام التكوينات الحزبية الأولى من اهم الفترات التى أثرت فى الحياة الحزبية سواء فى النشأة أو التطور أو الاتجاه الوطنى .

وقد تميزت فترة الاحتلال الأولى بصراع ظاهرى بين الخديوى عباس حلمى وقوى الاحتلال الانجليزى ، مما حاول معه كل منهما اجتذاب شباب القوى الوطنية ، ولم يمض وقت طويل حتى اتجه الخديوى ، بعد هزيمته من كرومر ، الى تشكيل لجنة سرية تطورت الى الدعوة لتأليف « حزب وطنى تحت رئاسة الخديوى » ، واجراء اتصالات هامة فى هذا الشأن .

وتمخضت الاتصالات عن تكوين (الحزب الوطنى) ، ضم الى جانب رئاسة الخديوى له مصطفى كامل ولطفى السيد وعددا آخر ، غير ان ثمة تطورا جديدا اسهم فى تغيير الخارطة الحزبية ، فما كاد الخديوى يتخلى عن الشباب الوطنى حتى كان لطفى السيد يسعى الى الاتجاه نحو سياسة محمد عبده الاصلاحية ، ويحتضنه الى حد كبير ممثل القوى الأجنبية كرومر .

وعلى هذا النحو ، ظهر فى الأفق المصرى اتجاهان : أحدهما تميز بعدائه للانجليز والميل الى تركيا ، وثانيهما ، يهادن الانجليز ويرفض الانحياز لتركيا ، الأول يدعو الى الجامعة الاسلامية ، والآخر يدعو الى القومية المصرية ، الأول يعرف (بالحزب الوطنى) ويمثله مصطفى كامل ، والآخر يعرف (بحزب الأمة) ويمثله لطفى السيد .

وقد اسرعت بتبلور هذه التكوينات الأولى ظواهر عديدة من بينها بروز فئة الأعيان وأبنائهم من الموظفين وذوى المهن الحرة ، وإثارة عداء قطاعات كبيرة نتيجة لما عرف بمظالم الاحتلال ، وما أثاره جنوده بين الأهالى أفضى إلى انضمام قطاعات من الشعب إلى صفوة الحركة الوطنية . كما يمكن أن نضيف إضطرابات الطلاب الهاتفة ضد سيطرة الانجليز على التعليم والمطالبة بالدستور ، وتشكيل الطلاب للجمعيات السرية والعلنية والكتابة فى الصحف ، وتكوين نادى المدارس العليا ، وايضا اسلوب الاعتصاب الذى عرف حينئذ بين فئات العمال مما دفع صغار العمال والفلاحين الى احتضان الحركة الوطنية وان كان يجب المسارعة بالقول إن عدداً كبيراً من أولئك العمال لم يكونوا من المصريين وان لم يمنع وجودهم فى حالات ليست كبيرة .

ويضاف إلى هذا أحداث عام ١٩٠٦ التى أسرعت بهذه التكوينات مثل حادث « دنشواى » فى يونيو من نفس العام ، وربما كانت الأزمة الاقتصادية التى حدثت فيما بعد دافعا هاما للأحزاب الى التهيؤ لبلورة تكويناتها وبلورة اهدافها مهما يكن الاختلاف بينها[١] .

وعلى أية حال ، فان المناخ الذى اسهم فى تكوين الأحزاب اسهم فى بلورة اتجاهاتها ونشأة صحفها ، فمصطفى كامل الذى كان قد خاب امله فى اوروبا خاصة

(١) أحمد زكريا الشلق ، حزب الأمة ص ٤٥ ، أيضا : قسطاكى الياس : تكوين الصحف المصرية ، ص ١٤٥ .

بعد حادثة فاشودة عام ١٨٩٨ وبعض الأحداث السياسية التى اكدت له عبث الاعتماد على القوى الأخرى فى البحث عن استقلال البلاد . لم يجد امامه غير الاعتماد على قدرة الشعب وعدم التخلى عن مبادئه الاسلامية فى كفاحه ضد المحتل ، فبلور هذا كله فى انشاء العديد من الصحف من امثال صحيفة اللواء ، وما لبث ان أصدر عام ١٩٠٧ صحيفتين بالانجليزية والفرنسية تعكس كل منهما فكر اللواء واسمه ، وفى عام ١٩٠٨ وحده ظهرت اربع صحف الى جانب اللواء تمتد فى انتمائها الى الحزب الوطنى ، وقد التزمت جميعها بموقف واحد يلخص فى (العداء المطلق لسلطة الاحتلال) ، ولم تحجم هذه الصحف عن استخدام وسائل الاثارة ضد الوجود الأجنبى .

وعلى العكس من الحزب الوطنى ، فان حزب الأمة الذى نشأ فى نفس العام ، فقد اهتم ، اكثر من سلفه « بتركيز الأنظار الى المسائل الشرقية والاجتماعية ، وهو ما ظهر بوضوح فى (الجريدة) لسان حال حزب الأمة وخاصة خلال « السنوات الأولى من ظهوره »[٢] .

على ان العلاقة بين حزب الأمة وقوى الاحتلال كانت اظهر ما يكون ، ولعل من اهم الأسباب ما تؤكده عديد من المصادر من تشجيع كرومر لجماعة الجريدة « بعبارة صريحة وواضحة هذا مع اعترافهم بلقائه والتداول معه فى دار الوكالة .. كما تدل عليه صلاته القديمة بهم وبأستاذهم ــ عبده ــ ، ولما اقتضته ضرورة حصولهم على تأييد رسمى ولم تكن علاقتهم بالخديوى لتسمح بذلك ، خاصة ، وقد تلاشت فى هذا الوقت سلطته أمام كرومر ، فلم يكن أمامهم الا ان يطرقوا بابه[٣] ، ومن المفيد أن نذكر أن المثقفين من ابناء هذه الفئة الذين انضموا الى حزب الأمة قد تشبعوا بالمبادىء والنظريات الأوروبية الليبرالية التى لعبت دورها فى القرن التاسع عشر فى ميادين الفكر والاقتصاد والحياة العامة ، كما تشبعوا بتعاليم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ومن هنا ، يفسر ايمانهم « بالتأنى والحيطة والعمل الموطن بمداراة الاحتلال ما دام انه لا يمكن زحزحته بالقوة »[٤] .

وباختصار ، فان نشأة الحزبين تدين بالتطور الطبيعى ، وهو ما يبدو فى اتجاهات الأحزاب فى خط الفكر عند أعضائها النظاميين أو غير النظاميين .

---

(٢) يونان لبيب رزق ، الحياة الحزبية ، ص ١٤٩ ، ٢٠١ .

(٣) احمد زكريا ، السابق ص ٦٠

(٤) احمد عبد الرحيم مصطفى ، تاريخ مصر السياسى ، ص ٥٣

إن اهتمام طه حسين بالمشاركة السياسية فى هذه الفترة يتحدد فى تيارين رئيسيين ، أحدهما ، يمثل الحزب الوطنى ، وثانيهما ، يمثل حزب الأمة .. وسوف نحاول رصد علاقة طه حسين بالحزبين : الوطنى والأمة فى فترتين ، وتُعد فترة سفره فى البعثه الى أوروبا بين عامى ١٩١٤/١٩١٩ فترة مميزة لعلاقاته الحزبية لا للمؤثرات التى عملت فيه ووجهته الوجهة التى عرف بها سواء فى أحزاب الأقلية (الأحرار/الاتحاد) او فى حزب الأغلبية (الوفد) .

فما هى أهم المؤثرات وراء انتماءات طه حسين الحزبية ؟

الواقع ان علاقة طه حسين الحزبية تحلقت قبل كل شىء حول خط العلاقات الشخصية سواء ما امتد منها فى اتجاه التأثير الشخصى فى أول عهده (عبد العزيز جاويش ، لطفى السيد) أو فى اتجاه الصداقة كما هو الحال بالنسبة لمثقفى حزب الأحرار وقادته او فى انحناءة حادة كما هو الحال بالنسبة لحزب الوفد فى الثلاثينات ، فضلا عن قناعة طه حسين الفكرية ، العائد من أوروبا ، والحامل لمنهج غربى يتحمس له كثيرا ، وقد سيطرت على كيانه الفكرة الليبرالية بكل مكوناتها .

ولنخرج من الإجمال الى التفصيل ..

كان أول الدوافع التى دفعت بطه حسين الى الوقوع تحت تأثير الحزب الوطنى فى أول عهده انه كان فى فترة مبكرة من حياته فى اشد الحاجة لمن يأخذ بيده ويرضى طموحه ، وقد وجد فى الشيخ عبد العزيز جاويش غير معين ، ومن هنا ، كانت الأسباب كثيرة ليمارس الشيخ الأزهرى ، العائد من اوروبا ، التأثير على الفتى .

لقد كان أول ما فعله جاويش أن دفع به الى كراهية الأزهريين كراهية شديدة « وكان يحبب العنف الى الفتى ويرغبه فيه ، ويزين فى قلبه الجهر بخصومه الشيوخ والنعى عليهم فى غير تحفظ ولا احتياط . فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كان يلجون فيه من المحافظة ، ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديوى ، ومصانعتهم للانجليز »[٥] ، كما كان للشيخ جاويش عليه فضل كبير ، اذ ألقى فى روع

---

(٥) الأيام ، ج ٣ ، ص ٢٠

الفتى « روعة فكرة السفر الى أوروبا »[٦] ، فلم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى « استقر فى نفسه ان ليس له بد من عبور البحر على أى نحو من الأنحاء »[٧] .

على أن فضل الشيخ جاويش « لم يقف عند حد » على حد قوله ، اذ أخذ بيده فى أكثر من موضع ، فهو الذى « عُرف الفتى الى جماهير الناس ووقفه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر »[٨] ، وجهر فى هذا الحفل الذى لا يقف فيه غير الشعراء الكبار كحافظ ابراهيم انه سيقدم لجمهوره قصيدة عصماء ولما يجاوز صاحبها سن الحادية والعشرين ، وهو ما دفع الشاب ، الذى يتوق للارتقاء فى مدارج الشهرة فى اول عهده بالحياة الأدبية ، الى ان يقع تحت تأثير الشيخ .

وعلى هذا النحو ، فان طه حسين فى هذه الفترة تميز فى موقفه بمسايرة الحزب الوطنى وصحفه سياسيا ، وكتب فى صحف (مصر الفتاة) و (الشعب) و (العلم) و (الهداية) و (ضياء الشرق) و (الدستور) .. كما نظم الشعر ومارس النقد الأدبى فى أغراض كثيرة لم تجاوز أهداف هذا الحزب ورغبة ممثليه وخاصة عبد العزيز جاويش الذى كان من أقطاب الحركة الوطنية فى الحزب بعد مصطفى كامل ومحمد فريد .

وفى هذه الفترة يمكن تفسير كثير من دوافع طه حسين السياسية ، فهجومه الحاد على سعد زغلول على سبيل المثال ، يعود الى أسباب عديدة ، منها ، بغض جاويش له الى درجة أن هجاه هجاء حادا[٩] ، واليه ايضا يعود هجومه الشديد على مصطفى لطفى المنفلوطى لما تضمنته (النظرات) من فقرات آلمت قادة الحزب الوطنى ، فعلى جاويش ، كما يعترف طه حسين ، يقع « نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول السمجة »[١٠] ،

---

(٦) السابق ص ٢١

(٧) السابق ص ٢١

(٨) السابق ، ص ص ٢٣ — ٢٤ ايضا : الهداية ديسمبر ١٩١٠

(٩) السابق ، ص ٢٠

(١٠) السابق ، ص ٢٠ ، ايضا مقال فى (الفتح) لمحب الدين الخطيب بعنوان (ما أعرف عن طه حسين) يفسر فيه هجوم طه حسين على المنفلوطى من ان رجال الحزب الوطنى رأوا فى (النظرات) فقرات آلمتهم « فرأوا ان تعمل صحيفتهم وكانت تنشر حينئذ باسم العلم او الشعب على انتقاد النظرات والحط من شأنها .. وكان فى قلم تحرير تلك الصحيفة الأستاذ =

كما يسميها صاحبها ، وهو ما يفسر فى جانب منه أيضا هجومه العنيف على الشيخ محمد رشيد رضا فى صحيفة (العلم) متهما إياه بتناول الخمر مع شيخ الأزهر وجماعة آخرين من الأزهر[١١] ، اذ أثنى جاويش على الكلمة ثناء خاصا واجازها فقد كان « يمقت من الشيخ رضا لممالأته للخديوى » .

لقد توزعت كتابات طه حسن فى هذا الوقت فى دائرة الحزب الوطنى ، فهى تلتزم بموقف الحزب من العداء المطلق لسلطة الاحتلال ، وهو المعنى الذى تردد فى شعره حينئذ ، ففى قصيدة موجها فيها حديثه الى النيل نجده يلوم المصريين لسكوتهم على الاحتلال فى اسلوب رثاء للحالة التى اصبحوا فيها[١٢] ، وفى موضع آخر فى مناسبة خروج جاويش من السجن ينعى فيها أحوال الاحتلال ويدعو الانجليز للعود من حيث جاءوا فى أسلوب قوى عنيف الى حد ما[١٣] .

= محمد صادق افندى عنبر .. طلبوا منه أن يقرأ ليعرض ما فيها من المفردات والتراكيب على نصوصه الدينية ويعطى هذه الأوراق الى طه حسين) العدد ٢٣ ، ١٨/١١/٢٦

(١١) الأيام ج ٣ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ٢٤ ، وايضا انور الجندى ، عبد العزيز جاويش ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، وايضا سامى الكيالى ، مع طه حسين ، ص ١٤١

(١٢) مصر الفتاة ١٨/٢/١٩٠٩ قصيدة (حديث مع النيل) جاء فيها :

ويك يانيل قد عذوت بنى مصـ ... ـرلدن قام كل جيـل فجيـل

ما عنائى وما عنـاؤك يانيـ ... ـل لقوم رضوا حيـاة الذليـل

قنعوا بالصغار واستعذبوا الضيـ ... ـم فمالـوا اليـه كل مميـل

(١٣) يوجد فى شعره حينئذ الكثير من القصائد التى تهاجم الانجليز مثل قصيدة (هم جائش) مصر الفتاة ٥/١١/١٩٠٩ ، كما قال فى الاحتفال الهجرى ، الهداية ١٢/١٩١٠ ، وقصيدة (ثناء وهناء) فى مصر الفتاة ١/١٠/١٩٠٩ .

وقد جاء فى القصيدة الأخيرة بمناسبة خروج عبد العزيز جاويش من السجن :

إن كان ذكرك للجلاء يسوء فليكن الجلاء

أو كان صوت الشعب عندهم وهو الداء العياء

فليعل صوت الشعب حتى يرجعوا من حيث جاءوا

وقد حرص طه حسين ـــ كالحزب الذى انتمى اليه ـــ على الالتزام بخط الفكر الدينى والتمسك بالعقيدة ، وقد كان يعتقد ان « سبب اضمحلال المسلمين فى كل أنحاء العالم وفقدهم عظمتهم انما مرجعها انقسامهم وبعدهم عن تعاليمه الدنيوية[١٤] » ، وما ترتب على هذا من القضايا الفرعية ، ومن هنا ، دارت كتابات طه حسين فى هذا الاطار ، فهو يكتب فى فترة مبكرة من حياته ما يحث به على التمسك بالعقيدة ويهتم بالقيم الاجتماعية ، ولا يتوقف عن ان يدعو الصائم بالتمسك بصيامه مرة ، ويدعو المرأة المسلمة الى التمسك بالدين فى عاداتها اليومية ويضرر زواج المسلم بالكتابية مرة أخرى ، كما يدعو فى شعره بوجه خاص الى الاهتمام بالمرأة ، فالأمة لا ترقى الا اذا عنيت بتعليم الأمهات[١٥] مرة ثالثة .

والأكثر من هذا كله ، ان طه حسين فى هذا الوقت كان يدعو الناس الى ضرورة التمسك بالشريعة الاسلامية وضرورة الحرص عليها من حيث التقاليد المعروفة بها الى درجة انه يدعو الى تطبيق عقوبتى الرجم والجلد دون هوادة فى حق الله[١٦] .

وحين تطورت العلاقة بين الحزب الوطنى وبين الحاكم فتحولت الى شىء أشبه بالمهادنة ، فان هذا انعكس خاصة فى موقف طه حسين واشعاره القليلة فى هذه الفترة ، فهو يهنىء الخديوى عباس عقب عودته مباشرة من أداء فريضة الحج ، فيتحدث فيها عن

---

(١٤) احمد عبد الرحيم ، تاريخ مصر السياسى ، ص ٣٢ .

(١٥) الهداية ، ١٩١٠/١٢

(١٦) مصر الفتاة ١٩٠٨/٨ ، وقد جاء فى هذه القصيدة :

انفذوا حكمــه على كل جان	لا ينلنكم من دون هذا فتور
ارجموا واجلدوا كما امــر اللـــه	يجانبكمــوا الخنــا والفجـــور
ان من يهدر الفضيلـــة يهدر	ليس كفـــأ لذنبـــه التعزيـــر

« والجدير بالذكر ان الحدود عقوبات وضعها المشرع على جرائم خاصة وأوجب الانضباط فى اقامتها حتى لا يكون هناك ظلم ، وفى الحديث (إدرأوا الحدود بالشبهات) ، اما التعزير فهو عقوبة غير محددة وضعها المشرع على جرائم فوض ولى الأمر فى تقديرها لتكون مناسبة للجريمة » .

الجلاء ويدعو الى الربط بين الجلاء ونيل الدستور[١٧] .

واذ يلاحظ أن كتابات طه حسين حينئذ بها مسحة من التحفظ وميل الى الهدوء والدعة اذا تعلق الأمر بالانجليز والدعوة الى الجلاء ، فان ذلك يدل على انه فى هذه الفترة المبكرة كان ينتهج سياسة الشيخ محمد عبده ، اذ كان حرصه على التعليم والنهل من المعرفة واضحا ، وهو ما وجد انتماء له فيما بعد فى انتمائه الى حزب الأمة .

وما كادت تبدأ حالة التشدد من الانجليز ضد الحزب الوطنى ، وانتقل بنشاطه الى خارج البلاد بهجرة زعامته من مصر خلال عام ١٩١٢ أو الى العمل السرى كما فعلت قواعده ، حتى كان طه حسين يتجه الى حزب الأمة الذى كان قد آثر الاعتدال والروية بعد ان رفض العنف والعداء .

وعلى هذا النحو ، فبمجرد ان هاجر الشيخ عبد العزيز جاويش ، المتشدد ، فى عام ١٩١٢ ، انتقل مركز التأثير الى لطفى السيد ، وبهذا ، يتحول طه حسين من التأثر (السياسى) بالحزب الوطنى الى التأثر (الفكرى) بحزب الأمة وممثليه ، ففى وقت كان فيه طه حسين قد التقى (بالحزب الوطنى) وكتب فى صحفه ، كان قد التقى فيه بالحزب الآخر ، وكتب ايضا فى صحيفة (الجريدة) .

والواقع ان تأثير لطفى السيد فى اعماق (الفتى) بلغ شأوا بعيدا ، وهو ما سنصل اليه فى المؤثرات التى دفعت به الى تبنى سياسته ، وما يهمنا الآن هو محاولة رصد علامات التأثر فى أعماقه من الداخل .

---

(١٧) الجريدة ١٩١٠/١/٢٦ وجاء فى هذه القصيدة :

أنت والدستور فى الحب لديها اخوان
وترى وجهك باليمن لها نعم البشير
كن لوادى النيل حصنا من عوادى الحدثان
وامنح الدستور مصرا انت ان شئت قدير
هل سمعت الصوت يدعوك من القبر الكريم
انما انت على الناس وصى وامين
لا تذدهم عن صراط الحق والنهج القويم
ارض بالدستور مصرا يرض رب العالمين

إن طه حسين يذكر ظروف التقائه بلطفى السيد ، فيرى انه تم على إثر خلاف وقع بينه وبين أحد شيوخ الأزهر ، فبعد أن تجاسر الطالب الأزهرى على الإعتراض على مسألة دينية هم شيخ الأزهر بمحو اسمه مع زميلين آخرين من الأزهر ، فانصرف غاضبا الى لطفى السيد صاحب صحيفة (الجريدة) ومعه مقال عنيف يهاجم فيه الأزهر « وشيخ الأزهر »[18] ، وقد تمكن لطفى السيد فى هذا الخلاف — الفكرى لا اللغوى — من ان يخفف من غلوائه ويتوسط لاعادته الى الأزهر .

(وقد كان طه حسين موزعا — كما يقول — بين « مذهبين من مذاهب الكتابة فى ذلك الوقت . أحدهما مذهب الاعتدال والقصد . ذلك الذى كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه اليه ويزينه فى قلبه . والآخر مذهب الغلو والاسراف ، وهو ما كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضا . وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعا . فاذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة . واذا غلا نشر فى صحف الحزب الوطنى »[19] .

ومما سبق ، يتأكد أن أسباب الانتماءات الشخصية اختلطت بأسباب الانتماءات الحزبية حتى ليصعب التفرقة بينهما ، فلنشهد بعض مظاهر هذه العلاقة قبل ان نصل الى بواعثها الحقيقية ، واضعين فى الاعتبار ان علاقة طه حسين بحزب الأمة ثم بحزب الأحرار الدستوريين وحتى بداية الثلاثينات كانت علاقة تأثر اكثر من غيرها .

وسوف نقف عند رصد موقف طه حسين من حزب الأمة عند موقفين اثنين : أحدهما ، قوى الاحتلال ، وثانيهما ، العقيدة وقضاياها .

كما ان جميع المصادر تؤكد على العلاقة الوثيقة بين حزب الأحرار وقوى الاحتلال[20] ، كذلك ، تؤكد على هذه العلاقة بين طه حسين والحزب ، وربما كان أبرز الأدلة على ذلك قصيدته التى نشرها فى عام ١٩٠٨ على إثر اغتيال حسن عبد الرازق ، اذ كان يغلو فى رثائه ، وقد كان يعرف بالصلة الحميمة القائمه بينه وبين المندوب السامى البريطانى فى مصر ، فقد كان حسن عبد الرازق من بين المترددين عليه[21] ،

(١٨) الأيام ، ج ٢ ، الصفحات ١٦٨ — ١٧٣ .

(١٩) السابق ص ١١/١٠

(٢٠) يونان لبيب ، الحياة الحزبية فى مصر ١٩١٤/١٨٨٢ ، ايضا : مذكرات لطفى السيد ، المصور ١٩٥٠/٩/١٥ ، وأحمد زكريا ، حزب الأمة ص ٦٠ ، والجريدة ١٩٠٧/٤/٣٠ .

(٢١) احمد زكريا ، الأمة ، ص ٥٦

فضلا عن علاقة المصالح التى كانت تربط هذه الطبقة بقوى الاحتلال .

وما يهمنا ، هنا ، أنه فى معرض رثائه له ، راح يكيل الضربات العنيفة للحزب الوطنى الذى كان قد انتمى اليه فى فترة سابقة(٢٢) ، فهو يهاجم سياسة الحزب الوطنى هجوما ضاريا متهما إياه بالغلو فى الحماس فى حربه ضد المحتل الى درجة وصفها بأنها (الطيش) ، فالحزب الوطنى هو (حزب الطيش) ، وزعيم الحزب وهو مصطفى كامل كان هو (الزعيم الطائش) كما يراه .

وهو فى موضع آخر يطلب من المصريين ان يلزموا السلم بحثا عن الجلاء ، وان يلزموا الود مع الخديوى فى مسعاهم الى ما يريدون من الجلاء ، والبحث عن الدستور(٢٣) .

والملاحظ على كتاباته فى هذا الوقت أنها لا تكاد تجاوز الاطار الأدبى أو النقدى الا لتؤيد سياسة حزب الأمة فقط .

وعلى العكس من كتابات طه حسين فى الاتجاه الاسلامى اثناء انحيازه الى فكر الحزب الوطنى ، فانه فى فترة انحيازه الى حزب الأمة ، راح يوجه شراعه فى اتجاه هذا الحزب الأخير ، اذ تؤكد مقالاته خاصة انه كان دائب الهجوم على الأزهر والأزهريين ، وهو ما يبدو فى فترة سابقة حين قامت بينه وبين الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه معركة (حول السفور والحجاب) أبدى فيها بالنسبة للشيخ جاويش تحررا عصريا وان لم يجاوز فيه معسكر جاويش فى كثير .

إن أولى مقالاته فى (الجريدة) نهاجم الأزهر والأزهريين فى عنف شديد ، فقد

(٢٢) القصيدة بعنوان (رثاء حسن عبد الرازق) يقول فيها :

رماه الردى من ود ان بلاده تكون لأهل الغرب نهبا مقسما
ومن يدعى بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أنى تيمما

(٢٣) الجريدة ١٩١٠/١/٢٦ ، يقول فى القصيدة :

اطلبوا الدستور ياقومى ونادوا بالجلاء
والزموا السلم فان النصر للحق المبين
وارفعوا الصوت باخلاص وحب وولاء
ليعش عباس وليحيا أمير المؤمنين

كان رجال الدين من المحافظين قد كتبوا ظلامة الى رئيس النظار لالغاء مدرسة القضاء الشرعى وانتخاب القضاة والمفتشين منهم دون غيرهم ، فكتب طه حسين مهاجما اياهم مجاهرا ان « وراثة المناصب باطلة فى الاسلام » ، واضاف ان « الحقيقة التى لا مراء فيها هى ان الأزهر الشريف الآن ليس أهلا لأن يخرج للأمة قضاة أكفاء يشرفون على دخائل الأسرة »[٢٤] .

وهو لا يتخلى عن نفس الأسلوب العنيف مرة أخرى حين يتعرض الى امرأة كانت قد كرهت زوجها ، منتقدا موقف رجال الدين بغير هوادة ، وقد دعا رجال القضاء الى ان يثأروا لدين الله ، وهو ما يترك إنطباعا مؤداه انه حاول ان يهاجم ممثلى الدين وليس مظاهره الحقيقية .

ومن هنا ، فقد دفع طه حسين أول الأمر تحت تأثير جاويش الى مشايعة الحزب الذى انتمى اليه ليهاجم الانجليز ، ويغلو فى الانتصار للدين ، كما دفع فى الفترة التالية تحت تأثير لطفى السيد الى ان يتجنب مهاجمة قوى الاحتلال ، أو يخفف من غلوائه نحوهم ، كما يخفف من غلوائه على العقيدة وهو ما يتمشى مع الخط الحزبى .

على ان البحث عن المؤثرات الفعالة وراء انتمائه الى حزب الأمة ، ثم حزب الأحرار الدستوريين يستوجب منا التوقف ، أكثر ، عند هذه المؤثرات .

تحددت جملة هذه المؤثرات فى عدد من الشخصيات التى كانت ، قبل غيرها ، ذات أثر كبير فى انتماء طه حسين الى حزب الأمة وامتداده حزب الأحرار الدستوريين لعل من أهمها لطفى السيد الذى لعب دورا اساسيا فى الحزبين ، وأهمية لطفى السيد تعود لدى الفتى الى انه كان أول من أخرجه من البيئة الأزهرية التى كان قد ضاق بها كثيرا باختلافه مع شيوخها أو ضيقه بعلومها التى لم يجد فى نفسه صدى كبيرا لها ، ومن هنا ، ففى مكتب مدير الجريدة « ظفر الفتى بشىء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم ، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وآثرها ثراء »[٢٥] .

(٢٤) الجريدة ١٩١٠/٥/٢٢

(٢٥) الايام ، ج ٢ ، ص ١٩٧٣

ولم يجد غير الاكثار من التردد على لطفى السيد ، بل ولازمه ملازمة كاملة أغلب أيام الأسبوع ، اذ فتح له طاقة الفكر الحديث بكل ما فيها من مباهج افتقدها هذا الفتى الآتى من اعماق الصعيد ، والكفيف .. فوجهه الى الوان شتى من الفكر السياسى لم تكن لتعرض له قط فى بيئته الأولى ، كما اتاح له فرصة نشر أول مقالة نشرتها له الصحف « فأرضاه ذلك عن نفسه وأطمعه فى المزيد منه »[٢٦] ، خاصة ، وقد أضاف الى طه حسين الحث على طلب المقالات ، ومراجعته لكثير من ألفاظها بقصد توجيهه .

ومن هنا ، بلغ من تأثير لطفى السيد فى الفتى الناشىء درجة دفعت بطه حسين الى أن يصفها بأن لطفى السيد « استأثر بقلب الفتى وعقله » ، وهو ما ترك أثرا كبيرا فى توجيهه السياسى والاجتماعى .

وبمراجعة عدد من أفكار لطفى السيد ومقالاته يمكن أن نعثر بها على أصداء واضحة فى أفكار طه حسين ومقالاته المتتابعة ، فى منهج تفكيره ، وتحولاته الرئيسية ، وقد كان هذا دون شك وراء انضمامه لحزب لطفى السيد وهو يمثل حينئذ تلك الصفوة الفكرية وصفوة الملاك الزراعيين فى آن .

وقد انعكس تأثير لطفى السيد فيه فى كل مراحل حياته على وجه التقريب ، فقد احتفى بلطفى السيد كثيرا اثناء حياته ، ووجه اليه كثيرا من الشكر فى مقالاته وكتبه[٢٧] ، وقد آثر أن تكون مقالاته فى الصحف التى يعمل بها أو التى يشرف عليها واضعا كتابات استاذه فى الصدارة دائما كما هو الحال فى مجلة (الكاتب المصرى) فى

(٢٦) ويضيف طه حسين فى هذا :
(.. فجعل يكتب فى الجريدة رغبة فى الكتابة احيانا ، وتقربا بها الى مدير الجريدة احيانا أخرى ، وجعل مدير الجريدة يرضى عن فضوله ، ويغريه بالكتابة ، ويحثه عليها حثا ، ويعلمه القصد فى اللفظ والأناة فى التفكير) ، الأيام ج ٣ ص ١٩ .

(٢٧) انظر مقالات طه حسين فى السياسة اثناء ازمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، وكذلك شكره له فى كتابه (فى الصيف) الذى كتبه فى عام ١٩٣٨ فهو يشير فيه الى لطفى السيد فيقول (اشكر ما حييت رئيس الجامعة) ص ٢٧ .

فترة متأخرة ، كما أهدى إليه كتبه من أمثال (حديث الأربعاء)[٢٨] فى فترة مبكرة من حياته ، وظل يذكره طيلة حياته على أنه أستاذه ومعلمه وصديقه[٢٩] .

واذ بدا تأثير لطفى السيد تأثيرا فكريا محضا ، فقد اتخذ تأثير من نوع آخر ، هو تأثير عائلة عبد الرازق ، تأثيرا عائليا وشخصيا بحتا .. فقد كانت العلاقة بين طه حسين وهذه العائلة تتحدد حول الجوار والزمالة والصداقة .

وتتناقل أخبار كثيرة أغفلها طه حسين فى أكثر ما كتب عن مساعدة هذه العائلة المحسنة له ولأسرته ، وقد كانت هذه الأسرة تهتم بمساعدة الأطفال الفقراء الذين كانوا يظهرون شيئا من النباهة ، ويبدو ان هذه العائلة قد قدمت الكثير من المساعدات المالية والمعنوية لأسرة طه حسين ، وليس طه حسين فقط ، فضلا عن صلة جوار كانت تدعم هذه العلاقة ، وتوثق بينهما ، فعائلة طه حسين كانت فى المنيا ، وعائلة أسرة عبد الرازق كانت فى المنيا أيضا مما يؤكد طبيعة هذه العلاقة بين العائلتين .

والجدير بالذكر ان حسن عبد الرازق (الابن) الذى تولى إرث العائلة فى أبى جرج بالمنيا كان هو الذى قد أعلن فى ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٧٠ تحويل (شركة الجريدة) أى ، الصحيفة ، إلى حزب الأمة ، وتم اختياره كوكيل للحزب[٣٠] .

والى جانب علاقة المساعدة وصلة الجوار ، فان ثمة صلة أخرى كانت قائمة بين الأسرتين ، فمصطفى عبد الرازق كان زميلا وصديقا لأحمد ، أخى طه حسين ، وكان

---

(٢٨) .. جاء فى المقدمة (الى الاستاذ الصديق احمد لطفى السيد تجلة تلميذ وتحية صديق) .

(٢٩) حديث الأربعاء ، مقالة (علم الأخلاق لأرسطو) السياسة ١٩٢٤/١١/٢١ ، كذلك الحديث ١٩٢٧/٧ ، كذلك مجلة اللغة الغربية ، مجلد ٦٥/١/١١٨ .

(٣٠) الجدير بالذكر ان حسن عبد الرازق ، الذى كان قاضيا على بلدة أبى جرج بالمنيا ، ورث منصب القضاء عن اجداده ، الذين تولوا هذا المنصب فى عام ١٧٩٨ ، وكان يعنى تولى امر ولاية البهنسا كلها ثم نقل الى ابى جرج وصار ارثا فى العائلة حتى تولاه حسن (الابن) الذى اعلن تحويل شركة (الجريدة) الى صحيفة حزب الأحرار انظر : على عبد الرازق ، من آثار مصطفى عبد الرازق ، من المقدمة ص ٦ ، ايضا : احمد زكريا ، حزب الأمة ص ٩٧ ، ايضا : مذكرات لطفى السيد ، المصور ١٩٥٠/٩/٢٢ ، ايضا : يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ، ص ٤٦ .

يتردد على حجرتهما كثيرا كما ذكر طه حسين فى (الأيام) ، وقد أثمرت هذه العلاقة بين الأخ الكفيف وأفراد عائلة عبد الرازق كثيرا ، وعلى سبيل المثال ، فان قرينة طه حسين تذكر أثناء عودتها مع زوجها من الخارج فى عام ١٩١٩ إن حسن عبد الرازق — وقد كان محافظا للاسكندرية حينئذ — يعانقهما مرددا « ان طه حسين هو أخى الصغير ، فستكونين إذن أختى الصغيرة »[٣١] ، كما كان أول من أرسل تلغرافا الى الجامعة المصرية بعد عودة طه حسين الى مصر مباشرة بعد البعثة وعين أستاذا (عام ١٩١٩) ، كان ، حسن عبد الرازق[٣٢] ، فضلا عن أنه كان عضوا فى مجلس ادارة الجامعة[٣٣] .

ويمكن أن نرى تأثير هذه العائلة فى وجدان طه حسين وأطوار حياته كلها فى المعنى الذى يستخلص من واقعة أن أول قصيدة كتبها ونشرها فى صحيفة (الجريدة) حول رثاء حسن عبد الرازق — الأب —[٣٤] ، ومن يقرأ كتابات طه حسين فى رثاء حسن عبد الرازق — الابن — الذى اغتيل عام ١٩٢٢ مع اسماعيل زهدى لأنهما من حزب الأحرار الدستوريين ، يمكن أن يحس نبض حزن طه حسين وغضبه الجارف وألمه الممض[٣٥] .

وهذه المشاعر لاتخطأها قط كلما تحدث عن بقية آل عبد الرازق مثلما تحدث عن على عبد الرازق[٣٦] حين عاش أو رحل ، أو عن مصطفى عبد الرازق الذى قال عنه فى احدى مقالاته « واشهد لقد حزنت على مصطفى كما يحزن الأخ لفقد أخيه والوالد لفقد ولده والصديق لفقد صديقه »[٣٧] .

(٣١) سوزان ص ٩٥ ، وهناك الكثير من الاشارات عن ذكر عائلة آل عبد الرازق اوردتها فى كتابها ، ايضا : الأيام ج ٣ ص ١٤٥

(٣٢) دار المحفوظات ، الملف ، ايضا : ورد تلغراف من عائلةعبد الرازق (حسن) جاء فيه بعد عبارات الثناء (اهنىء الجامعة بحضرته وبما يقدم بها من مجهود وادعو لها ولطلابها وللأستاذ بخير ما يرجوه مصرى من فلاح وتوفيق) .

(٣٣) ارشيف جامعة القاهرة ، محفظة ٣ ، ملف ١٣٨ ، محضر جلسة ١٩٢٢/١١/٢٩

(٣٤) الجريدة ١٩٠٨/١/١ ، والقصيدة اول ما نشر له من الشعر فى الصحف

(٣٥) السياسة ١٩٢٢/١١

(٣٦) ١٩٢٩/٦/١٧

(٣٧) السياسة الأسبوعية ٤٧/٤/١٥ ، الكاتب المصرى ٤٧/٣ ، الوادى ٤٧/٣/٢٨ ، الأهرام

فاذا عرفنا أن حزب الأمة ضم ثمانية عمد من بينهما حسن عبد الرازق والسيد بك أبو علي ــ والد لطفى السيد ــ فانه ضم محمد حسين هيكل الذى كانت عائلته ترتبط مع عائلة لطفى السيد بصلة النسب ، وقد كان يحتفى به ــ خاصة ــ لطفى السيد كثيرا .

لقد كان هيكل يتمتع لدى طه حسين بتأثير كبير نظرا للصداقة التى نشأت بينهما ، ولكونهما يحملان عقلا ينتمى الى الفكر الليبرالى وان اختلف طه حسين عنه ، بأنه نال فى صباه تعليما دينيا أكثر من قرينه الذى اقتصر تعليمه على الفرع المدنى أو تميز عنه .

ولقد كان للعلاقة التى كانت بينهما تأثير كبير فى اتجاهات طه حسين حينئذ ، فهيكل يذكر فى مذكراته أنه كان يرتاح كثيرا لرأى طه حسين[٣٨] ، كما يذكر أنه حينما عطلت الصحف فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وعطلت (الجريدة) ، اتفق كل منهما ــ حسين هيكل وطه حسين ــ ، وكان معهما الشيخ مصطفى عبد الرازق و د . منصور فهمى وعبد الحميد حمدى .. على تحرير جريدة (السفور) التى صدرت فى مايو من عام ١٩١٥ ، وقد افتعلت معركة بين هيكل وطه حسين بعنوان (الحرب والحضارة) لتنمية الوعى كما تصورا . وقد انتهت مقالات طه حسين فى السفور بكلمة (تاسيت) وكان يرسل لهما مقالاته من مونبلييه ، وكانت أول مرة أرسل فيها فى أغسطس عام ١٩١٥[٣٩] .

وقد ضم الحزب الكثير من كبار رجال الدولة من أهمهم عبد العزيز فهمى وثروت (باشا) ، أما الأول فقد كان يعرف طه حسين منذ ايام دراسته الأولى فى باريس ، وكان يتمتع بصداقة وطيدة ايضا مع أسرته[٤٠] ، وعبد العزيز جاويش كان هو الذى شجعه

٤٧/٣/٢٨ ، السياسة الاسبوعية ٤٧/٤/١٥ ، الجمهورية ٥٧/٩/٢٤ ، السياسة ٢٦/٩/١٤ ، السياسة ٤٥/١٢/٢٨ ، المصور ١٩٤٠/٤/٢٦

(٣٨) محمد حسين هيكل ، مذكرات ، ج ١ ص ١٢٧

(٣٩) السابق ، ص ٦٦/٦٥

(٤٠) سوزان ، السابق ، ص ٣٢

(تحكى بتأثر كيف صاح عبد العزيز فهمى فى وجه ابنة طه حسين وقد كانت تبكى : اسكتى يا افريقيا .. وهو ما يترك انطباعا حادا لمدى الصداقة التى كانت بين عبد العزيز فهمى وعائلة طه حسين) .

كثيرا على كراهية سعد زغلول ، والالتفاف حول حزب الأحرار الدستوريين[٤١] ، ومن هنا ، كان من الأصدقاء المقربين جدا على حد قول سوزان التى نقلت على لسان طه حسين ما يفيد تأكيد هذه العلاقة[٤٢] .

اما الشخصية الأخرى ــ ثروت ــ فان أثاره فى حياة طه حسين قبل البعثة وبعدها مما لا يمكن اغفاله بأية حال ، فطه حسين يخصه بالثناء والشكر والامتنان فى عديد من المواضع ، وقد شجعه فى السفر للخارج ، وكان بمثابة صديق وفى له كما تؤكد قرينته[٤٣] .

لقد كان ثروت أول من أبلغه قرار التدريس فى الجامعة ــ شفويا ــ بعد عودته[٤٤] ، كما قدمه فى اول عهده بالعمل فى هذه الجامعة الى جمهور الطلبة مثنيا عليه كثيرا ، وكان بمثابة صديق صدوق له ، خاصة وقد كان رئيس الوزراء فى ازمة نفى سعد[٤٥] ، فيقدم له العون المعنوى ، وقد بلغت درجة التصاقه به الى درجة ان اتهمه البعض بانه لم يكن يستطيع ان يكتب المقالة السياسية الا بعد اتصاله بثروت (باشا)[٤٦] .

ولا يخلو من دلالة سياسية ان يهدى طه حسين الى ثروت ، بوجه خاص ، كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى اثار ضجة كبيرة[٤٧] ، فمن البدهى أن حزب الأحرار

---

(٤١) الأيام ، ج ٣ ، ص ١٤٣

(٤٢) سوزان ، السابق ، ص ٥٦ ، كما يمكن تحديد قدر هذه الصداقة حين نعرف ان سوزان نقلت على لسان طه حسين انه قال عن عبد العزيز فهمى انه : انسان رائع واظن انه يحبنى ، فانا فى نظره عالم مصر .

(٤٣) السابق ، ص ص ٣٢/٣٣

(٤٤) دار الوثائق ، السابق ، خطاب فى ١٩١٩/١١/٨

(٤٥) سوزان ، السابق ، ص ٥٣

(٤٦) انور الجندى ، طه حسين وفكره فى ميزان الاسلام ، ص ١٠٨ ، ١٠٩

(٤٧) جاء فى مقدمة (الشعر الجاهلى) التى لم تظهر فى الطبعات التالية ما يلى :
(سيدى صاحب الدولة كنت قبل اليوم اكتب فى السياسة ، وكنت اجد فى ذكرك والاشادة بفضلك ، راحة نفس تحب الحق ، ورضا ضمير يحب الوفاء . =

الدستوريين الذى انتمى اليه لعب دورا كبيرا فى حمايته والدفاع عنه خاصة فى الفترة الأولى من الأزمة ، فلولا حماية ثروت له حينئذ « لكان دفع ثمنا فادحا لهذه الجرأة » فى ذلك الكتاب[٤٨] ، ومن ثم ، كان لثروت عليه فضل أثناء الضجة التى أثيرت ضد هذا الكتاب اذ نصحه ان يثبت للعاصفة حتى تمر بسلام ، ولا يجيب عن خصومه فان الاجابة والرد انما هما استفزاز يحط من كرامة الأستاذ الجامعى[٤٩] .

وحين رحل ثروت لم يبكه أحد بقدر ما بكاه طه حسين ، ففى كتاب (فى الصيف) ، الذى نشر على شكل كتابات متتابعة ، رثاه رثاء حزينا الى درجة عالية جدا من الأدب الرفيع[٥٠] ، ويكتب فى صحيفة (السياسة) على هذا المنوال ، وحين يكتب البعض عن ثروت بعد رحيله مباشرة ، فانه يطلب فى نهاية مقاله من طه حسين ان (يمتع القراء بمبحث عن وفاء ثروت ووده وصداقته)[٥١] ، فان طه حسين يستجيب فى العدد التالى مباشرة ، ويكتب مقالة طويلة يختمها بتلك العبارة ، التى ، لا تخلو من معنى :

« وأنا لا أكاد أذكر حادثة من حياتى منذ رجعت من اوروبا الا وذكرت ثروت وأثره فيها . لقد كنت أركن إليه وألوذ به واستشيره فى كل شىء . ولقد كنت اجد منه فى هذا كله عطفا لا يشبهه عطف وودا لا يشبهه ود »[٥٢] .

= وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة ، واذا انا اراك فى مجلسها كما كنت اراك من قبل ، قوى الروح ، زكى القلب ، بعيد النظر ، موفقا فى تأييد المصالح العلمية توفيقك فى تأييد المصالح السياسية .

فهل تأذن لى فى أن اقدم اليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والاجلال العظيم ؟ طه حسين ٢٢ مارس ٢٦)

(٤٨) oxford university Press london new york gamal mohmmed p. 118-119.

(٤٩) سامى الكيالى ، مع طه حسين ، ص ٥٩ وقد ذكر ثروت فى اكثر من موضع ، كذلك انظر فى الصيف ، السابق ، ص ٣١ ، ٣٢

(٥٠) فى الصيف ، السابق ، ص ١١٩ وما بعده

(٥١) المقتطف ، ٢٨/١١ والمقال للدكتور احمد فريد الرفاعى تلميذه الروحى ، وكاتب سره كما جاء فى المقال ، وعنوان المقال (ثروت باشا) .

(٥٢) المقتطف ، ١٩٢٨/١٢ مقال بعنوان (ثروت) .

وانا هنا لا ادافع عن موقف ثروت من القضية الوطنية وقد بدا فى بعض مراحلها متخاذلًا وانما ابرز تأثر طه حسين به كل التأثر ، فاذا كان يقع اللوم عليه لميله اليه ، فهذا الميل يعود الى اتجاه طه حسين حينئذ الى حزب الأقلية وان كان يحسب عليه مهما تكن أسباب ميله الى ثروت واهدائه اليه كتبه ، وتبنيه بعض مواقفه ايضا .

واذا كان انتماء طه حسين ينتهى دائما الى قادة حزب الأحرار ، فقد كان من الطبيعى أن يتأثر بشكل ما بالعلاقة بينه وبين عدلى الذى لعب أكبر الأدوار فى تكوين هذا الحزب وتطوره ، فقد كانت العلاقة من جانب طه حسين تطوى الاعجاب والاكبار : والعلاقة من جانب عدلى له تحمل التشجيع والمؤازرة خاصة فى ازمة (فى الشعر الجاهلى)[٥٣] سواء من الناحية المعنوية او الرسمية تحت قبة البرلمان ، وقد كان يتولى الوزارة حينئذ .

ففى الفترة التى كان فيها طه حسين يدرس فى باريس ، تمكن سعد زغلول من التأثير فى عدد كبير من المثقفين الذين سبق لهم الالتفاف حول مصطفى كامل و « اللواء » ، كما تمكن من التأثير فى الجماهير العريضة ، فتحولت الفئات التى كانت تلتف حول حزب الأمة وصحيفته (الجريدة) تلقائيا ، الى جانب عدلى ، الذى كان قد دخل فى صراع حاد مع سعد اثناء عرضه لقضية مصر والتفاوض بشأنها مع الانجليز ، حتى اذا ما عاد طه حسين من الخارج ، كان لابد من الانحياز الى جانب قادة حزب الأحرار الدستوريين الذى كان قد تأسس فى اكتوبر من عام ١٩٢٢ ، وقد كان معظم افراده من المخالفين لسعد ، ومن هنا ، فقد اسهم هذا مع عوامل اخرى سنصل اليها ، فى ابتعاد طه حسين عن سعد زغلول .

(ويقول طه حسين عن هذه الفترة بعد ان عاد عدلى من التفاوض بالخارج مخفقا فى تفاوضه ، بسبب اصرار الوفديين على التفاوض وحدهم ، وجنى الثمار كلها ، يقول بأنه يزعم « اصحاب عدلى ان صاحبهم قد كان ابيا كريما ، فقد ثبت للانجليز فلم ينزل لهم عن حق الوطن ، ولم يقبل منهم الدنية وعاد اشم مرفوع الرأس ، ويضيف طه حسين بعد قليل وهو يرصد فكره فى هذه الفترة بأن صاحبنا ــ يقصد نفسه ــ « يرى ..

(٥٣) الأهرام ١٩٢٦/٩/١٢ ، ايضا : فى الصيف ، ص ٣٥

ذات يوم فى محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلى وهو يصيح مع الصائحين ليحيا عدلى باشا »[٥٤] .

ويبدو اعجاب طه حسين البالغ ، بعدلى ، فى مقالتين كتبهما خاصة بعد رحيله ، إحداهما (رحيل) ، وثانيتهما (وداع) ، يظهر فيهما إيثاره لعدلى وحزبه ويظهر ألمه الشديد الذى بلغ درجة بعيدة .[٥٥] .

وهناك الكثيرون من حزب الأحرار ممن تركوا أثرا واضحا وفعالا فى أعماق طه حسين مما دفع به الى الميل لهذا الحزب لعل من اهمهم كان رشدى أحد رواده ، وقد تولى الوزارة فى اخطر فترات مصر ، كما تولى ، منذ فترة مبكرة رئاسة مجلس ادارة الجامعة المصرية ، ثم كان رئيسا لها فيما بعد ، كما تولى رئاسة لجنة وضع قانون الدستور اوائل العقد الثانى من هذا القرن ، ولعب دورا اساسيا هاما .

وليس بد من الاستطراد حول مؤشر آخر التقى فيه مع رواد حزب الأحرار ، وهو الانتماء الى الفكر الليبرالى .. فما كاد يعود من الخارج حتى عايش تجربة هامة أسهمت كثيرا فى هذا الميل ، وقد كانت الفكرة الدستورية تسيطر على أفهام ممثلى حزب الأحرار ، فقد نصت مبادئه على « تأييد النظام الدستورى » فى أول نشأته ، وحتى المحاولات التى بذلت لاقرار هذه المبادىء ، وكلها كانت تهدف وضع دستور لمصر بواسطة جمعية وطنية سياسية .

وقد شهد طه حسين حينئذ كيف اشتد الصراع بين أنصار الديموقراطية ، وأنصار الأوتوقراطية داخل اللجنة التى شكلت فى وزارة ثروت (ابريل ١٩٢٢) لوضع مشروع الدستور ، ثم ضغوط الملك بواسطة انصاره مما « أفضى فى النهاية الى صدور النصوص المتعلقة بصلة الملك بالوزارة ، بشكل أجمل اجمالا مخلا ، فلم تحل نصوص الدستور مشكلة صلة الملك بوزرائه ، ومدى مسئوليتهم امام مجلس النواب ، والتوفيق بين هذه المسئولية ومسئوليتهم أمام الملك ، وحقيقة اشرافهم على مصالح الدولة »[٥٦] .

(٥٤) الأيام ، ج ٣ ، ص ١٦٠

(٥٥) كوكب الشرق ٣٣/١٠/١٣ ، ايضا : ٣٣/١١/٧

(٥٦) احمد زكريا ، حزب الأحرار ، ص ١٨٤ (ويمكن العودة الى نصوص المادتين ٤٨/٢٩) من الدستور ، وتعارضهما فى كتاب مجلس الشيوخ : الدستور والقوانين المتصلة به ، ص ١٢/٩)

كما شهد إعلان قيام الدستور دون صدوره بالفعل ، والمطالبة بسرعة صدوره خاصة وان « السياسة » لسان حال حزب الأحرار « لم تكف عن الكتابة يوميا تقريبا ، مطالبة الوزارة باصدار الدستور »[٥٧] . حتى صدر الدستور فى وزارة نسيم فتولاها الكثيرون بالنقد ، من بينهم طه حسين نفسه ، الذى تساءل « كيف ترضى الوزارة خلو الدستور من ذكر السودان ؟ اكانت حين فعلت ذلك متفقة مع الوفد عليه »[٥٨] .

ومن هنا ، فقد صدر الدستور فى ضجة شهدها طه حسين العائد توا بالفكر الدستورى ، كما عرف مظاهره فى الغرب ، ليلتقى بالفكر الدستورى ، الذى ينافح عنه هنا حزب الأحرار الدستوريين .

ومما سبق ذكره ، يمكن تفسير صدور كتابه (نظام الاثينيين) فى هذا الوقت بهدف توضيح الفكرة الدستورية ونشأتها ، خاصة ، وقد اصبحت من مظاهر الحياة السياسية ، فالكتاب هو « احسن صورة موجودة تمثل الحياة السياسية اليونانية ، وهو مع ذلك صورة حية لنشأة الديموقراطية واستحالتها ورقيها رقيا قليلا قليلا حتى تصل الى اقصى ما يقدر لها من النمو وسعة السلطان »[٥٩] .

وفى نفس الفترة او قبلها بقليل صدر له كتاب آخر يذكر فيه (الآراء الديموقراطية) و (المذاهب الاشتراكية) .. الى غير ذلك من الأفكار الفكرية والأدبية التى يرى لها ، دائما اثرا سياسيا هاما ، فالخطأ الذى وقع فيه الفرنسيون ، فى رأيه ، هو محاولاتهم « تحقيق النظم الديموقراطية التى ألفها اليونان والرومان من غير ان يفطنوا الى ما بين فرنسا وروما وآثينا من القرون »[٦٠] .

وقد ظلت الديموقراطية محور اهتمامه لفترة طويلة الى درجة أنه فكر فى وضع كتاب بعنوان (الديموقراطية) وشرع فيه على الفور[٦١] ، والأكثر من هذا ، أنه ، قد كتب مقدمته[٦٢] لولا الأزمة التى واجهها اثناء نشر كتاب (فى ازمة الشعر الجاهلى) التى

(٥٧) السابق ، ص ١٨٥
(٥٨) السياسة ، ٢٣/٢/٤
(٥٩) طه حسين ، نظام الاثينيين ، ص ٤١

(٦٠) صحف مختارة .. لطه حسين ص ٦/٥
(٦١) سوزان ، ص ٧٨
(٦٢) ما بعد الأيام ، الزيات ، المصور ج ٤

كانت من انعنف بحيث أنها ثبطت من عزيمته .

واذا كانت الفكرة الديموقراطية قد غلبت عليه فى المجال السياسى ، فان الفكرة العلمانية قد غلبت عليه فى مجال علاقة الدين بالدولة ، وهو ما ظهر واضحا فى علاقته بحزب الأحرار فى أول فترات (الشعر الجاهلى) ، كما ظهر فى المنهج العلمى الذى راح يعالج به نصا دينيا تراثيا كالشعر الجاهلى فى كتابه ، وما نتج عن فكره بوجه عام من اقتناع ، مؤداه ، ضرورة فصل الدين عن الدولة ، فالدين عنده لم يكن ليتعدى اراحة النفوس وطمأنتها ، كما لم تكن مشكلته بأية حال هى (التوفيق بين العلم وبين آيات القرآن الكريم) ، وهو ما سنصل اليه بالتفصيل فى موضعه .

ومن هنا ، يمكن الاقتراب أكثر من كتاباته فى تلك الفترة ، لندرك ، أنه بينما يفصل فى إحداها بين العلم والدين ، فانه ينتهى فى ثانيتها الى ما يمكن ان يمثل خطورة شديدة من جراء « استغلال السياسة لعواطف السواد »[٦٣] .

وهذا الفهم الليبرالى الصريح يمكن أن نجده فى أعمال كثيرة أخرى من أمثال (فلسفة ابن خلدون/فى الصيف/الأيام/اديب ..) الى غير ذلك فى هذه الفترة التى التقى فيها فكره المتوثب ، الآتى من الغرب ، بفكر الأحرار فى بداية العشرينات ، وهو ما يفسر مؤثرا آخر مع بقية المؤثرات التى حددت علاقته بحزب الأقلية .

* * *

عاد طه حسين بعد ثورة ١٩١٩ الى مصر ، فاذا هو يميل الى وزارة الأحرار ورئيسها عدلى ، واذا هو يتبع بقية رواد هذا الحزب ، واذا هو يكتب فى صحيفتها (السياسة) مقالات يومية كلها هجوم عنيف على الوفديين .

وما كاد يغتال حسن عبد الرازق ــ اثناء تولى وزارة ثروت ــ حتى يبدأ موجة عنيفة على حزب الأغلبية ، القاتلين كما يسميهم ، ويتهم فى سخرية ممضة قائلا « أحقا أن هؤلاء الذين يغرون بالأبرياء ويحرضون على الآمنين ويتهمون الأخيار الأبرار بالاثم والخيانة ويفرقون بين الأخ وأخيه .. أحقا أنهم من الناس ؟ أحقا أنهم مصريون ؟ نريد ان نعتقد

(٦٣) من بعيد ، طه حسين ص ٢٢١

ذلك ولكن اعتقاد ذلك عسير »[٦٤] . ولا يلبث ان يتحدث الى قادة الوفد بضمير المخاطب « أما أنتم أيها المغرون المغرضون فقفوا وافتحوا أعينكم وانظروا الى آثار غرائبكم وتحريضكم . انها لأكبر منكم . انها لتسحقكم سحقا . انكم أمامها الصغار ضعاف »[٦٥] .

وليومين متتالين ، يرفض أن يتحدث الى القراء حديثا عاديا ، فهناك هذه (الكارثة)[٦٦] ، ولا يلبث ان يرد على الوفديين الذين يدرأون التهمة عن انفسهم ، بأنهم « خائفون ومعتدون فى وقت واحد . ولكن خوفهم غير نافع واعتداءهم شديد الخطر فهم لا يخافون الله ولا الضمير وانما يخافون الناس والسلطان ، وليس هذا الخوف بمانع من اقتراف الاثم وآية ذلك انهم يقترفونه ويبالغون فى اقترافه »[٦٧] .

وفى أوج الحديث عن الدستور يستبد به الغضب الشديد ، الذى اجتاح الأحرار لاغتيال اثنين من اعضائهم ، فقد كان اهتمامهم كبيرا بالدستور ، وقد افسحت (السياسة) صدرها قبل ذلك للكثيرين ليعبروا عن آرائهم بشأن الدستور سواء من طالبوا بالتغيير فى بعض نصوصه او توجيه انتقادات للبعض الآخر[٦٨] ، فلما حدث الاغتيال استبدل بالدستور قضية (القتل السياسى) ، وتحولت الصحيفة الى تناول هذا الموضوع الأخير يوميا على وجه التقريب .[٦٩] .

غير أنه يلاحظ أن طه حسين سواء هاجم او دافع فانه لم يخرج عن الضمير (نحن) ، وحين تحدث عن الوفد لم يخرج عن الضمير (هم) او (اليهم) ، وقد جاء عنوان مقاله عنيفا حينئذ (نحن والقوم) ، وهو ما يعد انحيازاً تاماً لحزب الأحرار ولرأى اعضائه بمالا يدع مجالا لشك انه دافع عن قضايا السياسة دفاع المنحاز الى درجة بعيدة .

(٦٤) السياسة ١٩٢٢/١١/٢١
(٦٥) السابق
(٦٦) السياسة ١٩٢٢/١١/٢٢
(٦٧) السياسة ١٩٢٢/١١/٢٣
(٦٨) السياسة ١٠/٣١ ، ١ ، ١٩٢٢/١١/٢ ، ايضا : السياسة ١٠ ، ١٥ ، ١٩٢٢/١١/١٦ ، ايضا : احمد زكريا : حزب الأحرار ص ١٥٨

(٦٩) السياسة ١٩٢٢/١١/١٩

وتسقط وزارة الأحرار (وزارة ثروت) وتأتى وزارة ملكية (وزارة نسيم) ، وما تكاد تعرف بميلها الى الوفد ، حتى يعاديها الأحرار ويشنون عليها حربا لا هوادة فيها[٧٠] ، واذا بطه حسين يحمل عليها كما يحمل الحزب الذى ينتمى اليه ، ففى مقالة بعنوان (وزارة بلا ملامح) يبدى الغضب الشديد من سياسة رئيس الوفد الجديد التى صاغها فى حديث ، فحين يقول توفيق نسيم ان الوزارة تريد ان تعمل لا ان تتكلم ، يعلو صوت طه حسين فى صحيفة (السياسة) بأن « الأمة المصرية قد كسبت فى هذا العصر حقا جديدا ، وهى حريصة على ان تحتفظ بهذا الحق وتستمتع به . هذا الحق هو ان تقرأ لكل وزارة جديدة برنامجها الذى تبين فيه آراءها السياسية وخطتها فى تحقيق هذه الآراء[٧١] ، ولا يتوقف عن المطالبة فى كتاباته التالية ان تصدر الوزاره رأيها وخطتها فى المشاكل التى تواجهها فهذا « ينفعها ولا يضرها ، وهو يرضى الشعب ويملأ قلبه طمأنينة على آمال دون ان يصمها بهذه الوصمة التى تخافها وصمة العناية بالأقوال لا بالأعمال »[٧٢] .

وفى الوقت الذى كانت فيه وزارة نسيم تعرض مشروع لجنة الدستور على لجنة استشارية تابعة لوزارة الحقانية ، لتقدم الوزارة العديد من التغيرات والتعديلات التى تكرس سلطة الملك على حساب الأمة ، ارتفع صوت طه حسين عاصفا متسائلا : « كيف ترضى الوزارة خلو الدستور من ذكر السودان ؟ اكانت حين فعلت ذلك متفقة مع الوفد عليه »[٧٣] .

وعلى الرغم من سقوط الوزارة فان طه حسين يظل يكتب من باريس عن (وزارة الشعب) ليحمل عليها بعنف شديد ، فيقول « لا أعرف وزارة مصرية أصابها ما أصاب وزارة الشعب من سوء الحظ وقبح المصير . فساء الرأى فيها والحكم عليها واشتد الخوف منها والاشفاق من شرها والحذر من سوء أثرها فى الحياة القومية ولما يمض على اعتزالها عام

(٧٠) محمد حسين هيكل ، ج ٢ ص ١٠٧
(٧١) السياسة ١٩٢٢/١٢/٣

(٧٢) وقد دارت كتاباته قبل سقوط هذه الوزارة فى ٢٣/٢/٩ حول هذا المحور (انظر حديث التصحيح ١٢/٤ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٢/١٢/٢٩ ، ٢٣/١/١٨)

(٧٣) السياسة ١٨ ، ٢٣/٣/١٩

أو بعض عام[٧٤] » . والمقالة طويلة ، يتمنى فى نهايتها أن تكون الوزارة القائمة ـــ وزارة يحيى ابراهيم ـــ وزارة يجب ان تكون « أول من يعتبر وأول من يتعظ » .

غير أن الوزارة الجديدة (٢٣/٣/١٥ ـــ ١٩٢٤/١/٢٧) كانت على خلاف شديد مع الأحرار الدستوريين لأسباب كثيرة لعل من اهمها علاقة هذه الوزارة ، كما كانت الوزارة السابقة ، لسعد زغلول ، فهجومه العنيف على « وزارة الشعب/نسيم » لا يعود وحسب الى انها جنت على الدستور فمسخته وشوهته .. فقط ، وانما لأن زغلول فى منفاه انما « هنأ وزارة نسيم وضمن لها ـــ تقدير الوطن ـــ » ، ثم كيف كتبت صحف الوفد لتأييد وزارة نسيم « تطلب بالانتخابات فى ظل الأحكام العرفية .. وتهديد أمر النص على السودان فى الدستور » ، وبيانات الوفد الرقيقة ايام وزارة نسيم « التى بلغت من العطف والرقة أن قارنت بينها وبين غزل البحترى »[٧٥] ، وموقفه من الدستور موقف خاص لا تحكمه نظرة الوفد « انى لا أنكر سخط الوفد على نقد الدستور ، فانا لست أرضى عن هذا الدستور الذى صدر ولم يصدر . الذى صدر ولكنه معلق فى الهواء حتى يجتمع البرلمان . لست أرضى عن هذا الدستور الرضا كله . ففيه نقص وفيه تشويه وفيه نصوص لابد من تغييرها وستغير ، لست أرضى اذن عن هذا الدستور ، ولست أخاصم الوفد دفاعا عن هذا الدستور . وانما أذكر الوفد بما كان مستعدا للرضا به أمام نسيم .. وبأننا مدينون بما أصاب الدستور من مسخ ونقص وتشويه لتواطؤ الوفد مع نسيم »[٧٦] .

وهو لا يتردد فى العودة أكثر من مرة لمهاجمة نسيم فى صراحة أكثر ، متناولا هذه العلاقة بين نسيم وبين الوفد التى كانت مهزلة تقع على مصر « بأمر سعد باشا !! لأن نسيم كان مقتنعا بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الله طبعا ، بأنه انما كان يحكم مصر ويعذب مصر بالنيابة عن سعد ، لم يكن أصيلا فى الحكم وانما كان وكيلا عن سعد باشا ! »[٧٧] .

كما يعيب على سعد باشا رسالة سعد التى أرسلها الى نسيم أثناء استقالته ، وان نسيم اعترف صراحة بأنه كان يعتمد فى وزارته على الملك وعلى الوفد .

(٧٤) السياسة ٢٣/٤/٤

(٧٥) السياسة ٢٣/٥/١٠

(٧٦) السياسة ، السابق

(٧٧) السياسة ٢٣/٥/٢٧

وتسقط وزارة يحيى ابراهيم التى طالما تعاونت مع الانجليز ، واصدرت الدستور مشوها ، لتأتى وزارة سعد زغلول هذه المرة (٢٤/١/٢٨ ــ ١٩٢٤/١١/٢٤) ، ليتخذ طه حسين فى علاقته مع سعد موقفا حادا .

وتتجمع ظروف عديدة لترسم علاقة طه حسين بسعد زغلول .. وهى علاقة كراهية اختلط فيها ــ من جانب طه حسين ــ العام بالخاص ، وتداخلت النوازع الذاتية بالسياسة العامة مما دفع به الى أن يوجه هجوماً عنيفاً دفع بسعد من الناحية الأخرى الى ان يبلغ النائب العام للتحقيق معه فيما نسب اليه .

تعود أول أسباب كراهية طه حسين إلى فترة مبكرة جداً من حياته ، إذ كان طه حسين منتميا إلى الحزب الوطنى ومدافعا عنه تحت تأثير عبد العزيز جاويش ، ولأن جاويش كان يبغض سعد زغلول بغضا شديداً وصل به إلى درجة أن الناس تحدثت به ، فقد هجاه فى مقالات شهيرة عنوانها (ظلموك ياسعد)[٧٨] ، وهجاه هجوما منكراً فى « بعض الشعر الذى لم ينشره لأنه كان اعنف مما ينشر »[٧٩] .. لهذا كله كان طه حسين يقتفى أثر أستاذه ، فراح يهاجم ويلقى استحسانا شديدا .

لقد كان عبد العزيز جاويش بالنسبة إليه بمثابة الأب الروحى الذى « يحبب العنف الى الفتى ويرغبه فيه » على حد قوله ، فضلا عن أن سنه لم يكن ليسمح له بالوعى بما حدث . والتورط ، من ثم ، فى هذه العلاقة الخطرة .

وقد أسهمت ظروف عديدة فى تعميق هذا الاحساس لديه .

لقد كان طه حسين يحس بدين له لسعد زغلول حين قدم أحد أعضاء الجمعية التشريعية عام ١٤ (اثناء حصوله على الدكتوراه فى ابى العلاء) اقتراحا يطلب فيه ان تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها « اخرجت ملحدا هو صاحب ذكرى ابى العلاء » وقد كان سعد رئيسا للجنة الاقتراحات بالجمعية ، فلما عرض عليه هذا الاقتراح

(٧٨) الأيام ، ج ٣ ص ٢٠

(٧٩) السابق ، ص ٢٠/٢١

دعا المقترح وطلب اليه أن يعدل عن اقتراحه ، واستطاع بالفعل ان يثنيه عن هذا الاقتراح »[٨٠] ، وحين طلب منه لطفى السيد ، وكان بمثابة استاذ له تأثير كبير عليه ، فى أن يذهب ليشكر سعد ، رفض الذهاب ولم يذهب بالفعل .

وقد التقى طه حسين بسعد زغلول فيما بعد مرات قلائل تركت فى نفسه أثراً سيئاً ، ففى مرة حدثه فى « فتور وضيق » ، وقد كانا يتحدثان فى باريس عن القضية الوطنية .

وفى مرة ثانية حين التقيا بعد عام ، فان الزعيم لم يلق طه حسين كما يصف هذا اللقاء ، فيقول طه انه « لم يلقه لقاء الهاش المرحب به ، وانما لقيه فى شيء من الفتور . قال له وسمع منه ، ولكنه لم يقل شيئا ذا بال . ولم يسمع منه شيئا ذا بال »[٨١] ، على حد قول طه حسين الذى راح يفسر هذا الموقف بأنه حين وقف خطيباً فى إحدى فيما قبل زعم ان مصر مدينة لما فيها من اليقظة لثلاثة رجال ، ولم يذكر ان سعدا من بين هؤلاء .

وقد كان اللقاء الأخير بينهما فى دار الشاعر أحمد شوقى حين التقيا لقاء عابرا ، فصافح أحدهما البعض دون ان يجاوز أحدهما هذا الموقف الى سواه ، وقد كان يمكن لطه حسين ، اذا اراد ، وبعد موقف سعد من الجمعية التشريعية وموقفه فيما بعد فى مجلس النواب فى أزمة (الشعر الجاهلى) ، وهو موقف حميد دون شك .. أن يذهب ليشكر سعداً كما أشير عليه ، غير أنه أبى ، كما أسلفنا ، وأصر على الاباء ، ولم يتردد حين ألح عليه ان يقول عن سعد بأنه « أدى واجبه وكف سفيها أحمق من نوابه عن حمقه .. واشتد الجدال فى ذلك بين الأستاذ وتلميذه ولكنهما لم يصلا الى شيء فاحتكما فى المساء الى عبد العزيز فهمى رحمه الله ولم يلبث هذا ان قضى لصاحبنا فى غير مشقة ولا جدال »[٨٢] . ونظن أن طه حسين لم يكن ليعترض على رأى لطفى السيد فضلا عن طلب طلبه منه استاذه الروحى ، وما أورده فى هذا الخصوص جاء من قبيل تضخيم الذات فى مواجهة سعد زغلول .

(٨٠) السابق ، ص ١٤١/١٤٢

(٨١) الأيام ، ج ٣ ، ص ١٤١/١٤٢

وهنا يلاحظ ان طبيعة طه حسين وآفته أسهمتا كثيرا فى تجسيد موقف سعد زغلول ، فقد يكون من الطبيعى بالنسبة الى زعيم مثل سعد ، ألا يتوقف كثيراً أمام طالب يدرس فى الخارج أو يفرغ إليه فى محفل بالقدر الذى يطلبه منه ، وقد راح طه حسين يجسد موقفه فراح يصور ، وبشكل متعالٍ ، مما يضخم من ذاته أمامنا على ما انطوت عليه طبيعته من عناد ركب فيه لظروف عديدة . وقد يكون هذا الإحساس ، بشكل آخر ، هو ما دفع بطه حسين شعوريا ــ أو لا شعوريا ــ الى ان يلفت النظر الى موقف سعد ، وهو ما يترجمه لنا حين يردد فى سيرة حياته هذه الجملة « وأين هو من سعد » ؟ .

والسؤال الآن هو : هل كان موقف سعد زغلول بالفعل ينبىء عن هذا الرأى الذى انتهى اليه طه حسين ، وهو قد اتسم بالتعالى الذى يومىء الى الطغيان أو ما يدفع إليه ؟

وهنا نقترب اكثر من موقف سعد زغلول أو طبيعته التى حسبت له أو عليه .

فلنتريث قليلا عند موقف سعد زغلول بشكل خاص من أزمة (فى الشعر الجاهلى) قبل ان نخلص الى بقية المؤثرات التى اسهمت فى استفحال القطيعة بينهما .

بينما انحاز سعد زغلول لطه حسين فى الجمعية التشريعية قبل ذلك بسنوات ، فقد انحاز ضده فى هذه الأزمة فى مجلس النواب ، لا سيما وقد رأى المجلس ضرورة فصل مؤلف الكتاب من وظيفته واحالته للنيابة العامة لتقديمه الى المحاكمة فى وقت رأت الحكومة الاكتفاء بعدم توزيع الكتاب ومصادرة نسخة[٨٣] ، وقد كان سعد زغلول رئيسا للمجلس وعدلى رئيسا للحكومة ، وقد وقف سعد فى أول الأمر بتعنت واضح امام رئيس الحكومة بقصد احراجه والنيل من المؤلف ، وقد دارت بينهما مناقشة حادة كادت تؤدى الى أزمة لولا تدخل البعض مقترحا تأجيل الجلسة حتى سوى الخلاف[٨٤] .

(٨٢) السابق ، ص ١٤٣ ، ايضا : مجلة الثقافة ١٩٤٠/٨/٢٧

(٨٣) انظر مضابط مجلس النواب : الهيئة النيابية الثالثة . مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول العادى ، مضبطة جلسة ٥٥ فى ٢٦/٩/٢٣ ص ٩٥٣ ، ٩٥٦

(٨٤) السابق ، ايضا : عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول ج ٢ ص ٤٨٨/٤٨٩

وعلى الرغم من أن التقارير البريطانية تفسر موقف سعد بأنه يعود إلى رغبته فى أن يثبت لحكومة الأقلية الدستورية التى كان يرأسها عدلى ، حينئذ ، أنه قوى لدرجة يتمكن معها من مواجهة الحكومة(٨٥) ، فان طه حسين كان قد أسرها فى نفسه .

وقد أسرع بهذا الغضب وغذاه مؤثرات عامة أخرى لعل من أهمها أن طه حسين كان ينتمى فكريا الى حزب الأحرار الدستوريين فى مواجهة حزب سعد ، حزب الوفد ، وقد اسهمت الظروف فى توسيع الهوة بين الحزبين فى فترة تالية .

ومصادر هذه الفترة تؤكد على انحراف وزارة سعد زغلول عن كثير من المبادىء التى نادت بها وهى خارج السلطة ، اذ تورطت فى « اضطهاد الموظفين من خصومها السياسيين ومحاباة أنصارها فجعلت تفصل وتعين وترق فى أجهزة الدولة ما شاءت لها الحزبية .. بل ان سعد اعترف فى مذكراته متجاهلا قوى المعارضة التى كان ينظر اليها على أنها طائفة هزيلة تكونت ممن تنكبوا حظيرة الوطنية »(٨٦) .

لقد اعترف سعد زغلول فى مذكراته ، صراحة ، أنه فكر أثناء تشكيل وزارته فى الانتقام من رجال الادارة ، وهو ما أطلق عليه عبارة (تطهير الادراة من الأدران)(٨٧) ، فالإنتقام هنا انما اتخذ ثوب التطهير للتذرع للاطاحة بالخصوم .

ومن ناحية أخرى ، أصدرت وزارة سعد زغلول « كثيراً من الاستثناءات الصارخة التى كانت موضع محاسبة البرلمان من ناحية ، ومثار هجوم الصحف المعارضة من ناحية أخرى »(٨٨) .

وبينما تلاحظ بعض المصادر(٨٩) أن وزارة سعد كانت تحتوى على عناصر غريبة ،

(٨٥) Fo. 407/203/Hnob 1925-11929

من تقرير نيفن هندرسون المندوب السامى البريطانى فى هذا الوقت .

(٨٦) السياسة ١١ ، ٢/١٤ ، لاشين ، السابق ص ٣٦٩ ، ايضا : احمد زكريا : الأحرار ص ٢٨٧ .

(٨٧) مذكرات سعد زغلول ، كراسة ٤٧ ، ص ٢٧٧

(٨٨) لاشين ، السابق ص ٣٧١/٣٧٠ ، مجلس النواب دور الانعقاد الأول ١٩٢٤ الأخبار ١٩٢٤/٥/٤

(٨٩) عفاف لطفى ، التجربة الليبرالية ص ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣

كما شجع الوفديين نظام (الغنائم) بالنسبة لمن يرعاهم الحزب ، فان المصادر الأخرى تعدد « المآخذ على وزارة سعد » فتذكر حقيقة خطيرة هى أنه لم « تكن وزارة سعد واسعة الصدر بازاء المعارضة البرلمانية ، وكان يضيق صدرها أيضا بالصحف المعارضة ، فتعقبتها بالاضطهاد والتحقيق والمحاكمة ، وأخلت بينها وبين المظاهرات الصاخبة[٩٠] » ، كما زادت التحقيقات مع الصحف المعارضة ، ووجهت تهمة القذف فى حق سعد زغلول والحض على كراهية النظام .

وفى تلك الفترة صادرت الحكومة بعض أعداد صحيفة السياسة ـــ صحيفة الأحرار ـــ يومى ١٠/١٢ يونيو ٢٤ ، وتقديم محرريها للمحاكمة من أمثال حافظ عفيفى وتوفيق دياب وحسين هيكل وطه حسين .

ومما سبق ذكره ، فقد كان موقف طه حسين ، من وجهة ذاتية ، يدفع به دفعا الى مهاجمة سعد زغلول ، لقد انتهت صلته به ، كما يقول ، إلى صلة « يسيرة كل اليسر فى ظاهرها ، عسيرة أشد العسر فى حقائقها ودخائلها »[٩١] ، وقد كان موقفه فى حزب معارض يضطره الى الهجوم والايغال فى الهجوم ، إذ انتهى إلى أنه لا يجب أن يلتزم بموقف الحيدة فيما يدور حوله فى ذلك الصراع بين الأقلية الديموقراطية والأغلبية الديماموجية[٩٢] ، فشرع ، من ثم ، يوجه سهامه الى الزعيم ـــ الطاغية .

وقد تبلور هذا الموقف فى كل الصحف التى هاجم فيها سعد زغلول : السياسة والاتحاد والأهرام والاستقلال .. إلى غير ذلك من الصحف التى كانت تتخذ موقف العداء من سعد ورجاله .

ويمكن رصد هجوم حاد فى فترة مبكرة جدا ، ففى منتصف عام ١٩٢١ ، يكتب فى الأهرام مقالا بعنوان (أديموقراطية أم طغيان) ، موجزا فكرته فى العنوان فى الفرق بين الديموقراطية والطغيان ، بين عدلى وسعد ، يقول بعد ان يعدد اوجه الخلاف طويلا بينهما :

(٩٠) الرافعى ، فى اعقاب الثورة ج ١ ص ١٥٩/١٦٠/١٦١ ، ايضا : محمد حسن الزيات ، المصور ، الجزء الثانى .

(٩١) الأيام ، السابق ص ١٤٣

(٩٢) السابق ص ١٦٣

(ثم وقع بينهما الانقسام . ووقع لمسألة شخصية لا يستطيع أحد مهما يبلغ من المهارة السياسية وقوة الحجة أن يجد بها صيغة سياسية حقيقية . ولكن سعداً كان الزعيم فما كاد يعلن خلافه لخصومه وانشقاقه عليهم حتى اجتمع عليه الجمهور فأيده ونصره ، وعلى غيره منشقا ، ووصف خصومه بالمروق . وليس ما يقع فى مصر الآن من جدال ومناقشة وليس فى ما وقع فى مصر منذ أسابيع من اضطراب ومظاهرات إلا حرباً بين مبدأين مختلفين : أحدهما مبدأ قيادة الجمهور الى منفعته المحققة من طريق النظام والقانون اى من طريق الديموقراطية المعتدلة المنظمة . والآخر مبدأ الاستئثار بما للجمهور من قوة وسلطان ، والاستبداد باسم هذا الجمهور وسلوك الطرق المعقولة وغير المعقولة الى اكراه الخصوم على الاذعان ، أو كم افواههم وعقد السنتهم)[٩٣] .

ويظل يحمل على سعد زغلول بهذه الحدة ، ففى جريدة « الاستقلال » يكتب مقالتين تحتويان على أعنف ما يمكن أن يوجه إلى زعيم أغلبية شعبية ، ففى العنوان الذى اختاره ليومين متتالين يمكن أن نجد هذه الجرأة ، العنوان يقول صراحة (ويل للحرية من سعد) ، يستطرد فى عبارات تبلغ أقصاها من العنف الشديد ، لعل من اهمها :

سعد باشا رجل حر . يعشق الحرية ويكلف بها . ويبذل فيها حياته وماله وما أنعم الله به عليه من خير . ولكن ذلك لا يمنعه ان يكون عدو الحرية وقاتلها مرتين . لا نمزح ولا نتفكه ولا نختلق القول جزافا . انما نقول حق لا شك فيه[٩٤] .

وعلى هذه النغمة تتوالى مقالات طه حسين فى جريدة (السياسة) لسنوات ، كأعنف ما كتب فى الأدب السياسى فى العصر الحديث[٩٥] اغلبها بدون توقيع ، وبعضها بتوقيع ساخط غاضب يتحدى بعنف شديد وفى لهجة لاذعة الى درجة ان يطلب سعد.

(٩٣) الأهرام ١٩٢١/٦/٢٥

(٩٤) الاستقلال ٩ ، ١٠/١١/٢١ ، ويقول فيه (كان سعد محاربا لأمته ، فاصبح الآن محاربا للحرية من حيث هى حرية . واصبح الآن محاربا لكل هذا النصر الحديث/سعد وكيل الامة فى كل شىء . حتى فى قراءة الصحف . أيتها الأمة المصرية . طيبى نفسا . وقرى عينا . اهدئى واطمئنى ، فقد قيض الله لك رجلا يريحك من كل شيء . لا تطالبى بالاستقلال فسعد يطلب به . لا تعشقى الحرية فسعد يعشقها . لا تؤمنى بالله فسعد يؤمن به . ولا تقرئى الصحف فسعد يقرأها) .

(٩٥) اغلب مقالات السياسة فى النصف الأول من عام ٢٤

زغلول، من النائب العام التحقيق معه ، مع صاحب المقالات التى تنشر بدون توقيع ، وهى، من لهجتها وأسلوبها مقالات لطه حسين ، ويكون التبليغ بتهمة (اهانة رئيس الوزراء)[٩٦] .

على أنه بتحليل مضمون مقالاته التى تحمل اسمه أو التى لا تحمل ، وحتى فترة استقالة سعد من رئاسة الوزراء فى ١١/١٣ ثم قبولها فى نفس الشهر من عام ١٩٢٤ بعد كارثة السردار ، يمكن العثور دائما على اسلوب طه حسين الساخر فى الهجوم ، بل وامتد هذا الهجوم بعد رحيل سعد ووزارته الى الوزارة التى اعقبته ــ هى وزارة زيور ــ ونحن لا نستطيع مقاومة اغراء نقل فقرة من كتاباته حينئذ ، يقول فيها :

« واقسم لقد بغى سعد وأصحابه على اخوانهم فأسرفوا فى البغى ، وأقسم لقد طغا سعد وأصحابه على إخوانهم ، فأسرفوا فى الطغيان .. (و) .. يجب على كل مصرى ان ينهض لهذه الطائفة الباغية الطاغية فيردها الى طورها وينزلها منزلتها ويأخذها بالاذعان لكلمة الحق والخضوع لأمر الجماعة والنزول عند ارادة الوطن »[٩٧] .

وهو بينما يذكر فى موضع آخر أصحاب سعد (بالأذناب) ، فانه يسخر من غرور سعد الذى هيأ له مكانة خاصة ودفعه فى نهاية المطاف الى الهروب[٩٨] ، كما أن طه حسين فى هذا المقال يتحين أية فرصة ليحمل على سعد والسعديين[٩٩] . وهو ما يحمل الغلو فى التعبير عن رأيه السياسى فى زعيم حزب الأغلبية مالا يمكن تجاهله قط . اذ لا

(٩٦) وثائق عابدين ، السابق ، محفظة ١١ عين ١٢ محرن ٤٢
وبالفعل ، يفتتح محضر التحقيق فى ٧ يونيو ١٩٢٤ وتوجه اسئلة التحقيق الى طه حسين الذى يظل مرددا ، على مدى ساعة كاملة ، امام المحقق ، عبارة واحدة (لا اجيب)
وتواصل لجنة التحقيق بحثها فى حياة طه حسين وكتاباته الأخرى لعلها تجد خطأ يحسب عليه ، فلا تجد شيئا ، اللهم الا موافقة الجامعة له للكتابة فى الصحف بعد ان طلب هو ذلك .

(٩٧) السياسة ٢٤/١٢/٢٥

(٩٨) السابق ، وجاء فى المقال (الى من أراد الاتحاد فليستظل بلوائى يجد ما يشاء من نعمة وثراء .. حتى كانت هذه الكارثة فأسلم سعد وولى مدبرا)

(٩٩) الجهاد ١٩٢٥/٧/٢٥ ، جاء فيه الكثير من مظاهر الهجوم العنيف على الوفد والوفديين (ابطال سيشل وابطال الماظة وابطال المحاريق .. الخ) .

يمكن مهما تكن درجة العداوة أن يصل الأمر بطه حسين الى اختطاط هذا الخط العنيف جداً فى هذا الهجوم .

على أن موقفه الحزبى كلفه ثمنا غاليا حين أخرج كتابه (فى الشعر الجاهلى) ، فلنر صورة أخرى من صور علاقاته الحزبية فى الأزمة التى تعرض لها عام ١٩٢٦ .

لم تكن الخصومة الحزبية وحدها هى التى أثارت الضجة التى دارت حول كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، لكنها كانت أهم هذه الأسباب التى دفعت بصاحبها الى طريق الخصومة الحزبية ومهاتراتها .. ففى مايو ١٩٢٦ صدر كتابه (فى الشعر الجاهلى) ، وبدأت تتنامى ردود أفعال عنيفة سواء عند المحافظين أو عند الصحف المعادية له فى الجانب الحزبى(١٠٠) .

ونحن لا يهمنا هنا ردود الأفعال الدينية او الحزبية ، او مناقشة أفكار الكاتب التى

(١٠٠) قرار النيابة فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) محمد نور رئيس نيابة مصر ص ١ ، دار الوثائق القومية ، التماسات جماعية محفظة ٦ ، الاتحاد ٢٦/٥/١٦ .

(فى البداية يقدم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالى بالأزهر للنائب بأن طه حسين ألف كتابا له « طعن صريح فى القرآن الكريم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوى الكريم » ، أعقبه أن أرسل عددا كبيرا من رجال الدين الى الأزهر مطالبين « بوضع حد لهذه الفوضى الالحادية خصوصا التى تبث فى التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم » فارسل شيخ الجامع الأزهر الى النائب العام ليبلغه عن كتاب كذب فيه صاحبه على حد قوله « القرآن صراحة وطعن فيه على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى نسبه الشريف » ، وقد طالب فيه تقديم المؤلف الى المحاكمة .

وتحول رد الفعل العنيف من الأزهر الى البرلمان ، ففى اول سبتمبر من العام نفسه اعلن الشيخ القاياتى عضو مجلس النواب عن عزمه على استجواب رئيس الوزراء ـــ عدلى باشا فى هذا الوقت ـــ بشأن الكتاب فبذلت عدة مساع لحمله على الاستبدال بالاستجواب سؤال يكون الرد عليه كتابة ، ولم يرد رئيس الوزارة ، فتقدم فى نفس الشهر عبد الحميد البنان عضو مجلس النواب ببلاغ الى النائب العام ذكر فيه تهمة طعن فى الاسلام « بعبارات صريحة واردة فى كتابه » .

وقد صحب هذا كثير من هياج الصحف فى لهجة اغلبها معارضة ضد طه حسين وكتابه .

عدت من قبيل الكفر أو الإلحاد أو الطعن فى الدين ، خاصة وأن رئيس النيابة انتهى من التحقيق فى القضية الى نتيجة هامة تقضى بحفظ الأوراق[١٠١] ، ولكن ما يهمنا هو الاتهام الذى وجهه اليه خصومه من الحزب المضاد ـــ حزب الأغلبية ـــ ، ولعبت فيه الأهواء السياسية دورا كبيرا .

دارت معركة عنيفة فى الصحف استمرت أكثر من ثلاثة شهور متوالية وتجددت بعدها مرات كثيرة كلما سمحت الظروف الحزبية بذلك ، كما أثيرت الأزمة فى مجلس النواب أكثر من سبع مرات بين عامى (٢٦/١٩٥٠) وتعددت المواقف بالنسبة إلى الجامعة أو إلى الوزارة ، وخرج على اثرها عديد من الكتب التى تهاجم الكاتب وتفند آراءه ، وان كان يلاحظ أنها ، جميعا ، لم تستطع ان تتفهم النتائج التى توصل اليها ، كما أنها ـــ فى أغلبها ـــ لم تقترب من مادة الكتاب الأصلية[١٠٢] .

(١٠١) قرار الاتهام ، السابق ص ٣٢ ، وقد جاء فى نهايته ما نصه :
« .. وحيث انه مما تقدم يتضح ان غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين بل ان العبارات الماسة بالدين التى اوردها فى بعض المواضع من كتابه انما قد اوردها فى سبيل البحث العلمى مع اعتقاده ان بحثه يقتضيها .
وحيث انه من ذلك يكون القصد الجنائى غير متوفر (ولذلك) تحفظ الأوراق اداريا .

(١٠٢) قدم طه حسين عديدا من **الاستنتاجات والنتائج** التى لم يستطع المحافظون قبولها : انظر :
The Middle East journal (1950) Kitchen, H.A. Al Ahram P 157-158 Charhes Adams c., islam and Modernism P. 258.
ايضا د . عفاف لطفى ، السابق ، ص ١٥٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، وقد كان منهج طه حسين كما صرح هو (انى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من اصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . اريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استخدمه (ديكارت) للبحث عن حقائق الاشياء فى اول هذا العصر الحديث . والناس جميعا يعلمون ان القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وان يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ..) الشعر ، ص ١١ وقد صدر للرد عليه **عديد من الكتاب من امثال** : نقد الشعر الجاهلى لمحمد فريد وجدى ، نقض الشعر الجاهلى للشيخ الخضر حسين ، تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعى ، الشهاب الراصد على الشعر الجاهلى لمحمد لطفى جمعة ، النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى لمحمد احمد الغمراوى . ، وقد هاجمته كل الصحف عدا (السياسة) وان كان يحمد لبعض الكتاب مثل العقاد وفكرى اباظة ومحمود عزمى وسليمان فوزى ان دافعوا عنه بشكل غير مباشر حين دافعوا عن حرية الرأى فى وقت كانوا ينتمون فيه الى أحزاب أخرى .

وتفصيل ذلك انه بمجرد أن نشرت صحيفة (السياسة الأسبوعية) لسان حال الأحرار فى عددها الأول مقدمة الكتاب وأبانت أن الكتاب سيصدر فى الأسواق قريباً[١٠٣] ، حتى هاجمت الكتاب وصاحبه كل الأقلام التى كتبت فيما بعد[١٠٤] ، ولم يدافع عن المؤلف فى الأمر قط غير صحيفة السياسة فى مواجهة كل صحف الوفد التى أفسحت صفحاتها لنشر كل المقالات التى لم تكن ردًّا على الكتاب بقدر ما كانت هجوما عنيفا عليه ، فصحيفة (الأهرام) التى كانت تعرف بميلها الواضح للوفد وجهت هجوما عنيفا على الكاتب والكتاب حين كتب فيها محمد عبد المطلب وعبد المتعال الصعيدى ، كما تتصدى (كوكب الشرق) الوفدية لقيادة الهجوم فتضيف إلى عامل الخلاف السياسى عامل إستيعاب الرأى العام المعروف بتدينه ومحاولة استغلال لعواطف السواد على اعتبار أن « الوفد الحزب الجماهيرى المعبر عن الأغلبية »[١٠٥] ، وهو ما يؤكده أن طلبة الأزهر حين قاموا بمظاهرة توجهت إلى البرلمان وهى تهتف بسقوط طه حسين ، فان سعد زغلول — وقد كان رئيس البرلمان وزعيم الأغلبية الوفدية — يقف خطيبا فيهم ويقول ضمن ما يقول :

« ان مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها ، هبوا إن رجلًا مجنوناً يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شيئا من ذلك : أن هذا الدين متين وليس الذى شك فيه زعيم ولا إمام حتى نخشى من شكه على العامة .. فليشك ما شاء .. **ماذا علينا اذا لم يفهم البقر** »[١٠٦] .

(١٠٣) السياسة الأسبوعية ، ٢٦/٥/١

(١٠٤) هوجم من كثيرين من امثال : الشيخ علام المدرس بدار العلوم فى السياسة الأسبوعية ٢٦/٥/٨ ، الشيخ محمد عبد المطلب فى اهرام ٢٦/٥/٢ ، عبد المتعال الصعيدى اهرام ٢٦/٥/١٢ ، شكيب ارسلان فى كوكب الشرق ٢٦/٦/٢ ، عبد القادر حمزة ومصطفى الرافعى فى البلاغ الأسبوعى ٢٦/٦/١٦ ، ومحمد رشيد رضا فى المنار اكثر من عدد .

وقد استمر الهجوم عليه فيما بعد لسنوات ، يغذى هذا الهجوم الخلاف السياسى : كوكب الشرق ١٥ — ٩ ، ١٨ — ١٠ ، ١٤ — ٢٦/١١ ، روزا اليوسف ٢٢ — ٩ — ٢٦ ، الأهرام ١٦ — ٩ ، ٣ — ٢٦/١١ ، السياسة الأسبوعية ٢٦/١٠/٢٣ ، السياسة ٢٦/٩/١٤ ، الكاتب المصرى ٤٧/٣ ، الوادى ٤٧/٣/٢٨ ، الاهرام ٤٧/٣/٢٨ ، السياسة الأسبوعية ٤٧/٤/١٥ ، الجمهورية ٥٧/٩/٢٤ .

(١٠٥) مختار التهامى ، السابق ص ١٧٥

(١٠٦) كوكب الشرق ، ٢٦/٥/١٧

وتنشر كوكب الشرق العديد من المقالات التى تهاجم المؤلف وحزبه ، وهو نفس الموقف الذى تتخذه جريدة (البلاغ) ورئيسها عبد القادر حمزة[١٠٧] ، كما تفسح صدرها للكتاب من خارج الجريدة الوفدية لمصطفى صادق الرافعى أشد أعداء طه حسين وأكثرهم غلوًا فى كراهيته له ليتهمه بأنه اشد الناس على العرب والاسلام .

وقد دافع طه حسين عن نفسه أول الأمر وهاجم جمود الشيوخ[١٠٨] ، وما لبث أن أحس خطورة الموقف بعد اتهامه فى دينه من أعلى سلطة دينية فى البلاد ، وخشى هياج الرأى العام ، فبدأ تراجعه بأن ارسل الى رئيس الجامعة — لطفى السيد — بتاريخ ٢٧ مايو برسالة يعلن فيها بأنه قرر وضع النسخ الباقية من كتابه (فى الشعر الجاهلى) تحت تصرف الجامعة[١٠٩] ، وهو ما تم عنده ، بالفعل ، فاتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ أخرى فيما بعد ، فضلا عن أنه أرسل الى مدير الجامعة أيضا خطابا يثبت فيه اسلامه وينفى تعمده اهانة الدين وقد حاول فيه ان يقدم استقالته وان رفضت الجامعة[١١٠] ، غير ان المعركة لم تكن قد حسمت بعد .

ويبدو ان صحيفة حزب الأحرار الدستوريين لم تواصل دفاعها عن طه حسين ، فقد كان الحزب الذى ينتمى اليه يواجه ازمة فورية مع الوزارة القائمة حينذاك (وزارة زيور) ، ويمكن تلخيص بواعث تخلى صحيفة حزب (الأحرار) عنه فى ثلاثة بواعث رئيسية .

الباعث الأول : أن حزب الأحرار كان قد تدخل من قبل فى ازمة على عبد الرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحكم) اغسطس من العام الماضى ودفع ثمنا غاليا لهذا ، فبعد حكم هيئة كبار العلماء التى تكونت من الأزهر « باخراج على عبد الرازق احد علماء الأزهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الشرعية .. من زمره العلماء »[١١١] ،

(١٠٧) البلاغ الأسبوعى ٢٦/٦/١٦ ، كوكب الشرق ٢٦/٦/٢ ، ٢٧/٦/١٧ ، البلاغ ٥ ، ٩ ، ١٩٢٦/٥/١٦ .

(١٠٨) السياسة الأسبوعية ٢٦/٥/٨ ، ٢٦/٥/١٦

(١٠٩) مضابط مجلس النواب ، جلسة ٢٨/٢٤ ، مارس ٣٢ ص ٣٥٤

(١١٠) السابق ، جلسة ٢٦/٩/١٣ ص ٩٥٥/٩٥٤ ، ايضا خطاب طه حسين بدار المحفوظات (ملف طه حسين الخاص) .

(١١١) السياسة ١٩٢٥/٨/١٣

كانت صحيفة (الأحرار) قد قامت بهجوم عنيف على الأحزاب الأخرى ، واخذت تدافع عن على عبد الرازق ولم تجد من يقف الى جانبها غير صحيفة (كوكب الشرق) فى مواجهة الصحف الأخرى خاصة صحف (الاتحاد) و (اللواء) و (الأخبار) ، وقد حدث ان عبد العزيز فهمى وكان رئيس حزب الأحرار ووزير الحقانية قد اعترض على الحكم فما كان من يحيى ابراهيم إلا أن ذهب إلى القصر وعاد باقالة عبد العزيز فهمى من الحقانية مما دعا بحزب الأحرار الى ان يثور لكرامته ويعلن الثقة التامة برئيسه[١١٢] .

وعلى هذا النحو ، أحجم حزب الأحرار هذه المرة أن يواصل تأييده لأزمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) كيلا يعانى مما سبق أن عانى منه .

ويرتبط هذا بالباعث الآخر : من أن جوهر الأزمة كان يقترن بمعاداة الملك نفسه ، فان ازمة (الاسلام واصول الحكم) اثارت حقيقة ان صاحب الكتاب حاول ان يدلل به على ان الخلافة نظام ليس من صميم الاسلام فى شىء « وفكرة كهذه ظهرت فى وقت كان فيه مصير الخلافة لا يزال يشغل المسلمين كان لابد ان تثير الرأى العام المصرى ، وان تحدث حدثا فى السياسة المحلية ، خاصة وان الملك فؤاد كان يطمع فى الخلافة لنفسه وان صاحب البحث من أسرة بارزة فى حزب الأحرار الدستوريين »[١١٣] .

وحدث ما حدث من خروج الوزراء الدستوريين من وزارة زيور التى اقتصرت على الاتحاديين والمستقلين وكانت ذات ميول وفدية معادية للأحرار ، ومن هنا ، فان أزمة (الشعر الجاهلى) جاءت مرة اخرى لتهدد السياسة الملكية فى وقت لم يكن ليسمح الملك فيه بتطور الأزمة فى غير صالحه خاصة اذ جاءت الأزمة الثانية من داخل الأحرار أيضاً .

أما السبب الأخير : فهو يعود إلى طه حسين خاصة ، إذ مال بعض النواب الدستوريين إلى « التبرؤ من طه حسين لما كان يكتبه مؤخرا فى حزب الاتحاد »[١١٤] ، وعلى الرغم من أن طه حسين فى موقفه من حزب الاتحاد لم يكن يريد سوى أن يأمن جانب الملك ويهاجم الوفديين هجوما عنيفا ، فان ارتباط هذا الحزب بالملك فى وزارة

(١١٢) احمد شفيق ، الحولية الثانية ١٩٢٥ ص ٨٠٧

(١١٣) احمد عبد الرحيم مصطفى ، السابق ص ١٧١

(١١٤) احمد زكريا ، حزب الأحرار ص ٣٦٨

ملكية هى وزارة زيور جعل حزب (الأحرار) يتردد كثيراً فى تأييد صاحب (الشعر الجاهلى) ، وهو ما يفسر تقاعس نواب الحزب فى الدفاع عنه حين أثيرت الأزمة فى مجلس النواب ، وانما اقتصر الدفاع على قادة الحزب فقط .

وقد ترك متل هذا الموقف فى فكر طه حسين ندوباً عميقة أثرت فى موقفه من الحزب فيما بعد واذ بدت المعركة فى الصحف تحسم لصالح الوفديين ، فانها كادت تحسم لصالحهم أيضا فى مجلس النواب لولا أن الائتلاف كان قائما بين الأحرار والوفد ضد وزارة زيور التى حاولت بدون ما اعتبار للكرامة الوطنية انقاذ ما يمكن انقاذه ، فأخذت المعركة خطا آخر .

أثار بعض النواب فى أول الجلسة القضية ، فالكتاب المثار تضمن طعنا صريحا فى الدين ، وان تصرف صاحبه يعد « مخالفا للذوق فانه مدرس بالجامعة المصرية وهى معهد اميرى ليعيش من اموال الحكومة الممثلة للأمة فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التى دينها الإسلام »[1] ، إلى جانب التنديد بشراء الجامعة للكتاب ، فهو مال الأمة لايجوز أن يدفع أجرا ، وهو ما أيده عدد كبير جداً من النواب ، وقد رد وزير المعارف على الاستجواب برأى آخر مؤداه أنه يطمع « أن تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمى وليس معنى هذا أن تكون كراسى الأساتذة منابر تلقى منها المطاعن فى اى دين من الأديان »[2] .

وقد زادت هوة الخلافات فى المجلس بين عدلى الذى كان رئيسا للحكومة وبين سعد الذى كان رئيسا للمجلس ، فبينما رأى المجلس ضرورة فصل طه حسين واحالته الى النيابة للتحقيق معه فيما نسب اليه ، رأت الحكومة الإكتفاء بعدم توزيع الكتاب ومصادرة نسخه ، وقد شهدت قاعة المجلس مناقشة حامية جرت بين سعد وعدلى تمسك كل منهما برأيه الى درجة أن كادت تطرح الثقة بالحكومة لولا تدخل البعض مقترحاً فض الجلسة الى موعد آخر[3] .

(١) مضابط مجلس النواب ، الهيئة النيابية الثالثة ، مجموعة مضابط دور الانعقاد الاول ، العادى ، مضبطة الجلسة ٥٥ فى ٢٦/٩/١٣ ص ٥٩٣

(٢) السابق ص ٩٥٤

(٣) الهيئة النيابية الثالثة ، السابق ، ٩٥٩/٩٥٧ ، ايضا : مذكرات سعد زغلول ، دار الوثائق ، ص ٣٠٠٧ كراسة ٥٣ ، ايضا راجع تقرير هندرسون . Foruiz office FO. 407 ايضا : احمد

وعلى أثر إنصراف سعد قصد عدلى ومعه عدد كبير من اعضاء حزب الأحرار الى بيت الأمة ، وظل الجميع هناك مع سعد الى ما قبل منتصف الليل بقليل أمكن خلالها تسوية المسألة لصالح طه حسين(٤) .

وقد خلفت الأزمة مسألتين هامتين : احداهما ، تتعلق بموقف سعد زغلول من صاحب الكتاب ، وثانيتهما ، تتعلق بموقف حزب الأحرار من طه حسين وحرصهم عليه .

أما المسألة الأولى ، فقد ظهر ان موقف سعد من مؤلف الكتاب لم يكن فى المقام الأول كما تصوره طه حسين ، فلم يعد الى موقف خاص ، وانما الى ان علاقة سعد زغلول مع حكومته كان يحكمها ظروف خاصة ، فسعد زغلول ، كما تؤكد التقارير البريطانية على لسان مندوبها فى مصر « لم يكن يحس فى هذا الموقف ـــ بعد ازمة السردار واستقالته ـــ أنه قوى الى درجة يتمكن معها من مواجهة الحكومة ، لقد تصور انه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التحاشى للاشتباك مع رئيس الوزراء ـــ عدلى » ـــ(٥) ، لقد حاول ان يظهر لخصومه انه يستطيع مواجهتهم فى اية صورة وفى أى مركز اضطر اليه .

فبينما تؤكد العديد من المصادر انه وقف ضد طه حسين لاعتقاده فى عدم صحة ما وصل اليه المؤلف من نتائج(١١٥) ، يعتقد طه حسين نفسه انه وقف منه هذا الموقف لأنه كان يواصل الهجوم عليه ليل نهار الى درجة محاكمته بايعاز من سعد فى وزارته الأخيرة ، او على حد قول طه حسين انه أغفل أسمه اثناء ذكر عديد من أسماء كانت وراء نهضة مصر كما أشرنا .

أما مسألة من وقف بجانبه ، فقد كان واضحا انه لم يؤيده غير (الصفوة) التى

شفيق ، الحولية الثانية السابق ٢٦ ص ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ايضا : لاشين ، سعد زغلول ج ٢ ص ٤٨٨/٤٨٩

(٤) احمد شفيق ، السابق ، ايضا : كوكب الشرق ٢٦/٨/١٥ ، البلاغ ٢٦/٩/١٥

(٥) تقرير هندرسون ، Foregn offfice-pullic record office-keue Gordens, Fo. 407 (203 Hnob 195).

(١١٥) الجزيرى ، سعد زغلول ، ص ٣٧ ، وايضا : كوكب الشرق ٩/١٥ ، ١٠/١٨ ، ٢٦/١١/١٤ ، روز اليوسف ٢٦/٩/٢٢ ، الاهرام ٩/١٦ ، ٢٦/١١/٣ ، السياسة الاسبوعية ٢٦/١٠/٢٣ ، السياسة ٢٦/٩/١٤ ، ايضا : لاشين ، ص ٤٨٨

رضى الانتماء اليها من زمن بعيد ، فلطفي السيد أستاذه كان رئيسا للجامعة وقتئذ ، والمع أعضاء حزب (الأحرار) ، وعدلى باشا وكان رئيسا للوزراء رفض توقيع جزاء عليه او فصله او الغاء وظيفته ، وسعى معه رشدى حتى تمكن احمد ماهر من رفع جلسة مجلس النواب ضده بعد عشر دقائق من تأزم الموقف ، وما اعقب ذلك من مصاحبة عدلى لسعد حتى انتهت الأزمة .

وثروت ، وقد كان عضوا بمجلس ادارة الجامعة طلب منه ان يثبت للعاصفة حتى تمر بسلام ، وألا يجيب خصومه حفاظا على كرامة أستاذيته للجامعة وكرامة العلم الذى يمثله[116] خاصة وقد اهدى اليه هذا الكتاب ، ولولا حماية ثروت لطه حسين فيما بعد « لكان دفع ثمناً فادحاً لهذه الجرأة »[117] ، كما أن على الشمسى وقد كان وزيرا للمعارف اثناء الأزمة قد وقف بجانبه لإيثار الرأى الحر كما يقول ، ويبدو انه كان ضعيف الوفدية رغم انه كان وفدياً ، وهو الموقف الذى شاركه فيه عدد آخر من الكتاب الذين وان لم يكونوا من حزب الأحرار إلا أنهم كانوا من انصار الفكر الحر مثل عباس العقاد الذى كان كاتب الوفد الأول[118] .

ومما سبق ذكره ، اذا كان عدد من أعضاء حزب الأحرار قد آثروا الصمت ، فان عديداً من الصفوة الفكرية والارستقراطية من كوادر الحزب وقفت بجانبه حتى انتهت الأزمة .

وقد أُثيرت مسألة (فى الشعر الجاهلى) أكثر من مرة فيما بعد خاصة فى عهد وزارة صدقى ، وهو ما سنصل اليه فى حينه ، غير أن أهم ما يمكن الاشارة اليه هنا أن أزمة (فى الشعر الجاهلى) احاطتها الخصومة الحزبية أكثر من الحيدة والغيرة الدينية وإعمال العقل الحر .

ومهما يكن ، لا يمكن أن نجاوز أزمة (فى الشعر الجاهلى) دون أن نقف عند سؤال هام يرتبط بطبيعة طه حسين ومدى قدرته على اثارة القضايا ، وهو :

هل كان طه حسين يدرك ان كتابه سيثير زوبعة سياسية ؟

(١١٦) سامى الكيالى ، ص ٥٩

(١١٧) Oxford university press, London new york, jamel Mohmed Taronty 1960 p 118.

(١١٨) عبد العزيز شرف ، طه حسين ، ص ١٦٥

هذا سؤال هام يجب الإجابة عنه خاصة وأنه كان يوضع إمكاناته العلمية فى خدمة أفكاره السياسية بوجه دائم ..

نعتقد أن طه حسين كان متيقنا مما يكن أن يثيره مثل هذا الكتاب من أزمة تهتبلها الخصومة الحزبية وتستفيد بها ، وهو ما عمل له طويلا ..

واعتقادنا مبنى على الدوافع الآتية :

لم تكن العلاقة بينه وبين سعد ، كما رأينا ، لتسمح له باخراج مثل هذا النوع من الدراسات ، ومع ذلك ، فهو لم يستنكف عن اخراج هذا العمل .

ولقد كان بينه وبين سعد أكثر من موقف سواء منذ اتهم من قبل أحد أعضاء الجمعية التشريعية بالاتحاد وطُلب من رئيس قسم الاقتراحات ، وكان سعد زغلول ، قطع الحكومة معونتها عن الجامعة ، ثم هذا الهجوم الذى كان يصعده ضده منذ بداية العشرينات والذى أشرنا إليه من قبل إلى درجة أنه حقق معه بناء على طلب رئيس الوزراء أثناء وزارته .

وهذا المناخ الخاص والعام لم يكن ليخفى على طه حسين قط ، وقد كان يدركه تمام الإدراك ، وقد وصفه فيما بعد ، أثناء رحيله بعد هذه الأزمة مباشرة إلى فرنسا بقوله :

(كنا يومئذ أشد ما نكون فى مصر فرقة وانقساما ، وكانت الخصومة السياسية عنيفة منكرة ، وكانت الحكومة القائمة قد أمرت بالتحقيق مع السياسة وكتابها . وكانت النيابة قد دعتنى وسألتنى فأبيت أن أجيب واضطرت الى وقف التحقيق)[١١٩] .

لم تكن الفترة على المستوى الحضارى لتسمح باثارة مثل هذه القضايا ، فالفترة التى اعقبت ثورة ١٩١٩ كانت ثورة ارتفاع المد الغربى الذى سماه احد اقطاب السلفية حينئذ (موجة الالحاد والاباحية فى مصر)[١٢٠] ، فاذا كان من رواد هذه الموجة لطفى السيد وهيكل وطه حسين ، كان يقف فى المعسكر الآخر عدد كبير جدا من السلفيين من أمثال الشيخ حسن البنا والسيد محب الدين الخطيب ، ومحمد خضر حسين ، ومحمد

(١١٩) فى الصيف ، السابق ، ص ٣١/٣٣

(١٢٠) حسن البنا ، مذكرات الداعى والداعية ص ٥٤

احمد الغمراوى ، وأحمد تيمور ، وعبد العزيز محمد ، ورشيد رضا ..وكثيرين ، بل ان عبد العزيز جاويش استاذه ، صاحب التأثير الفكرى عليه كان ينتمى لهذا التيار الأخير .

وقد كان طه حسين أكثر من غيره معرفة بهذا المناخ ، وما يمكن أن يثيره كتاب مثل كتابه من موجة من العداء والهجوم .

ويؤكد هذا ويؤيده ، ان هذه الفترة التاريخية شهدت كثيراً من الأحداث التى التقت فى التيار السلفى ، من اهمها ، كان الغاء مصطفى اتاتورك فى تركيا الخلافة(١٢١) ، ومن ثم ، محاولة الملك فؤاد الافادة من هذا المناخ ، وهو ، ما سنصل اليه بشكل اعمق فيما بعد .

وعلى هذا ، يمكن أن ننظر إلى صدور كتاب (فى الشعر الجاهلى) فى فترة تاريخية مضطربة ، أراد فيها الملك أن يستحوذ على الخلافة ، ولهذا ، أراد ان يحتفظ بالأشكال التقليدية فى السلطة خاصة المسائل الدينية منها ، وهنا ، يمكن أن ننظر اليه من وجهة نظر داخل اطار أوسع فى سياق المعركة الكبيرة بين قوتين (السلطة بين الملك الذى اراد ان يحتفظ بالمميزات الملكية العادية التى شغف بها ، وبين السلطة التقليدية للسياسيين الغربيين)(١٢٢) الذين كانوا يدينون بالفكرة الغربية التى تعارض سلطة الملك واحلامه .

وقد كان هذا قمينا بأن يدفع الملك إلى خط مضاد لطه حسين وكتابه الجديد ، كأحد رموز الفكر الغربى الذى يحاول تحديد الملكية من وجهة نظره .

ومما يؤكد على استحالة صدور كتابه وتيقنه من ذلك ، انه عرف وعاين من وقت طويل تلك الضجة التى ارتفعت بعد إثارة قضية على يد على عبد الرازق ، وشاركت فيها كل الصحف الحزبية والأجنبية ، وتصدرت صحيفة (السياسة) خاصة المقالات التى تدافع عن الشيخ على عبد الرازق ، ومراجعة هذه المقالات يؤكد أن عدداً كبيراً منها كتبه طه حسين وان لم يُوقّع عليه صراحة ، دفاعاً عن حرية الرأى طوراً ، وعن حرية الحزب فى تغيير أحد اعضائه طوراً آخر ، وان كان الشيخ عبد الرازق نفسه ينفى انه يخدم مصالح حزب سياسى بعينه « لست عضوا فى أى حزب وقد لبثت دائما بعيدا عن المعارك

(١٢١) Middle East journal (1951) ziddeh, j. pp. cent looks on interpretation of Islam, pp 505-506

(١٢٢) Vatikiotes. p.y the modern history of Egypt, 1909, p 302

الداخلية وعن كل نشاط سياسى »[١٢٣] .

وقد ذكر طه حسين ما جرى لعبد الرازق فى مقالة خاصة له فى دفاعه عنه اثناء أزمته بما يعنى وعيه بما حدث ، ووعيه بالصلة الوثيقة التى كانت بين الكتابين (الاسلام واصول الحكم) و (فى الشعر الجاهلى)[١٢٤] ، ومن ثم ، بالتبعية ، لما يمكن ان يحدثه هذا الكتاب الاخير .

ويؤكد هذا أنه حينما صدر كتابه وأثار ما أثاره ، يكتب فى صحيفة (السياسة الأسبوعية) ضاربا المثل بما حدث للشيخ على عبد الرازق بنفسه عندما اصدر كتابه[١٢٥] ، وفى مقارنة يظهر صدق هذا الرأى .

وادن ، كانت تجربة الشيخ على عبد الرازق فى وعيه بشكل كامل .

ويمكن ان نضيف الى ذلك ان طه حسين كان يعلم تماما مدى ما سيواجهه ، من الفئات المحافظة وخاصة من الأزهر حين ينشر كتابه .

وتفسير هذا أن الصلة بينه وبين الأزهر صلة تعود إلى فترة دراسته بالأزهر ، ففى الجزء الأول من الأيام ، يعايش فترة انتمائه نحو الجامعة فى أول نشأتها ، وهو لم يزل ينتمى الى الأزهر ، وهو يلخص هذه الفترة بأنها فترة (الصراع بين القديم والجديد) ، وهو المعنى الذى يترجمه لنا فى اعماله الأخرى متوقفا كثيراً عند خلافه مع شيوخ الأزهر إلى درجة أنه رسب فى (عالمية)[١٢٦] هذا الجامع العتيد .

وهذا المعنى نجده فى عديد من أعماله حتى (فى الشعر الجاهلى) الذى راح فيه يصور هذا الصراع بين القديم والجديد على انه صراع بين مذهبين : الأول يدع كل شيء

(١٢٣) احمد شفيق ، السابق ص ٧٥٧ ، ايضا : السياسة ١٤/٨ ، ١٨/٩

(١٢٤) توجد مقارنة فريدة للكتابين واثرهما السياسى فى كل من :
Middle East journal, 1951, p 506 oxford university, Ibid p 118

(١٢٥) السياسة الأسبوعية ١٧/٧/٢٦ ، يقول (ومانسى احد ان قاضيا شرعيا فصل من منصب القضاء وان وزيرا اقيل من الوزارة فى سبيل كتاب لم يرض عنه رجال الدين ، وما نسى احد ان كاتب هذا الفصل قد كاد يلحق به القاضى الشرعى لأنه كتب كتابا لم يرض عنه رجال الدين فأملوا على الحكومة ارادتهم فيه وكانت ارادة قاسية مضحكة) .

(١٢٦) انظر اكثر من موضع فى (الأيام) ، ج ٢ ص ١٧٢ ، ج ٣ ص ١١ ، ج ٣ ص ٢٠

حيث تركه القدماء لايناله بتغيير ولا تبديل ولا يمسه فى جملته وتفصيله إلا مساً رقيقا . المذهب الثانى فيقلب العلم القديم رأسا على عقب . وأكثر إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئا كثيراً »[١٢٧] .

واذا كان المذهب القديم هنا هو مذهب علماء الأزهر ، فان المذهب الجديد هو مذهب علماء الغرب كما تأثر به هذا الوقت .

وليس من المصادفة فى شيء ان يكتب الجزء الأول من « الأيام » عقب رحيله الى فرنسا مباشرة على اثر الضجة التى احدثها كتابه (فى الشعر الجاهلى) ، فقد كانت الايام « استجابة للهموم الثقال التى كان يحس بها وقتذاك ابان الاضطهاد الذى وقع عليه من اجل تحرير الفكر باصطناع الشك فى الروايات القديمة التى جعلها المحافظون فى كل مكان المسلمات والمقدسات والبديهيات »[١٢٨] .

لقد كانت آراؤه تثير هذه المدرسة المتدينة داخل الأزهر وخارجه ، فبينما هاجمته الفئات المتدينة فى الجامعة ، فان هذه الفئات من الكُتاب خاصة استطاعت نقل اراثه الأدبية تلك داخل البرلمان كما فعل كاتب مثل مصطفى صادق الرافعى الذى استطاع نقل اثر كتاب (الشعر الجاهلى) الى الصعيد الرسمى فى البرلمان والوزارة مما انتهى الأمر بطه حسين الى سحب كتابه من السوق وكتابة (توبة) نشرت فى الصحف »[١٢٩] .

ويمكن ان يضاف الى الموقف العام موقف الحزب الذى انتمى اليه ، فالمعروف ان

(١٢٧) فى الشعر الجاهلى ، ط ١ ص ١١

(١٢٨) كانت ازمة (الشعر الجاهلى) عام ٢٦ وقدم اول بلاغ الى النائب العام ٣٠ مايو ٢٦ بينما نشر الجزء الأول من (الأيام) مسلسلا اعتبارا من ١/١٢/٢٦ وهو ما يعنى ان الشعر الجاهلى يحتوى على هجوم حاد على المحافظين الذين كانوا السبب الرئيسى فى الهجوم عليه ، يقول د . عبد الحميد يونس بأنه (تعبير عن موقف نفسى خاص استتبع بالضرورة تداعى صور الطفولة وبواكير الصبا ، فانتزعها من اعماق الذاكرة ، وصورها بما يناسب الموقف النفسى ، وهو الاكبار من شأن الفكر الانسانى والالحاح على حريته والاستخفاف ــ بل الاستعلاء ــ على المحافظة والسلفية والجمود) وهو ما يصلح للتفسير على اساس اقترانه بأزمة الشعر الجاهلى .
(انظر د . عبد الحميد يونس ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، ص ٦٤)

(١٢٩) انظر على سبيل المثال : ج ٣ من (حديث الأربعاء) ، وهو ما نجد انعكاسا له فى (فى الصيف) .

موقف الأحرار الدستوريين كان دائما بالنسبة للأزهر ورجاله موقفا متشددا ، وهو ما نجده فى صحف الحزب ومشاركته فى البرلمان من القضايا التى تتعلق بعلاقة الأزهر والملك على سبيل المثال ، ففى احدى الجلسات صاح احد النواب الدستوريين وهو يشير الى القصر (لا نريد أن يكون الأزهر تحت ادارة انسان كائنا كان)[١٣٠] .

ثمة دافع آخر يتعلق بالصحافة السياسية .. فهو حين يزعم انه (سيرضى هذه الطائفة من المستنيرين) كما قال فى بداية كتاب (الشعر الجاهلى) ، انما كان يتذرع بالمنهج العلمى ليرضى طموحه وذلك بالاستفادة من الصحافة خاصة السياسية .

وخلال عمله بالصحافة كان واضحا تماما انه كان حريصا على الدخول فى ثوب الأدب كلما عنَّ له ان يقول شيئا فى السياسة ، دائم التردد الى البحث العلمى كلما عنَّ له أن يعلن عن نفسه ويثير حوله من الضجيج ، وهو ، ما دفع البعض للقول ان « صلة طه حسين بالصحافة السياسية انما كانت بمثابة الاحتماء بمؤسسة تدفع عنه الخطر ، وقد دفع عنه حزب الأحرار الدستوريين خطر كتابه الشعر الجاهلى »[١٣١] .

ويمكن تفسير دلك بأن هناك فرقا كبيرا بين الأديب والأديب الذى يتلمس السياسة ، فرسالة الأول تنبع من داخله ، بينما رسالة الآخر تنبع من خارجه ، بمعنى ان التطورات الخارجية للأحداث هى التى كانت تدفع بطه حسين الى فرض نفسها عليه ، وقد فرضت عليه اهم عناصر هذه الأحداث : الصحافة سطوتها فلم يتمكن من السيطرة عليها ، فمضى فى تيار كل حرب انتمى اليه فى هذا الوقت : الوطن ، الأمة ، الأحرار .. والأكثر من هذا راح يغلو فى الانتماء للتعبير عن هدا الانتماء .

ويبدو أن طه حسين فى اول حياته الأدبية لم يجد مناصا من الخضوع لضرورة السياسة منذ علمه جاويش (الكتابة فى المجلات) ، فاذا صحيفة الهداية « لم تخل من جدل عنيف دفع اليه الفتى دفعا »[١٣٢] ، وما لبث ان انتقل ولاؤه الى لطفى السيد حين نشر له اول مقالة فى صحيفة سيارة فجعل يكتب فى الجريدة رغبة فى الكتابة احيانا ، وتقربا بها الى مدير الجريدة احيانا اخرى . وجعل مدير الجريدة يرضى عن فضوله

(١٣٠) جلسة مجلس النواب ٢٦/٨/١٤ ص ٤٥٦/٤٤١ ، ايضا : احمد زكريا ، الأحرار ص ١٩٩ .
(١٣١) انور الجندى ، طه حسين فى ميزان الاسلام
(١٣٢) الأيام ج ٣ ص ٢٤

ويغريه بالكتابة[١٣٣] ، فاذا به يعتنق أفكار لطفى السيد السياسية وينافح عنها طويلا .

وصفوة القول ، ان الصحافة السياسية دفعت به الى ان يستفيد بها فى خدمة افكاره ، ومن هنا ، فقد كان يدرك جيدا ان كتاباً مثل (الشعر الجاهلى) لابد وأن يثير موجة سيمتد أثرها الى بعيد ، وحين تنحسر تكون قد تركت خلفها تاجا ناصعا فوق رأسه ، ومن ذلك ، يمكن القول باطمئنان شديد ، أنه ، كان يحتمى دائما بمؤسسة جامعية حين يواجه السياسيين ، وهو فى هذا لا يهتم بحقيقة هامة هى أنه ما دام قد خلع رداء الجامعة فإنه أصبح سياسيا يجرى عليه ما يجرى على السياسيين الآخرين .

* * *

واستكمالا لعلاقاته الحزبية فى احزاب الأقلية ، فان ثمة موقفا من حزب آخر ــ حزب الاتحاد ــ لابد ان نقف عنده قبل ان نقف عند فترة تحوله الحزبى ، ففى العام الذى قدمه فيه سعد زغلول الى المحكمة فى القضية المتعلقة باهانة رئيس الوزراء ، كانت الأحداث تتنامى بين سعد زغلول والملك فؤاد مما يشير الى ان القطيعة فى طريقها الى الاستفحال[١٣٤] .

(١٣٣) الأيام ، السابق ص ١٩

(١٣٤) .. فى ١٥ نوفمبر ، تمت القطيعة ويبدأ الملك من هذا الوقت فى تكوين جبهة مناهضة للوفد ، فقرب الى القصر عددا من كبار شخصيات احزاب الأحرار والوطنى ، كما انشأ القصر من خلال حسن نشأت رئيس الديوان الملكى بالنيابة حزب الاتحاد فى يناير من عام ١٩٢٥ (وبذلك اصبح الملك وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد فى جبهة معارضة للوفد ولسعد زغلول)

وقد دفع الملك لاتخاذ هذه الخطوة ان كان الانجليز يؤيدونه ليستطيع مواجهة سعد والتدخل فى الحكم من آن لآخر .

وتتفاوت الآراء حول تكوين هذا الحزب (الاتحاد) ، غير انها تتفق جميعا على ان الحزب وليد ارادة السراى ، وقد جعل مسوغا لتأسيسه وسيلة لرعايته « الولاء للعرش » ويروى محمد حسين هيكل انه حين ذهب الى حسن نشأت ليستفسر منه عن نشأة الحزب اجابه ان الغرض منه هو احداث موازنة « فى البرلمان يستطيع القصر به ان يغلب احد الحزبين على الآخر ــ الأحرار والوفد ــ فيما يرى فيه مصلحة البلاد من غير حاجة الى حل مجلس النواب باجراء انتخابات جديدة » .

واذن ، لقد كانت هناك أسباب عديدة دفعت بطه حسين الى التورط فى الانضمام لحزب الاتحاد ، منها ، انه وقع فريسة دعوة الملك الى حزبه من ان الولاء للاتحاد يعنى فى الوقت نفسه الولاء للملك ، والذى يعنى بشكل ما ، التصدى لطغيان سعد زغلول وديكتاتوريته ، وقد كان هذا من اول اهداف الأحرار(١٣٥) .

ان محمد على علوبة على سبيل المثال ، وهو احد الوطنيين ينتمى الى الحزب الجديد لسبب واضح يبرره فى كتاباته من انه كان « لمنع طغيان سعد ذلك الطغيان الذى اثر فى ادارة الحكم وبسبب انحراف سير الحركة الوطنية .. (و) اتفقنا مع الاتحاد والمستقلين مؤملين ان نحيط بالملك فؤاد ونزين له السير فى الطريق السوى »(١٣٦) .

ومما سبق ذكره ، فان هدف الملك لانشاء حزبه انطلى على كثير من السياسيين ، اذ يستنتج من رأى علوبة وسواه ان انضمامه هو وغيره من اعضاء الأحرار أو غير الأحرار كان نكاية فى سعد أولا ، وتقرّباً من الملك ثانيا .

ولم يكن غريبا ان يحظى هذا الحزب فى أول نشأته بكل هذا التشجيع فى وقت كان فيه زعماء الأحرار الدستوريين راضين عنه تماما وكذلك عدد من رجال الوفد الى الانضمام له بل كانوا من (أول المنضمين)(١٣٧) .

وقد قرب طه حسين من الاتحاد ، وجعل دخوله اليه أو تأييده له ميسورا ان الحزب نفسه الذى راح يصرخ بأن « غايته هى (الولاء للعرش) متهما الوفد وقادته بتهمة عدم الولاء والاحترام لمليك البلاد » ، وهى سياسة زكية من الوفد دفعت كل الأحزاب

(انظر : حسن يوسف ، القصر ودوره فى السياسة المصرية ص ١٨٢ ، ايضا : Marlow J., Anglo-Egyptain rglations-p 273.

ايضا : عبد الرحمن الرافعى ، اعقاب الثورة ج ٣ ص ٢١٣ ــ ٢١٥

ايضا : مذكرات ، ص ١٨٨ ، احمد شفيق ، السابق ص ٥ ، ٢٨ ، ٢٩

(١٣٥) عثرنا ضمن محافظ عابدين ، ملف (حزب الاتحاد) رقم ٢١٨ على تلغرافين عن دفع تأمين للحزب احدهما بتوقيع (طه) ، وثانيهما بتوقيه (حسين) ، ولا نعرف بالتأكيد ما هى العلاقة ، اذا كانت ثمة علاقة ، بين دفع تأمين حزب الاتحاد واسم طه حسين .

(١٣٦) علوبة ، ذكريات ص ٣٦٤

(١٣٧) يونان لبيب ، تاريخ الوزارات ، ص ٢٨٤

الأخرى الى التسابق الى اعلان ولائها للملك[١٣٨] .

اذن ، تأييد الملك الذى كان يعنى فى الوقت نفسه . كراهية سعد .. كان السبيل الأول ، أما ثانى الأسباب التى دفعت بطه حسين الى التورط فى الانتماء لحزب (الاتحاد) ما شهده من تأييد حزب الأحرار الدستوريين له تأييدا مطلقا .

وتفصيل ذلك ان السياسة راحت تنقل قول صحيفة (التيمس) حينئذ بأنه لا فرق بين الاتحاد والأحرار الا من حيث الأشخاص ، فاذا نجح اعضاء حزب الاتحاد فى الانتخابات ، فان الحزبين سيتحدان معا .. والأكثر من هذا ان عبد العزيز فهمى احد اعضاء الأحرار البارزين قبل العضوية الشرفية التى عرضها عليه حزب الاتحاد واعلن ان وجود حزب الاتحاد لا يمس مطلقا الحزب الدستورى ، فان « مبادئه معقوله ونحن الدستوريين نسلم بها وهى واردة صراحة وضمنا فى برامجنا .. ولا شك أن الفريقين يمتزجان عاجلا أو آجلا » .

ويمكن أن يضاف إلى جانب أن هيكل أحد أعضاء الأحرار البارزين هو صاحب القول ان « من زعماء الأحرار الدستوريين من ينصحون بعض رجالهم بالانضمام لهذا الحزب الجديد »[١٣٩] .

ومما سبق ذكره ، يبدو تماما ان المناخ العام السياسى فى هذا الوقت لم يكن ليتخذ موقفا معاديا للحزب الجديد ، فقد كان لتأثير الملك وللجهود الكبيرة التى بذلها بواسطة رجاله اثر كبير فى توطيد أركان الحزب الجديد .

وعلى الجانب الآخر ، فقد شهد طه حسين ان الكثيرين من رجال الوفد يتخلون عنه ويعلنون استقالاتهم من الهيئة الوفدية بحجة أن الوفد « غير موال للعرش » وإن كان

(١٣٨) عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول ، ج ٢ ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ايضا : الأهرام ٦ — ٧ ، ١ — ٢٥ — ٢٦ — ٣ — ١٩٢٥ ، والسياسة ٨ — ١ — ١٩٢٥ ، ايضا : كوكب الشرق ٢ — ١ ، ٦ — ١ ، ٩ — ١ ، ٢٤ — ١ ، ٢٣ — ٢ — ١٩٢٥ ، ايضا : احمد شفيق ، السابق ، ص ٢ — ٦
ايضا : السياسة ١٥ — ٢ — ١٩٢٥

(١٣٩) محمد حسين هيكل ، مذكرات ص ١٨٨

السبب الحقيقى غير ذلك[١٤٠] .

واذن ، فثمة تشابه كبير بين موقف طه حسين وموقف حزب الأحرار الذى انتمى اليه ، إذ تورط هذا الحزب منذ البداية لإرضاء الملك ، معتمداً على أنه بهذا يمكن أن يكسب الانتخابات الجديدة التى كان ينتظر نتائجها غير أنه ما لبث أن أدرك ، بعد فوات الأوان ، أن الملك اراد بحزبه الجديد الوقوف موقفا وسطاً بين هذا الحزب وحزب الوفد وان سمح له بالاشتراك فى وزارة زيور الجديدة بشكل مؤقت .

صفوة القول ، إن طه حسين إنتمى إلى حزب الاتحاد بدوافع عديدة منها ان خط حزب الأحرار كان يسير فى اتجاه تأييد الحزب الجديد ، كما كان يحرص على رضاء الملك الذى تبنى الحزب وربما كان الاغراء المادى الذى رأى انه سيحصل عليه من الانضمام لصحيفة حزب جديد سببا ثالثا[١٤١] ، دافعا به الانضمام اليه ، وأخيراً ما خيل إليه أنه سيتمكن بهذا الموقف الجديد من تدعيم موقفه ضد طغيان سعد زغلول ، وان كان التحليل الأخير يؤكد على ان طه حسين كان فى هذا الانضمام انتهازيا استطاع بذكاء كبير ان يعرف متى ينضم الى هذا الحزب ، ومتى يتراجع عنه .

وعلى هذا النحو ، تحددت مهمة طه حسين داخل صحيفة حزب الاتحاد ، اول الأمر ، فى أن راح يهاجم سعد زغلول والوفديين على صفحة الصحيفة إما بتوقيعه[١٤٢] وبعناوين مثيرة (ضعاف بغاة ..) وإما بعديد من مقالاته التى تحمل روحه العنيفة وهجومه الحاد على زغلول بدون توقيع مما يتأكد معها الهدف الذى اراده حين انتمى الى الحزب (فكرا) لا (تنظيميا) ، وإما بعديد من القصص التمثيلية المترجمة عن الفرنسية

(١٤٠) انظر مظاهر الاستقالات والاحتجاجات فى الاخبار ١ ــ ١ ، ٣ ــ ١ ، ٤ ــ ١ ، ٥ ــ ١ ، ٧ ــ ١ ، ٨ ــ ١ ، ١٠ ــ ١ ، ١١ ــ ١ ، ١٣ ــ ١ ، ١٤ ــ ١ ، ١٧ ــ ١ ، ١٨ ــ ١ ، ٢١ ــ ١ ، ٢٤ ــ ١ ، ٢٥ ــ ١ ، ٢٦ ــ ١ ، ٢٨ ــ ٢ ــ ١٩٢٥ ، ايضا : المقطم ١٥ ــ ١ ــ ٢٥ ، كوكب الشرق ١٥ ــ ١ ــ ٢٥ ، احمد شفيق ، المصدر السابق ص ٧ ، ايضا : مذكرات سعد ، كراس ٥١ ، ص ٢٨٩٣ ، ٢٨٩٤

(١٤١) السياسة ٢٣ ــ ٥ ــ ٤٥

(١٤٢) يوجد العديد من الالفاظ الحادة النابية التى وجهها طه حسين لسعد زغلول على صفحات (الاتحاد) لسان حال الاتحاد ، انظر الاتحاد ١١ يناير ١٩٢٥ ، ايضا : انور الجندى ، طه حسين فى ميزان الاسلام ، السابق ، ص ١١٠

لتعزيز كتاباته الصحفية كما كان يفعل دائما ، ممهورة باسمه[١٤٣] ، مما يقطع بأن ثمة علاقة اكيدة كانت بينه وبين صحيفة هذا الحزب .

ويمكن أن نجد تشابها كبيراً بين موقف حزب الأحرار وموقف طه حسين عن التطور الذى تم ، فكما أفاق حزب الأحرار الدستوريين على نوايا الملك حين فرغ من التعاون مع حزب الأحرار لتحقيق هدفه للهجوم على سعد ، وبدأ العمل مع حسن نشأت لطرد وزراء الأحرار من الوزارة وجعل الوزارة القائمة اتحادية بأكملها ، فدبر مؤامرة اطاحت برئيسه عبد العزيز فهمى فدفع الأحرار ثمن تعاونهم مع الملك .. كذلك ، فان طه حسين أفاق هو الآخر ليجد نفسه متورطا فى حزب الاتحاد ، وما لبث ان تحول عنه ثانيا إلى حزب الأحرار وجريدته (السياسة) ، وقد دفع الثمن غاليا من برود الأحرار من الثواب فى تأييده اثناء ازمة (الشعر الجاهلى) ، ويبدو ان احساس طه حسين بقدر هذا التورط هو الذى جعله يهاجم حزب الاتحاد وحتى بعد فترة طويلة جدا من الانسحاب منه[١٤٤] .

وسوف يكون علينا فى هذا الوقت وحتى فترة تحوله إلى حزب الأغلبية (الوفد) البحث عن المؤثرات الجوهرية التى دفعت به الى هذا التحول .

وعلى المستوى الخاص ، فإن طه حسين لم يشارك كثيراً فى الفترة التى سبقت الثلاثينيات فى السياسة المصرية ، واذ خمدت ضجة الشعر الجاهلى وحفظ التحقيق فقد حرصت القوى السياسية حينئذ على ألا تهدم الائتلاف القائم بين الأحرار والوفد ، ولم يمض وقت طويل حتى عاد طه حسين الى الجامعة مرة أخرى فى عهد وزارة محمد محمود ١٩٢٨ .

وقد اختير عميداً لكلية الاداب مرتين ، احداهما ، عام ٢٨[١٤٥] ، ولم يلبث فى المنصب غير يوم واحد لظروف السياسة حينئذ ليقدم استقالته مضطرا ، وثانيتهما ، اختارته الكلية عميدا لها بالاجماع فى عام ١٩٣٠ اى فى بداية عهد وزارة اسماعيل صدقى ليحدث اكثر من تحول فى حياته فى الجانب السياسى من حزب إلى حزب أو فى الجانب

(١٤٣) الاتحاد ٢٥/٣/١٨

(١٤٤) الوادى ١٢ — ١٠ ، ١٥ — ١٠ — ٣٤ حيث هاجم صحيفة الاتحاد وزكى الابراشى ممثل القصر .

(١٤٥) دار المحفوظات ، السابق ، ملف طه حسين ، انظر قرار وزير المعارف ٣ — ١ — ٢٨

الفكرى من إتجاه إلى إتجاه .

وهنا يختلط المستوى الخاص والعام فى هذا التحول ودرجته .

***

لم تكد تسلمه السياسة إلى الجامعة حتى واجه عنت اسماعيل صدقى وطغيانه ، فتعيده الجامعة الى السياسة ثانية فيفصل ويعمل طويلا ، بمفرده ، للهجوم على صدقى الذى نقله من الجامعة الى وزارة المعارف بقرار وزارى(١٤٦) ، فنفذ النقل لكنه رفض العمل فحدثت ضجة فى الصحافة وفى الجامعة على السواء ، مما دفع باسماعيل صدقى إلى فصله من الجامعة ومحاربته فى كل مكان يعمل به .

وقد استغلت الفرصة احزاب المعارضة لتثير الرأى العام ضد الحكومة ، فما كادت وزارة اسماعيل صدقى تسقط فى ديسمبر ٣١ حتى بدأت الصحف تلمح الى عودته للجامعة من جديد حتى اذا ما جاءت وزارة نسيم أصدر مجلس الوزراء قرارا وزارياً باعادته استاذا فى كلية الآداب . أنه حين اعيد كانت فترة هامة من حياته توشك ان تطوى لتبدأ فترة أخرى .

وعلى أية حال ، فان الفترة من بداية الثلاثينيات تثير تساؤلات هامة جدا فى حياة طه حسين لعل من أهمها :

ما هى أهم المؤثرات التى أدت الى خروجه من الجامعة ؟

ولماذا رفض العمل لصحيفة الشعب بناء على رغبة صدقى ؟

وما هى أهم البواعث وراء تحوله من حزب الأقلية الى حزب الأغلبية ؟

لقد كانت الفترة بين تاريخ الفصل ـــ مارس ٣٢ ـــ وتاريخ العودة ـــ ديسمبر ٣٤ ـــ اهم الفترات فى حياة طه حسين قاطبة ، فبينما قبض صدقى على زمام الحكم عانى طه حسين كثيرا من رئيس الوزراء التى عصفت وزراته بكل القيم الدستورية .

تتعدد المؤثرات الاولى التى كانت وراء اخراج طه حسين من الجامعة أو فصله ،

(١٤٦) السابق ، قرار رقم ٣٧٦٢ فى ٣ ـــ ٢ ـــ ٢٢

ومن ثم ، اتخاذ موقف حاد من رئيس الوزراء ، يرى البعض انه طلب من طه حسين منح درجة الدكتوراه الفخرية من كلية الاداب ، وقد كان حينئذ عميداً لها ، إلى بعض السياسيين ، غير أن طه حسين يرفض ان يجيب « طلب الحكومة حفاظا على كرامة العلم والدكتوراه »[١٤٧] .

بينما تؤكد الوثائق البريطانية إلى أن السبب الحقيقى يعود إلى اعتراضه على خطاب وزير المعارف ، إلى « الملك فؤاد عند زيارته للجامعة لتوزيع تلك الشهادات الجامعية على أصحابها مما أحدث حرجا لوزير المعارف وجعله يحس بصعوبة التعامل معه »[١٤٨] .

ويرى البعض الآخر أن سبب الخلاف كان لاتهام طه حسين بأنه أغرى طلاب معهد التربية بالاضراب أو حثهم عليه بسبب تعديل فترة الدراسة به من سنتين الى سنة[١٤٩] .

وربما لأن رغبة قدمت الى مجلس الجامعة بشأن خريجى كليتى العلوم والآداب الذين لا عمل لهم ، أو ، لأنه ، لا يجامل بعض الجنسيات فى الجامعة دون بعضها الآخر ، أو ، للظن بأنه الغى عقد مدرس فرنسى[١٥٠] .

كما يعزو البعض السبب فى أن طه حسين ، رفض التعاون مع وزارة صدقى منطلقا من رفضه لهذه الرجعية الفكرية الواضحة التى كانت تتميز بها هذه الحكومة إذ كانت قد اغلقت معهد التمثيل والرقص التوقيعى وحاربت الاختلاط بين الشباب والفتيات فى الجامعة حربا قاسية شعواء ، وأثارت العديد من المعارك والحروب ضد حرية الفكر وضد التجديد[١٥١] .

كما ترصد بعض المصادر سبباً آخر يعود إلى ديكتاتورية صدقى إذ هاجم طه الاعتداء على الدستور واستبداله بآخر ، وكذلك لرغبة اسماعيل صدقى حينئذ مدفوعا من

(١٤٧) السياسة ٣٠/٣/١٨ ، ايضا ٣٤/٢/٦ مرافعة محمد على علوبة

(١٤٨) Public Record office: Fo. 407/214 Sir Percy Coraine to sir simon: March. 3, 1932

ايضا ، الجميعى ، ص ٥٢

(١٤٩) السياسة ٣٢/٣/١٨

(١٥٠) السابق

(١٥١) الهلال ٦١/٢

الملك فؤاد من الانتقام من طه حسين لموقفه المعادى للقصر[١٥٢] ، وإن كان الاعتداء على الدستور باسناد الحكم الى احزاب الأغلبية عام ١٩٢٤ كان اكثر بشاعة من اعتداء صدقى له كما اسلفنا .

على أن السبب الرئيسى ، السياسى ، فى اعتقادنا ، لنقل طه حسين توطئة لفصله ، يعود ، إلى رفض طه حسين لرغبة رئيس الحكومة فى المشاركة فى تحرير صحيفة حزب الشعب الذى رأس اعضاءه[١٥٣]

وهو ما يجب ان نتوقف عنده اكثر .

إن مرافعة محمد على علوبة فى القضية التى رفعها موكله — طه حسين — على الحكومة المصرية تؤيد هذا الرأى وتزكيه ، اذ تبدأ محاولات استقطابه للكتابة فى صحيفة حزب الحكومة الوليد (الشعب) يوم اعتماده عميدا للآداب ، فيعرض عليه الاستقالة من الجامعة ورئاسة صحيفة الشعب وتوفير الأجر الذى يطلب ..

وتتوالى محاولات صدقى التى لا تتوقف لحظة بواسطة اطراف عديدة دون جدوى لكى يكتب طه حسين مقالة افتتاحية على أن يكون موضوعها كما حدده صدقى : ان وجود حزب الشعب ضرورى لتحقيق المصالح المصرية .

ويرفض طه حسين ، ويعود من يعرض عليه ان يكتب (بدون امضاء) فيرفض ، ثانية ، لأنه ، على حد قول محاميه (لا يعرف المقالات المستترة) ولما فشل صدقى ، لم يكن أمامه غير ان يحاول اثارة قضية (الشعر الجاهلى) بواسطة رجاله فى مجلس النواب[١٥٤] قبل ان يتخذ اجراءات أشد بأن يعمل على نقله الى وزارة المعارف بقرار ، ثم يلحقه بقرار آخر بقضى بفصله من وزارة المعارف ايضا .

وإذا كانت المؤثرات العامة فيما مضى دفعت به الى أن يأخذ موقف الصدام مع سعد زغلول ، فان المؤثرات العامة فى هذه المرة الأخيرة لم تكن كافية لتدفع به إلى تحديد

(١٥٢) سامح كريم ، معارك طه حسين الأدبية والفكرية ، ص ٤٧ ، مختار التهامى ، السابق ص ١٥٢
(١٥٣) السياسة ٣٤/٦/٦ ، ايضا : انظر حيثيات الحكم فى قضية طه حسين من (مرافعة محمد على علوبة) .
(١٥٤) مجلس النواب ٣٢/٣/١٦ جلسة ٢٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ايضا : سامى الكيالى السابق ، ص ٦٧/٦٨

موقف عنيف من رئيس حزب الحكومة — صدقى — فعلى الرغم من أن حزب الأحرار الدستوريين تحين الفرصة طويلا لاعلان موقفه العدائى الصريح من وزارة صدقى وما لبث أن سحب تأييده للوزارة واصدار قراره فى اكتوبر عام ١٩٣٠ ، أو حتى استقبال حزب صدقى الجديد بالدهشة وتشبيهه بحزب الاتحاد قبل ذلك إلى غيره من أوجه الخلاف بين الأحرار وصدقى(١٥٥) .. على الرغم من هذا كله ، فقد كان موقف طه حسين هنا لا يرتبط بحزب الأحرار .

ويمكن أن نلاحظ أن طه حسين كان يبتعد فى هذا الوقت عن حزبه القديم فى الوقت الذى كان فيه يغير قناعاته الفكرية بشكل عام .

واذا كان طه حسين قد دفع ثمنا غاليا لرفضه الانضمام الى حزب صدقى فى (الشعب) ممثلا فى كتابته فى صحيفته ، فقد يكون من المناسب التعرف على الدافع الحقيقى لهذا .

كانت الأسباب التى قيلت فى القطيعة التى تمت بين طه حسين وصدقى كثيرة ، بعضها يعود كما اسلفنا ، لرفض الأول منح الدكتوراه الفخرية للسياسيين ، وبعضها الآخر يعود الى تحريضه لبعض الطلاب ، غير أن السبب الحقيقى ، كما صوره ، يظل لاختلافهما حول صحيفة الحزب ، ففى الوقت الذى تأكد فيه صدقى أن تحرير طه حسين فى صحيفته من شأنه تقوية نفوذها ، رأى طه حسين ألا يزج بنفسه فى صحيفة لا تنتمى لحزب يستند الى إرادة حرة ، بل كانت تستند إلى سلطة الحكومة ومساندة القصر ايضا .

وقد اصطدمت الارادتان بعنف شديد ، يطلب صدقى فى اول الأمر ، ثم « يلح ويريد حتما فيعتذر طه بأسلوب هادىء طورا ، ويلجأ الى مدير الجامعة — لطفى السيد — طورا آخر — ويلين صدقى قليلا فيطلب مقالة افتتاحية بدون توقيع ، ويرد طه بانه لا يعرف المقالات المستترة .

وعلى هذا النحو ، كان لابد ان يصل غضب صدقى إلى ذروته ، فاذا أمره بنقل طه حسين يظهر فى المقطم فى ٥ مارس ٣٢ فجأة ، اى ، فى نفس اليوم الذى حدد لتسليم أعماله فيه .

(١٥٥) احمد زكريا السابق ، حزب الأحرار ، ص ٢٩٠/٢٩٢

ويبدو أن رفض طه حسين كان رفضا ذاتيا ، لم يرتبط بموقف حزب بعينه وإنما يرتبط بوعى شخصى ، فرفضه يعود الى اقتناع فى رأى وخلاف فى النزعة(١٥٦) ، فعلى الرغم من أن تقارير البوليس السرى حينئذ اشارت الى أن « طه حسين أصلح العناصر التى يمكن أن تتولى رئاسة الشعب فهو من الأحرار وكان يكتب فى الجريدة من قبل وهو صديق لعدد كبير من الأحرار »(١٥٧) ، وما اعقبه من محاولات صدقى معه ، وراحت تعزو موقفه الى حزب الأحرار فى المقام الأول .. فان رفضه عاد فى الواقع الى اقتناعه الداخلى بألا يتورط مع حزب ناشىء مهزوز الهوية والمستقبل .

ويفسر هذا ويؤكده ان حزب الأحرار كان فى نهاية عام ١٩٣٠ متأهبا ليسحب اعترافه بوزارة صدقى ، كما وأنه فى ٣٢ مارس عام ٣١ عقد ائتلافا بين الوفد والأحرار سمى عهد الله والوطن « اتفق فيه الحزبان على اعادة النظام الدستورى لتتولى الأغلبية الحكم »(١٥٨) ، غير ان هذا لم يكن ليترك اثرا كبيرا فى طه حسين الذى اراد ان يستعيد تجربته السابقة مع حزب الاتحاد فرفض الاشتراك فى حزب يرأسه صدقى حاول على شاكلة حزب الاتحاد الذى اندمج فيه فى النهاية ليكون مظهرا خارجيا لقد كانت مهمته الوحيدة مساندة الحكومة فى حكمها ، ولم يكن له اتباع حقيقيون ـــ مجرد تأييد وهمى من اعضاء مأجورين واناس لهم مصالح معينة فى حكم صدقى(١٥٩) .

إلى جانب أن تأثير الأحرار لدى طه حسين لدخول هذا الحزب كبير ، اذ كان اعضاؤه قد بدأوا ينفضون حول صدقى ، كذلك لم يكن تأثير الوفد كبيرا ، ومن هنا ، فانه يمكن الجزم بأن رفضه للانضمام اليه لم يأت بايعاز من الوفد .

ومهما يكن ، فان صدقى ، اعقب محاولة نقله وفصله بأن دفع بعض النواب التابعين له فى مجلس النواب الى اثارة قضية الشعر الجاهلى من جديد ، وبدأت محاولة تأليب الرأى العام ضده(١٦٠) ، فى وقت كان طه حسين يعاين فيه رياح التحول التى انتهت بشراعه الى شاطىء الوفد .

(١٥٦) سامى الكيالى ، السابق ، ص ٦٧
(١٥٧) جمال سليم البوليس السرى يحكم مصر ، ص ٨٣
(١٥٨) احمد زكريا ، الأحرار ، ص ٢٩٠
(١٥٩) عفاف لطفى ، السابق ، ص ٢١٧
(١٦٠) جلسات ٣٠/٥/٥ ، ٣١/٣/٧ ، ٣٢/٣/٢٨

ويمكن أن نجد إنعكاسا لموقف طه حسين السياسى من صدقى ووزارته حينئذ فى الصحف ، فقد كانت هى الأداة الوحيدة التى حاول بها تكريس جهده ووقته بين عامى ٣٤/٣١ لهذا الهجوم ، ولم يكن على صدقى ان يتريث قليلا كسلفه ــ سعد ــ قبل ان يحاكم طه حسين لقد بدأت المعركة حامية بينهما ، حين فصل طه حسين هاجم خصمه فأدلى بأحاديث عنيفة ، حديثين ، فى يومين متتاليين فى جريدتى الجهاد والأهرام .

لم يكد ينشر الحديثين حتى فتح محضر التحقيق مع دكتور الجامعة المفصول ، يستدعى مرات كثيرة ليدلى بأقواله ، فيما نسب اليه ، يحضر مرة ويرفض مرات .

فماذا جاء فى أحاديث طه حسين ؟ وماذا دار فى التحقيق ؟

فى حديثين متتالين (١٩/١٨ مارس) رد الدكتور المفصول على كلام وزير المعارف بمجلس النواب متهما اياه بعديد من الاتهامات كتحريضه على الأحزاب ، واتهامه بالاتصال ببعض الهيئات الأجنبية ، فراح طه حسين ، بدون حذر ، يهاجم وزير المعارف فى وزارة صدقى بعنف شديد بلغ درجة بعيدة من الغضب والمرارة الشديدتين[١٦١] .

ويستدعى طه حسين للتحقيق فلم يزد على أن يقول عبارة واحدة لا يعود بعدها للتحقيق رغم الالحاح الشديد لحضوره : « لست أرى ان لوزارة المعارف ان تحقق معى فى أى شيء ، وانما الشرط لكل تحقيق اقبله راضيا هو أن أعود استاذا فى الجامعة وان يحقق معى على هذا النحو وبهذه الصفة وان الهيئات التى تملك سؤال الأساتذة والتحقيق معهم »[١٦٢] .

ويذكرنا التحقيق بعبارة رددها اثناء وزارة سعد ، فقد أرسل كثيراً إليه للحضور للتحقيق ، فلم يذهب ، ولم يغير عبارته التى لا يتخلى عنها قط « لن أجيب على شيء »

(١٦١) كنت اريد لوزير المعارف ان يسمو بنفسه عن المنزلة الخلقية التى تليق بمن كان قاضيا مع ان قواعد اللياقة الاولية كانت تقتضى ان يسألنا ، ولست اخفى عليك انى تلقيت تصريحات الوزير بقهقهة عالية ، انا لم اقبل ما عرضه الوزير ، كنت احب ان يرتفع السائل والمسئول عن هذه الصغائر ، وليس يسوؤنى ان يغضب حلمى باشا اذا رضى ليتيان ارسنوك ، وليصدقنى حلمى باشا ان اعوانه ليسرفون فى غشه وتضليله ، وأنت تستطيع أن تلتزم للوزير ماشئت من المعاذير عن هذا الكذب . (الجهاد ١٨ ، ٣٢/٣/١٩)

(١٦٢) دار المحفوظات ، ملف طه حسين ، السابق .

وقد ضرب بكل محاولات عودته ، لادانته فى التحقيق خارج الجامعة ، عرض الحائط .

وقد كانت آخر محاولة معه حين أرسلت اليه الأسئلة كتابة ، فلم يزد على ان يكتب للجنة التحقيق قائلا « انا مستعد للمناقشة أمام الهيئة الجامعية المختصة لأنى اعتقد كما أبلغتكم غير مرة مشافهة وكتابة أن تصرف الوزير معى كان خطأ » وهو ما يفهم منه رفض الأسئلة التى كانت ترسل اليه ، وهى أسئلة كان يضعها وزير المعارف بنفسه للجنة التحقيق لعرضها على طه حسين ليجيب عنها[163] .

ويلاحظ أن اللهجة التى تحدث بها الى وزير صدقى سواء على صفحات الصحف أو فى محاضر التحقيق كانت نفس اللهجة التى ظل يرددها قرابة ثلاث سنوات حين تصدى للهجوم على رئيس الوزراء مباشرة .

ويتتالى هجوم طه على صدقى ، فيهاجمه فى اكثر من مناسبة ، يهاجمه حين « ألف دستورا وأقام دستورا وأعرض عن كثرة ومال إلى قلة ، وأهمل أمة ، واعتز بأجنبى[164] .

يهاجمه فى الفضيحة التى تعكس قضية تعذيب المتهمين تعذيبا غير أخلاقى[165] .

كما يهاجمه فى قضية بناء خزان جبل الأولياء الذى كلف مصر كثيرا بدون مبرر[166] وايضاً يتحدث عن اصطدام مصطفى النحاس بالشرطة منددا بسوء الادارة[167] ، وهو يسخر كثيرا من الموقف المتعاون مع الانجليز[168] ، ويغضب من اعلان الحكومة لتأكيد نيتها للاشراف على الجامعة[169] ، ويظل يدعو صدقى بالحاح شديد اثناء مرضه ليستقيل[170] ، وهو لا يتورع فوق هذا من أن يهاجم الائتلاف الحادث : « فلا تقل اذا ان فى مصر الآن وزارة ائتلافية ، لأن مثل هذه الوزارة لا تقوم إلا

(١٦٣) السابق ، محضر ٣٢/٣/٢٧
(١٦٤) السياسة ٣٢/٧/٨
(١٦٥) كوكب الشرق ٣٣/٤/٣٠
ايضا : انظر يونان لبيب ، تاريخ الوزارات ، ص ٣٦١
(١٦٦) كوكب الشرق ، ٣٣/٣/٢١ ، ٣٣/٣/٣٠
(١٦٧) السابق ، ٣٣/٣/٢٣
(١٦٨) السابق ، ٣٣/٤/٣ ، وايضا : ٣٣/٣/١٩
(١٦٩) السابق ، ٣٣/٤/٢١
(١٧٠) السابق ، ٣٣/٤/١٢ ، ايضا : ٣٣/٤/١٩

إذا وجد حزبان أو احزاب تستطيع أن تأتلف وتستطيع ان تختلف وتستطيع ان تسير سياسة الدولة ، وتستطيع ان تنزل رئيس الوزراء على حكمها ، لا ان تنزل هى على حكم رئيس الوزراء »(١٧١) .

وكما يهاجم هذا الائتلاف ، كذلك لا يتورع عن الهجوم على الحزبين الهزيلين (الاتحاد والشعب) فى كل فرصة ، فتلك الجماعات التى تؤلف الحزبين « انما هى جماعات تتألف من افراد لهم مآرب ومنافع يتحقق بعضها من تولى مناصب الحكم ، ويتحقق بعضها الآخر من الاتصال بالذين يتولون مناصب الحكم ، فكل امرىء سمحت له الظروف ان يشرف على تدبير الأمور فى مصر ، ووجد من الانجليز رضا وتأييدا ، واهمالا واغضاء فهو قادر على أن يؤلف هذه الجماعات »(١٧٢) .

وتتميز لهجة الهجوم بالسخرية الممضاة من رئيس الوزراء ، انه على سبيل المثال ، حين يرحل صدقى الى روما فى إحدى سياحاته ، وكان قد تنازل وهو ممثل مصر لايطاليا عن بعض المناطق الصحراوية المصرية ، يكتب فى الهجوم عليه مقاله طويلة يأتى فيها : « لن تجنى مصر من رحلة رئيس الوزراء الأخيرة ، لئن فاتته مفاوضة الانجليز . فسيفاوض الايطاليين . أهدى إليهم جغبوب أمس لأنها لم تكن مصرية قط وسيهدى اليه الايطاليون اريتريا غدا لأنها لم تكن ايطالية قط »(١٧٣) .

وفى منتصف عام ٣٢ كان يودع هيكل وهو يسافر الى لبنان ، فدعا فى مقاله رئيس الوزراء بأسلوب لاذع جدا ، أن يستقيل قال « انما يستقيل رئيس الوزراء يوم يكره على الاستقالة اكراها .. (و) .. الوزراء انما يطالبون بالاستقالة اذا كانوا قد نهضوا بالحكم وسيلة من وسائل الحياة العامة لا غاية تطلب لنفسها »(١٧٤) .

ولا يكاد يمضى عام ٣٢ حتى تزيد لهجة السخرية وتتضاعف فى مواجهة رئيس الوزراء ، أن اول كتاباته فى كوكب الشرق يتحدث عن المناخ الذى تعيش فيه البلاد فى ظل ديكتاتورية صدقى إنه يقول على سبيل المثال : « الأيام التى قصت فيها الأجنحة ،

(١٧١) السابق ٣/١٩ ، ٣٣/٣/٢١
(١٧٢) السابق ٣/١٩ ، ٣/٤ /٣٣
(١٧٣) السياسة ٣٢/٧/٤
(١٧٤) السياسة ٣٢/٦/٢٨

وشدت فيها الألسنة فلا تقول الا بحساب ، وعقلت فيها الأقلام فلا تجرى الا بمقدار ، وضيق فيها على الناس فهم مضطرون الى ان يقولوا ويكتبوا ، والى ان يقدروا فيطلبوا التقدير قبل ان يتنظروا لأمر من الأمور .. (و) . كل شيء ضيق حولنا فقد استكشفت الوزارة منذ نهضت بالحكم أو منذ همت أن تنهض بالحكم أن الدستور أوسع مما ينبغى فضيقته وبالغت فى تضييقه .. لم تكد تعلن إلينا هذا التضييق وتأخذنا بتصغير عقولنا وتصغير ألسنتا والكبح فى أحلامنا والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا الدستور الجديد حتى استكشفت ان هذا الدستور الجديد هو نفسه يكفل لنا حريات اكثر مما ينبغى واذا هى تضيق هذه الحريات بألوان التشريع مرة وبسلطانها الادارى مرة أخرى »[١٧٥] .

والفترة الأخيرة من وزارة صدقى تشهد وصول طه حسين إلى قمة الغضب ، فهو لا يكف عن التطرق الى كل ظاهرة فى هذا العصر ، وهو لا يكف عن مهاجمة كل مسئول فى هذه الحكومة ، التى تدين إلى « الطاغية » فى كل شيء ، ان تلك الحكومة سعت الى « تضييق التعليم ومراقبته والسيطرة المحرجة عليه فى جميع فروعه وألوانه »[١٧٦] . وهى ترتكب كل جريرة فى حق الحرية ، فهذا هو صحفى يسجن ويعذب طويلا لأنه جرؤ على ان يقول كلمته[١٧٧] ، وها هو صدقى نفسه تحالف مع اعداء البلاد — الانجليز — ليحكم « بأمرهم » فى مصر وعلى أن يرعى مصالحهم ، ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياع ، ومعنى ذلك ان بقاء صدقى باشا فى الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها »[١٧٨] .

كذلك يهاجم سياسة اسماعيل صدقى الذى وضع على الجامعة « قيدا عنيفا نقيلا» ، ثم يوجه كلامه الى بعض من يشاركه فى الحديث فيما يجرى فى البلاد «ولكن صفة الأشياء قد التوت فى مصر والمنهج الذى تجرى عليه قد فسد وأعوج .. إن الأمور ستصبح كما هى ، حتى يولى الله امور هذه الأمة قوما لا يتخذون الحكم وسيلة الى التسلط والقهر »[١٧٩] .

(١٧٥) كوكب الشرق ، ٣٣/٣/٩

(١٧٦) السابق

(١٧٧) السابق ، ٣/١٣

(١٧٨) السابق ٣/١٧

(١٧٩) السابق ٣/١٨

وحين يفكر رئيس حزب الأغلبية ـــ النحاس ـــ فى زيارة للأقاليم ليتحدث الى الناس ، فان عنت الحكومة يصل الى درجة تضييق الحصار حول رئيس حزب الوفد ، ومنعه من السفر ، والضغط على اهل البلاد التى يزمع السفر اليها كيلا يستقبلونه ، فى وقت لا يزال الانجليز يسيرون دفة الحكم على هواهم .. حين يحدث هذا تطالعنا نبرة طه حسين الغاضبة فى عديد من المقالات التى كتبها فى هذا الوقت ، لعل آخرها تلك المقالة التى يردد فيها لهجته فيقول : « الشيء الوحيد الذى لابد منه لأى حل لابد ان ينظر فيه نظر جد وتفكير ، هو ان يتنحى رئيس الوزراء عن سياسة الدولة الآن »[(١٨٠)] .

وهنا ، فان ثمة ملحوظة ذات دلالة هامة يمكن رصدها من كتابات هذه الفترة ، وهى ، أنه بينما كان طه حسين يهاجم الوزارة القائمة ، كان يبتعد رويدا رويدا عن حزب الأحرار الدستوريين بالقدر الذى كان يقترب به من حزب الوفد .

فضلا عن ان هذا الاقتراب كان يركز لا على مبادىء الوفد ، وانما قبل كل شيء على زعمائه واصحاب الكلمة العليا فيه ، فهو مرة يندد بخطف الرئيس وصاحبيه ـــ يقصد النحاس ومكرم ـــ وقد وقع هذا الحل البديع من غير شك موقع الغرابة فى نفوس الطلاب من المديريين وحكام الأقاليم فقد كانوا يعلمون ان الضروريات السياسية تبيح طائفة من المحظورات يأباها الدستور ، وينكرها القانون ويتحرج منها النظام ، تبيح الحرب على أيدى الناس بالحق وبالباطل ، وتبيح التحرش بهم ، والتنمر لهم . تبيح القاءهم فى السجون من غير تحقيق ، تبيح إخضاعهم للعذاب بغير حساب ، تبيح تسخير أموالهم لمعونة الأحزاب ، وتسخير اشخاصهم للاحتفاء بالوزراء ، والتوقيع بأسمائهم على ما يحبون وما يكرهون »[(١٨١)] .

وفى مرة اخرى ، يرى ان خطة الحكومة هى « لا ينبغى ان يتكلم الزعماء ، ولا ان يتحركوا ولا ان يسافروا لأن الأمة ما زالت لهم محبة ، وبهم واثقة ، وحولهم ملتفة ، ولدعائهم مستجيبة . واذن ففيم بذلت القوى ، وفيم انفقت الجهود ، وفيم بعثرت الأموال ؟ .. »[(١٨٢)] .

وعلى هذا ، يرصد خطوات زعيم الوفديين سواء كان عائدا من « ـ نود » بلدته أو

(١٨٠) السابق ٣٣/٣/٢٤
(١٨١) كوكب الشرق ٣٣/٣/٢٧
(١٨٢) السابق ٣/٢٥

فى رفضه عددا كبيرا من الضباط[١٨٣] ، خوفا منه ، واستغرابا من هذا الحشد الضخم من العسكر الذى يحرس الزعيم وهو يصلى[١٨٤] الى غير ذلك من المرات الذى اذا ذكر صدقى أصحابه يذكرهم بالهجوم الحاد حتى اذا ما ذكر النحاس وأصحابه ذكرهم بالتبجيل والاكبار مؤكدا على أن « الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل انسان ان ينظر اليها ، وان يمتحنها وان يحقق فيها النظر ، ويلح عليها بالامتحان وهذه القوة لا تقوم على الخيال ، ولا تعتمد على الوهم وانما تقوم على الناس الذين يكونونها ويجعلونها حقيقة واقعة ملموسة ، تراها كل عين ، وتلمسها كل يد ، وتغص بها كل وزارة لا تريد ان تعمل لمصر ، ولمصر وحدها »[١٨٥] .

وهذه اللهجة نجدها فى كل كتابات طه حسين فى هذه الفترة التى كان فيها المد الوفدى يغطيها رويدا رويدا .

(١٨٣) السابق ٤/٨

(١٨٤) السابق ٤/٢٥

(١٨٥) السابق ٤/٢٩ ، ٧/٣٠

الفصل الثانى

طه حسين وحزب الوفد

- أسباب التحول
- علاقاته بحزب الأغلبية
- موقفه من معاهدة ٣٦
- فى وزارتى الأقلية (٣٢/٣٩ ، ٥٠/٤٤)
- فى وزارتى حزب الأغلبية (٤٤/٤٢ ، ٥٢/٥٠)
- نتائج أخيرة .

فى الوقت الذى كانت فيه وزارة اسماعيل صدقى تتهيأ للغروب عن مسرح الأحداث نتيجة لظروف عديدة ، حدث تغير كبير فى موقف طه حسين .. ومع ان هذا الموقف لم يأت طفرة ، فان ظروفا عديدة عملت على انضاج علاقات طه حسين وتوجيهها الوجهة التى اختارتها ، فان موقفه كان من الوضوح بحيث كان التحول يمضى فى اتجاهه الجديد مع تغير الأحداث .

ففى هذه الفترة نلحظ انحياز موقف طه حسين انحيازا تاما للوفد ، ففى ٦ مارس عام ١٩٣٣ ، اى ، قبيل رحيل وزارة صدقى بعدة اشهر ، ولمدة ثلاثة أيام ، فان ضجة كبيرة تحدث تثيرها صحيفة (كوكب الشرق) على وجه الخصوص ، وهى صحيفة وفدية ، اعلانا بانضمام طه حسين الى هيئة تحريرها ، ويبدو ان ذلك تم بايعاز من مصطفى النحاس رئيس الوفد ، وذلك بشكل مباشر حين طلب من طه حسين

الانضمام الى حزبه ، ويبدو ان ذلك تم بشكل اكثر عملية بمبادرة رئيس تحرير هذه الصحيفة[١] .

وتتالى الأحداث فى هذا الاتجاه .

فى ٦ مارس تظهر (كوكب الشرق) معلنة ومبشرة بانضمام طه حسين الى الهيئة الوفدية مهنئة نفسها ، فلن « تقتصر اثار الدكتور طه على ما تفيض به موهبته من الفصول السياسية الرائعة ، بل ستعم ايضا الصفحات الأدبية والفنية والاجتماعية » ، وفى اليوم التالى – ٧ مارس – تكتب مقالة طويلة بعنوان (إلمامة صديق علم) كلها اشادة بطه حسين وبنزعته السياسية ، فقد عاد مشبها اياه بتوفيق دياب الذى « اصبح وفديا مع ان الوفدية كانت مصيره المحتوم » ولا تلبث ان تنشر الجريدة فى نفس العدد والاعداد التالية كَمًّا هائلا من الكتابات التى تهنىء طه حسين بانضمامه الى الوفد وتشجيعه عليه ، وقد كانت اهم هذه الكتابات ما كتبه حافظ عوض رئيس تحرير صحيفة (كوكب الشرق) فى ٨ مارس حيث يمدح الكاتب ويثنى عليه .

على أن أهم كتابات الترحيب بطه حسين ، قاطبة ، كانت الكلمة التى كتبها مصطفى النحاس رئيس الوفد بخط يده ، ونشرتها كوكب الشرق فى ٩ مارس بعنوان (تصريح الرئيس الجليل) وجاء فيها :

(.. وإنى لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحريره على المبدأ الوفدى الذ دلت الحوادث على انه مبدأ الحق ودين الأمة الذى قامت عليه فى نهضتها نحو غايتها السامية فى الحرية والاستقلال) .

وفى العدد نفسه توالت اهم مقالات طه حسين ، فبعد ان يعلن اخلاصه للمبدأ الوفدى يقول « وأى شيء يستطيع العاملون ان يقدموه الى مصر فى هذه الأيام التى قصت فيها الأجنحة »[٢] ، ويتطرق الى اساليب التعليم الرديئة التى تلجأ اليها وزارة صدقى وتضيق مراحلها ، وينتقل الى الوان الضيق التى ترين على العقول والافهام ليعاهد الذين يقرأونه فى نهاية المقال الطويل بعهد انه سيسير على درب الوفد والعمل من اجله[٣] .

(١) كوكب الشرق ، ٣٣/٣/٩ ، ايضا : د . بدوى ، الى طه حسين ، المقدمة .

(٢) كوكب الشرق ٣٣/٣/٩

(٣) السابق

وتبدأ مرحلة جديدة فى العلاقة الطيبة بين طه حسين والهيئة الوفدية ، وقد انهالت الدعوات الوفدية حينئذ على طه حسين ، وكثيرا ما كان يتحدث اثناء وجود النحاس « فى بلاغة مؤثرة عن مآثر الوفد والرئيس الجليل ، ومن عطف عليه منذ ترك الجامعة .. فى وقت لم يكن النحاس فيه ليفوت فرصة دون ان يبدى « اغتباطه باشتراك الدكتور فى تحرير كوكب الشرق »[٤] .

وفى هذه الظروف تمضى الشهور الباقية ، وتحتم الظروف السياسية على صدقى الاستقالة ، ويهتبل طه حسين الفرصة ليتحدث عن هذه الاستقالة التى طالما دعا اليها ، مشيرا الى أن الملك سوف يقبل « استقالة هذه الوزارة التى أتت مصر بالهم ، والغم ، ومن الحزن واليأس الوان »[٥] ، ويضيف « اعلموا ايها المصريون ان اموركم راجعة اليكم مهما تكن الظروف ، لأنكم تريدون ذلك وتصممون عليه »[٦] .

ومن هذه الفترة يمكن الخروج بعدة استنتاجات اولية منها أن أكبر عدد من المقالات التى كتبها فى حياته تدين الى هذه الفترة ، فأغلبها (افتتاحيات) تحمل عنوانا عبارة عن كلمة واحدة ، لاذعة ، ومحتواها يحمل مضمونا عنيفا ربما كان اعنف من لهجة الغضب التى كان يوجهها الى سعد زغلول فى العشرينات وهو ما ينم عن درجة الغضب الجارف الذى تولى صاحبه حينئذ الى درجة ان يستعدى الملك على صدقى وعهده بعد استقالته[٧] .

والملاحظ أنه بعد استقالة وزارة صدقى ، فان هجوم طه حسين على خليفته ، كما سنرى ، تميز بهذا الكم الكبير فى الهجوم على سياسة صدقى بعد أفولها ، والاسراف فى استرجاع احداثها وسيئاتها ، لدرجة يمكن القول معها أن عدد مقالاته فى هذه الفترة فاقت مثيلاتها فى أية فترة أخرى .

وثمة استنتاج آخر هو أن طه حسين فى هجومه لم يستثن اهم الكوادر الحزبية لخصمه ، أى الحزبين (الاتحاد ، الشعب)[٨] وقد كان صدقى يتحمل جزءا كبيرا من

(٤) السابق ٣٣/٣/١١
(٥) السابق ٣٣/٩/٢٢
(٦) السابق
(٧) الوادى ١٢ ، ٣٤/١١/١٣
(٨) سوزان ص ٩٨

مسئولية تحرير الصحيفة الثانية ، وهو ما يؤكد على أن طه حسين كان مدركا تمام الادراك مدى الأهمية السياسية لحزب الشعب ، من حيث ضآلة تأثيره سيما وقد طلب منه فى فترة هامة من حياته الانضمام اليه او التحرير فى صحيفته .

أما الإستنتاج الأخير ، والأكثر أهمية ، أن هذه الفترة شهدت أن طه حسين أخذ يتأرجح بين نقيضين ، بين مد وجزر .

لقد نضجت ارادة التحول عنده على نار صدقى العنيفة ، وشدة الحاجة المادية التى تركه يعانى منها محذرا كل الصحف من التعامل معه ، محاولا طرده من مسكنه الذى كان يقيم فيه ، بل ولم يتردد ، قط ، عن اهانته بقسوة محاولا ان يحول بينه وبين أسباب الحياة ، فقد حرم عليه ، على سبيل المثال ، ان يبيع جريدة (الوادى) التى أخرجها فى ديسمبر من عام ٣٤ ، كما وجه انذارا للبعثات الأجنبية فى البلاد للكف عن تقديم عروض العمل له ، وقد بلغ العنف درجة أن ظل يطارده شبح صدقى حتى بعد اقالة صدقى بزمن طويل .

وفى الوقت الذى حاول فيه ان يميل الى حزب الوفد ، فقد كان رئيس حزب الوفد يتجاوب معه بشكل سريع ، كتب مصطفى النحاس بخط يده فى صحيفة (كوكب الشرق) بانضمام طه حسين الى الصحيفة الوفدية[٩] ، كما اجزل له فى العطاء الى درجة انه قيل انه دفع اليه قرابة ثلاثمائة جنيه ثمنا للمقال الواحد ، كما كان دائم الحضور الى محاضراته التى يقيمها[١٠] ، ولم يحجم عن زيارة قرينته ـــ سوزان ـــ فى اى مكان تتواجد فيه[١١] ، وايضا لم يكن ليتحدث عن طه حسين ، أو ، إليه ، إلا وأطلق عليه لقب (الشيخ طه) للثناء عليه .

ومن هذا كله ، ففى الوقت الذى عاش فيه طه حسين فترة «المجاعة»[١٢] على حد قول قرينته ، وجد من يمد اليه يده هاشا له ، وهو ما يفسر فى جوانب كثيرة تجاوب طه حسين فى الكتابة الى الصحيفة الحزبية حين طلب منه ذلك من حزب الأغلبية .

(٩) كوكب الشرق ، بخط يد النحاس ٣٣/٣/٩

(١٠) حضر النحاس لطه حسين فى اكثر من محاضرة (انظر كوكب الشرق ٣٣/٣/١١ ، ٣٣/١٢/٢٨) وقد كان يهتف فى المحاضرة فى حضرة النحاس ومكرم بحياة (بطل الجامعة) .

(١١) سوزان ص ١١٢

(١٢) السابق ص ١١٦

ولتكتمل دائرة علاقة طه حسين بالوفد لابد من التوقف ، أكثر ، فى الفترة بين عامى ٣٦/٣٢ وهى الفترة التى تنازعته فيها عاطفتان :

الولاء لأحزاب الأقلية

والولاء لحزب الأغلبية .

وقد انتصرت عاطفة الانحياز نهائيا الى حزب الوفد .

فما هى أهم البواعث وراء هذا التحول ؟

يمكن تلخيص هذه البواعث على النحو التالى :

لم يكن طه حسين فى بداية الثلاثينات يعيش قط نفس ظروف العشرينات ، ففى العشرينات كان قد فقد جزءا كبيرا من اسباب مساندته ، فقد كان حزب الأحرار الدستوريين قد فقد جزءا كبيرا من عناصره الحيوية التى وقفت طويلا بجانب طه حسين ، كانت عائلة آل عبد الرازق قد فقدت جزءا كبيرا من افرادها ، كما ان ثروت وعدلى كانا قد رحلا ففقد بهما مراكز تأثير قوية كانت تقف الى جانبه ، كما لم يكن طه حسين قد نسى بعد ان حزب الأحرار لم يصمد طويلا فى الوقوف الى جانبه اثناء ازمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، فلم يطل دفاع السياسية عنه بين ٧ يوليو ، ٣٠ اكتوبر ٢٦ فى وقت كانت القضية فيه قد دخلت مجلس النواب ، وقد دفع به هذا الى ان ينضم الى القوة التى تستطيع ان تؤازره وتنافح عن فكره اذا ما تعرض لضغوط سياسية .

ولعل طه حسين اراد بالانضمام الى الوفد حينئذ الانتقام من وزارة المعارف بما تخوله له من نفوذ لا تستطيع قوى اخرى ان تخوله اياه .

وعلى أية حال ، فقد رأى أن يتحول من قوة آفلة ، أو فى طريقها الى الأفول ، الى قوة صاعدة ، أو فى طريقها إلى الصعود ، من (علية القوم) الذين كانوا « فى العشرينات ، الى (الظهير) الذى أصبح فى الثلاثينات .

وثمة موقف عام يطوى موقفا خاصا ويخفيه .. فقد آلمه ان محمد محمود حين اصبح رئيس الوزراء بين عامى ٢٩/٢٨ تخلى عن مبادىء حزب (الأحرار) القديمة الى استصدار مرسوم للحكم من خلال مجلس الوزراء حتى سميت حكومته بحكومة (اليد

الحديدية)[١٣] لما تخذت من اجراءات صارمة عنيفة .

وتفصيل هذا ان محمد محمود قام بحل مجلس النواب والشيوخ وايضا تطبيق بعض مواد الدستور لمدة ثلاث سنوات ، على ان يعاد النظر فيها عند انقضاء المدة لتقرير الانتخابات او التأجيل زمنا آخر .. الى آخر النص الملكى الذى استصدره محمد محمود فى وقت تنافى هذا تماما مع مبادىء حزبه ، وفى وقت لم يلق فيه داخل حزب الأحرار نفسه تقريبا اى اعتراض او خروج بسبب تعطيل الحياة النيابية واقامة حكم ديكتاتورى او قريبا منه رغم ان هذا الحزب كان اول الداعين للمبادىء التى تخلى عنها احد اعضائه السابقين ورئيسه الحالى محمد محمود .

وقد كان هذا من البواعث التى دفعت بطه حسين الى اضمار الانفصال عن الحزب ، فمع ان محمد محمود كان صديقه كما صرح حينئذ للشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد كان « لا يقبل الديكتاتورية ابدا ، ويستنكر اشد الاستنكار تعطيل الدستور الذى جاهدت الأمة لاصداره مقررا أنها مصدر كل السلطات »[١٤] .

هذا هو الموقف الظاهرى ، والواقع ان طه حسين برغم تصريحه بهذا الرأى ، فانه كان ينقم اشد النقمة فى داخله على محمد محمود ، فقد حدث أن أعلنت الجامعة عام ٢٨ عن تعيين طه حسين عميدا لكلية الآداب فيها مكان عميد فرنسى آخر ، فاذا بالحكومة القائمة ترفض هذا التعيين وتعلن ضرورة تنحيته وبدون اسباب[١٥] .

ومهما يكن السبب من ان الوفديين كانوا يبغضونه بشدة حينئذ ، فتدخلوا لاقالته بواسطة على الشمسى الوزير الوفدى فى الوزارة الجديدة فى وقت رأى فيه بأم عينه ان لطفى السيد يتخلى عن مبادئه السابقة فيخضع لضغط محمد محمود وايثارا لصداقته فيقبل وزارة المعارف[١٦] ، ومهما يكن ، فان طه حسين لم يجد أمامه غير الرضوخ وان كان

(١٣) نص الأمر الملكي فى كتاب « اليد القوية » ص ٣٨ ، ٣٩ ، أيضا : السياسة ٢٨/٧/٢٠ ، احمد زكريا ، الأحرار ص ٣٦ ، هيكل ، مذكرات ج ١ ص ٢٤٢ ، عفاف لطفى السيد ، ص ١٧١

(١٤) محمد حسن الزيات ، السابق ج ٥

(١٥) عبد الرحمن صدقى ، عميد الأدب ، الهلال فبراير ٦٦

(١٦) عفاف لطفى ، ص ١٧٤

طلب ، حفاظا على ماء وجهه ، ان يعتمد تعيينه اولا ، فيقضى يوما فى المنصب لم يلبث بعدها ان قدم استقالته فى مساء نفس اليوم ليعود العميد الفرنسى من جديد .

لقد كان مسلك محمد محمود ، وهو رئيس لحزب الأحرار ورئيس للوزارة القائمة قد ترك فى اعماقه ندوباً عميقة لم تندمل بعد .

ولعل التأثير المادى لعب دورا متعاظما فى هذا التحول .. ففى فترة كتابته فى صحيفة الاتحاد لسان حال حزب (الاتحاد) ، كان عليه وخاصة فى البداية لأسباب اسلفناها ، أن ينصرف إلى الكتابة فيها خاصة وانها كانت تقدم اليه (ما يزيد قليلا)[١٧] ، عما كانت تقدمه له صحيفة حزب (الاحرار الدستوريين) .

كما كانت المحنة التى دفع اليها بين عامى ٣٤/٣٢ من القسوة بحيث دفعت بقرينته إلى وصفها بأنها (السنوات العجاف) وسنوات (المجاعة)[١٨] ، فقد ضيق صدق فيها عليه كثيرا مما دفع به الى محاولة البحث عن مصادر مالية يستطيع الاستمرار بها فى الوقت الذى كانت تنتظره جريدة الوفد (كوكب الشرق) وتجزل له فى العطاء ، وحين غضب طه حسين من رئيس التحرير ــ حافظ عوض ــ لامتناعه عن دفع غرامة عن أحد الكتاب[١٩] ، لم يتردد عن الاستقالة ، غير أنه أمام الاغراء المادى وجد نفسه عائدا ثانية .

ويبدو انه فى هذه الفترة طلب اليه أحد أصدقائه القدامى من الأحرار العودة إلى صحيفة (الأحرار) والكتابة فيها من جديد ، وقد وعد طه حسين ، لكنه ما لبث ان حَنث بوعده ، فقد كان الوفد فى هذه الفترة يجزل له العطاء .

واعتقادنا ان الحاجة المادية وان لم تكن الباعث الوحيد فى تحول طه حسين ، فانها كانت أحد البواعث الهامة التى كونت هذا الموقف او دفعت اليه دفعا .

كما لا يمكن اغفال تطوره الفكرى ، فقد كان له اثر كبير فى هذا التحول ، لقد كان تحوله الى الوفد من منطلق انه شهد ان قوى الوفد الوحيدة ، يمكن ان تيسر له تطبيق افكاره الذى كان يبشر بها منذ انحاز لأحزاب الأقلية ، وهى أفكار جلها علمانية ، تختفى

(١٧) السياسة ٤٥/٢/٢٣

(١٨) سوزان ، الصفحات ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٦

(١٩) نعمات فؤاد ، قمم أدبية ، عالم الكتب ٦٦ ص ١٤١/١٤٠

بالقومية المصرية والقيم الديموقراطية الغربية الى غير ذلك ، فقد كانت علاقاته الحزبية فى خدمة افكاره دائماً .

وعلى أية حال ، فمن العسف التوقف عند عامل دون عامل آخر لتوجيه الإتهام إليه بأنه السبب الذى دفع بطه حسين إلى الانضمام الى حزب الأغلبية ، فقد تحالفت كل هذه البواعث السابقة فى دفعه الى هذا الاتجاه سيما وقد كان من أذكى سياسى عصره وآثرهم للفرص المتاحة له .

وعلى أية حال ، فبمجرد ان سقطت وزارة صدقى زاد ميل طه حسين الى حزب الوفد ، فى الوقت الذى انتهج فيه مع الوزارة التالية نفس النهج الذى انتهجه مع وزارة صدقى ، ومن هنا ، يمكن اعتبار الفترة التى تلت وزارة صدقى امتدادا لاتجاه طه حسين الى حزب الوفد وتحوله اليه تحولا تاما .

وعلى هذا يمكن فهم علاقة طه حسين بالوزارات التى اعقبت هذه الفترة ، قبل أن تتولى الحكم وزارة وفدية خالصة ، وتعيينه عميدا لكلية الآداب فيما بعد .

على أنه قبل أن نصل إلى طه حسين وقد أصبح جامعيا ، ورصد علاقاته بحزب الأغلبية حيث انعكست خطوط انتمائه السياسى ، يجب ان نرصد موقفه فى هذا الاتجاه ، تجاه الهجوم على الوزارة القائمة من وجهة نظر وفدية .

اولا : يمكن اعتبار الوزارة التالية مباشرة لوزارة صدقى ، وهى وزارة عبد الفتاح يحيى ، امتدادا طبيعيا لوزارة سلفه ، وهو ما ادركه طه حسين منذ اول مقالة كتبها بعد استقالة صدقى مباشرة ، فما كاد يعلن عبد الفتاح يحيى عن تصريح يبين فيه بداية وزارته ، حتى يكتب طه حسين ان « كل شىء فى اعمال الوزارة واقوال انصارها لا يدل على ثقة صادقة ، ولا يصور اطمئنان النفوس ، ومن اشد الخطر ان يرى الناس رأى العين عجز الوزارة حتى ان تثق بنفسها »[٢٠] ، ولا يمضى وقت طويل حتى يهاجم الوزارة والقائمين عليها بسبب قضية التبشير التى اثيرت حينئذ فتصدى لها فى عدة مرات تالية .

(٢٠) كوكب الشرق ٣٧/٩/٢٥

وحين تتعرض الوزارة لعديد من قضايا الفضائح التى تلصق بها حينئذ لا يتردد فى الهجوم على هذه الوزارة والايغال فى الصاق الاتهامات بها[٢١] ، كما يواصل هجومه عدة مرات على وزير التعليم فى هذه الوزارة للتخطيط السيىء[٢٢] ، ويمتد هذا الهجوم الى « مدير الدقهلية ، ومأمور بنى مزار ووزير التقاليد ووزير المالية ووزير الداخلية »[٢٣] ، وهو فى هذا كله يذكر كل مهازل عصر صدقى ومفاسده بدءا من قضية (الكورنيش) الى حادثة (البدراوى) الى مشكلة (الدين العقارى) ، و « موقف صدقى من هذه المخزيات التى تثار حوله ولا يسأل عنها » مثل فضيحة مدرسة الهندسة التى تطلب تعيين أستاذ مصرى فترفض الوزارة وتطلب أستاذا انجليزيا بدلا منه فترضى .

على أن السخرية من صدقى تحتل حيزا كبيرا من كتابات طه حسين بوجه خاص ، فصدقى هو الذى دافع عن حزب الشعب كثيرا وما لبث ان استقال عنه وهوجم منه[٢٤] ، كما تمتد موجة السخرية الى عبد الفتاح يحيى[٢٥] وكثرة الخلافات بين صدقى وعبد الفتاح يحيى[٢٦] ، كما يلوم الوزارة القائمة لمعاملتها القاسية للمتظاهرين ممَّن خرجوا ليعبروا عن شعورهم القومى ضد الانجليز[٢٧] ، وهو فى تناوله لأمور عديدة لا يجاوز قط ادانة وزارة عبد الفتاح يحيى كان يكتب عن الحياة السياسية المصرية فيصفها بأنها « خليقة الا ترضى احدا » ، وان مصر فى حاجة إلى الإصلاح حقاً ، وان هذه الوزارة القائمة وهؤلاء ينصرونها ويؤيدونها ، ليسوا رجال الاصلاح المنشود ، ولا يقدرون عليه لأنهم لم ينهضوا له ، وانما نهضوا لشيء آخر كانوا غارقين فيه الى أذانهم . فمن العسير بل من

(٢١) السابق ٣٧/١٠/٢٩
(٢٢) السابق ٣٣/١١/١
(٢٣) السابق ٣٣/١١/٥
ايضا : كل مقالات شهر ١٢ عام ١٩٣٣ ، وفى هذا أنظر ايضا ٢٤/١/١٦ ، و ١٩٣٤/٦/١١
(٢٤) السابق ٣٣/٦/١١
(٢٥) السابق ، انظر كل مقالاته بين سبتمبر ٣٣ حتى ابريل ٣٤ ، وفى الوادى بين ابريل ٣٤ الى نوفمبر ٣٤ تاريخ سقوط وزارة عبد الفتاح يحيى ، أيضا : كوكب الشرق ٣٣/١٢/١
(٢٦) السابق ٣٣/٢/٥
(٢٧) الوادى ٣٤/٣/١٧

المستحيل ، ان ينقلبوا فيصبحوا رجال الاصلاح الذى تريده البلاد[٢٨] . وهو الى هذا يعجب من فصل السنهورى بقرار من مجلس الوزراء دونما تحقيق[٢٩] بالقدر الذى يعجب به من الديكتاتورية التى فى الجامعة[٣٠] .

ثانيا : ومن دلائل اتجاهه الجديد ما لوحظ من انه بقدر الهجوم على الوزارة القائمة ، بقدر ما كان إنحيازه إلى الوفد والتقرب إليه ، فما ان رضى التحرير فى الصحيفة الوفدية على مبدأ الوفد (٩ مارس ٣٣) كان دائب الخطى إلى الوفد .

فالوزارة القائمة لم تكن لتكف قط عن مضايقة أعضاء الوفد من قياداته خوفا من شعبية هذه القيادة والاضطراب الذى قد ينشأ نتيجة لمواقفهم ، فلا يكاد رئيس الوفد يمضى إلى القليوبية مدعوا حتى ترسل الوزارة القائمة قوة لمنعه فينبرى طه ليهاجم هذا الأسلوب[٣١] ، فى الوقت الذى يظهر تأييده المطلق لرئيس الوفد وحزبه[٣٢] ، وفى موضع آخر يظهر السخرية الشديدة من الحكومة حين يكتشف انه حينما ذهب النحاس لزيارة المرضى فى احدى المستشفيات ، فان الحكومة تقوم بنقل المرضى جميعا إلى مكان آخر كيلا يروا النحاس .

وهو بعد ان يكتب فى ذكرى سعد زغلول فى الجريدة الوفدية فى عهد وزارة صدقى مقالات كثيرة لتعظيمه والإشادة به ، يعود فى الذكرى السابعة ليكتب مقالات كثيرة أخرى فى جريدة (الوادى) المسئول عنها وصاحبها مشيدا به ومعلياً من قدره[٣٣] .

وقد كان ينتهز أية فرصة للاشادة بالوفد وبزعمائه حتى من بين الراحلين منهم ، فهو مرة يشارك فى تأبين محمد زغلول (باشا) ، ويلوم السلطة التى تصادمت مع حاملى النعش فى اضطراب عام[٣٤] ، وفى مرة اخرى يهاجم من هاجم المشتركين فى جنازة ضخمة لمرقس (باشا) المعروف بميوله الوفدية « فان المصريين والانجليز لا يزالوا يشكون

(٢٨) السابق ٣٤/٦/٨
(٢٩) الوادى ٨ ، ٨/١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٣/٨/٢٣
(٣٠) الوادى ٣ ، ٣٤/١٢/٤
(٣١) كوكب الشرق ٣٤/١/٢٠
(٣٢) السابق ٣٤/١/٣٠
(٣٣) الوادى ٣٤/٨/٢٣
(٣٤) كوكب الشرق ٣٤/١٠/١٤

فى ان مصر كلها للوفد ، لأن الوفد كله لمصر »[٣٥] ، وهو فى مرة ثالثة يقوم بتأبين سينوت باشا أحد أعضاء الوفد البارزين مشيدا به[٣٦] .

ويظل طه حسين يهاجم وزارة عبد الفتاح يحيى حتى اذا ما استقال ، فانه يصف عهده فى اول مقالة كتبها بعد هذا مباشرة بأنه (عهد الذل والهوان) مما فيها « نعم كان عهد ذل وهوان هذا العهد الذى ضمنته استقالة عبد الفتاح يحيى .. »[٣٧] ، مرددا هذه النغمة لفترة بعيدة ، مؤكدا على ان العهد الآتى لابد وان يسود فيه حكم الوفد وزعامته .

وقد بزغ فجر العهد الجديد أو كاد مع قدوم وزارة نسيم ، فتوفيق نسيم وان لم يكن عضواً فى حزب الوفد ، فقد كان يميل اليه ميلا ظاهرا[٣٨] ، فضلا عن أن نسيم منذ البداية كان قد رفض تأييد دستور صدقى وهو ما يعنى أن توليته الوزارة يحمل النية على انهاء هذا العهد ، وهو ما التقى فيه مع الوفد . كان يرى ان نسيم يمكن أن يمثل فترة التحول الى دستور ٢٣ الذى كان قد الغاه صدقى قبل ذلك .

وقد انعكس هذا واضحا فى موقف طه حسين ، اذ لم يهاجم الوزارة الجديدة فى وقت لم يستطع فيه اخفاء موقفه من الوزارة القديمة بعبارات تقترب من الشماتة الى حد كبير ، مبديا فرحه بهذا التغيير الذى « قضاه الله عز وجل لمصر بعد أن قضى عليها المحنة أكثر من أربعة اعوام »[٣٩] .

ولم ينس فى غمرة سعادته ان يبدى اعجابه برئيس الوفد فى كلمات موحية ذكية « الحمد لله الذى اتاح لهذا الرجل الضعيف ان يكون اقوى المعاصرين من مواطنيه بعزمه وحزمه »[٤٠] .

والواقع ان ثمة تفاهما مسبقا كان قد جرى بين الانجليز والحزب الكبير ، ففى ٥ اكتوبر ، وفى لقاء بين مكرم عبيد والسكرتير الشرق المندوب السامى اقترح الأول فرض حكومة برئاسة توفيق نسيم على الملك ، وبعد هذا بأسبوع وفى اول لقاء بين النحاس

(٣٥) الوادى ٣٤/٦/٢٠
(٣٦) السابق ٣٤/٧/١٩
(٣٧) السابق ٣٤/١١/٧
(٣٨) عبد الله العزباوى ، رسالة مخطوطة ص ٣٠٢ ، ايضا : عفاف لطفى ص ٢٥٩
(٣٩) الوادى ٣٤/١١/١٥
(٤٠) السابق

والمستر بيترسون « كرر زعيم الوفد ان حزبه لن يعترض على تدخل بريطانى لتشكيل حكومة برئاسة توفيق نسيم »[٤١] .

وعلى هذا النحو ، كان مقدرا على طه حسين ان يحجم عن الهجوم على الوزارة الجديدة ، على الأقل يصمت مؤقتا حتى ينجلى الموقف الجديد .

إن صمت طه حسين استمر فطال ، فما كاد يمضى اقل من شهر على تولية نسيم لوزارته ــ ١٤ نوفمبر ٣٤ ــ حتى اعيد طه حسين فى اقل من شهر فى ١٢ ديسمبر الى الجامعة ، وتتالت المحاولات لارضائه واعادة ميزانية المالية إليه ، يعاد اليه مرتبه الذى عين به والذى كان يحصل عليه قبل فصله[٤٢] ثم يتم تثبيته على الدرجة التى كان يعمل بها .

لقد كان من اثر ذلك كله ان تنازل طه حسين عن القضية التى كان قد رفعها على الحكومة المصرية ، وكوفىء على هذا الموقف بأن سويت له حالته المالية فى محاولة لاسترضائه[٤٣] ، واذن ، ففى الوقت الذى كان يتحدث فيه عن فضائح صدقى وعهده بنبرة هجومية عنيفة رد الى الجامعة ، وما كاد يفرغ من مظاهر الترحيب ببطل (الجامعة) داخل الجامعة وخارجها حتى كان قد دخل لمرحلة جديدة من حياته .

ان مراجعة الصحف فى هذا الوقت ترينا أنه لم يجاوز فى كتاباته فصولا عن الشعر القديم[٤٤] ، ومقالات عن التمثيل الغربى ، واحاديث فى (الحب الضائع) الذى شغل بها .. ومالى ذلك مما يعكس ابتعاده عن المشاركة السياسية واقترابه الى عوالم أخرى سينتهى اليها حتى ديسمبر ٣٦ ، العام الذى عين فيه عميدا للجامعة .

(٤١) يونان لبيب ، الوزارات ص ٣٧٢

(٤٢) دار المحفوظات ، قرار مجلس الوزراء عن طه حسين فى ٣٤/١٢/١٥

(٤٣) السابق ، خطاب رئيس مجلس الوزراء ٣٥/١١/٢٤ ، ايضا وقرار من مجلس الوزراء فى مذكرة مرفوعة بتاريخ ٣٥/٥/١٣ ايضا فى ٣٥/٥/٣٠ (بعد تنازل طه حسين عن القضية تتوالى القرارات لارضائه فيقرر مجلس الوزراء فى ٣٥/٢/٢٧ صرف مرتب ٩ شهور للدكتور مع إعفائه من رد مكافأة قد استلمها ، ثم قرار بوضعه بدرجة استاذ مع منحه مربوطها ، وقرار بان تحسب له مدة الانفصال على المعاش بعيدا عن الجامعة) .

(٤٤) تتميز هذه الفترة بمقالاته الأدبية التى راح يجمعها فى كتب فيما بعد من امثال :
حديث الاربعاء ، من ادب التمثيل الغربى ، احاديث ، فصول فى الأدب والنقد ، من حديث الشعر والنثر ، الحب الضائع ، من لغو الصيف الى جد الشتاء .

على أن عام تعيينه عميدا ـــ ٣٦/٥/٢٧[٤٥] شهد موافقة على ماهر ، الذى كان قد اختير فى نفس الشهر تعيينه رئيسا لوزارة (مؤقتة) يكون الغرض منها اجراء مفاوضات قوية مع الحكومة البريطانية فينضم اعضاؤها الى مصطفى النحاس لتشكيل وفد تحت رئاسته لاجراء المفاوضات .

وهنا ، فان عام ١٩٣٦ ، له اهمية خاصة بالنسبة اليه ، اذ اجريت فيه المفاوضات مع الانجليز ، وما ان انتهت اليه من اتفاقية ٣٦ ، حتى لعب الوفد دورا هاما فى الحكم ، وبالتبعية ، يدخل طه حسين مرحلة جديدة .

***

من عام ٣٦ يكون على طه حسين ان يلتزم بموقف الوفد في كل القضايا المثارة ، من المعاهدة حتى تشكيل آخر وزارة وفدية عام ١٩٥٠ .

ويلاحظ ان ثمة علامتين مميزتين كانتا تفرضان فرضا على علاقاته الحزبية خلال هذه الفترة ، يمكن تفصيلهما على النحو التالى :

الاولى : أنه تبنى وجهة نظر حزب الوفد تبنيا كاملا ، وما ترتب على ذلك من عداء الأحزاب الأخرى .

الثانية : أن مشاركته السياسية فى هذه الفترة شهدت فترة ازدهار الوفد ثم سقوطه ، فكان طه حسين يؤثر عدم التورط فى التيارات السياسية المتصادمة بأن يعمد الى الابتعاد عن السياسة وعن الأحزاب وصحفها والاقتراب من قضايا الأدب كلما حانت الفرصة اليه .

واذا كان طه حسين قد عرف باتجاهه السياسى فى العشرينات والثلاثينات ومشاركته فى كثير من الخصومات السياسية ، فانه فى الحقبة التالية عرف باتجاهه الفكرى مكرسا جهده فى جانب المجتمع ، وهو ما يفسر تحوله الحثيث فى اتخاذ موقف معين باتجاه

(٤٥) دار المحفوظات ، السابق ، خطاب كل من شفيق غربال ومدير الجامعة الى رئيس الجامعة بهذا الخصوص .

الحزب الذى انتمى اليه ، أو الحزب المعارض له ، كما ترصد هذه المواقف مع تحوله من هذا الحزب او ذاك .

وعلى اية حال ، بمكن رصد علاقة طه حسين بحزب الأقلية أو الأغلبية فى عدة محاور ، يمكن اجمالها فى الفترات الزمنية الآتية :

(١) فى عهد وزارة النحاس ٣٧/٣٦
(٢) فى حكومات الأقلية ٤٢/٣٩ ، ٥٠/٤٤
(٣) فى حكومات الوفد ٤٤/٤٢ ، ٥٢/٥٠

وتفصيل ذلك أنه على إثر رحيل الملك فؤاد تمخضت التطورات السياسية عن فوز وزارة وفدية جديدة يترأسها مصطفى النحاس ، ومن ثم ، فما كادت سنة ٣٦ تشرف على نهايتها حتى كانت معاهدة تسوية انجليزية مصرية — او معاهدة تحالف — قد أبرمت بين الدولتين[٤٦] .

وعلى أية حال ، فانه لا يعنينا هنا مناقشة بنود الاتفاقية ، بقدر ما يهمنا موقف طه حسين منها ، من الاتفاقية التى كان الوفد من اول الساعين لها ، فقد أكد زعيم الوفد أنها أحسن ما يمكن الوصول اليه فى هذا الوقت ، وعند عودته بعد توقيعها أعلن انها معاهدة (شرف واستقلال) .

وهذا الموقف هو ما دفع النحاس الى السعى للالتزام بتنفيذ الاتفاقية ، فان هذا التغيير « سيكون لصالح مصر خاصة بعد النجاح الذى احرزه بالمعونة البريطانية فى

(٤٦) نص المعاهدة فى (القضية المصرية) ١٨٨٢ — ١٩٥٤ ، ايضا : عفاف لطفى ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ايضا : عبد الرحمن الرافعى ج ٣ ص ١٦ ، ١٧ .

ايضا فان استقراء نصوص المعاهدة يرينا انه كان من اهم موادها — المادة رقم ١٣ — سريان التشريع المصرى على كل الأجانب المقيمين فى مصر ، وفى نهاية فترة انتقال تكون الحكومة المصرية حرة ايضا فى الاستغناء عن المحاكم المختلطة .

وفى ١٢ ابريل ١٩٣٧ ، اجتمعت الدول ذات الامتيازات ، فى مونترو ، ووقعت ميثاقا الغيت بموجبه (الامتيازات الأجنبية) ، وقد اقر البرلمان هذا الاتفاق فى يوليو من عام ١٩٣٧

وقد دفعت الظروف السياسية كل الأطراف من اجل هذه المعاهدة ، فقد دفعت المظاهرات الضخمة التى اندلعت احتجاجا على تصريحات السيد صمويل هور الوزير البريطانى فاعتبرت تصريحاته تدخلا فى تاريخ مصر ، ومن ثم ، دفعت الأحزاب الى التوصل لاتفاقية جديدة .

التخلص من الامتيازات الأجنبية فى المفاوضات التى اجريت فى مرنترو سنة ١٩٣٧ » ، وهو ما اختلف فيه النحاس مع غيره من القوى الحزبية الأخرى بل والقوى الحزبية داخل حزب الوفد ، كما هو الحال فى الخلاف الذى وقع بينه وبين احد زعماء الوفد وهو النقراشى .

ومدى تأييد طه حسين للزعامة الوفدية نجده فى كتابات هذه الفترة ، ففى كتاباته الدورية القليلة ، وصف عصر وزارة النحاس بأنه « عصر جديد قوامه النهضة والنشاط والحرية »[٤٧] ، وحين يسأل عن الواجب الأدبى فلا يزيد على ان يقول هو « ان نكون أحرارا »[٤٨] .

وهو فى آخر كتبه واشهرها — مستقبل الثقافة فى مصر — يصرح بأن مصر « تبدأ عهدا جديدا من حياتها .. و .. ردت اليها الحرية باحياء الدستور ، وأعيدت اليها الكرامة بتحقيق هذا الاستقلال »[٤٩] ، وانه من الخير ان « نفكر فيما اتيح لنا من الفوز ، ونبتهج بما كتب لنا من الظفر ، فى هذا الجهاد الطويل الذى انتهى بنا الى ان نسترد الاستقلال »[٥٠] ، كما لم يكف لحظة عن ترديد أن مصر تعيش فى عصر الاستقلال والحرية ، وان ما يحشد جهده له فى هذا العصر الجديد هو الثقافة على ان يكون الهدف الأكبر فيها هو البحث عن المستقبل .

ووثائق هذه الفترة ترينا أن طه حسين يكتب رساله طويلة الى مصطفى النحاس قبل ان يفرغ من كتابه — مستقبل الثقافة — أو قبل أن يدفع به للنشر ، فيهدى اليه الكتاب أملا أن يجد فى عهد الزعيم مستقبل مصر .

وهو لا يتخلى عن هذا الموقف من المعاهدة التى ابرمها الوفد الى ما بعد سنوات عشر ، فهو لا يتردد وهو يهاجم حكومة النقراشى من التصريح بأن مصر ظفرت بحقوقها كاملة على يد الوفد وذلك فى معاهدة ٣٦[٥١] .

(٤٧) المجلة الجديدة ٣٧/١/١٣
(٤٨) السابق
(٤٩) مستقبل الثقافة ، ص ٥ — ٩
(٥٠) السابق ص ١٠
(٥١) البلاغ ٤٥/٩/١٦

والأهم من هذا كله ، أن طه حسين لا يشايع فكرة الوفد وحسب ، وانما يغلو فى ذلك ، فهو لم يكتف بتأييد وجهة نظر الوفد او زعامته حينئذ وهو النحاس ، وانما حرص على تأييد الرأى الذى يذهب الى ان الانجليز انما هم (اصدقاءنا) ، وهو ما يعنى انه لا يثير او ينتبه الى هذه الأفكار التى كانت تعارض سياسة الانجليز فى مصر ، والتى « كانت المانيا وايطاليا تبشران بها فى ذلك الحين . وهذا لا يميز تفكير طه حسين وحده ، بل يميز ايضا مبادىء الوفد القومية . وقد كان الوفد مرتبطا ، من الناحية الثقافية ، ارتباطا عميقا بفرنسا ، كما ان النشوة التى احدثتها معاهدة ٣٦ لم يتخللها اى شعور لانجلترا . انما كان هنالك خوف من مطامع ايطاليا غرب مصر وجنوبها »[٥٢] .

وقد التزم طه حسين بوجهة نظر الوفد ، كما سنرى ، فى كل ما كتبه سواء اثناء الحرب الثانية او بعدها وحرص عليه الى حد كبير .

ولم ير طه حسين فى النحاس الزعيم الوحيد فقط ، او فى الانجليز (اصدقاءنا) وحسب ، بل اختار فى تأييده وجهة نظر الوفد وترديد نبرة صداقة الانجليز حتى لو كان هذا فى موقف مضاد للملك فى خلافه مع الوفد .

وتفصيل ذلك انه فى عام ١٩٣٧ حدث خلاف حاد بين القصر والحكومة بسبب الرغبة التى أثارتها بعض دوائر القصر لاقامة حفل دينى لتتويج الملك فاروق إبان فترة توليه ، غير أن الوفد أبدى رفضه الشديد لهذه الفكرة .

وقد دارت معركة عنيفة بين صحيفة (البلاغ) الناطقة بلسان القصر وصحيفة (المصرى) الوفدية ، حول هذه المسألة استمرت طيلة شهر يونيو ٣٧ . البلاغ تذكر ان الدوائر الدينية تدافع عن الفكرة ، بينما عباس العقاد الذى كان قد خرج على الحزب الكبير وأصبح من كتاب الصحيفة الموالية للقصر ، يدافع عن الفكرة ايضا فى وقت كانت فيه صحيفة (المصرى) تدافع عن حكومة الوفد .

فى ذلك الوقت ، كان طه حسين لا يزال عميدا لكلية الآداب ، فاتخذ موقفا صلبا الى جانب الوفد ، ومع اعتقادنا بأن فكره كان مخالفا لقضية الخلافة ، فانه لا يمكن أن نقلل قط من تأييده لموقف الوفد تأييدا تاما ، اذ يذكر شاهد عيان انه قد خرج الطلبة

(٥٢) البرت حورانى ، ص ٣٩٢

فى مظاهرة ضد الوفد ، وانتهوا فيها الى الجامعة بايعاز من القصر ، واجتمعوا فى البهو الفسيح أمام مكتب المدير ، فى وقت كانوا يهتفون فيه بهتافات ضد الوفد وضد طه حسين[٥٣] ، وجاءت قوة لتواجه الطلبة فأوسعت أحدهم ضربا ، وأرسلت به الى حيث لا يعلم ، وحين خوطب طه حسين فى امكان انقاذه رفض التوسط له ، او حتى العمل على اعادته بأية حال[٥٤] !! .

***

واذا كان طه حسين قد آثر الانحياز للوفد كلية ، فقد كان من الطبيعي وبمجرد ان يقدم النحاس استقالته الى الملك اثر خلاف حاد بينهما ، أن تبدأ الوزارة التالية (وزارة محمد محمود) فى اختلاق المشاكل للتضييق على عميد الأدب ، ومن ثم ، بدأت مرحلة جديدة من مراحل علاقات طه حسين بوزارات الأقلية .

لقد وصل التضييق عليه اذ ذاك الى درجة انه حوصر فى مكتبه من جراء مظاهرة عنيفة ضده ، وهجم عليه بعض الطلبة بهراوة عنيفة كسرت بها النجفة الكريستال الموجودة فى حجرة العميد ، وحين اتصل بمدير الأمن اكثر من مرة لحمايته ، كان مدير الأمن يعتذر تباعا بحجة عدم وجود بوليس .

وقد بلغ من ضيق طه حسين انه حاول كتابة استقالته .

لقد كانت وزارة محمد محمود ائتلافية ، حاول فيها أول الأمر ان يكون نوعا من التحالف بين الأحزاب ضد الوفد ، فاذا بالأحزاب تختلق المشاكل لاهانة (كلية العواهر)[٥٥] ، كما اطلقوا على كلية العميد وذلك لتوسعه فى قبول ثلاثمائة طالبة .

(٥٣) عبد الرحمن الرافعى ، ج ٣ ط ١ ص ٥٣ ، وفى الأزمة يمكن العودة أيضا إلى د . هيكل ، ص ٤٢ ، ايضا : حسن يوسف : مذكرات ص ٨٩ ، يونان لبيب : تاريخ الوزارات ص ٤٠١ ، عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر ج ١ ص ١٣٦ ، وايضا مقالة هامة لحافظ محمود فى صحيفة الجمهورية ١٩٦٧/١/١٨ ، (ايضا من لقاء خاص مع حافظ محمود ، ٨٤/٤/٣٠)

(٥٤) دار المحفوظات ، السابق ، اوراق جلالة الملك ، محفظة رقم ٦٤٤ ، ايضا : اوراق طه حسين

(٥٥) السابق ص ٧٦ — ٨٢

وقد انتهت سياسية محمد محمود الى الخروج به من الجامعة ، فبعد ان ضيقت كثيرا على الوفد بايعاز من الملك ، فأصدرت مرسوما ملكيا يحل البرلمان الوفدى فى ٣ يناير ، ثم قامت بعمليات فصل واسعة للموظفين الوفديين واحلال موظفين معروفين بولائهم لها محلهم ، كما لم تأل جهدا فى هدم الوفد على ايدى المنشقين عنه واظهار ان الحزب الكبير قد انقسم على نفسه ، بعد هذا كله ، لم يكن امامها غير ان ترفض بقاء طه حسين عميدا لكلية الآداب حين رشح للمرة الثالثة ، فحين عرض على محمد محمود أوراق تعيينه وقع بالاستغناء عنه ، وان ظل استاذا بالجامعة .

وهكذا خرج طه حسين من العمادة مرة اخرى ، ولم يعرف له موقف سياسى واضح فى وزارات الأقلية حتى اقالة الوزارة السعدية فى منتصف الأربعينات على وجه التقريب .

ويبدو ان العلاقة بينه وبين السعديين فى أول الأمر لم تكن لتصل الى درجة القطيعة بعد ، وهو ما يفسر تعيينه فى هذا المنصب بما عرف عنه من ميول وفدية خالصة ، وتؤكد العديد من الدلائل أنه آثر الهيئة السعدية فى تكوينها متعاونا مع النقراشى (باشا) تعاونا وثيقا بما عرف عن هذا الوزير ، وقد اصبح وزيراً للمعارف حينئذ ، فى وزارة على ماهر ، من قوة تستطيع حماية أى من العاملين معه .

اذن ، كان تأييده لها واضحا أشد الوضوح ، وتفسير هذا يعود الى انه فى الوقت الذى راح يكتب فيه فى الصفحات الأدبية بدا واضحا تأييده للوزارة القائمة فيما مثلته سياستها التى كانت تلتقى مع فكره فى عدم مسايرتها للسياسة الانجليزية ، ومن ثم ،رفض الدخول فى الحرب .

وهذه الفترة لم تخل من كثير من المضايقات التى واجهت طه حسين من رجال الدين المحافظين أو اولئك النواب الذين لم يتوقفوا منذ عين مستشارا للثقافة عن الهجوم عليه ، غير ان النقراشى استطاع حمايته لأكثر من مرة ، كما أن طه حسين تقدم باستقالته الى الوزير السعدى الذى لم يقبلها منه ، وقد تكررت هذه المحاولة فى نهاية تلك الفترة من جراء المضايقات التى كان يواجهها فقرر استقالته الى وزارة المعارف « أنه رأى فى بعض التصرفات تجاوزا لاختصاصه) ، وقد بذلت الكثير من المحاولات لاثنائه عن رأيه »[٥٦] .

(٥٦) الاهرام ٤١/٩/٢٥ ، ايضا : انظر دفاع الوادى عنه فى ١٩٤٠/٣/٢

كما ان سياسته التى تنحو الى الهدوء انسحبت على موقفه من أحزاب الأقلية التالية أيضا من مثل وزارتى حسن صبرى وحسين سرى ، خاصة وانهما اتخذا سياسة على ماهر من ضرورة الالتزام بعدم تجنب مصر الحرب وهو ما سنصل اليه فى موضعه .

ويتحدد موقف مصر من الحرب العالمية الثانية منذ وزارة السعديين عام ١٩٣٩ ، فعلى الرغم من ان السفير البريطانى طالب مصر بدخول الحرب ، فان على ماهر قد تريث فى هذا بحجة انه يجب كسب الوفد ومسايرة الرأى العام الى غير ذلك من الأسباب التى تذرع بها كيلا تزج البلاد نفسها فى الحرب[٥٧] .

وقد انعكس مناخ الحرب جليا فى التضييق على الصحف وكبت الحريات واحكام الرقابة على الأقلام .. الى غير ذلك ، وعلى هذا لم يشارك طه حسين بغير كتاباته التقليدية كأن يقرر ان « الشجاعة والصبر وضبط النفس هذه هى الصفات التى يجب ان نتحلى بها فى هذه الأزمة »[٥٨] ، كما يرى فى ضرورة الحرب ان « الشعب الديموقراطى يحارب لحرصه على الحياة الحرة والشعوب المستعبدة تساق الى الحرب كارهة[٥٩] .. الى غير ذلك من الموضوعات محاولا ان يتفرغ لبعض قضايا التعليم ، ويؤكد العلاقة الوثيقة بين التعليم وبين الديموقراطية .

على ان رأيه الواضح من الحرب يمكن ان نجده فى اهم كتبه واخطرها التى صدرت فى تلك الفترة وهو (أحلام شهر زاد) ، اذ حاول باستدعاء التراث وتلمس الرمز ان يدلى برأيه فى الحرب وبعض القضايا المعاصرة وهو ما سنصل اليه فى حينه .

لقد كان موقف طه حسين من تجنيب مصر ويلات الحرب فى احد وجوهه هو ترجمة لموقف الوفد الذى لم يقطع بدخول الحرب او يشير اليه ، وانما دعا الى التأنى كما

(٥٧) .. مع ان موقف الأحزاب ينفاوت بين السعديين الذين نادوا بضرورة دخول الحرب ، والوطنيون والأحرار الدستوريين والمستقلون نادوا بعدم اشتراك مصر فى الحرب ، فان الوفديين كانوا ممتنعين عن اعلان رأيهم ، مطالبين بانسحاب انجلترا بمجرد عقد الصلح ولم يتعرض رئيس حزب الوفد لمسألة الحرب .. كما ان وزارة ٤٢ لم تتخذ رأياً حاسما فى الحرب بل وتبنى النحاس خطا واضحا مع بريطانيا من التعاون .

(حسن يوسف ، ص ١١٧ ، ايضا : عبد العظيم رمضان ، السابق ، ج ٢ ص ١١٥ .

(٥٨) المصور ٤٠/٥/٣١)

(٥٩) المصور ٤٠/٩/٢٠

عبرت صحيفته اذ « ليس فى الصبر بلا شك اى خسائر ، وانما الخير فى ضمين مكفول . وقد رأينا الأمم المحاربة ذاتها استأنست قبل الاعتزام »[٦٠] .

ومهما يكن ، فان ميزان النصر مال الى جانب انجلترا مما دفعها الى تخفيف قبضتها على الشئون الداخلية فى مصر ، فاستطاع الملك إقالة وزارة الوفد عام ٤٤ ، ومن ناحية اخرى ، فان الفترة بين ٤٤/٥٠ هى التى تحدد علاقة طه حسين بأحزاب الأقلية وبشكل اكثر وضوحا ، فقد عاش ازمة الخلاف بين زعامات حزب الأغلبية ، فعرف الصدام على المستويين الفردى والعام مع السعديين ، ثم (الكتلة) ، ثم وقف وجها لوجه فى مواجهة اسماعيل صدقى الذى عاد الى وزارة ٤٦ ، واخيرا لم تكن علاقاته تسير سيرا حسنا مع الملك ومع الانجليز .

وباختصار ، بمجرد سقوط الوفد ، كان أول اهداف الوزارات السالبة هو القضاء على مناطق نفوذه ، فما كاد يمضى قرابة أسبوع حتى أحيل طه حسين — ضمن من أحيلوا — من منصبه مستشارا لوزارة المعارف ، فعاش ، بالتبعية ، مأزق تغيير الوزارات حتى بداية الخمسينات تاريخ آخر وزارة وفدية .

وقد كان من أثر التضييق الذى بدأ ضد الوفد ان حاول حزب الأغلبية الافادة من كل الظروف لاستعادة شعبيته ، وقد اتخذ خطة فى مواجهة حكومة السعديين فى كل مجال من المجالات السياسية .

وقد تحددت مواقف طه حسين من خلال موقف الوفد ازاء هذه الأحداث .. لم يستطع اخفاء بغضه وهو يحكم ، اذ شبهه وهو يحكم مع حزب الحكومة بقصة السندباد اذى استغل طيبة أحد الشيوخ فدفع بساقيه لتلتف حول رقبته ، « وسيبقى الشيخ على كتفيه وسيشبع عنقه ضغطاً وصدره ركزاً وجنبيه ركلًا حتى يفتح الله له بابا من أبواب الفرج . ويخف غيره من الذين يرمقونه مشفقين حيناً وساخرين حيناً آخر فينقذه من هذا المكروه ويضع عن كتفيه هذا الحمل الثقيل ، ويرد إليه حريته »[٦١] . كما انه لا يتردد فى القول فى موضع آخر ان مذهب العقاد السياسى ، السعدى ، إنما هو مذهب يبغضه « فأنا امقت المذهب السياسى للأستاذ العقاد مقتا شديدا أو ازدريه ازدراء لا حد له ، ولا

(٦٠) السابق ٨/١١/٤٠ ، ٧/٢/٤١

(٦١) البلاغ ٢٩/٧/٤٥

أقر للأستاذ العقاد فصلًا من هذه الفصول السياسية التى يكتبها فى البلاغ »[٦٢] .

وقد كتب عدداً من المقالات يهاجم فيها النقراشى ، فحين كان الشعب يسأل عن سياسة الوزارة فى مفاوضاتها مع الانجليز وسر بطئها كانت الحكومة فى غيابة طويلة « طلب الشعب المصرى على اختلاف هيئاته واحزابه ان يعرف ما صنعت الحكومة » ولا يقارن بين التصريحات الانجليزية الصريحة والتصريحات المصرية الغامضة[٦٣] ، وهو يسخر من مدة الشركة التى يعرضها السفير البريطانى على رئيس الوزراء « ستكون مصر نفسها موضوعاً لهذه الشركة . وإذن فلن تخلص مصر لنفسها بل سيشاركها البريطانيون فى أمورها ان وفق المستر بيفين إلى ما يريد »[٦٤] .

وحين يشاع أن الوزارة القائمة ستقدم مذكرة الى الحكومة الانجليزية تطلب الجلاء وحل مشكلة السودان ، يهاجم الوزارة مؤكداً على ان مصر ستظفر « بحقوقها كاملة على يد الوفد كما ظفرت بمعاهدة ٣٦ لسبب بسيط ، وهو ، أن الوفد إذا أراد ان يكتب مذكرة إلى الحكومة الانجليزية لم يتردد فى كتابتها ولم يتردد فى تقديمها[٦٥] .

كما يسخر ممَّن يعرض قضية مصر فى الأمم المتحدة فى وقت عرضت فيه قضايا دول اقل من مصر شأنا بكثير ، نالت قدرا أكبر من الذى نالته مصر من الحرية والاستقلال[٦٦] .

كما لا يتردد فى السخرية من السياسة الداخلية للوزارة ، ففى مقالة بعنوان (أمن) يكتب مستعرضا احداثا ثلاثة سائلا كيف تمت ؟ وكيف فلت زمام الأمن ممثلا فى اغتيال احمد ماهر والقاء قنبلة امام الناس ومحاولة اغتيال أمين عثمان حتى تم اغتياله بالفعل ؟[٦٧] .

ويظل يهاجم سياسية الحكومة سواء فيما يتعلق بالتعليم المجان عاقداً مقارنة بين

(٦٢) السابق ١٨/١٠/٤٥
(٦٣) السابق ٢٥/١٠/٤٥
(٦٤) السابق ١٨/١٠/٤٥
(٦٥) السابق ١٦/٩/٤٥
(٦٦) السابق ٢٠/١/٤٦
(٦٧) الوادى ٦/١/٤٦

الوزارة القائمة ووزارة الوفد قبل ذلك[٦٨] أو مناهج التعليم وأساليبه[٦٩] ، أو فى التضييق على الحريات والتوسع فى الأحكام العرفية التى تتبعها هذه الوزارة[٧٠] .

وهو فى الوقت نفسه لا يصمت عن مهاجمة حزب (الكتلة الوفدية) الذى مثله مكرم عبيد بعد خلافه مع النحاس وخروجه عليه ، اذ كان هذا الحزب فى وزارة النقراشى ، هو على سبيل المثال ، يهاجم مكرم كرئيس لهذا الحزب حين قبل ان يشتط على وزارة النقراشى ويطالبها بنوع من الجلاء « لاتبقى بعده مطارات ولا قواعد بحرية للانجليز ، كان الوزارة مستعدة لقبول جلاء تبقى بعده المطارات والطائرات والقواعد البحرية للانجليز »[٧١] .

وهو فى تتبعه للمذكرة التى قيل انها كتبت للحكومة الانجليزية بقصد المفاوضة معها ، يسخر من مكرم الذى يقول شيئا ثم ينقض قوله بقول آخر ، فهو يكتب هذا بعده بقرابة شهر فيقول « نسى مكرم باشا ما قاله فى سبتمبر من ان كرامة مصر تأبى عليها كتابة المذكرات الى الانجليز وأعلن فى هذه الأيام ان كرامة مصر تفرض عليها كتابة المذكرات الى الانجليز »[٧٢] .

وقد حاولت وزارة السعديين التى احتوت على عناصر من حزب الأحرار الدستوريين التضييق على طه حسين ، وحاولت النيل من مكانته فى جامعة الاسكندرية ، آخر المناصب التى كان حريصا عليها تماما ، فلم يجد مفرا من الاستقالة ، واستقال بالفعل ، ليشتغل فى اخراج عمل آخر هو مجلة (الكاتب) .

غير أن دائرة التضييق حوله كانت محكمة ، فأغلقت مجلة (الكاتب) ، ورحل الى الخارج ، ملمحا بعدم العودة قط الى البلاد إلا بعد تغيير الحكم .

ويمكن أن نجد أقصى درجات غضبه فى هذه الفترة ممثلة فى الكتاب الذى شغل به

(٦٨) السابق ٤٦/٩/٢
(٦٩) السابق ١١ ، ٤٥/١٠/١٤
(٧٠) البلاغ ٤٥/٦/١٤ ، السياسة ٤٥/٨/١٥
(٧١) البلاغ ٤٥/١١/١١ (٦) الوادى ٤٥/١٢/٢٠
(٧٢) وهو ما نجده خاصة فى المقالات التى كتبها فى الأربعينات وجمعت فى كتاب (بين بين) ، كما يتوزع هجومه الحاد فى صحف السياسة ، البلاغ بين عامى ٤٦/٤٥

أثناء رحيله ، فقد ترك وزارة فى مصر يراها « شرا ونكرا دائما » ، كما أن الكتاب زاخر بالغضب السياسى على كل شىء ، كما تزخر كتابات هذه الفترة فى الصحف أيضا بالعديد من الأشياء من أمثال الأحكام العرفية ومراقبة الصحف ومهاجمة النواب والوزراء والحزن على الدستور ، مازجا فى هذا كله بين « قيمة العدل الاجتماعى المفتقدة وقيمة الاستقلال الضائعة » ، ضائقا بالهجوم الذى كان يوجه اليه من الكتاب السعديين والأحرار الدستوريين خاصة .

ومهما يكن ، كان ولابد أن يعود ، وقد حانت الفرصة للعودة بعد تولى صدقى الحكم من جديد ، فارتبطت عودته هذه المرة بغضبة سياسية عنيفة جدا ، لعلها كانت تمثل آخر ومضة فى علاقاته الحزبية . فما كاد صدقى يتولى الوزارة حتى بدا واضحا رفض الأحزاب وخاصة حزب الوفد التعاون معه .

وقد بدأ موقف الوفد اكثر عداء بعد أن أعلن زعيمه موقفه ، وهو موقف رسمى ، يقضى بعدم التعاون معه إلا بشرط انتخابات جديدة وهذا يعنى رفض التعاون معه فاجراء انتخابات جديدة من شأنه ان يقذف به بعيدا عن الحكم ، ومن هنا ، بدأ صدقى حكمه بحركة قمع عنيفة جداً ، مركزا فيها على صحف الوفد ومحاصرة دورها ، بل وأصدر بيانا ــ وقد كان وزيرا للداخلية ــ هدد فيه بأن الحكومة ستمنع كل تظاهر او تحرك بكل شدة ، الى غير ذلك من المصادمات التى جرت بينه وبين الوفد[٧٣] .

وقد كان المحك الرئيسى الذى يؤكد قدرة صدقى أو فشله هو اجراء التفاوض مع الانجليز ، وقد واجه فى هذا صعوبتين : ضغط الانجليز لموقفهم لصعوبة موقف صدقى وتكسر المفاوضات على صخرة السودان[٧٤] ، واندلاع المظاهرات التى تعرف لها أول الأمر مثيلا ، فلم يتعرض لها أول الأمر وما لبث أن هاجمها بعنف شديد فاتهم بمساندة الانجليز الذين أخذت سياراتهم تدهم اعدادا كبيرة من المتظاهرين .

وتكررت هذه الصدامات بعنف مما أثار طه حسين كأحد الكتاب المنحازين للوفد ، أولا ، وأحد الموتورين القدامى وبشكل شخصى من صدقى ، ثانياً ..

(٧٣) انظر : طارق البشرى ص ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ايضا : يونان لبيب ، الوزارات ص ٤٨٢ ، عبد الرحمن الرافعى ، فى اعقاب الثورة المصرية ص ١٨٤ ، ١٨٧

(٧٤) القضية المصرية ، ص ٤٩٤ ، ايضا : حسن يوسف ص ٢١٨

لقد كان طه حسين أول من أعاد إلى الأذهان ذكريات البطش والعنف الشديدين اللذين مارسهما صدقى فى الثلاثينات وذلك فى ضوء سياسته الجديدة ، وقد دلل على طبيعة صدقى الطاغية بقصة الأمير الذى حاول وزيره ان يؤكد له ان العادة طبيعة ثانية دون أن يوافقه ، وقد اثبت له ذلك بأن أقام حفلا أحضر فيه حاملات الشموع — قطط — وبمجرد أن ألقى فأرا أمامها حتى جرت القطط وألقت شموعها « فهذا صدقى يعود الى طبيعته المتأصلة فى داخله »[٧٥] ، وهو ينتقل من هذا الوضع الى الوضع الطبيعى المترتب عليه ، فيذكر ان « الصحف المصادرة والأخبار المحرفة والأخبار المنقوصة وصحف المعارضة تقرأ قبل ان يؤذن بنشرها فان امتنعت على ذلك واحتجت بالقانون واحتجت بالدستور صودرت بعد طبعها » ، كما يعرج الى تهاون صدقى فى التفاوض مع الانجليز ويحمله مسئولية اعتداء الانجليز على المتظاهرين او (الدهماء) كما يصفهم صدقى ، واصفا اياه بأنه تعود الحكم « على اساس ان الصوت البريطانى يجب ان يكون ارفع من الصوت المصرى مع أنه امضى مع الذين امضوا معاهدة ٣٦ فان عقليته ما زالت عقلية التسلط الانجليزى وعقلية التلطف مع الانجليز »[٧٦] .

ومع أنه ظل يهاجم صدقى كثيرا فى قضية المفاوضات مؤكدا فى اكثر من موضع أنه « يفاوض لنفسه لا لوطنه »[٧٧] ، وأنه يتهاون فى حق السودان »[٧٨] ، فانه لم يحجم عن التذكير خاصة بسياسته التى تقوم على التضييق على الصحافة ، فصدقى كما يراه تقدم الى البرلمان « بألوان من التشريع تحد من حرية الصحافة »[٧٩] ، وتقوم على مصادرة الصحف ومراقبة الناس والاستهانة بالدستور فقد قصد « ان يرد الناس الى ذلك العهد السعيد البعيد الذى كادوا ينسونه منذ ستة عشر عاما »[٨٠] ، كما ان حكومة صدقى التى تمثل صدقى ولا تمثل الشعب مفاوضاتها للانجليز تكون كذلك لأنها «لم تنشأ عن برلمان انتخب انتخابا حراً ولأنها تقيد حرية الشعب والاجتماع والخطابة والصحافة »[٨١] .

(٧٥) البلاغ ٤٦/٣/٧ ، ٤٦/٣/٣٠
(٧٦) السابق ٤٦/٢/٢
(٧٧) البلاغ ٤٦/٤/١١ ، ٤٦/٣/١٤
(٧٨) السابق ٤٦/٤/١١
(٧٩) السابق ١١ ، ٤٦/٤/١٤
(٨٠) السابق ٤٦/٣/١٠
(٨١) السابق ٤٦/٣/١١

ومهما يكن ، فعلى الرغم من جهد صدقى لإنهاء التفاوض مع الانجليز لصالح مصر ، فانه لم يكن يستند على قوى شعبية مثل قوى الوفد يمكن الانجليز الاطمئنان اليها ، ومن ثم ، تجمعت ظروف عديدة لتفشل المفاوضات فيستقيل صدقى .

وبمجرد تنحى صدقى تتالت الوزارات ، عاد السعديون ثانية بوزارة النقراشى التى احتدمت فى اثنائها القضية الوطنية فانتهت الاضطرابات واغتيل النقراشى نفسه ، ولم تكن وزارة ابراهيم عبد الهادى التالية بأفضل حظا منها ، فاستقالت فى ظروف صعبة خارجيا حوصر فيها الجيش المصرى فى فلسطين ، وداخليا ، بالحملة ضد الاخوان والشيوعيين وانتهى بها الأمر الى تسليم مقاليد الحكم الى وزارة حسين سرى التى كانت ، الى حد ما ، معتدلة فى رأى الوفد ، اذ مثلت وزارة انتقالية تحتوى على اربعة وفديين ، وعملت على مساندة حزب الأغلبية ليفوز ، وقد مهدت هذه الوزارة بالفعل لعودة حزب الوفد فى بداية الخمسينات .

ويمكن القول انه بسقوط وزارة صدقى ، فان طه حسين لم يعد يوجه سهامه الى أية قوى أخرى ، وانما تحولت علاقاته السياسية الى مبادىء اجتماعية اكتسبت من الواقع الاجتماعى دوافعها الحقيقية ، اذ كانت الفترة فترة غليان اجتماعى حاد ، ومراجعة كتاباته وكتبه حينئذ يمكن أن يرينا أنه باستثناء بعض الأعمال التى احتوت فى مضمونها على رمز سياسى وهى قليلة من أمثال : (جنة الحيوان) عام ٤٥ التى احتوت على كائنات كاريكاتورية لشخصيات سياسية معروفة ، و (رحلة الربيع) ٤٨/٤٦ الذى راح يتحدث فيه عن قيم الديموقراطية والحرية والمساواة .. باستثناء هذا ، فان بقية أعماله لم تجاوز الرمز الاجتماعى ، فهى تدعو الى المساواة والعدل مثل (المعذبون فى الأرض) و (ثورتان) و (ما وراء النهر) التى نشرت جميعها فى عام ٤٦ ثم (جنة الشوك) ٤٥ أو (القدر) ٤٧ أو (الوعد الحق) ٤٩ أو (مرآة الضمير الحديث) ٥٠/٤٣ ، فهذه الأعمال جميعا تعنى بالفقر والجهل والمرض والوباء الذى اجتاح مصر وضرورة وجود العدالة الاجتماعية والتركيز على قيم التعليم والدعوة الى التعليم المجانى الى غير ذلك من القيم التى ترى كموجة ثانية فى فكرة السياسى .

ويلاحظ ان موقف طه حسين فى وزارات الوفد (٤٤/٤٢) (٥٢/٥٠) لم يزد على ان يكون انحيازا ظاهريا ــ لا سياسيا ــ بمعنى ان طه حسين لم يتبين قضايا الوفد أو يدافع عنها بالقدر الذى تفرغ فيه لاتجاهه الفكرى ومحاولته التجديد فى الجانب

الاجتماعى ، ففى الفترة الأولى ٤٤/٤٢ وكان مستشارا لوزارة المعارف فضلا عن رئاسته لجامعة الاسكندرية ، فان مراجعة كتاباته ترينا انها لم تجاوز الاطار الأدبى والثقافى فضلا عن قلتها بشكل ملحوظ ، فاذا استثنينا رواية مثل (دعاء الكروان) وهى تدخل فى المجال الاجتماعى ، وترجمة سوفوكليس وهى تدخل فى مجال (يونانياته) .. فان هذه الفترة لم تعبر عن كتابات حزبية واضحة ، وانما مثلت إجتهادا على المستوى الشخصى العام .

اما الفترة الثانية ٥٢/٥٠ ، وقد كان طه حسين فيها وزيرا فى وزارة وفدية لم يزد على ان راح يشغل الناس بقضايا وهمية وخصومات ليس من ورائها طائل ..

وتفصيل هذا أنه حين جاءت وزارة النحاس الأخيرة ، أبدى رئيس حزب الأغلبية فيها جهدا كبيرا للحيلولة دون رفض الملك لاشتراك طه حسين فى تشكيلها كوزير للمعارف ، ففى الوقت الذى ابدى فيه الملك اعتراضه فقد بلغ النحاس انه فى حالة رفض اسم طه حسين يتنحى عن تأليف الوزارة(٨٢) .

وقد كان هذا تتويجا لكل جهود طه حسين فى مساندة الوفد وتأييده لسنوات .

والذى يحاول رصد علاقة طه حسين بحزب الأغلبية فى هذه الفترة يلحظ ان ثمة تشابهاً كبيرا بين السياسة التى اتبعها وهو فى جانب الوفد ، وبين السياسة التى انتهجها هذا الحزب من القوى السياسية حوله .

وباختصار ، فقد كانت سياسة حزب الوفد تتردى فى مهاوى الاستسلام ومهادنة كل القوى المتربصة حولها ، وهى المضادة للحركة الشعبية بهدف واحد ، هو ، حماية نفسها والعمل على البقاء بأى ثمن(٨٣) .

(٨٢) الجمهورية ١٩٥٥/٦/٢٦

(٨٣) .. وتفصيل هذا انه على المستوى الحزبى ، اتفق كل من كتب عن حزب الوفد ان (وفد الخمسينات ليس هو وفد العشرينات او الثلاثينات او حتى الأربعينات .. ففى الوقت الذى اعترى الوفد ظاهرة الانشطار بين اليمين واليسار ، وهى (ظاهرة تفشت فى الحزب الكبير على مختلف المستويات .. مستوى الوزارة او مستوى التنظيمات الحزبية) ، فقد اعتراه ايضا (ظاهرة المهادنة الكاملة للقصر مما جعل الكتاب المعاصرين يطلقون على وزارة الوفد الأخيرة انها وزارة الاستسلام للملك) .. وعلى هذا النحو تعددت مظاهر الاخفاق التى تردت اليها آخر وزارة وفدية سواء من المشكلة الدستورية التى كانت تتجسد خاصة فى استبداد الملك واستفحال =

فماذا كان موقف طه حسين فى الوزارة الوفدية ؟

إن مراجعة موقف طه حسين وعلاقاته الحزبية حينئذ يمكن أن تضع أيدينا على عدد من النقاط كالآتى :

فى الفترة التى تمتد بين (١٣ يناير ٢٧/٥٠ يناير ٥٢) وهى فترة بقاء وزارة الوفد ، انقطعت كتابات طه حسين او كادت ، اللهم إلا ، من بعض الشذرات المتقطعة التى لا تدور إلا فى اطار التعليم ومناهجه والتعليم ومجانيته ، فهذه هى القضية التى كان قد نذر نفسه لها منذ وقت بعيد ، وجاءت الفرصة الآن ليطبق ما سبق ان صرح به فى (مستقبل الثقافة ..) منذ اكثر من عشر سنوات .

واذا استثنينا كتاباته الاجتماعية التى كانت لا تزال تثير ضجة عالية مثل (المعذبون فى الأرض) إلى درجة أن الملك ضاق بها .. يمكن القول ، انه ، لم يبد فى وزارة الوفد اى موقف سياسى يكون من شأنه الخروج بها من دائرة الحزب او متأثرا بعلاقات حزبية خاصة ، فارتدى مسوح الوزير مستعيضا به عن مسوح الجامعة أو مردداً موقف المثقف ودوره ومواقفه من السلطة أو النظام كما قال ذلك أو كان وراء قوله فى عديد من الأزمات التى أثارها من قبل .

موقف طه حسين من الملك كان موقف حزب الوفد ، فكما اتخذ الوفد سياسة « المهادنة الكاملة للقصر » ، كذلك حرص طه حسين على اتخاذ نفس السياسة ، فخطبه أمام الملك تسجل فى أكثر من مناسبة الحرص الشديد على ارضائه سواء فى نفى تهمة اتخاذ موقف مناهض من الملك السابق — فؤاد — وهو ما كان الملك فاروق يغضب منه كثيرا كلما ذكر اسم طه حسين او فى اتهامه بتهمة الشيوعية التى كان الملك يرددها كلما جاء ذكر اسمه ايضا .

وقد استحق طه حسين لهذه السياسة التى اتبعها مع الملك ان يمنح رتبة (الباشوية) وان كان موقفه من القصر له موضع آخر .

= نفوذه ، او من الفساد الذى استشرى وتبلور الى استغلال النفوذ واتخاذ الوظائف مصدرا للثراء وعلاقة الادارة الحكومية بالشركات وكبار الملاك وانخفاض الأجور والمرتبات وارتفاع نفقات المعيشة واختفاء الحريات السياسية وحتى موقف الوزارة من قضية الجلاء .

(يوجد شرح واف لمظاهر اخفاق الوزارة ومظاهر الاستخذاء امام الملك ومطالبه بين صفحتى ٣٢٦/٣٠٨ ، ايضا ص ص ٥٠٩/٥٠٣ من كتاب (الوزارات) .

شغل طه حسين بعديد من القضايا التى فرضت عليه فرضا حينئذ ، فعلى سبيل المثال ، أُثيرت قضية مشايعته ــ وهو وزير معارف ــ لدار المعارف التى يطبع فيها أعماله ، كما افتعل خلافا حادا مع وزير الداخلية ــ فؤاد سراج الدين ــ فى هذا الوقت[٨٤] .

ومما سبق ذكره ، فنحن لا نجد لطه حسين تأثيرا بارزا فى السياسة التى اتبعها الحزب الذى انتمى اليه ، ويمكن القول ، انه ، كما كانت وزارة الوفد ، بما اطلق عليها (وزارة الاستسلام للملك) ، كذلك ، فان وزير المعارف فيها كان وزير استسلام لكل الظروف من حوله بقصد الابقاء على وزارته .

ويمكن ان نوجز أهم النتائج التى أثيرت حول علاقة طه حسين بالأحزاب ــ الأقلية أو الأغلبية ــ فيما يلى :

خضع طه حسين فى علاقاته الحزبية لجملة مؤثرات لعل من أهمها وقوعه تحت تأثير مباشر لعبد العزيز جاويش ولطفى السيد فى مقتبل حياته ، فكتب فى خط حزبى : الوطنى والأمة ، ثم تحت تأثير الانتماء الشخصى لأغلب ريادات حزب الأحرار الدستوريين ، كما كتب فى خط حزب الأحرار الليبرالى .

وكما وقع تحت تأثير الفكر الليبرالى فى مقتبل حياته ، كذلك ، وقع تحت تأثير الحاجة التى اسهمت مع غيرها فى انتمائه الى فكر الوفد وصحفه وزعيمه فى فترة لاحقة .

(٨٤) الأساس ١٥/١٢/٥١

(ففى القضية الأولى ، عرف أنه يعمل على نشر سلاسلها (الأعداد) فى محاولة بيعها الى الوزارة لتقرر على المدارس ، فتشترى الوزارة أربعة آلاف نسخة بما يصل إلى ألف جنيه . كما يتهم بشراء كتب له ، إذ تشترى وزارة المعارف وهو وزير للمعارف أربعة كتب من تأليفه ليحصل على اثمانها بأسعار عالية ، والعمل على طبع سلسلة دار المعارف الى غير ذلك مما دفع به الى تبليغ النيابة ضد الصحيفة ، أما فى القضية الأخرى ، فقد اثارتها بعض الأجنحة الرجعية فى حزب الوفد نفسه ، وتفصيل هذا انه افتعل خلافا حادا مع وزير الداخلية لقراره بعدم التعيين فى الوزارات الحكومية فيغضب ويشكو الى (رفعت رئيسه الجليل وهدد بالاستقالة اذا لم يستثن من القيد المشار اليه .. ورغم ان وزير المالية وسط عنده .. فانه أصر على تهديده) ، وينتهى الأمر ظاهريا ، بأن يرضخ وزير الداخلية لطلب طه حسين ويبيح له التعيين ، وان اختلق له المشاكل وهو ما فعل فى زيارة وزير المعارف للمنصورة فى فترة تالية مما دعاه الى التهديد ثانية بالاستقالة) .

وقد تباينت درجات هذا التأثير قبل الثلاثينات وبعدها ..

ففى الفترة الأولى كانت أفكاره فى خدمة علاقاته ، وهو ما يفسر دفاعه عن الأحرار الدستوريين وهو استاذ جامعى قبل ان تضم الجامعة الى الحكومة ، حتى اذا ما ضمت الجامعة الى الحكومة ، واسترضى من قبل القوى السياسية القائمة .. أعيد الى الجامعة وانقطع عن الكتابة السياسية ، غير انه اضطر للعودة اليها ثانية فى بداية الثلاثينات حين تقطعت علاقاته مع حزب الأحرار ، فى وقت كانت فيه علاقاته فى خدمة أفكاره فى المقام الأول ، ومن ثم ، تحددت علاقاته مع حزب الوفد فحرر فى صحيفته .

أيضا كان تواقا للمشاركة فى السياسة فى مقتبل حياته ، فأوراقه الخاصة تؤكد أنه ، بعد عودته مباشرة من الغرب فى بداية العشرينات ، قدم الى مجلس ادارة الجامعة المصرية للتصريح له بأن يشترك فى تحرير جريدة السياسة وقد صدر قرار مجلس الادارة بالموافقة ، وهو ما يؤكده موقفه من ثورة ١٩ الذى كان موقف الحيدة كما حدده بقوله (جبنا ونفاقا .. فقد غرق فى السياسة واحترق بنارها ، ولم يكن له بد من ان يحتمل تبعات هذا الغرق او هذا الحريق ، وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام الا نتيجة طبيعية لاقدامه على السياسة وغرقه فيها) على حد قوله فى سيرته الذاتية .

والرغبة الجامحة للمشاركة فى الحياة الحزبية تفسر كثيرا من الأمور من أمثال أنه رغم عدم اعترافه بسعد أو بحزب الأغلبية فى ثورة ١٩ اعترف بالثورة بعد أمد بعيد من نشوبها ، كما كان يحرص على المشاركة السياسية بعد ان يرتدى رداء استاذ الجامعة او مسوح المثقف ، وهو ما يلقى أضواء كثيرة على كثير من علاقاته الصحفية وخصوماته السياسية .

كما يحمد له ، أنه ، فى أشد فترة من فترات ارتباطه بأحزاب الأقلية لم يناصر الاقطاع أو الرأسمالية اذ كان مخلصا دائما لمناطق التأثير التى عرفها فى اول حياته ، فحاول تأييد الحزب التى انتمى اليه حتى بعد انتمائه الى حزب آخر (حزب الاتحاد) على سبيل المثال ، كما ظل مخلصا لمناطق التأثير الذى عرفها فى نهاية حياته (انتماؤه الى حزب الوفد) على سبيل المثال ، اذ حاول ان يترجم مشاركته السياسية فى خطه الاجتماعى فى الفترة الأخيرة .

وكان من العوامل الجوهرية التى اسرعت بطه حسين الى الانحياز لحزب الأغلبية هذه المحنة التى عانى منها فى فترة صدقى الأولى .

وعلى أية حال ، فقد كان التحول يتمشى مع خط الجماهير التى كانت تعانى أزمة العدالة الاجتماعية وهو ما يتمثل فى كتاباته الاجتماعية فى الأربعينات .

ويرتبط بهذا ، ان الفكرة الاجتماعية التى تركز عليها جهده فى العقد الرابع لم تكن نبتا شيطانيا ، فكثيرا ما كان يقال ان خطه السياسى تأثر بموقفه الفكرى ، وهو ما يمكن أن يكون صحيحا لو أنه لم يع الظروف التى بدأت تتكشف حينئذ عن أزمة طبقية حادة لا تخفى على أحد .

واذا كان الواقع التاريخى يؤكد على ان الوفد شهد جناحا تقدميا رأى فى الحزب « تجمعا سياسيا عريضا يقوم على أساس تحقيق الاستقلال والحرية والدفاع عنهما . ويرى فى هذين المطلبين الأساس الذى يجب ان تبدأ به أى من خطى التقدم الاجتماعى » .. اذا كان ذلك كذلك ، فان الجناح الذى يقف يسار الوفد دون اى تصنيف يمكن ان يرى فيه طه حسين بفكره الراديكالى الجديد .

فارتباط طه حسين بالوفد ، اذن ، جاء ارتباطاً ملحا فرضته الظروف ، ووعاه طه حسين بحاسته وغريزته فى التغيير وإن كان عديد من الظروف الشخصية أسهم فيه ..

على ان الارتباط بالوفد فكريا قابله الانعزال عنه سياسيا .. فالى جانب الفكرة الاجتماعية جهد ليفرغ لأفكاره التعليمية والثقافية ، وعلى هذا ، فما كاد يأتى عقد الخمسينات ، ويصبح طه حسين وزيرا وفديا ، حتى كانت دائرة العزلة قد أكملت دورتها فى الجانب السياسى .

ولم تكن علاقة طه حسين بالأحزاب بوجه عام هى علاقة ارتباط حزبى خالص ، فلم يعرف الارتباط (التنظيمى) ، كما لم يمارس نشاطا سياسيا لخدمة مصالح الحزب بشكل مباشر ، وانما تحددت كتاباته حول الدفاع عنه بأفكار تنتمى الى انتمائه الحزبى .

وقد تحددت علاقاته الحزبية حينئذ حول الصحافة والعلاقات الشخصية المميزة ، اذ احتفظ لنفسه بمرونة الحركة بين المنابر الثقافية للأحزاب ، وهو الأمر الذى يفسر ، فى كثير ، انتقاله بين صحف أكثر من حزب ، وأيضا عدم ارتباطه بشكل تنظيمى بأى منها .

وعود على بدء ، ان موقف طه حسين الحزبى حال بينه وبين الضياع السياسى ، فالى جانب رفضه الانغماس فى حركة اى حزب انغماسا سياسيا (وهناك محاولة حاول فيها حزب الأحرار دفعه للترشيح عام ٢٥) .. فان علاقاته الحزبية لم تصل الى درجة (الكادر) التنظيمى قط ، وانما ظلت ، فى الغالب ، فى خدمة افكاره التى تحددت طورا حول مصالحه الشخصية وطورا آخر حول تطوره الفكرى الذى شهد اكثر من مرحلة فى الفترة التى سبقت ثورة ١٩٥٢ .

الفصل الثالث
موقفه من الوجود الأجنبى فى مصر

ـــ المؤثرات الشخصية والحزبية الأولى .
ـــ الهجوم على الانجليز ٢١/٢٢ .
ـــ موقفه من قضية السردار ٢٤/٢٥ .
ـــ فى أزمات سياسية ٢٦/٣٠ .
ـــ الهجوم على الانجليز ٣٠/٣٤ .
ـــ موقفه من معاهدة ٣٦ .
ـــ موقفه من الحرب العالمية ٣٩/٤٤
ـــ المؤثر الفرنسى وراء موقفه .
ـــ الهجوم على الانجليز بعد الحرب ٤٤/٤٦ .
ـــ القضية الوطنية ٤٦/٥٠ .
ـــ القضية الوطنية والمطلب الاجتماعى .
ـــ اختفاء دور طه حسين فى وزارة ٥٠ .
ـــ نتائج أخيرة .

لم تعمل المؤثرات الشخصية / الحزبية بمعزل عن المؤثرات الوطنية او الثقافية فى تحديد موقف طه حسين من قوى الوجود الأجنبى فى مصر ، اذ تداخلت جميعا ، بشكل

يصعب معه تحديد المؤثر الفعال ــ الوحيد ــ فى هذه العلاقة ، ومن ثم سيكون علينا رصد هذه العناصر وتحديدها على النحو التالى :

أولا : تحليل موقف طه حسين الخاص من قوى الاحتلال .

ثانيا : الاشارة الى ان هذا الموقف يرتبط بتواجده فى معسكر هذا الحزب او ذاك .

ثالثا : الاشارة الى انه يرتبط ، سيما بعد عودته من البعثة مباشرة ، بثقافته الفرنسية والملابسات التى عملت على دفعه الى تبنى علاقة ضد الوجود الأجنبى فى البلاد .

★ ★ ★

وكما أن قوى الاحتلال ، كما عرفنا ، من أهم الأسباب التى دفعت بالقوى الوطنية الى اقامة الأحزاب ، كذلك ، فان قوى الاحتلال هى التى دفعت بالأحزاب الى تحديد دوافعها وتياراتها ، وهو مايعود الى الخلافات التى تنشأ عادة بين القوى الوطنية فى مواجهة القوى الاحتلالية .

وباختصار شديد ، ففى عام ١٩٠٧ الذى تم فيه اعلان قيام الأحزاب وتحديد مواقفها من قوى الاحتلال ، فان جملة من التطورات دفعت بالحزبية الى السير فى اتجاهات متناقضة لمواقفها الأولى ، بينما يظل الحزب الوطنى سادرا فى هجومه على المستعمر ، فان حزب الأمه يتخلى عن اسلوب المهادنة الى اسلوب الهجوم بسبب العديد من الأحداث الطارئة منها التقارب بين الخديوى والسلطة الاحتلالية وتصريحات اللورد جراى فى مجلس العموم المناهضة لمصر [١] ، وقد انتهى اختلاف الطرق بينهما الى رفض كل منهما مبادىء الآخر لتعدد الولاءات حينئذ .

وهنا ، نخلص الى عدة ملاحظات بالنسبة لوجود طه حسين وعلاقته بالمستعمر فى هذا الوقت نفصلها كما يلى :

إن نشأة الأحزاب وتطورها عاصر فترة تطلع طه حسين الى الجامعة وارتيادها ، وايثاره للفكر الجديد الوارد من الغرب .

كما ان زعماء الأحزاب كان لهم تأثير كبير فى توجيهه ، فقد كان يختلف الى الشيخ

(١) يونان ، السابق ص ١٩٤ .

عبد العزيز جاويش من زعماء الحزب الوطنى فيسمع له صوتا عذبا ، وحديثا لينا رقيقا ، ويرى وراء هذا اللين ، وتلك العذوبة ، عنفا اى عنف ، اذا ذكرت السياسة ، وقد كان جاويش يحبب العنف الى الفتى ويرغبه فيه ، ويزين الى قلبه الجهر بخصومة الشيوخ ، فقد كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجأون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديوى ومصانعتهم للانجليز [٢] اضف الى ذلك ان تأثير عائلة عبد الرازق أكثر من غيره ، ثم هذا التشجيع من لطفى السيد الذى علمه « اللفظ والأناة فى الفكير » .. ويمكن ان نفهم العلاقة بين عائلة عبد الرازق والانجليز ، حتى نعلم ان كرومر كاشف أخصاءه المترددين عليه امثال حسن باشا عبد الرازق فأطلعوه على « فكرة الشيخ محمد عبده لنشأة حزب الأمة فوافق عليها » [٣] .

وخلاف الأحزاب انعكس على موقفه .. فقد بلغ النفور بين الأحزاب الى درجة ان مصطفى كامل لم يتردد عن انزال اقصى الاتهامات للأحزاب الأخرى المنافسة ، وبالذات (حزب الأمة) والذى الصق بهم تهما عديدة ، من بينها ، انهم جواسيس وخدام المحتلين والخونة والأشرار وما الى ذلك [٤] ، وهو ما يتمثل فى تنقل طه حسين بين هذا الموقف أو ذاك بماله من تأثير فى موقفه من قوى الاحتلال .

وقد اشرنا سلفا الى اختلاف طه حسين الى هذا الحزب او ذاك ، وهو ما يصل بنا اكثر الى تحديد موقفه من الوجود الأجنبى ، ففى حزب الأمة قد تعرف على ممثليه مبكرا ، كما اشرنا ، تحدد موقفه من موقف الحزب من قوى الاحتلال ، وهو لم يهاجم الانجليز هجوما عنيفا قط ، بل لم يتحدث عنهم حديث الذى يطلب الاستقلال بالدرجة الأولى ، وهو ما يصوره اتجاه الحزب [٥] .

وبدلا من مهاجمة سياسة الانجليز فى مصر ، راح يوجه هجوما حادا على الحزب الوطنى الذى كان قد اطلق عليه من جانب المعتدلين فى حزب الأمة (حزب الطيش)

(٢) الايام ، ج ٣ ص ٢٠ .
(٣) الشعب ١٩١٢/٥/٢٦ .
(٤) يونان لبيب ، السابق ص ٨١ .
(٥) الجريدة ١٩٠٧/٤/٣٠ .

مصرحا وملمحا فى عديد من المواقف هذا الموقف [٦] ، وربما يكون هذا الموقف وراء السبب الذى جعله لايهتم بموت مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى او يكتب عنه رثاء .. اذ تشير كثير من الدلالات الى موقفه غير المنصف من مصطفى كامل حينئذ .

غير انه بدخول الأحزاب عام ١٩٠٨ وما اتضح خلاله من الصدام بين القوى الوطنية وقوى الاحتلال حيث تأكد لحزب الأمة عدم جدوى اتباع سياسة تأحيل قضية الاستقلال .. فان خط حزب الأمة بدأ ينحرف الى اتجاه آخر متقدم ، فبدلا من انتظار الاستقلال والانشغال بغيره ، بدأ الاهتمام به والمطالبة بانجازه لسبب اكتشفه ، هو ، ان الاحتلال لن يسمح لأية قوة وطنية ، مهما تكن من سياستها الصادقة او المهادنة مع الانجليز الاستعداد لنيل الاستقلال .

ومن هنا ، ترصد التطورات السياسية أمرين : .

أحدهما : تحول خط حزب الأمة الى خط الحزب الوطنى بالنسبة الى مواجهة الاحتلال .

وثانيهما : أن هذه المواجهة تحددت فى الصحف التى اخذ الحزب الوطنى فيها نصيب الأسد ، اذ كان له وحده خمس صحف استخدم فيها وسائل الهجوم الحاد ضد الوجود الاحتلالى ، فتناولت فى هذه الفترة الكثير من الموضوعات التى كان لها حساسية كبيرة بالنسبة للانجليز .

وهو ما يفسر ان هذه الفترة التى امتدت بين عامى ١٩٠٨/١٩١٠ امتلأت صحف الحزب الوطنى بقصائد طه حسين الشعرية التى تترجم اتجاهه وتصوره فى خط الحزب الوطنى وحده .

ففى صحيفة (مصر الفتاة) يكتب قصيدة يهاجم فيها ظلم الانجليز لمصر [٧] ، وفى قصيدة تالية يهاجم المحتل هجوما عنيفا فى مناسبة خروج عبد العزيز جاويش من

(٦) الجريدة ١٩٠٨/١/١ .
وفى قصيدة رثاء حسن عبد الرازق جاء هذا البيت :
(ومن يدعى بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أنى تيمما) .

(٧) مصر الفتاة ١٩٠٩/٢/١٨ .

السجن وكان السبب الوحيد هو كتابته لاحدى المقالات التى هاجم فيها الانجليز بعنف [٨] ، داعيا الى ان يعلو صوت الشعب من اجل الجلاء مهما تكن التضحيات ، وفى مرة اخرى ، وكانت الحكومة المصرية تنوى مد الامتياز لشركة قناه السويس ، وما ان عارض الرأى العام ، حتى اعلنت الحكومة انها ستعرض الأمر على الجمعية العمومية [٩] ، فانه راح فى قصيدة يهاجم بعنف هذا المشروع الذى عارضته كل صحف الأحزاب [١٠] ، وهو موقفه ايضا فى عديد من الموضوعات الأخرى من امثال قضية اغلاق الصحف التى اصدر فيها قانون المطبوعات لتقييد حرية صحافة الحزب الوطنى بوجه خاص .

وبمجيء عام ١٩١٤ حدثت تطورات عديدة انهت اهتمام طه حسين بالسياسة ، فقد كانت سلطات الاحتلال انتهت من قمع الحركة الوطنية باستخدام اساليب البطش ، فاذا بزعامات الأحزاب تتخذ مواقف جديدة ، إما الهجرة الى الخارج (الحزب الوطنى) ، أوالعودة الى حد الاعتدال (حزب الأمة) ، فضعفت الحركة الوطنية ..

فى هذا الوقت كان طه حسين يتجه الى الخارج فى بعثته الدراسية لينتهى بعد سنوات ، ويعود الى مصر عام ١٩١٩ فى الوقت الذى كان الوفد فيه يلعب دورا وطنيا للعمل على حصول مصر على استقلالها .. كما تحولت الفئات التى كانت تلتف حول بقايا حزب الأمة الى جانب عدلى يكن وهو ما انتهى بهذه الفئات الى الخروج عن الوفد فيما بعد فى تكوين حزب الأحرار الدستوريين الذى اعلن عن نفسه فى اواخر اكتوبر ١٩٢٢ .

وحينئذ بدأت مرحلة جديدة لكفاح مصر ضد الوجود الأجنبى .

★ ★ ★

بعودة طه حسين من البعثة فى اكتوبر عام ١٩١٩ اسهم فى تحديد موقفه عامل ثالث ، فالى جانب تأثير زعماء حزب الأحرار الدستوريين الذين كانوا فى الوقت نفسه اساتذة واصدقاء ، كانت الثقافة الفرنسية قد تركت خطوطا عميقة فى فكره .

(٨) السابق ١/١٠/١٩٠٩ .
(٩) مذكرات هيكل ، ج ١ ص ٤٠ ، ايضا : ٥٠ عاما على ثورة ١٩ ص ٣٨ .
(١٠) مصر الفتاة ٥/١١/١٩٠٩ .

وسوف نتعرض لعنصرالثقافة الفرنسية لنرى الى اى مدى اثر ولاء طه حسين الثقافى فى تحديد اتجاهه وموقفه من قوى الوجود الأجنبى سواء فى فترة العشرينات او فى فترة اشتعال الحرب العالمية الثانية .

الى جانب تحديد المصدر الأول فى ولائه الثقافى اثناء بعثته فى فرنسا لسنوات ، وهو ما ظهر فى كتاباته الفكرية منها والابداعية وهى كثيرة [١١] طيلة حياته فقد لوحظ الميل الحاد فى كل ما كتب فيما بعد الى فرنسا حيث كان يقضى فيها شطرا كبيرا من حياته كل عام ..

لقد تتالت كتاباته من باريس وعن باريس فى صحيفة (السياسة) خاصة ، اثناء هجومه على وزارة يحيى ابراهيم التى تعاونت مع الانجليز [١٢] ، كما أكمل فى باريس كتاباته بعد ازمة (فى الشعر الجاهلى) التى جمعت فيما بعد وارسلت من هناك لتنشر هنا [١٣] ، وقد دافع فيها كثيرا عن مظاهر الحياة الفرنسية ، فدافع فيما دافع عن المدرسة الفرنسية فى معاركه [١٥] ، فضلا عن حزنه العميق لهزيمة فرنسا فى الحرب العالمية الثانية وقد ملأ فى هذا فصولا كاملة متناسيا كثيرا من المجازر والمهازل التى ارتكبتها فرنسا فى انحاء العالم العربى خاصة المغرب العربى حوله وبشكل لايمكن اغفاله مهما يكن التأثر بهذه الحضارة او المدنية الغربية فقد كان طه حسين قد جاوز الخمسين فى هذا الوقت ، ولم يكن يشفع له سن الشباب وتسرعه او انقطاع الأخبار عما يفعله المستعمر الفرنسى حوله بأى شكل مما لايمكن معه إعفاؤه حينئذ من تهمة الانحياز للفرنسيين بغير مبرر كاف .

وقد تحددت علاقاته بالفكر الفرنسى فى أكثر من ثلاثة عناصر :

(١١) أنظر الفصل الأول ، المصدر الفرنسى .
(١٢) السياسة ٢٣/٤/١٥ ، وقد نشرت فى السياسة والهلال والحديث بين عامى ٣١/٢٤ وجمعت فيما بعد فى كتاب (صوت باريس) .
(١٣) جمعت فيما بعد فى كتاب (فى الصيف) .
(١٤) جمعت جمعاً فى كتب كثيرة اهمها (من ادب التمثيل الغربى) ، و (فصول فى الأدب والنقد) ، و (من بعيد) ، و (رحلة الربيع) ، و (حافظ وشوقى) ، و (الوان) .. الى غير ذلك .
(١٥) مقالات بعنوان (لاتينيون وسكسونيون) بين ٢/١ و ٢/١٥/ ٣٣ بصحيفة الجهاد .

ـــ المشاركة الوجدانية : فليس أحب اليه من « الحديث عن باريس » (١٦) ، كما ان باريس تختصر العالم الانسانى باختلاف أزمنته وامكنته ، وهو لايكف عن ابداء اعجابه بالأدب الفرنسي والفن الفرنسى ورجل الدين هناك الى غير ذلك من المظاهر الفرنسية المحببة اليه ..

ـــ المقارنه الأدبية

ـــ الترجمات .. وهذان العنصران يمثلان اهم العناصر لديه ، فهو قلما تحدث عن شاعر أو كاتب عربى دون أن يذكر شاعرا أو كاتبا فرنسيا ، وهو لايقارن جنسا من الأجناس العربية دون ان يجد له شبيها فى الأدب الفرنسى ، وكتبه المترجمة عن الفرنسية تناهز السبعة اتمها بين عامى ٢٠ ــ ٥٩ على وجه التقريب فضلا عن الترجمات لأساطين الأدب والفكر الفرنسى التى تتناثر هنا وهناك فى أعماله .

ويمكن ان يضاف الى ذلك كله علاقاته الخاصة بفرنسا ، فزوجته فرنسية ، وقد كان يحمل لها ، لظروفه الخاصة احساسا « أثيرا » (١٧)، وابناؤه عرفوا التعليم والثقافة الفرنسية ، كما ان اغلب اصدقائه سواء من مصر او خارجها ممن ينتمون الى فرنسا اما بالجنس او بالثقافة بدءا من عائلة آل عبد الرازق وانتهاء باستاذه اوجست كونت لما له من تأثير كبير فى مذهب التفكير فى النظر الى الفلسفة ، او صديقة اندريه جيد الذى تعد شخصيته نموذجا مثاليا لعقد دراسة مقارنة مع نموذج طه حسين سواء فى الشخصية او الطباع اوالنتاج الفكرى .. الى جانب ان التقدير الكبير الذى لاقاه فى حياته كان من فرنسا ، اذ حصل منها على وسام الليجون دونير (١٨) ، ونال كثيرا من الشهادات العلمية كالدكتوراه من جامعات ليدن ومونبلييه وباريس ، كما اختير عضوا أجنبيا فى المجمع العلمى الفرنسى الى غير ذلك من الاحتفاء الذى وجده فى المراكز الفرنسية .

وسوف نحاول رصد موقفه من الانجليز بشكل أكثر عملية حين نصل الى الحرب العالمية الثانية ، لنرى ، الى اى مدى يلعب مؤثر الثقافة الفرنسية دورا كبيرا فى تحديد موقفه من قوى الاحتلال الأجنبى .

* * *

(١٦) من بعيد ص ١٧٣ ومايليها ، ايضا كمال قلته ص ٤٧ .

(١٧) الايام ، ح ١ ص ١٥٢ .

(١٨) دار المحفوظات ، خطاب وزارة الخارجية ، ادارة المراسيم ١٩٠٨/٧/١٩ . أيضا سوزان ص ١٦٢

على انه مهما يكن من تحديد مؤثرات عديدة وراء علاقاته بالوجود الأجنبى ، شخصية كانت او حزبية ، فانه لايجب اغفال مؤثر آخر أرجأناه حتى الآن ، وهو المؤثر الوطنى ، فطه حسين ، وهو مالا يمكن انكاره ، لم يتخل فى كل مراحل حياته عن المشاعر الوطنية ، وأنى له ان يتخلى مع وطأة المستعمر واشتداد سياسته ، فقد ولد فى بداية العقد التاسع فى القرن الماضى حيث كان الاحتلال البريطانى قد وطّد سيطرته على البلاد بعد هزيمة احمد عرابى عام ١٨٨٢ .

وقد ظهر شعور طه حسين منذ فترة مبكرة من حياته ، فقصائده الأولى نطقت باحساس بشع من (اهل الغرب) [١٩] ، و(ظلم الانجليز لمصر) [٢٠] .. الى غير ذلك من القصائد التى تقتصر فى اغلبها على الهجوم على المحتل الأجنبى والمستعمرين [٢١] .. ولايكاد يرحل بعدها الى باريس فى العشرينات حتى يجد نفسه أمام رجل من رجال الأمن الغربيين يسأله عن جنسيته ، وحين يجيب (مصرى) ، يعود الصوت بعد فترة تحير (أنت رعية مصرى ، وحماية انجليزى) ويعلق طه حسين على هذا الصوت الذى اتى مسرعا وكأنه وجد شيئا ضائعا ، فيقول (خرجت ممزق القلب منكسر النفس) [٢٢] .

وبعد أن يعود الى ارض الوطن بعد ثورة ١٩ ، فان مشاعره ضد الانجليز تبلغ اقصاها ، وحين يضطرب الأمن العام على اثر اطلاق النار على الانجليز وتطبيق الحكم العرفى على البلاد متسائلا فى ضيق شديد ، لماذا لا يطبق الحكم العرفى على الأجانب ايضا ؟ [٢٣] .

ومع أنه لم يتوقف عند إنتقاد ظلم المستعمر قط [٢٤] ، والمنافسة الأوروبية والظلم الأوروبى وهو ما حال بيننا وبين التقدم والرقى [٢٥] ، فانه لم يتوقف لحظة عن التفرقة بين

(١٩) الجريدة ، ١٩٠٨/٨/١ .
(٢٠) السابق ، ١٩٠٩/٢/١٨ .
(٢١) مصر الفتاة ١٩٠٩/١١/١٥ .
(٢٢) كوكب الشرق ١٩٣٣/٣/١٥ .
(٢٣) سوزان ص ٤٨ .
(٢٤) فصول فى الأدب والنقد .
(٢٥) مستقبل الثقافة فى مصر .

حضارة الغرب وهيمنته الاستعمارية ، ووضع حداً فاصلًا مرئياً وغير مرئى بين جشع الدول الغربية وبين ثقافتها .

ومع أن القضية الوطنية تتقلب فى أدوار مختلفة بين يدى الأحزاب المصرية ، وقد كان كاتبا فى صحف هذ الحزب او ذاك ، ومع أن ممارسة الحكم فى مصر تتأثر بمدى هيمنة قوى الوفد او القصر اوالانجليز على اداة الحكم .. فان احساس طه حسين الوطنى لم يتغير قط .

وسوف تكون اغلب عناصر هذا الفصل برهانا على وطنية طه حسين التى لم تتأثر بالميل الى قوى من القوى الثلاثية بقدر ما تأثرت بوجدان وطنى لم يجد بداً ، قط ، من الالتزام بمصر ومصلحتها .

وقد يكون من المناسب أن نبدأ الآن بموقفه من الوجود الأجنبى بعد عودته من فرنسا مؤثرا أن يلعب دورا حيويا مع حزب الأقلية .



المعروف أن تأثير الانجليز فى الحياة السياسية المصرية لم يقتصر على الفترة التى سبقت صدور دستور ٢٣ وحده ، وإنما امتد هذا التأثير فى مسألة تشكيل الوزارات واسقاطها خاصة فى الثلاثينات والأربعينات ، وهو مانستنتج منه درجة تأثير هذا الوجود الأجنبى فى ادارة شئون البلاد ، وهو ما يتأكد معه أن أى أمر من الأمور إن لم يقرره الانجليز ، فهم على الأقل على علم وثيق به .

ومن هنا ، يفهم دور الوجود الأجنبى خلال محاولة الأحزاب لاجراء الجلاء او خلال تناوب الأحزاب السلطة او — حتى — خلال علاقة الأحزاب بعضها ببعض وتأثير هذا فى القضية الوطنية ، وهو مانستطيع الاشارة اليه بوضوح عند تحديد موقف طه حسين من هذا الوجود **أولا** ، ثم تحديد موقف حزب الأحرار الدستوريين من هذا الوجود **ثانيا** .

لم يكن الانجليز راضيين عن برنامج حزب الأحرار الدستوريين (٢٦) ، لما تضمنته مبادئه من دعوة للجلاء بمعناها العسكرى والأجنبى ، وقد نصت المادة الأولى منه ، وهو

(٢٦) احمد شفيق ، حوليات ج ٣ ص ٣٣٩ .

من أربع نقاط ، على (الاستمرار فى العمل لاستكمال الاستقلال الفعلى التام ، وإنهاء الاحتلال البريطانى) ، وعلى هذا النحو ، فمهما قيل من ايثار الانجليز لهذا الحزب حينا او لوزارة من وزاراته حينا آخر ، فان قضية الجلاء كانت قد فرضت نفسها على الأحزاب والوزارات فى مصر جميعها مما لم يعد معه فكاك عن الانشغال عن القضية الوطنية او تأجيلها بأية حال من الأحوال .

وقد كان موقف طه حسين من الوجود الأجنبى هو صدى لموقف حزب الأحرار فى كثير من الأمور ، فما كادت تتم لجنة الدستور عملها فى ٢١ اكتوبر ١٩٢٢ حتى كانت وزارة صدقى تعانى من خلافات حادة مع الانجليز نتيجة لسببين :

الأول : الأزمة التى اثيرت حينئذ حول النصوص الخاصة بالسودان فى مشروع الدستور ، والتى لم يرتح لهاالمندوب السامى .

الثانى : الخلافات التى كانت تنشب بين ثروت واللنبى حول تعيين الموظفين الأجانب .

اما ازمة الدستور فهى تبدأ على اثر خلاف بين الانجليز والحركة الوطنية حول نصوص الدستور ، فبينما نصت المادة ١٩٢٩ على أن (الملك يلقب بملك مصر والسودان) ، والمادة الثانية ١٤٥ على أن (تجرى احكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها عدا السودان ، فمع أنه جزء منها تقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص) [٢٧] ، فان الانجليز رأوا فى هذين النصين ما يتعارض مع احتفاظهم بتصريح ٢٨ بمسألة السودان ، وأن يشار الى أن نظام الحكم فى السودان يقرر بعد الاتفاق بين مصر وانجلترا .

ومع الضجة التى احدثها حزب الأحرار ، والرفض الذى ابداه الملك ، لم يجد الانجليز غير توجيه إنذار عنيف الى الملك فى ٢ فبراير ٢٣ مستندين الى عرض قوات عسكرية [٢٨] ، بقصد الترهيب وارغام الملك على القبول .

(٢٧) الرافعى ، فى اعقاب الثورة ج ١ ص ٩٢ ، ايضا : تطور الحركة الوطنية ٥ . عبد العظيم رمضان ص ٣٨١ . هيكل ج ١ ص ١٣٠/١٣١ . الرافعى ص ٩٢ ، حسن يوسف ص ١١ .

(٢٨) الرافعى ، السابق ص ١٢٨ ، ايضا : احمد شفيق ، الحوليات ج ٣ من التمهيد ، ص ١٠٧ ، احمد زكريا ، الاحرار ٢٣٦ .

وفى هذا الوقت ، كان يحتدم الخلاف بين ثروت واللنبى ايضا على تقرير مبلغ التعويضات اللازمة للموظفين الأجانب ، ممن تقرر أن يتركوا خدمة الحكومة المصرية الى الحد الذى دفع الجانب البريطانى فى التفكير فى وقت ما بفرض اشرافه على مصدر من مصادر الدخل المصرية ، فضلا عن بعض الخلافات الأخرى مثل الاعتداء على بعض الشخصيات البريطانية .

وقد كان موقف طه حسين واضحا من هاتين القضيتين بحيث أغضب الانجليز منه غضبا شديدا ، وقد تحدث بسخرية مرة عن اهمال لقب مصر والسودان فى دستور ٢٣ ، كما اعترض بشدة عنيفة على التعويضات الضخمة التى كانت تطالب بها انجلترا لموظفيها (المستغنى عنهم بعد الاستقلال) [٢٩] .

وعلى الرغم من أن هذه الأزمات إنتهت باستقالة ثروت خاصة وأن الملك كان يعمل على المساس بحق الأمة فى الدستور ، فإن نسيم لم يعمل بعده على استصدار الدستور كما هو وإنما عرض المشروع على لجنة استشارية تابعة لوزارة الحقانية ، فقدمت هذه عددا من التعديلات التى تكرس سلطة الملك على حساب الأمة المصرية مما دفع « السياسة » الى أن تعمل على تحريض الأمة على الاحتجاج ، وهنا ، تساءل طه حسين أحد كتاب صحيفة (السياسة) المعروفين حينئذ ، يقول « كيف ترضى الوزارة خلو الدستور من ذكر السودان ؟ أكانت حين فعلت ذلك متفقة مع الوفد عليه » [٣٠] .

وما كاد السردار يلقى مصرعه ، حتى يصدر حزب الأحرار احتجاجا ونداء ذكروا فيه ان الانجليز انتهزوا الفرصة لجعل المسألة سياسة واعتداء بجبروت القوة على استقلال مصر وسيادتها ولتغيير المسائل المعلقة للمفاوضات بين الدولتين [٣١] ، ورغم هذا ، يصدر الحكم فى ٧ يونيو ١٩٢٥ فى هذه القضية على ثمانية بالاعدام شنقا وحبس الآخرين [٣٢] ، وهنا يستشيط طه حسين غضبا سواء من مطالب الحكومة الانجليزية عقب

(٢٩) الزيات ، ٢٢ يناير ٨٢ ج ٢ .

(٣٠) السياسة ٤/٢/ ٢٣، ايضا : ٥ ، ٢٣/١/٧ ، وظل يرسل من باريس هجوما عنيفا على وزارة نسيم فى فترة وجودها .

(٣١) السياسة ٢٤/١١/٣٠ .

(٣٢) الرافعى ، فى اعقاب الثورة ج ١ ص ٢٢٦ .

الاعتداء مباشرة ، او من قسوة هذا الحكم سيما من محكمة انجليزية كان احد اعضائها انجليزيا وهو المستر كيرشو « برغم اقتناعه التام من انه كان لامناص من ذلك » (٣٣) .

وتمضى وزارة نسيم وتأتى وزارة يحيى ابراهيم ثم وزارة سعد زغلول ليشغل طه حسين فى معركة عنيفة ضد هذا وذاك ، ويشغل بدرجة اقل بالتطورات السياسية ، ولايلبث ان يسوده السكون ، فيصمت مؤثرا ان يظل بعيدا عن الأحداث (٣٤) .

ويبدو ان الانجليز قد ضاقوا ذرعا بمواقف طه حسين المتتالية المعادية لسياستهم على طول الخط خاصة فى الأزمات الأخيرة ، ومن ثم ، تحول الاتجاه فى الفترة التالية الى النيل منه ، واهتبال أية فرصة للتضييق عليه .

* * *

يمكن رصد المواقف التى حاول الانجليز الاستفادة بها للنيل من طه حسين على النحو التالي :

١ ــ أزمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) عام ١٩٢٦ .
٢ ــ أزمة عمادة كلية الآداب عام ١٩٢٨ .
٣ أزمة الشهادات الفخرية عام ١٩٣٠ .

وعلى الرغم من أننا أشرنا لبعض هذه المواقف ، فإننا نحاول هنا رصد موقف الانجليز منها فى علاقاتهم بطه حسين فى هذه الأزمات لما لها من تأثير كبير فى تحديد موقفه من الوجود الأجنبى ومواجهته فى فترة لاحقة .

بالنسبة الى أزمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، فما كادت تبدأ الأزمة حتى تظاهروا بعدم المبالاة ، وأن الأمر لايهمهم فى شىء بقدر ما يهمهم حرية الرأى ، ففى الوقت الذى كان فيه السفير البريطانى يدخل الى مكتب رئيس الوزراء المصرى ، مندهشا من (حكاية طه حسين دى) ، والتظاهر بعدها بأنه « يمنع أن يتعرض مواطن مصرى للظلم » ، فإن المندوب السامى البريطانى فى هذا الوقت راح يسجل كل ما يحدث من تطورات الأزمة وملابساتها ويرسل بها الى حكومته ، وقد كانت الحكومة الانجليزية على خلاف تام مع وزارة عدلى .

(٣٣) سوزان ص ٧٥ .
(٣٤) سامى الكيالى ص ٥٢ .

والواقع أن اهتمام الانجليز لم يعكس موقفا حادا ازاءه ، فان دورهم حال دونما اتخاذ موقف نظرا لوجود ائتلاف بين الأحزاب ، ومن ثم ، لم يكن موقفهم من القوة بحيث يمكن أن يؤثر فى أزمة مثل أزمة (الشعر الجاهلى) بشكل مباشر ، فعدا ضغط الأزهر والرأى العام ، لم يشهد أى تدخل مباشر ، وهو الأمر الذى يمكن أن يقال معه ، أن عدم التدخل الانجليزى حال دون هدوء الأزمة ، ومع أن عدم التدخل يمكن أن يترجم ضد طه حسين ، فإن الانجليز ما كانوا ليترددوا فى التأثير فى القضية ضده وفى غير صالحه .

على أن ثمة موقفا آخر بدا فيه الانجليز اكثر عداء فى مسألة تعيين عميد لكلية الأداب عام ٢٨ ، فما كاد يعين طه حسين عميدا للكلية عام ٢٨ بدلا من العميد السابق كيرشو ، حتى اجبر على الاستقالة مرة اخرى ، وقيل ضمن ماقيل فى تفسير هذا أن الانجليز كانوا وراء ذلك .

والأحداث تقول أنه ما كادت تتم عملية الانتخاب حتى نجح طه حسين ، وما كادت ترفع نتيجة الانتخاب الى وزير المعارف وكان فى هذا الوقت على الشمسى حتى اصدر قرارا بتعيينه عميدا ، ولم تمض ساعات حتى طلب منه الاستقاله قبل أن يتولى مهام منصبه الجديد ، واذا كانت علاقة على الشمسى به علاقة طيبة منذ وقف الى جانبه فى أزمة (الشعر الجاهلى) ، فإن طه حسين هذه المرة راح يشترط للتنحى أن يعين ويستقيل فى نفس اليوم (٤ يناير ٢٨) . [أى يعين لمدة يوم واحد فيكتب بعده استقالته].

وقد كتب بالفعل هذه الاستقالة بعد توقيع بعض الأوراق ، طالبا فى نهاية الفترة الوجيزة أن (يتم نقلى فى عمل آخر غير كلية الآداب) [(٣٥)] .

ويبدو أن استقالة طه حسين جاءت نتيجة لضغط الانجليز ، فالى جانب أن العميد السابق كان إنجليزيا ، فإن الانجليز كانوا فى هذا الوقت يعتبرون أنفسهم « مسئولين عن الأجانب حسب التحفظات الأربعة الشهيرة ، وهم على هذا الأساس يهتمون بمناصب العمادة فى الجامعة اذا اصبحت حكومية ويريدون أن يحتفظوا بها للأجانب » [(٣٦)] ، وعلى هذا فإن كراهية الانجليز لطه حسين فضلا عن مصلحتهم كانت كافية للعمل على استقالته .

(٣٥) السابق ، خطاب استقالة طه حسين الى وزير المعارف فى الملف الخاص بطه حسين .

(٣٦) الزيات ٢٢ يناير ٨٢ ج ٢ .

وقد رضخت الجامعة ووزير المعارف بالفعل للأمر الواقع ، وقد كان هذا ، بشهادة الكثيرين فى هذا الوقت ، ومنهم مدير الجامعة ، يحول دون الاختلاف مع سياسة الاحتلال و « منع اصطدام الانجليز بالحكومة » (٣٧) ، وهو ما يؤكد موقف الانجليز منه وتدخلهم فى شئون الجامعة حين يتعارض مايجرى فيها مع مصلحتهم .

على أن المرة الثالثة التى حاول الانجليز فيها النيل من طه حسين كانت فى وزارة صدقى .. فعلى الرغم من أن هناك اسبابا كثيرة تفسر ابعاد طه حسين من الجامعة ، فإن الوثائق البريطانية تقدم لنا شيئا مختلفا لايمكن اغفاله .. تؤكد الوثائق أنه حين طُلب منه الموافقة على منح درجة الدكتوراه الفخرية لقائمة من الأساتذة والسياسيين وبعضهم إنجليز ، فإنه رفض .

وعند زيارة الملك فؤاد الى الجامعة لتوزيع الشهادات الجامعية على اصحابها فى فبراير ٣٢ فقد جاء فى خطاب وزير المعارف حينئذ أن النية متجهة الى منح عالم بلجيكى درجة فخرية دون أن يستشير المسئولين فى الجامعة ، فإن طه حسين عارض واعترض على ذلك .

وقد كتب المندوب السامى البريطانى سير برسى لورين مركزاً على ماترتب على هذا من احراج للوزير مؤكدا أن « طه حسين هو المسئول عن هذا الاحراج » (٣٨) ، مما يستشم معه أنه غير راض عن موقف العميد الجديد المعروف بعدائه للانجليز بوجه خاص .

فاذا كان الانجليز قد لاحظوا موقف طه حسين ، فمن البديهى أنهم كانوا وراء اجراءات صدقى فى قرار ابعاده من الجامعة ، فقد كان صدقى من بين السياسيين المعروفين بولائهم للانجليز بقدر ولائهم للقصر والميل الى « الارتماء فى احضان أى منهما لنجدتهم اذا ما بدت لهم ابسط مشكلة » .

(٣٧) السابق .

(٣٨) Public Record: Fo. 407/214 from sir Percy Lorai- sir John Simon, March.3, 1932.

وقد ادرك طه حسين أن موقف صدقى كان بايعاز من الانجليز ، فقد كان السائد حينئذ ، هو أن « صدقى باقٍ فى منصبه لالشيء ، الا لأنه قد يلقى تأييدا من بريطانيا ، واذا سحب هذا التأييد مرة فسيسقط لا محالة » (٣٩) ، وقد استطاع صدقى بالفعل ، الحصول على تأييد سير بيرسى لورين المندوب السامى البريطانى ، لذلك « كان قادرا على أن يبقى حتى عندما سئم منه الملك ، وفى النهاية سقط عندما نقل سير بيرسى لورين » ورأت الحكومة البريطانية أنها فى حاجة الى تغيير سياستها كما سنرى .

وعلى هذا النحو ، جاء موقف طه حسين من صدقى فى الفترة التى تولى فيها الوزارة بين عام (٣٣/٣٠) نتاجا لحقيقتين انتهى اليهما ودفعتا به الى اتخاذ موقف عدائى من وزارة صدقى ، لا لأنها الادارة التى عملت على ابعاده من الجامعة اولا ، وإنما لكونها رمزاً للوجود الأجنبى الذى لولاه ، لما استمرت هذه الوزارة ثانيا ، فقد تكفل النفوذ الأجنبى على بأن يضمن البقاء للوزارات مثل وزارات زيور ثم وزارة محمود وصدقى ثم وزارة عبد الفتاح يحيى التى جاءت بعد ذلك والتى رضيت أن تتعاون مع الانجليز (حكومة صديقة .. خضعت لنا فى كل المسائل الكبرى) (٤٠) .

هذا يفسر كثيرا هجوم طه حسين فى هذا الوقت على وزارة صدقى وامتدادها وزارة عبد الفتاح يحيى متخذا فى دائرة الهجوم محورين اثنين :

ــ إما الهجوم على صدقى ثم عبد الفتاح يحيى مباشرة .
ــ وإما الهجوم على الانجليز بشكل مباشر وحاد او من مثلهم كرمز للوجود الاحتلالى .
وهو ماسنراه فيما بعد على ارض الواقع .

* * *

تميزت هذه الفترة بين عامى ٣٤/٣٠ بعدة أمور حددت كثيرا من الأحداث فى هذا الوقت ، فعلى الرغم من سيطرة القصر ويعاونه أحزاب الأقلية على ادارة الحكم فى وزارتى صدقى عبد الفتاح يحيى ، فإن الانجليز كانوا أكثر الأطراف سيطرة على سلطة الحكم بمساندة الوزارة ، وقد تعددت مظاهر التدخل والاستعلاء فى أمور الحكم من قبل الانجليز أكثر من مرة .

(٣٩) الرافعى ، اعقاب ، ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعده ، ايضا : عفاف لطفى ص ٢٢٠ وما بعده
(٤٠) محسن محمد ، عندما يموت الملك ص ٣٤/٢٤/١٢ .

كما أن هذه الفترة شهدت نقل مندوب بريطانى وارسال آخر (نقل السير برسى لورين ومجىء السير مايلز لامبسون) وهو ما انعكس فى سياسة الحياد او التدخل المباشر او فى معالجة الكثير من المشاكل المعلقة بين الدولتين .. ومن هنا يمكن تفسير علاقة طه حسين بالوجود الأجنبى فى هذا الوقت .

لنر مظاهر هذه العلاقة ..

لم يدع طه حسين اية فرصة للنيل من الوجود الأجنبى فى هذه الفترة ومهاجمته الا واهتبلها ، فهو فى ذكرى شهداء ثورة ١٩ يسترجع الفترة التى عانى فيها الأمرين فى بعثته حين كان يكشف عن نفسه من أنه مصرى فيرد عليه بأن رعية مصرى وليس مصريا (٤١)فيصاب بالحزن الشديد .

ويعرض بوضوح الى الشىء الذى كان يحكم العلاقة بين صدقى والانجليز فيصفه بأنه « صدقى باشا قد تحالف مع الانجليز على أن يحكم بأمرهم فى مصر وعلى أن يرعى مصالحهم ، ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياع ، ومعنى ذلك أن بقاء صدقى باشا فى الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها » (٤٢) ، وعلى هذا ، يخلص فى اليوم التالى الى نتيجة مؤداها أن مذهب صدقى فى الحكم هو أحد مذهبين « أحدهما مذهب الذين يحكمون الشعب للشعب ، والآخر مذهب الذين يحكمون الشعب لأنفسهم قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وفوق كل شى » (٤٣) .

وتثار فى هذا الوقت قضية (التبشير) فيحمل طه حسين على الانجليز ومكاتبهم التى ترى أن الهدف من التبشير هو الاعتداء على الأنفس والأموال ، وتكون فيها الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين ، ويضطرب فيها النظام الى اقصى غايات الاضطراب ، ويلجأ فيها الأجانب الى دار المندوب السامى مستغيثين ومنجدين ، فيتسرع اليهم بالغوث » (٤٤) .

(٤١) كوكب الشرق ١٥ مارس ٣٣ .
(٤٢) السابق ١٦ مارس ٣٣ .
(٤٣) السابق ١٧ مارس ٣٣ .
(٤٤) السابق ٢٧ يوليو ٣٣ .

وهو يشتم أن الانجليز يحاولون الافادة من قضية التبشير بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، حين يخرجون بهذه المسألة الى موضع آخر فبدلا من « شعب يطالب بحرية حماية العقيدة ، وحكومة تعمل ما استطاعت لتحقيق بعض ما يريد الشعب ، ولكن الانجليز اسرعوا فاخرجوا هذه المسألة من هذا الطور الى آخر فقال وزير خارجيتهم فى مجلس النواب منذ اسابيع أنه قد أذن للمندوب السامى بأن يتحدث الى الحكومة المصرية فى مراقبة التبشير والمبشرين . ومعنى ذلك أنه أمام انجلترا قام الكفيل بحقوق الأجانب المدافع عنها وأبى على الحكومة المصرية أن تقضى كما تشاء فى أحد التحفظات التى اتفق فيها مع مصر » (٤٥) .

وقد تركز هجوم طه حسين على صدقى من محور هام ، هو أن اعتماده على الانجليز واعتماد الانجليز عليه إنما هو نقصان من استقلال مصر او النيل منها ، ورصد مقالاته الطويلة فى هذه الفترة وقد كان المقال لايزيد فى عنوانه عن كلمة مركزة على الانجليز كقوة تتحكم فى الوزارة تحكما مطلقا (٤٦) .

وعلى الرغم من سقوط وزارة صدقى فى سبتمبر ٣٣ ، فإن السياسة البريطانية فى تأييد رجالاتها تسعى لانجاح عبد الفتاح يحيى .. وقد تمخض عن هذا التغيير الشكلى استمرار السياسة البريطانية فى مساندة الوزارة ، ومن ثم ، الاستهانة بالوزارة القائمة ، والتدخل بشكل مزر فى شئون مصر الداخلية كما هو الحال دائما فى عهد صدقى .

وحدث أن صحب سقوط الوزارة نقل المندوب السامى من مصروارسال غيره فى أغسطس ١٩٣٣ ، فواكب نعبير الوزارة تغيير المندوب السامى البريطانى أيضا، وسنا واجه طه حسين عددا كبيرا من مظاهر التدخل الأجنبيى ، فما كاد ينتشر خبر نقل المندوب السامى حتى اخذ يبين فى كتاباته كيف أن المندوبين الساميين السابقين فشلا فى مصر حين اراد أحدهم أن يأخذ مصر بالبطش ، والآخر بالدهاء « فلعل المندوب الجديد أن

(٤٥) السابق ٢٢ يوليو ٣٣ .

(٤٦) وكل مقالاته حينئذ تدور فى هذا المحور ، انظر على سبيل المثال : كوكب الشرق ١٥/٣/٣٣ ، ١٩/٣ ــ ٢٨/٣ ــ ٣/٤ ــ ٢٨/٤ ــ ١٦/٦/١٩٣٣ .

يلهمه الله اخذ مصر بالصراحة والصدق » [٤٧] ، ولا يلبث فى اليوم التالى أن يهاجم هؤلاء الانجليز « المقيمين فى لندره والقابعين بوزارة الخارجية » [٤٨] .

ويظل يعلق على نقل المندوب السامى مهاجما الانجليز فى استعراض سياستهم قبل أن يرحل مندوبهم [٤٩] مسترجعا حال الانجليز الذى لم يتغير بعد « فما زالوا كما كانوا لم يفاوضوا ، ولم يعاهدوا ولا اظهروا تأن فى المفاوضات او المعاهدة ، وإنما غلوا فى التسلط على مصر سواء جهرا فحققوا ما أرادوا من المشارب وردوا مصر الى مكان البقرة الحلوب من الشره النهم » [٥٠] .

ولا تكاد تمضى أيام حتى يعود التدخل البريطانى ويعود هجوم طه حسين ، فقد تبدى التدخل البريطانى هذه المرة ممثلا فى تصريح احد اعضاء لجنة ملنر السابقين وهو المستر سبندر منكرا حقيقة استقلال البلاد ، مؤكدا أن سبندر ينسى ، وتنسى الصحيفة التى نشرت له فى انجلترا ، والصحف التى تنشر له فى مصر وتفسر كلامه فى مصر أن مصر بلد مستقل استقلالا لانظير له فى بلد من البلدان « وأن هذا الاستقلال لايبيح فى يوم من الأيام للانجليز أن يتدخلوا فى شأن من شئوننا الخاصة ، وأن يؤيدوا وزارة او يخذلوها او أن يقاوموا الشعب او يعينوا على مقاومته » [٥١] .

وحين يدرك طه حسين أن وزارة عبد الفتاح يحيى هى صورة من وزارة سلفه يجدد هجومه على الوزارة الجديدة سواء لأنها تؤيد الانجليز وتلاينهم او لما يراه من مظاهر التدخل الأجنبى فى الشئون الوطنية دون أن تحرك ساكنا او تبدى اعتراضا .

وقد تمثل موقف طه حسين فى هذه الوزارة فى اهم مقالاته حينئذ بعنوان (طاعة) ، اذ اخذ يشير الى افتتاح الوزارة القائمة سياستها بمثل ما كان يمضى به عهد الوزارة الميتة [٥٢] ، ثم اشار بعدها ، بسخرية ممضاة ، الى الانجليز قائلا « يجب أن نهنىء

(٤٧) كوكب الشرق ١٤ اغسطس ٣٣ .
(٤٨) السابق ١٥ اغسطس ٣٣ .
(٤٩) السابق ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ .
(٥٠) السابق ٣٠ اغسطس ٣٣ .
(٥١) السابق ٢٧ سبتمبر ٣٣ .
(٥٢) السابق ٢ اكتوبر .

الانجليز بقبول الوزارة لنصحهم وانفاذ الوزراة لرأيهم ، ويجب أن نهنىء الوزارة منذ اليوم بحب الانجليز بها ، وعطفهم عليها ، ويجب بعد هذا وذلك أن نهنىء المصريين لأن الله قد حرمهم تقديم هذه الوزارة لهم وعطف الانجليز عليهم » (٥٣) .

وهو بعد هذا كله لايترك فرصة الا ويهتبلها للنيل من الانجليز ، ففى أثناء الاضطرابات بين العرب واليهود يتعجب ويكتب « أن الانجليز يريدون فلسطين لأنفسهم، وهم يتخذون الصهيونية سبيلا الى مايريدون وهم لايكرهون أن يقيموا بالعرب ، وأن يقيموا بالصهيونية فى سبيل الظفر بفلسطين » (٥٤) .

وهنا لابد أن نشير الى أن ماحدث هو العكس ، فإن الصهيونية هى التى اتخذت الانجليز سبيلا الى تحقيق احلامهم ، واذا كان هذا الرأى من طه حسين يعكس قصر النظر السياسى ، فهو يعكس كيف أن كثيرين من الكتاب والأدباء فى هذا الوقت كانوا يقعون فى قصر النظر الذى يبرر فى عدم تبينهم لأيديولوجية الصهيونية واطماعها حينئذ فضلا عن أن الصهيونية لم تكن قضية ملحة تشغل الأذهان وتبرز خطورتها كما بدت بعد ذلك ويشترك فى هذا طه حسين وعباس العقاد وغيرهما ممّن لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على هذا الخطر كما يجب ، وسوف نفصل هذه القضية خاصة فى موضع آخر .

وفى يناير ١٩٣٤ يأتى المندوب السامى الجديد ، فيلقى طه حسين تحذيرا شديدا يعقبه هجوم شديد يتتالى لفترة طويلة ، فهو يلحظ رحيل مندوب ومجىء آخر واستمرار هذه الطقوس التى لا تتوقف فى مثل هذه المناسبة حين تتكرر « فالأمة المصرية لاتستقبل مندوبا ساميا الا تمنت صادقة من اعماق نفسها أن يكون هذا المندوب آخر الممثلين الانجليزالذين يصلون الى مصر على هذا النحو ، وبهذا الاسم ، وبهذه الصورة » موجها حديثه الى المندوب السامى متمنيا أن يكون « المندوب السامى الجديد أكبر فى نفسه وفى نفس أمته من هذا الغرور ، ومن هذا الانخداع بالمظاهر الكاذبة التى لاتنفع الانجليز ولكنها تؤذى المصريين » (٥٥) .

وهو يترقب التقاليد البريطانية وعسفها فى الحكم مؤكدا « لسنا فى حاجة بالطبع الى أن نقول أن هذه التقاليد التى يفرضها الانجليز على مصر فرضا ومنافية أشد المنافاة

(٥٣) السابق .
(٥٤) كوكب الشرق ٨ يناير ٣٤ .
(٥٥) السابق ٦ فبراير ٣٤ .

لكرامة مصر واستقلالها ، مناقضة أشد التناقض لما ينبغى لمصر من العزة والسيادة ، والذين يقرأون هذا الحديث كل يوم يذكرون من غير ذلك أننا كتبنا يوم مقدم المندوب السامى نذكر هذا كله ، وتصور هذه المظاهر التى يحاط بها مقدم المندوب السامى ويختار بها من يقدم غيره من الممثلين السياسيين وتصور حزن المصريين » [٥٦] مستطردا أن نص المعاهدة التى تمت من قبل تمثل النص الوحيد الذى لم يعترف « لممثل بريطانيا فى مصر بأى إمتياز يقدمه على غيره من الممثلين السياسيين » [٥٧] .

وهو يتوقف فى موضع آخر أمام مانشرته « التيمس » من أن المندوب السامى الجديد إنما يمثل « دور الاله الهابط من السماء » متعجبا بالتدخل الأجنبى فى شئون مصر الوطنية فيهاجم الصحف منتهيا الى الانجليز الذين « يخدعون أنفسهم أن صدقوا مثل هذا الكلام » [٥٨] .

ولا يتوقف هجوم طه حسين على هجوم الانجليز الذين لم يتوقفوا بالتدخل فى شئون مصر ، فحين تشير « المقطم » الى أن المندوب السامى تخلف فى باريس يتحدث مع الفرنسيين فى مسأله الدين يقول طه حسين « فأنكرنا ذلك أشد الانكار » ، ومعنى هذا ، يضيف ، « ومعنى هذا ان كنا نفهم اللغة العربية التى تتحدث بها « المقطم » أن الانجليز يريدون أن يتولوا بأنفسهم مسألة الدين » [٥٩] ... وتتكرر قضية الدين العام كمظهر من مظاهر التدخل فى شئون مصر ويتكرر هجومه على الوجود الأجنبى [٦٠] ولا يكاد يعود يوم الاستقلال فى ١٥ مارس فى ثورة ١٩١٩ حتى يجد طه حسين فرصة نادرة ليستعيد فيها احداث هذه الثورة فيما انتهت اليه البلاد من الاستقلال « تستطيع أن تسأل عنه ، اى الاستقلال ، اولئك الانجليز الذين كانوا يصبون الموت على مصر صبا ويحصدون رؤوس المصريين حصدا ويظهرون من القوة والجبروت ، ما يقدر عليه التسلط الظافر ، وقد بسطت يده على شعب اعزل الا من الحق ، ضعيف لولا ثقته

(٥٦) السابق .

(٥٧) السابق .

(٥٨) السابق ٣ مارس ٣٤ .

(٥٩) السابق .

(٦٠) السابق ٣ مارس ٣٤ ، الوادى ٩ يونيو ٣٤ .

بالله » [٦١] ، ثم يكتب تحت عنوان (الاستقلال) لعدة أيام بعد ذلك مهاجما الانجليز هجوما عنيفا ، « فإنهم ليعلمون حق العلم أن المصريين قد ضاقوا بهذا الهزل حتى سئموه ، أنهم ليعلمون حق العلم أن المصريين قد ضاقوا بهذا الظلم حتى ضجوا منه » [٦٢] .

وكتب فى هذه الفترة مقالا طويلا نشر على مدى خمسة أيام بعنوان « الآن » واصل فيه هجومه على الانجليز واعيا بالدور الذى يقوم به الانجليز فى مساندة الوزارات الضعيفة وهو ما يعلمه المصريين جيدا « أن هذا الظلم الذى يريد الانجليز أن يخدعوهم بما يتكلفون من رفع بعضه عنهم إنما صدر قبل كل شىء وبعد كل شىء عن الانجليز ، فلولا الانجليز ما كان صدقى باشا ، ولولا الانجليز ما نهضت الوزارة القائمة بما تنهض به من اعباء الحكم ، ولا بقيت فى منصب الحكم » [٦٣] .

واغلب كتاباته فى هذه الفترة تدور فى هذا المحور ، كراهية الانجليز والوعى لدورهم فى التدخل الدائم واضعاف النظم الدستورية والنيابية .

وعلى هذا النحو ، تستمر كتابات طه حسين فى مناسبات كثيرة تضرب على هذا الوتر : فهى تراقب كيف تطلب مدرسة المهندسخانة استاذا فترفض المصرى وتطلب الانجليزى [٦٤] ، وزيادة عدد المشتغلين من الانجليز فى المرافق المصرية [٦٥] ، وتهاجم الوزير المسئول لاهتمامه بتعليم الانجليز [٦٦] ، وتنتهز فرصة مجىء ذكرى احتلال البلاد (٨٢) فى ١١ يوليو فيندد بالاحتلال الانجليزى البغيض [٦٧] ويهاجم تعيين الانجليز فى كلية الهندسة اكثر من مرة [٦٨] ، ويتصدى لهذا الأسقف الانجليزى الذى يهاجم مصر والاسلام [٦٩] ، واولئك الانجليز الذين يهاجمون جنازة احد المواطنين لأسباب واهية [٧٠]

(٦١) السائق ١٥ مارس ٣٤ .
(٦٢) كوكب الشرق ١٧ مارس ٣٤ .
(٦٣) ١٥ ابريل ٣٤ .
(٦٤) الوادى ١٣ مارس ٣٤ .
(٦٥) السائق ٢٢ نوفمبر ٣٤ .
(٦٦) ١٠ يونيو ٣٤ .
(٦٧) السائق ١١ يونيو ٣٤ .
(٦٨) السائق ١٥ يونيو ٣٤ .
(٦٩) ٢٠ يونيو ٣٤ .
(٧٠) ٢١ يوليو ٣٤ .

وايضا تعسف المواطنين الانجليز فى شئون البلاد [٧١] ، مهاجما « التيمس » اكثر من مرة فيما تبعث به وتنشره من اخبار خاطئة عن رحلة الى الأقاليم المصرية [٧٢] ، غاضبا من انجليزى يحطم علم مصر على مرأى من قوى المحتل [٧٣] ، وتتوالى حركات الهجوم على المحتل فى جميع أدواره وتحركاته فى البلاد [٧٤] .

وفى نوفمبر ٣٤ كان تدخل الانجليز فى شئون الحكم قد بلغ مداه مما دفع بعبد الفتاح يحيى الى الاستقالة [٧٥] فقبل الملك استقالته فى ١٤ نوفمبر ٣٤ وقام بتسليمها الى نسيم لتبدأ مرحلة جديدة عاش فيها طه حسين دورا جديدا من حياته بالنسبة لعلاقته بالانجليز .. فقد عملت الوزارة الجديدة على اعادته الى الجامعة ليعمل بها استاذا بكلية الآداب ، وقد اختير عميدا (من مايو ٣٤) واستمر فى العمادة ثلاث سنوات اخرى (من مايو ٣٦) .. ويلاحظ أنه فى الفترة الأولى التى تقع بين عام ٣٤/٣٦ أقلع طه حسين عن المشاركة السياسية فلم يتعرض بشكل ما للسياسة الانجليزية فى مصر ، وهوما يعود ، على ما يبدو ، الى أن رأيه تأثر باتجاهات حزب الوفد الذى كان وراء سياسة نسيم فى وقت كان يواجه فيه مشاكل داخلية حالت بينه وبين التصدى للانجليز .

كما أن الفترة بين نهاية ٣٤ حتى ٣٦ حين عقدت المعاهدة مع بريطانيا خلت تماما من أى موقف معاد للانجليز ، فقد شغل طه حسين بمظاهر الترحيب التى اقيمت له فى الجامعة ، كما شغل بكتابات تتالت إما فى سلسلة أدبية بعنوان (أحاديث الأربعاء) وإما فى سلسلة فنية بعنوان (من ادب التمثيل الغربى) مما يحول بينه وبين التورط بالنسبة للوجود الأجنبى ، وهو مايعنى ابتعاد طه حسين برغبته الخاصة فى المشاركة فيما يحدث حوله .



دفعت مقدمات معاهدة ٣٦ الأحداث الى ذروتها ، ففى نهاية عهد نسيم إندلعت المظاهرات الضخمة شملت العمال كما شملت الطلاب فى يوم ١٣ نوفمبر ذكرى اللقاء

(٧١) ٣٤/٨/١ .
(٧٢) ٣٤/٨/٥ .
(٧٣) ٣٤/٨/٢ .
(٧٤) الوادى ٧ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٢٧ /٩ ، ٣٤/١٠/٢ ، ٣٤/١١/٥ .
(٧٥) الرافعى ، السابق ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ايضا : عفاف لطفى ص ٨٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

التاريخى بين الوفد وسيرونجت ، وفى اليوم التالى قتل عدد من الطلاب برصاص الشرطة ، وفى ٢٨ نوفمبر قام اضراب دعت اليه الأحزاب حدادا على الطلاب الذين استشهدوا فى حوادث التظاهر ، واغلقت الأعمال فى العاصمة واستمر الطلاب فى التظاهر طوال شهر ديسمبر وهكذا إنتهى كل شىء باعلان كل الأحزاب السياسية نفسها (جبهة متحدة) وصاغ ممثلوها إعلانا قدموه للملك فى ١٢ ديسمبر ٣٥ طالبوا فيها بمطالب منها تسوية مع بريطانيا .

وتطورت الأحداث باستقالة نسيم وتوقف الصراع الحزبى بتقدم (الجبهة المتحدة) الى المندوب السامى البريطانى بطلب عقد معاهدة مع الحركة المصرية ، واستمرت المباحثات حتى إنتهت فى ٢٦ اغسطس ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة تحالف بريطانيا ومصر .

فأين كان طه حسين من معاهدة ٣٦ ؟

يمكن الاجابة على هذا السؤال باستبعاد الفترة التى سبقت المعاهدة (عامى ٣٦/٣٥) فهى لاتحفل بأى دور لطه حسين لا على المستوى السياسى أو الاسهام فى مقدمات المعاهدة ...

وهنا ، يبقى أن نبسط موقف حزب الوفد الذى إنتمى اليه ، قبل أن نصل الى موقفه لنرى مدى درجات المقارنة أو الموافقة بين رأى طه حسين ورأى حزب الأغلبية فى احداث هذه الفترة .

على الرغم من أن معاهدة ٣٦ كانت الموضوع الذى تذبذبت حوله مواقف حزب الأقلية بين التطرف والاعتدال ، فإن حزب الأغلبية أبدى ارتياحه ببنود المعاهدة ووصفها النحاس بأنها احسن ما يمكن الوصول اليه وقت توقيعها ، وعند عودته من انجلترا ، أعلن أن المعاهدة المتفاوض عليها هى معاهدة (شرف واستقلال) وحين بدأ يقدم كتابه بتأليف الوزارة الثالثة له (١٠ مايو ٣٦) ذكر أن وزارته ستتقدم الى البرلمان ببرنامجها جاعلة نصب عينيها تحقيق استقلال البلاد بإبرام معاهدة مودّة وتحالف مع الدولة البريطانية الصديقة ، كما يلاحظ أن النحاس فى المذكرات التفسيرية للمعاهدة التى يرسلها الى لندن وصف المعاهدة بأنها (معاهدة الصداقة) [٧٦] .

(٧٦) القضية المصرية ص ٤٧٧

ومما يلفت النظر ، أنه على الجانب الآخر ، فإن السفير البريطانى حين اجتمع باعضاء مجلس الوصاية على الملك ، قال أن (صوت السفير سيكون صوت صديق اكثر من صوت سيد آمر..) ، .. واستطرد (بأنه يتصور أن أية حكومة فى مصر تفقد ثقته أو لاتستجيب للنصيحة البريطانية ، تستطيع أن تبقى فى الحكم زمنا طويلا) .[(٧٧)]

والذى يهمنا ، هنا ، هو حزب الوفد الذى انتمى اليه طه حسين ممثلا فى تصريحات زعيمه النحاس من الاحتفاء بالمعاهدة وبأصحابها من « الأصدقاء » وهو مايصل بنا الى موقف طه حسين من معاهدة ٣٦ .

ان الكتابات القليلة التى تركها طه حسين فى تلك الفترة لاتحمل غير احتفائه البالغ بالمعاهدة على غرار احتفاء الوفد ودفاعه عنها ، مسميا إياها بهذا الاسم ، مضيفا اليها كلمة ترددت كثيرا فى كل ماكتب فى هذا الوقت من انها (واجبنا الأدبى) [(٧٨)] ، وكيف يجب ان تكون اول محاولة رصد الأديب العربى فى الثقافة الحديثة حينئذ [(٧٩)] ، متناولا التطورات الثقافية التى يجب ان تكون بدءا من هذا الاتفاق .

الشيء الملحوظ الذى يمكن ان يرصد موقفه من المعاهدة فى هذا الوقت هو كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى صدر فى عام ١٩٣٨ حاملا نظرية كاملة لما يمكن ان تكون عليه الثقافة المصرية لربع قرن قادم من خلال موقفه من هذه المعاهدة .. ففى المقدمة يقرر ان « مصر تبدأ عهدا جديدا من جانبها » [(٨٠)] ولا يلبث بعد ذلك ان يشير وهو يدور فى بالحديث حول مستقبل الثقافة فى مصر « عن مصر التى ردت اليها الحرية باحياء الدستور واعيدت اليها الكرامة بتحقيق الاستقلال ... » [(٨١)] ، فمن الخير ان « نبتهج بماكتب لنا من الظفر ، فى هذا الجهاد الطويل الذى انتهى اى ان نسترد الاستقلال » [(٨٢)] ، ويجب الا نقف معجبين أمام « الاستقلال والحرية » [(٨٣)] ، ولا

(٧٧) F. O. 407 Ibid.

(٧٨) المجلة الأسبوعية ٣٧/١/١٣ .

(٧٩) السياسة الأسبوعية ٣٧/٤/١٣ .

(٨٠) مستقبل الثقافة ، مقدمة ص ٥ .

(٨١) السابق ص ٩ .

(٨٢) السابق ص ١٠ .

(٨٣) السابق ص ١٠ .

يلبث أن يضيف خشيته من ان « ماعرف انى اشفقت من شيء كما اشفق من الاستقلال بعد ان كسبناه ، ومن الحرية بعد ان ظفرنا بها » [٨٤] ، وهو بعد هذا وقبله يخشى ان « يعود الاستقلال والحرية علينا بالشر » [٨٥] .

فاذا خلص من آثار المعاهدة ، كما تخيلها انتهى الى الانجليز ، وقد وصفهم من دون الأجانب كلهم بأنهم « اصدقائنا الانجليز » [٨٦] ، خائفا منهم ان يقولوا « طالبوا بالاستقلال واتعبوا انفسهم واتعبوا الناس فى المطالبة به حتى اذا انتهوا اليه لم يذوقوه ولم يستسيغوه ولم يعرفوا كيف ينتفعون به » [٨٧] .

ومما سبق ذكره ، يمكن تلخيص موقف طه حسين من المعاهدة على النحو التالى : يلحظ التطابق التام بين موقف مصطفى النحاس وطه حسين الى درجة استخدام نفس الكلمات التى رددت فى تأييد المعاهدة ، فبينما جاءت كلمات مثل : (استقلال — الصديقة) فى تصريحات مصطفى النحاس ، جاءت كلمات مثل (استقلال — اصدقائنا) فى كتابات طه حسين .

وان هذا الموقف يحمل تأييد معاهدة ٣٦ لديه واعتبارها صوتا وطنيا هاما ، وهو ما يعنى ان موقف طه حسين من الوجود الأجنبى كان قد سقط فى وهدة الأحلام وطور الصداقة .

كما لم يعكس موقف طه حسين حينئذ أية إشارة للأفكار السياسية المخالفة التى كانت المانيا وايطاليا تبشران بها حينئذ ، وهذا لايميز عقيدة طه حسين وحسب ، بل عقيدة الوفد ايضا ، الذى كان مرتبطا « من الناحية الثقافية ، ارتباطا عميقا بفرنسا » [٨٨] ، وهو مايفسر التعاطف الصريح مع عقيدة الحلفاء وحضارتهم ، ويضيف اليه ان اقتناع طه حسين بالمعاهدة تحددت اولى النتائج فى هذا الصدد حول فقدان النضال المصرى لأول مبرراته ، فقد اعترفت المعاهدة بشرعية الاحتلال البريطانى فى منطقة

(٨٣) السابق ص ١٠ .
(٨٤) السابق ص ١٠ .
(٨٥) السابق ص ١١ .
(٨٦) السابق ص ١١ .
(٨٧) السابق ص ١١ .

القناة وبعض المناطق الأخرى وهو مالا يمكن إلقاء اللوم معه على طه حسين .

وقد كان من نتائج المعاهدة فى درجتها القصوى وصول فكر طه حسين الى الذروة (العلمانية) الغربية ، فراح يتحدث من توليته مصر وجهها صوب اوروبا مؤكدا « هل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات الا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والادارة والتشريع » (٨٩) ، وايضا فى الفكر الاجتماعى والأخلاق (٩٠) إلى غير ذلك .

غير انه ماكادت الحرب العالمية الثانية تعلن عن نفسها حتى تحول طه حسين ، الى اتجاه آخر ، لم يكن هو دخول الحزب ، كما لم يكن الاحجام عن تأييد انجلترا فى الحرب ، فقد كان العامل المسيطر على الوفد مثل اعلان الحرب العالمية الثانية عامل العداء لبريطانيا الاستعمارية .



وقد كان لطه حسين أثناء الحرب الثانية سياسة تحددت وتوزعت فى اكثر من اتجاه فبينما كان يتحدد موقف الأحزاب بين مؤيد لدخول الحرب العالمية الثانية (السعديين) ، رافضا الاشتراك فيها (الوطنيون والأحرار المستقلون) كان الوفديون « ممتنعين عن اعلان رأيهم » (٩١) فى وقت كانوا حريصين فيه على « التمسك بالمعاهدة تمسكا تاما والدفاع عنها ضد من يحاول النيل منها بأى شكل من الأشكال وهو ما دعاهم للالتزام بالمعاهدة » .

وعلى هذا النحو ، فان سياسة الوفد التى حرص عليها تقريبا طيلة الحرب كانت هى السياسة التى ميزت موقف طه حسين ، فقد حرص فى كتاباته القليلة المتأثرة التى كتبت اعوام ٤٤/٣٩ على تبنى وجهة نظر الوفد من ضرورة توحيد الصفوف والبعد عن الحزبية التى تزيد الشقاق ولا تضيقه بقصد مواجهة الأخطار الناتجة من هذه الحرب وان تغير موقفه من الانجليز فى نهاية فترة الحرب فراح يعلن سخطه على المعاهدة .

(٨٩) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .
(٩٠) السابق ص ٤٥/٤٩ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٦٦ .
(٩١) حسن يوسف ص ١١٧ .

غير ان موقفه الخاص اثناء الحرب كان مستمدا من موقف الوفد .. فهو يكتب متسائلا (هل الحرب تنفع الانسانية او تضرها ؟) [(٩٢)] ، ولا يلبث ان يذكر فى موضع آخر الصفات التى يجب ان يتحلى بها هذه الأيام ملخصا اياها فى الشجاعة وصبر النفس [(٩٣)] ، مؤكدا بعد قليل ان « الشعب الديمقراطى يحارب لحرصه على الحياة الحرة » [(٩٤)] . ويشغل قليلا فى قضايا التعليم والديموقراطية [(٩٥)] حتى اذا ما وصل الى عام ٤٣ ، يكون قد تبنى تماما الحقيقة التى ترى ضرورة تجنب هذه الحروب القائمة .. فمع ان الوفد كان حريصا على العلاقة الطيبة مع الانجليز طيلة فترة الحرب كى « يسود بين الحليفتين جو من الاخلاص الحقيقى فان طه حسين كان يدخل مرحلة جديدة ، يقترب فيها من القضايا الاجتماعية رافضا دخول مصر الحرب مؤثرا الاحجام عن رأى القادة فى التورط فيها فإن « إثرة الملوك والسادة والزعماء هى التى تثير الحرب دائما وهى التى ترهق الشعوب دائما » [(٩٦)] مبديا رأيه فى الحرب وأهوالها ومسئولياتها [(٩٧)] .

غير أنه كان يتوازى مع خطه فى توحيد الصفوف ومحاولة تجنب الحرب خطا ثالثا من الهجوم على الانجليز كلما حانت الفرصة ، وهو الخط الذى تبلور منذ نهاية الحرب واكتشاف المصريين مراوغة المحتل ونكث وعوده لاستقلال البلاد ، فما كادت تدور دورة الفلك بتوافق عيدى وفاء النيل وعيد الاستقلال (معاهدة ٣٦) حتى يكتب ساخرا « فالمصريون سعداء اليوم قد قرت عيونهم ، طابت نفوسهم ،واطمأنت قلوبهم لأن النيل قد وفى لهم بما عاهدهم على أن يمدهم به فى كل عام من الرى والخصب والثراء ، ولأن حلفاءهم الانجليز قد وفوا لهم بما عاهدوهم عليه من احترام الاستقلال ، والاعتراف بالكرامة ، والاحتفاظ لهم بالمودة والحب على اساس من الحق والعدل والمساواة » [(٩٨)] ، ساخرا من أن يكون هذا اليوم عيدا فى الوزارات والدواوين ، ثم ينتهى بعد سطور كثيرة الى

(٩٢) الهلال ٣٩/١٢ .
(٩٣) المصور ٤٠/٥/٣١ .
(٩٤) المصور ٤٠/٩/٢٠ .
(٩٥) الوادى ٤٠/١٠/٦ ، ايضا : المصور ٤٠/١١/٢٢ ، ٢/٧ ، ٤١/١٢ .
(٩٦) احلام شهرزاد ص ٦٦ ، ٦٧ .
(٩٧) السابق ص ٧١ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٠ .
(٩٨) بين بين ص ٤٤ .

نتيجة مؤداها أن « المصريين كانوا يظنون أن حكومتهم ستطالب بهذا الحق وستجد في الظفر به لاتريح ولاتستريح ، فاذا رئيس حكومتهم يعلن اليهم أنه ينتهز الفرصة ولن يقصر عن إنتهازها حين تسنح ... كانوا يظنون أن السلام سيحمل اليهم أمنا وعدلا ورضا ، فاذا السلام يمثلهم فيما كانت الحرب تفرض عليهم من الخوف والجور والظلم »[٩٩] .

ولا يمكن أن نغفل أن نرصد ، ونحن بصدد تحديد موقف طه حسين من الحرب العالمية الثانية ، دافعا آخر غير إنتمائه للوفد ، ونقصد به درجة ولائه لفرنسا سواء لموقفه الثقافي أو للملابسات التي صحبت هذه الفترة ، ففي الحرب العالمية الثانية اصيبت فرنسا بهزيمة اضطرتها الى عقد هدنه تم بمقتضاها احتلال جميع الأراضي الفرنسية الواقعة شمال وغرب ومن جنيف الى تور ، ومن هناك جنوبا الى حدود أسبانيا ، وباختصار شديد ، فإن فرنسا قد هزمت في هذه الحرب هزيمة نكراء .

لقد عاش طه حسين اثر هذه الهزيمة حالة من الحزن الممض ، « وانكمش داخل نفسه ، ولم يكف عن الألم حتى نهاية الحرب »[١٠٠] ، وهو في ذلك كله لم يأل جهدا في تأييد الفرنسيين في محنتهم بأية صورة ، فقد استقبل شارل ديجول في ابريل عام ١٩٤١ حين جاء الى القاهرة ، كما عمل مراقبا لاذاعة فرنسا الحرة في دار الاذاعة المصرية[١٠١] ، وقد بلغ دفاعه عن الثقافة الفرنسية الى درجة هدد فيها من اذاعة المانيا بالاغتيال .

وهو مع ذلك كله لم يتردد في كتابة مقالاته في الدفاع عن فرنسا كلما حانت له الفرصة ، ففي ثلاثة لقاءات متتابعة بعنوان (صراعى الحضارة)[١٠٢] ، يحاول المقارنه بين أثينا وباريس في درجات الحضارة ، منتهيا من العرض والتدليل الطويلين الى سؤال واحد هو : « هل ما يحدث في باريس الآن هزيمة أم ثورة ؟ » نظرا للتطورات التي اشارت الى خروج البعض للدفاع عن فرنسا رافضا الهزيمة .

وفي مقالة أخرى يصف مايحدث في فرنسا أثناء الحرب من أنه ثورة مبررا للهزيمة

(٩٨) بين بين ص ٤٤ .
(٩٩) بين بين ص ٥١/٤٩ .
(١٠٠) سوزان ، ص ١٣٩ ، ولطه حسين رواية كاملة تصور حال العرب والاثار التي انتهى اليها الفرنسيون من جراء هذه الحروب ، هي رواية (الحب الضائع) .
(١٠١) السابق .

التى احاقت بفرنسا ، ففرنسا ثائرة من وجهة نظره ، مهاجما الجنرال « بيتان » الذى تعاون مع الألمان ، مدافعا عن الفرنسيين الوطنيين [١٠٣] .

محاولا فى موضع ثالث تحديد مسئولية المثقفين عن هذه الكارثة التى احلت بفرنسا ، فيقول « أن الذى أخفق فى هذه الحرب الى الآن ليست فرنسا وحدها ، وليست الديموقراطية وحدها ، وإنما أخفقت أوروبا ، وهى لم تخفق بإنهزام فرنسا ، وإنما أخفقت باعلان الحرب ، بل أخفقت قبل اعلان الحرب ،.. و .. فتبعة الاخفاق اذن ليست على فرنسا وحدها ، ولا على نظام الحكم فيها ، ولا على ثقافة رجال الحكم فيها ، وإنما هى على أوروبا كلها » [١٠٤] .

وقد بلغ تأثير الهزيمة الفرنسية فى طه حسين الى درجة يرى معها جاك برك حين يحدد الكوارث التى ألمت بطه حسين أن كارثة فرنسا ١٩٤٠ كانت « أولى الكوارث أو المحن التى كانت وراء تدهوره النفسى بوجه خاص فى هذا الوقت » [١٠٥] ، اذ كانت هذه الكارثة ذات تأثير كبير فى حياته ، كما حددت كثيرا من الأمور فى هذا الوقت — متسائلا — ولنا أن نتخيل بعد ذلك ماسوف يكون حال الرجل الذى نشأ فى ظل تلك المبادىء ومن خلال اعجابه بدولة اضاءت بحضارتها ومبادئها السياسية فى أوروبا ؟ ومن يعلم مدى الاحساس القاسى الذى شعر به طه حسين خاصة تجاه تلك المبادىء التى عرفتها فرنسا والتى عرفها وتأثر بها طه حسين « وهو ما نشارك فيه جاك بيرك ، اذ لايجب أن تكون هذه المبالغة تصور حال كاتب واع كطه حسين » .

ومهما يكن ، فإن حضارة فرنسا عند طه حسين كانت مشفوعة بدرجتها القصوى فى تأييد الحرية والذود عن قيم العدالة والمساواة ، فى وقت كانت حضارة إنجلترا التى لاتقل فى درجتها الحضارية ايضا [١٠٦] ، فى موقف تسعى فيه الى تبنى وسائل الاستبداد وإعانة الطغيان ضد كل قيم الحرية والاستقلال ، وهو مافسر الاحساس بالألم تجاهه كلما عرف موقف فرنسا العدوانى فيما بعد فى هجومها على شعب الجزائر وتورطها

(١٠٣) الثقافة ٤٠/٤/١٦ .

(١٠٤) الثقافة ٤٠/٨/٦ .

(١٠٥) ردد جاك بيرك بقية المحن التى تعرض لها طه حسين فيرى انها (كارثة فرنسا ، فقدان البصر ، موقفه من الأزهر) ، انظر goque, Berque, Ibid

(١٠٦) مجلتى ٣٥/٤/١ .

فى حروب أخرى . وإن كان هذا الاحساس لم يصل منذ فترة مبكرة الى درجة الاحتجاج والغضب المكشوف .

هذا وغيره يفسر موقفه من الانجليز كقوات احتلال خاصة ، وهو يفصل بين قوى الاحتلال ومظاهر الحضارة ، إذ كان إحساسه بالاحتلال منذ فترة مبكرة يشوبه الضيق الشديد الى درجة أنه تهيأ لانجاز كتاب حول (حرية الاستقلال المصرية) (١٠٧) ، وموقفه الغاضب من الانجليز بلغ اقصاه فى الحرب العالمية الثانية وفى كل كتاباته حينئذ .

كان طه حسين يتوزع فى اكثر من خط ، فهو يتحاشى الهجوم على الانجليز أثناء الحرب ، وهو فى الوقت نفسه لايستطيع إخفاء كراهيته الشديدة لهم ولوضعهم الاستعمارى ، وهو أيضا لايخفى كراهيته للاتجاه الفاشى مدركا مدى الخطر الذى يحيق بمصر لو إنتصر خاصة ، وقد كان يعم الجميع حينئذ شعور بالخوف من مطامع ايطاليا فى غرب مصر وجنوبها .

وقد تتابعت الأحداث التى حولت طه حسين فى موقفه بين التأييد والسخط الى موقف الساخط تماما ، ففى ١٨ اكتوبر ٤٤ تمكن الملك من اقالة الوزارة الوفدية فأحيل طه حسين ضمن من أحيل للتقاعد ، ولم يمض وقت طويل حتى أعلن إنتهاء الحرب الثانية فعاد الوفد الى موقفه التقليدى من مهاجمة الانجليز بعنف ، وكان طه حين يشايع هذه السياسة .

والفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية تصور موقف طه حسين وقد أحيل الى التقاعد بمراسيم وزارات أقلية تحكم سيطرتها على ادارة الحكم بتأثير من الانجليز .. وهى الفترة التى ستتحول فيها سياسة طه حسين الى الهجوم العنيف على الوجود الأجنبى وممثليه .

* * *

يلاحظ فى الفترة التى تمتد بين عامى ٤٤/٥٠ تغلب عليها سمتان اثنتان ساهمتا فى تحديد موقف طه حسين من الوجود الأجنبى .

احداهما ، كان الحكم يتم بواسطة أحزاب الأقلية وبموافقة الانجليز .

(١٠٦) مجلتى ٣٥/٤/١ .

وثانيتهما ، ظهور ظاهرة استنزاف الموارد البريطانية فى الحرب وهزال (الأسد البريطانى) ، وهو مادفع مصر مع غيره للخروج للثورة .

وعلى هذا النحو ، تأهبت وزارات تشكلت بمصر حينئذ للمطالبة بالاستقلال الوطنى ، وقد كان أول من تحرك فى هذا الصدد أحمد ماهر حين اسندت اليه الوزارة فى ١٨ أكتوبر ٤٤ .

وكان أحمد ماهر قد أعد بيان الوزارة فى ٢٤ فبراير ٤٥ لاعلان الحرب على ألمانيا واليابان تمهيدا للاشتراك فى مؤتمر (سان فرانسيسكو) وانضمامها لهيئة الأمم المتحدة بعد اعلان الحرب ، غير أن الوفديين استغلوا هذا الموقف لاثارة النفوس ضد أحمد ماهر موهمين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد فى أتون الحرب وارسال المصريين الى الخارج ليحاربوا فى « ميادين مصر البعيدة » (١٠٨) ، غير أن طه سعى للسخرية من هيئة الأمم مسميا إياها (عصبة سوء) (١٠٩) ، وأيضا من تصرف احمد ماهر مدفوعا بهذه الاجراءات التى قام بها رئيس الوزراء الجديد لاحالة عديد من الوفديين الى المعاش ، وقد كان طه حسين ضمن اولئك الذين أحيلوا الى المعاش بناء على مرسوم وقعه أحمد ماهر من منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف العمومية (١١٠) .

ولم تسنح الفرصة طويلا لطه حسين ، فقد اغتيل أحمد ماهر ، وحل محله النقراشى فى الوزارة التالية .

وبعد اعلان مصر الحرب تلقت الدعوة لحضور مؤتمر « سان فرانسيسكو » فى ٢٥ أبريل ١٩٤٥ فقبلت فى محاولة لتعديل كثير من أحكام الميثاق المقترح لتقريب الشقة بين الدول الكبرى من سلطة ، وما ترجوه الدول الصغرى من مساواة ، ويكتب طه حسين ساخرا من سفر الوفد الى امريكا « الذى أستطيع أن أحققه هو أن أم قويق لم تدع للاشتراك فى المؤتمر » (١١١) .

(١٠٨) الرافعى ، فى اعقاب الثورة ج ٣ ص ١٥١ ، ١٥٢ .
(١٠٩) البلاغ ١٩٤٥/١/٧ .
(١١٠) المحفوظات ، مرسوم ١٦ اكتوبر ٤٤ .
(١١١) اخبار اليوم ٤٥/٣/٧ .

ويلاحظ هذا الهدوء الذى يحدد المناخ بين النقراشى رئيس الوزراء وبيفن المسئول البريطانى ، فيقول « طلب الشعب المصرى على اختلاف هيئاته وأحزابه أن يعرف ماصنعت الحكومة لحقوق مصر ، اطلبتها من البريطانيين أم لم تطلبها » (١١٢) ، وحين يسمع فى مرة أخرى وجهة النظر المصرية والانجليزية يتحير متسائلا « فأى الحقيقتين نصدق ، الحقيقة المصرية التى تتخذ كل يوم ثوباً جديدا وزينة جديدة ، وتتبرج تبرج الجاهلية الأولى فى بلد يعاب فيه التبرج ، أم الحقيقة البريطانية البسيطة الساذجة الصارمة التى تثير الغيظ وتشيع الحقد وتملأ النفوس حسرة وألماً » (١١٣) .

ويتردد أنه حدث لقاء مشافهة بين رئيس الوزراء والسفير البريطانى بيفن بشأن الاستقلال ، طالب فيه بيفن كما صرح لمجلس العموم صلات بين مصر وبريطانيا من نوع خاص ، فيكتب طه حسين « ليس فى هذه الآراء مايدعو الى .. ابتهاج فهو قبل كل شىء لايريد سيطرة على مصر وانما يريد شركة بين بريطانيا العظمى التى تقوم على المساواة .. فاذا سألت عن هذه الشركة ما موضوعها لم تظفر بجواب أو ظفرت بجواب يملأ قلبك غيظا وضيقا فلن تكون أمور بريطانيا العظمى وامبراطوريتها موضوعا لهذه الشركة كما قال أحد نقادنا السياسيين ولن تكون البلاد الأخرى المستقلة أو المحررة موضوعا لهذه الشركة بالطبع واذن فستكون مصر نفسها موضوعا لهذه الشركة واذن فلن تخلص مصر لنفسها بل سيشاركها البريطانيون فى أمورها » (١١٤) .

وهو لايتعب من ترديد ذلك فى الأيام التالية (١١٥) ..

فهو بعد أن يسخر مما يريد بيفن يختم مقالته بأن « هذه الشركة التى يديرها مستر بيفن قد نريدها نحن وقد لانريدها » ، وهو يسخر من مكرم عبيد الذى أعلن ، وقد كان رئيسا لحزب الكتلة الوفدية فى الوزارة ، ضرورة كتابة المذكرات الى الانجليز ، متتبعا سير المذكرة التى قيل انها ارسلت ولم ترسل « بأن الحكومة البريطانية قد لاتكون مستعدة للمفاوضة قبل أن يحول الحول ويقبل شهر نوفمبر من العام الجديد ان شاء الله . ثم

(١١١) اخبار اليوم ٤٥/٣/٧ .
(١١٢) البلاغ ٤٥/١٠/١٨ .
(١١٣) البلاغ ٤٥/١٠/٢٥ .
(١١٤) البلاغ ١٨ نوفمبر ٤٥ .

جاءت الأخبار صباح اليوم التالى بأن المقامات السياسية فى بريطانيا العظمى حائرة لاتدرى أأرسلت المذكرة أم لم ترسل لأنها لاتدرى (وصلت أم لم تصل) » ، ولا يلبث فى نهاية المقال ان يبلغ فى سخريته من موقف الانجليز ، وموقف الوزراء المصريين المفاوضين الى درجة بعيدة ، فهو يقول « وقد تسلنى آخر الأمر عن حقوق مصر ماخطبها وما مصيرها ، ومتى نناقش فيها ومتى نصل اليها ؟ فأجيبك بأن هذا كله جد ، وبأن هذه ليست أيام الجد وإنما هى أيام دعابة ومزاح »[١١٦] .

وهو لايتردد فى الهجوم على الوزارة التى تستأثر فيها أقلية منحازة الى الانجليز بأمور الشعب من دون الشعب ظاهرة متناقضة لطبيعة الأشياء وخصائص العصر الذى تعيش فيه ، وهى أشبه بالسحاب الذى يتكاثف ويتراكم ويركب بعضه بعضا حتى يملأ الجو ظلمة وتخوفا ثم تهب ريح الشمال أو ريح الجنوب فما هى ساعة أو بعض ساعة حتى يصحو الجو .. يسترد الشعب حقه كاملا »[١١٧] .

وتتبادل المذكرات ويبين للرأى العام بعد نشرها سوء نية الانجليز نحو مصر فتعم البلاد مظاهرات صاخبة من أشهرها مظاهرة كوبرى عباس فى ٩ فبراير ٤٦ وتستمر فى كل أنحاء البلاد وحين يتهم الانجليز الوزارة بأنها لاتستطيع الحفاظ على الأمن يكتب « ولست أفهم من الأمن والنظام مايفهمه حلفاؤنا البريطانيون ، فحلفاؤنا البريطانيون يفهمون من الأمن والنظام ألا تحدث المظاهرات وان تجرى أمور الشارع على ماتعودت أن تجرى عليه ، وألا يحدث هذا القلق الذى يذكر فيه الانجليز بما لايحبون »[١١٨] .

وقد كتب فى هذه الفترة قطعته الأدبية التى جمعها فيما بعد فى كتاب بعنوان (جنه الشوك) مشيرا فى كثير من خاطراتها الى الانجليز وخاصة إلى اجراءاتهم المتعسفة فى الحرب العالمية بالرمز والتلميح والتصريح[١١٩] .

***

(١١٥) ٢٢ ــ ٢٥ نوفمبر ٤٥ .

(١١٦) الوادى ٢٠ ديسمبر ــ ٢٧ ديسمبر ٤٥ .

(١١٧) الوادى ٣ يناير ٤٦ ، ٣١ يناير ٤٦ .

(١١٨) الوادى ٦ يناير ٤٦ .

وقد بلغت المظاهرات ذروتها فى يوم ٢١ فبراير ٤٦ حيث حدد هذا اليوم الذى سمى (يوم الجلاء) لاضراب جميع الطوائف فى القاهرة ، وحين بدأت المظاهرات تتجول فى أكثر من مكان فى العاصمة ظهرت سيارات مسلحة للجيش البريطانى فى ميدان قصر النيل ، واخترقت الجموع فجأة ودهمتهم فاشتعلت المظاهرات فى الاسماعيلية والزقازيق ، والمنصورة وغيرها .. وأسفرت الحوادث فيها عن قتل واصابة عدد كبير ، واذ اعلن صدقى ، وقد كان رئيسا للوزراء ، فى المساء ، مامعناه ان المظاهرات تحولت بفعل الأيدى التى لم تعد خافية واندس فيها عنصر الدهماء فى صفوف الطلبة ، فإن كلمة (الدهماء) أثارت الكثيرين ومنهم طه حسين الذى راح يكتب تحت عنوان (الدهماء) غاضبا لتصدى الانجليز لما يسمونهم بالدهماء وتحديهم لهم باقتحام السيارات العسكرية لصفوفهم »[١٢٠] .

ويلاحظ أنه مع كراهية طه حسين لصدقى وحكومته فإن كراهيته للإنجليز واعلانه الهجوم عليهم وغضبه من أسلوبهم فى الاعتداء على المظاهرات فاق الحد .

وغضب أكثر طه حسين لهذا الاحتجاج الذى قدمه الانجليز ، اذ أنه فور وقوع هذا الحادث قدموا احتجاجا للحكومة طلبوا فيه منع المظاهرات والمحافظة على الأمن ومعاقبة المسئولين عن الحوادث ، وسلموا الاحتجاج الى الملك متجاهلين صدقى[١٢١] رئيس الوزراة ، فلم يكن أمام صدقى غير تكتم خبر الاحتجاج وخبر قبوله حتى لايزيد أمره سوءا بين الناس لولا تصريح أحد المسئولين فى مجلس اللوردات البريطانى .. فشارك طه حسين فى الغضب العارم والدهشة من هذا الاجراء غير الدستورى الذى تجاهل رئيس الوزراء ، مندهشا من موقف صدقى المتقاعس بالنسبة للانجليز ، « والظاهر ان الانجليز لايبغضون شيئا كما يبغضون المظاهرات . فهى تنغص عليهم حياتهم » ، ثم تصدى لانذار الانجليز بالدهشة ، معقبا عما حدث بقوله « فقد يكون من واجب المصريين لأنفسهم وحقهم وكرامتهم ألا يحفلوا بهذه النذر التى تأتيهم من لندن صريحة مرة وخفية مرة أخرى انهم ينذرون بفساد العلاقة فقد فسدت هذه العلاقة وشبعت وكانوا هم الذين افسدوها حين نقضوا العهد وأخلفوا الوعود وأظهروا الطمع والكبرياء بعد أن كانوا لايظهرون الا مودة ورياء » ، ولا يلبث أن يضيف فى نفس المقالة « وهم ينذروننا بتأخير المفاوضات ونحب

(١٢٠) البلاغ ٤٦/٢/٢٤ .

(١٢١) الاهرام ٢٤ فبراير ٤٦ ، أيضا : طارق البشرى ص ١٠٤ .

أن نعلم الانجليز أن تأخير المفاوضات يضرهم أكثر مما يضرنا فنحن ممتحنون بهم منذ أكثر من نصف قرن وقد أخذنا نجاهد منذ أكثر من عشرين عاما جهادا عنيفا وسيس عنيفا لابأس أن يتصل هذا الجهاد وأن يزداد قوة وبأسا وأن نحتمل فيه ألوان الهول وانما البأس كل البأس على الانجليز» [122] .

وهو لم يتوقف فى الفترة التالية عن الهجوم على الانجليز والهجوم على صنيعتهم صدقى باشا فليس الشعب المصرى حرا ، ولا يمكن أن يكون حرا وصدقى باشا يسوسه بسياسته التى تلائم طبيعته الأولى .

واذا تهيأت الأذهان الى المفاوضات بين مصر وقوى الوجود الأجنبى يخيل لطه حسين ان انجلترا تقع فى تناقض فى سياستها ، فهى فى الوقت الذى يعلن فيه وزير خارجيتها فى ١٤ مارس ٤٦ بأن الحكومة السوفيتية تحاول اجراء تسوية مع ايران « بينما تحتل جزءا من أراضيها » ، فإنها ، أىْ الحكومة البريطانية ،تبعث وفداً رسميا للمفاوضات مع مصر فى وقت لاتزال قواتها فيه تحتل مصر « الحكومة البريطانية تستعد لمفاوضة مصر فى تعديل المعاهدة أو فى عقد معاهدة جديدة والاحتلال البريطانى قائم يفرض على مصر ان تكون مؤدبة مهذبة مضيفة لاتقول الا بمقدار ولا تتحرك الا لتطلب الطعام والشراب وتنعم بما قدر لها من اللهو واللعب [123] .

وهو فى مقالتين متتاليتين يحذر من خداع الشعب المصرى ، فقد خدع مرتين فى الحربين العظميين ، ومن هنا فيجب أن يأخذ حذره الا يخدع فى المرة الثالثة » [124] .

وفى الوقت الذى يصدر فيه الوفد نداء يعلن فيه انه لن يتغير بنتائج المفاوضات بين صدقى والانجليز ، يظل طه حسين يوجه سهام هجومه على الانجليز سواء بالسخرية من وزير خارجيتهم [125] ، أو من زعمهم أنهم يريدون التفاوض بنية حسنة بينما لاتزال جيوشهم فى البلاد فى وقت ينكرون فيه على الروس أشد الانكار أن يفاوضوا ايران وجيوشهم تحتل أرض ايران » [126] .

(١٢٢) البلاغ ٢٨ فبراير ، ٧ مارس ٤٦ .

(١٢٣) البلاغ ١٧ مارس ٤٦ .

(١٢٤) البلاغ ١٧ مارس ، ٢١ مارس ٤٦ .

(١٢٥) البلاغ ٢٤ مارس ، ٤ ابريل ٤٦ .

(١٢٦) البلاغ ١٤ ابريل ٤٦ .

واستمرت المفاوضات بين مصر وانجلترا قرابة عام كانت الصعوبة الرئيسية فيها تتركز حول اصرار الجانب البريطانى على اتخاذ مصر قاعدة حربية لبريطانيا ، وكانت الحكومة المصرية ترفض احتواء المعاهدة الجديدة على أى شروط من شأنها أن تجعل الدفاع المشترك بين مصر وانجلترا يسرى على الأحوال السابقة على حالة خطر الحرب أو الحرب ذاتها ، وكان الانجليز يذكرون صدقى فى كل مرة بهذه المعاهدة أو (الشركة) كما يسميها طه حسين ، هذه الشركة التى تقوم على « المساواة بين الند والند ، والاستقلال الذى يظفر به السودانيون بعد الاستفتاء ، والجلاء الذى يمكن أن يتحقق بشرط أن تستبقى المطارات والقواعد »[(١٢٧)] ، ممعنا فى السخرية من الانجليز ومن أولئك المصريين الذين « لايصبرون على هجر الانجليز »[(١٢٨)] .

على أن قطع المفاوضات بين صدقى وبيفن وفشلها واستقالة صدقى ، أدخلت القضية فى عهد سلفه محمود فهمى النقراشى ، دخلت الى دهاليز مجلس الأمن .. أما بالنسبة لطه حسين ، لم نعثر له على كتابات ذات قيمة عالية فى موقفه من الانجليز انما تداخلت فى دائرة اهتمامه بالوجود الأجنبى دوائر أخرى .

غير أن السمة البارزة التى يمكن رصدها فى هذه الفترة أن الكتابات القليلة حول الاستقلال كانت تمتزج إمتزاجا خالصا بالقضية الاجتماعية وتبدو فى اطارها ، ففى الوقت الذى يصر فيه بأن « نفس الأمة مريضة منذ الاحتلال عرض يفسد عليها حياتها كلها » كما لايتوقف عن ذكر كثير من مظاهر هذا المرض من « شعباً جاهلا مريضاً فقيرا »[(١٢٩)] ، وهو يؤكد على هذا أن « الذين يريدون الاصلاح ويتلمسون اليه الوسائل ، والذين يختصمون فى تعديل الدستور .. و .. كل هؤلاء خليقون أن يراجعوا أنفسهم ، وأن يفكروا أن لاسبيل الى الاصلاح حتى يقر فى نفوس المصريين عامة ، ونفوس القادة والسياسيين خاصة ، أن الاستقلال والدستور ونظم الحكم والوزارات والمصالح .. كل هذه وسائل لاتقصد لنفسها ، وإنما تتخذ ادوات لشىء آخر هوالذى

(١٢٧) من لغو الصيف الى حد الشتاء ص ١٤٧ .

(١٢٨) السابق ص ١٤٥ .

(١٢٩) المصور ٤٧/١١/٧ ، ايضا : بين بين ص ١٠٨ .

يجب أن نفكر فيه ، ونحرص عليه ، وهو سعادة الشعب ، أو على اقل تقدير تخفيف ما يلقى الشعب من الشقاء » [(١٣٠)] .

وهو فى موضع آخر ، يكتب تحت عنوان (جوع وأحاديث) ينتقد إنشغال المسئولين وذلك أثناء الاحتفال بعيد الجلاء .. عن الموت والمرض والفقر والجهل الى غير ذلك من الآفات التى كانت تستشرى حينئذ فى وقت كان الجيش البريطانى فى أماكنه المقسومة له ، لايحتفل بعيد الجهاد ، لأن الجهاد لم يزرأه فتيلا» [(١٣١)] وتختلط فى هذه الفترة صور الجوع والفساد والأعباء الجسام و (النفوس القلقة) فى وقت ينظر فيه الشعب فيرى استقلاله مازال فى درج من ادراج وزارة الخارجية البريطانية سجينا ، قد حيل بينه وبين الحرية التى تتيح له أن يعود الى وادى النيل ، فيملأ نفوس أهله وقلوبهم بشرا وبهجة واغتباطا ثم هو ينظر فيرى القوى البريطانية ، مازالت تأخذه من جميع أقطاره ، تحتل أرضه فى الشرق والجنوب ، وترابط على حدوده فى الغرب ، وتأخذ عليه مسالك البحر فى الشمال ، فلا يكاد يرى هذا كله حتى تمتلىء نفسه قلقا ، على حاضره ومستقبله » [(١٣٢)] .

واذ امتزج المطلب الاجتماعى بالمطلب الوطنى واصبحا قضية واحدة ، فإن الصدمة الحادة من حضارة الغرب ، والتأكد أن مضمونها تحول الى هراء فارغ ، دفع به أكثر الى نتيجة هامة خاصة فى عقد الأربعينات ، وهى ، أن معاهدة ٣٦ لم تسفر عن شىء ، وأن الاستعمار الغربى كشف عن نواياه ومخططاته تجاه حلفائه باصراره على أن يخلف وراءه قواعد عسكرية ، وقد إنعكست هذه الصدمة خاصة فى كتاباته فى هذه الفترة بدءا من «أحلام شهر زاد» عام ١٩٤٣ وحتى آخر اعماله المطبوعة قبل ثورة ٥٢ «بين بين» فقد شهدت هذه الفترة بين عامى ٥٢/٤٣ تنامى المطلب الاجتماعى فى حياته منذ تنبه اليه فى الحرب العالمية الثانية فكتب « المعذبون فى الأرض » ، كما تبلور هذا المطلب أكثر حيث طرحت بعنف المشكلة الاجتماعية أكثر من ذى قبل فتتابعت أعماله :

(١٢٩) المصور ٤٧/١١/٧ ، ايضا : بين بين ص ١٠٨ .

(١٣٠) السابق ، بين بين .

(١٣١) المصور ٤٧/١١/٢١ ، بين بين ص ١٤٢ .

«ماوراء النهر» ٤٦ ، «ألوان» ٤٨/٤٥ ، «من لغو الصيف الى جد الشتاء» ٤٩/٤٣ ثم تتابعت اعماله فى هذه الفترة فأخرج «الوعد الحق» و «بين بين» و « نفوس للبيع » .. الى آخر هذه الكتابات التى راحت تصور الوجه الآخر للهجوم على المستعمر الى كشف الهوة الحضارية التى كنا قد تردينا بها بإسم الحضارة الغربية التى جاءت على أسلحة الغرب ونواياه الاستعمارية .

وبتأليف مصطفى النحاس لوزارة وفدية جديدة ، واختيار طه حسين وزيرا للمعارف فيها ، لم يعثر له فى هذه الفترة ـــ فترة الوزارة الوفدية ـــ على اى موقف من الانجليز يترجم لنا تشدده السابق وهجومه المتواصل ، اللهم الا ، بعض المواقف القليلة الداخلية مثل فصل بعض المدرسين الانجليز من المدارس المصرية فى فترة وزارته (١٣٣) ، وعدا ذلك ، فإن رصد موقف فعلى حاسم فى علاقته بالوجود الأجنبى أو من الغاء معاهدة ٣٦ التى اعلن عن عدم شرعيتها من قبل الوفد .. نقول أن رصد موقف فعلى حاسم من علاقته بالوجود الأجنبى ينفى تماما دوره المؤثر فى خارطة الحياة السياسية ، وأن كان هذا ينفى أن الموقف العام له من قوى الاحتلال الأجنبى كان دائما موقفا معاديا سواء فيما يتعلق بظروف خاصة به أو ظروف حزبية ..

وقد استمر هذا الموقف حتى سقوط الوزارة الوفدية فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، وجاوزها فيما كانت البلاد تعانيه بعد ذلك من قوى الاحتلال سواء فى داخل البلاد أو خارجها .

ويمكن أن نرصد أهم نتائج هذا الفصل فى موقفه من الوجود الأجنبى فيما يلى :

لم يقتصر موقف طه حسين من الوجود الأجنبى على المؤثرات الشخصية (اساتذة ـــ اصدقاء) ، أو الحزبية (الأحزاب : الوطنى ، الأمة ، الأحرار) ، أو ـــ حتى ـــ مؤثرات وطنية بحكم مصريته ، وإنما ، اضيف اليها جميعا مؤثر جديد (ثقافى) ، يتمثل فى الميل الى الثقافة الفرنسية فى تحديد موقفه من القوى الأجنبية حيث درجة العداء للوجود الأجنبى . وهذا الموقف الثقافى اصبح جزءا من مكوناته الشخصية .

وبلغ هذا العداء أقصاه قبل الحرب العالمية الأولى لأسباب كثيرة ، من بينها ، تأثر

(١٣٣) الرسالة ١٠ مارس ٥٢ .

طه حسين الشخصى والحزبى معا ، فى وقت كان رد الفعل فيه ضد الوجود الأجنبى قد بلغ مداه لبواعث كثيرة بعضها خارجى (الوفاق الودى ١٩٠٤) وبعضها داخلى (التقارب بين الخديوى عباس وجورست ـــ تطور اساليب الأحزاب المصرية) .. الى غير ذلك مما بدا معه دور طه حسين محدودا ، فهو لايستطيع الانتماء الشخصى فى النظر الى قوى الاحتلال ، كما اصبح دوره مرتبطا بهذه القوى ، كما اصبح دور طه حسين مسايرا لكثير من القوى السياسية السائدة واتجاهاتها .

تعد الفترة بين الحربين العظميين اقل عداء بالنسبة الى الوجود الأجنبى ، اذ خفف هذا الغلو كثيرا خاصة بعد معاهدة ٣٦ .. فمن ناحية اثمر ترويض الانجليز للقوى الوطنية فتبعته وهدأت ودفعت المعاهدة التى تقترن بشرعية وجود قوى الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة وبعض المناطق الأخرى ..

ومصداق هذا أن موقف طه حسين من معاهدة ٣٦ كان هو موقف الحركة الوطنية الممثلة فى الوفد خاصة ، هذه القوى التى خدعت وتحركت بعد ذلك بقوى القصور الذاتى ، وهو ما بدا أكثر وضوحا فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) ، الذى صور فيه أقصى درجات التأييد للغرب والحضارة الغربية .. اذ هبط المنحنى خاصة فى الأربعينات مع صدمة فقدان الثقة فى أوروبا حين تركزت الكتابات على المطلب الاجتماعى .

وقد تركزت انعكاسات الصدمة ، خاصة فى الحرب العالمية الثانية وبعدها فى تمرد القيادات المثقفة على القيادات السياسية (الغربية) ، التى فشلت فى حل قضايا المجتمع ، وهى الفترة التى عرفت فيها على المستوى الفردى موقف طه حسين من الانجليز ، فقد اقترن هجومه على الانجليز الذين اصروا على ابقاء قواعد عسكرية بتسجيله لصور المطلب الاجتماعى الذى كان من اهم مظاهر المناخ السياسى حينئذ ، فصورة الاحتلال وصورة الاستغـــلال ، صارا جنبـــا الى جنب ، فمـــا زال جيش الاحتـــلال (فى اماكنـــه المقسومة له) ، ورئيس انوزراء المصرى مازال ينبىء البرلمان فى هدوء ودعة بما سيفعل (لانقاذ الشعب من الموت والمرض ، ومن الفقر والجهل ، ولتمكين مصر الخالدة المجيدة ، من أن ترفع رأسها العزيز الكريم) .

وقد كانت هذه هى الفترة التى عرفت (أحلام شهرزاد) و (المعذبون فى

الأرض)و (ألوان) .. وكتابات كثيرة أخرى اختلط فيها المطلب الوطني بالمطلب الاجتماعي حتى جاءت ثورة ٥٢ .

الفصل الرابع

موقفه من القصر الملكى

ـــ مكانة القصر من القوى الوطنية
ـــ المؤثرات الأولى فى علاقته بالملك
ـــ المؤثرات الشخصية والحزبية
ـــ (الشعر الجاهلى) والملك
ـــ التقرب من الملك وحزب الاتحاد
ـــ أزمة الجامعة وعداء الملك له
ـــ فترة التردد فى موقف طه حسين
ـــ التحول الى اتجاه القصر
ـــ تراجع طه حسين
ـــ نتائج أخيرة

لايكفى رصد الموقف الذاتى لدى طه حسين لتحديد علاقته بالقصر ، وإنما يضاف اليه الموقف الشخصى المرتبط بالمؤسسة الحزبية .

لقد كان عبد العزيز جاويش من أهم العوامل التى دفعت به الى الاقبال على الحزب الوطنى والنشر فى صحفه ، كما كانت علاقته بعائلة عبد الرازق قد دفعت به ـــ على اثر اعلان حسن عبد الرازق باعلان حزب الأمة ـــ إلى المشاركة فى حركة هذا الحزب للمدى الذى يسمح له فيه ان ينشر قصائده فى فترة مبكرة .

وحين عرف الحزب الوطنى خلافاً حاداً كان قد نشأ بين الخديوى عباس الثانى واللورد كرومر فبادر الى الانحياز الى الخديوى ، فان طه حسين اقتفى اثره فكتب عن علاقة الحزب الودية بالخديوى ، او الاشارة الى موقف الخديوى الطيب من الحز ،

الوطنى ، ومالبث أن شهد النصف الأول من عام ١٩٠٨ التقارب الذى تم بين الخديوى والانجليز ، أو ماسمى بين السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، والذى أصبح حقيقة اعترف بها طرفا التقارب ، فيما عرف بسياسة الوفاق بين الخديوى عباس والمعتمد البريطانى فى البلاد وهو السيد الدوق جورست ، فلم يعرف لطه حسين موقف موافق لغير موقف الحزب الوطنى الذى رأى أن هذا تم على حساب المصلحة الوطنية .

وقد تمثلت كتابات طه حسين فى صحف الحزب الوطنى فى قصائده التى تناولت مواقف عامة، كأن يهنىء عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من الحبس عام ١٩٠٩، أو أن يتحدث الى النيل أكثر من مرة دون أن يصل لموقف محدد مع القصر .

واذا كانت علاقته بالحزب الوطنى اتخذت سمة (النشر) ، فان علاقته بحزب (الأمة) لم تجاوز هذا بكثير ، فتحول من المتفرج الى المعبر عن اتجاه الحزب الجديد .

ويكون هذا آخر لقاء بين طه والسلطان قبل أن يرحل الى فرنسا ، ولايعود الا بعد أن يكون قد رحل السلطان ، وجاء سلطان آخر ، حيث تدخل مصر مع السلطان فؤاد مرحلة جديدة بتاريخها بثورة ١٩ .

* * *

وقبل أن نتتبع العلاقة بين طه حسين والقصر فى اطار الواقع السياسى الجديد ، ينبغى التوقف اكثر عند المؤثرات التى حددت هذه العلاقة ورصدت دوافعها ، وسوف يكون ذلك على مستويين :

أ ـــ الصراع بين أوتوقراطية الملك وديموقراطية الاتجاه الليبرالى .

ب ـــ الصراع على الواقع السياسى والزمنى

واذا تحددت علاقة طه حسين بالملك على مستويين رئيسيين ، فان ثمة مستوى ثالثا تبلور اكثر فى عقد الأربعينات وهو يتمثل فى اتجاه طه حسين الحثيث الى البعد الاجتماعى وهو ماسنصل اليه فى موضعه .

لقد تبلور خاصة ، بعد الحرب العالمية الأولى فى مصر اتجاهان : اسلامى وتحديثى ، وقد انتمى طه حسين الى الاتجاه التحديثى ، اذ أن الافكار الليبرالية يجب أن تسيطر على الأذهان ، وبالنسبة الى علاقة الحاكم بالدين كانت تتحدد حول عديد من

المحاور من إهمها ، بالنسبة لطه حسين ، ان استخدام منهج الشك الديكارتي كان للدعوة الى فصل الدين عن الدولة ، وان يحول بين الحاكم وبين الاحتفاظ له بأية ميزات يمكن أن تقلل من سيادة المسألة الدستورية .

وقد ظهر هذا الاتجاه لديه منذ فترة مبكرة ، فقد أكد أنه لاينكر حق الخليفة فى الرئاسة الدينية ولكنه انكر معه ممارسته السياسية بموجبها ، او دون أن يكون بينه وبين الرعية دستور[1] ، وهو ماتعارض مع رغبة الحاكم ، فان هذا الاتجاه قابله من جانب الملك سواء كان فؤاد أو فاروق ، فيما بعد ، البحث عن مبررات لزيادة سيطرته على الحكم فى اطار النظام الدستورى المستورد من الغرب ، ونظرة خاطفة الى سياسة القصر يمكن أن تدلنا على هذا :

كان الملك يتمتع بسيطرة طاغية على كل شيء فى البلاد ، فانتقال اى موظف بالدولة كان بموافقة القصر ، الأمر الذى دفع بالنحاس فى أحد مطالبة من السفير البريطانى عام ٣٧ الى أن يطلب بجواز (عزل موظفى الحكومة بقرار من مجلس الوزراء دون حاجة الى استصدار مرسوم ملكى بعزلهم) وكتب السردار اقبال شاه والرافعى وقلليني فهمى وغيرهم مليئة بهذه الممارسات ... كما جهد الملك ، من ناحية أخرى ، للسيطرة على النياشين ومنح الرتب كما يشاء الى درجة ان النياشين التى كانت تمنح من خارج مصر لم تكن لتجاز فى الداخل ، اللهم الا ، بموافقة الملك ، وطه حسين نفسه لم يستطع قبول نيشان فرنسى الا بعد الاذن له من (المنطق السامى) ، وهو ماحدث بالنسبة الى نيشان أسبانى آخر[2] .

إلى جانب أن جميع الترشيحات للمناصب الحكومية من درجة مدير عام الى مايعلوها كانت تعرض أولا على القصر ، إما شفوية وإما كتابة لقبول الملك ذلك ، وكثيرا ماكان القصر يعارض فى بعض الأسماء او يراجع فيها ، او يطلب بيانات اضافية عن أصحابها[3] .

(١) الجريدة ١٦/٤/١٩١١ .

(٢) دار المحفوظات ، ملف محفظة ١١١ .

(٣) ذكريات كريم ثابت ، الجمهورية ١٣/٦/٥٥

وقد كانت سيطرة الملك تمتد الى درجة أن المستشار الصحفى له ، كريم ثابت ، يذكر أن الأمور التى كانوا يعرضونها على الملك أو يستأذنونه فيها كانت (لاتحصى ولا تعد) وأن (الحكومة لم تكن تعمل عملا واحدا يستحق خبرا فى الصحف بدون أن ترجع فيه الى القصر مقدما) .

ان مراجعة موقف الملك من الحركة الوطنية ترينا أنه لم يكن ليهتم كثيرا بالدستور والوزارات الدستورية ، حتى لو تحالف فى ذلك مع قوى الاحتلال ، فالوثائق البريطانية تذكر رأى الملك فؤاد لدافيد كيللى المستشار بمقر المندوب السامى من أن المصريين لايناسبهم الحكم البرلمانى .. ومصالح الانجليز فى مصر الاستراتيجية «فلم لاتتركونى أحكم مصر كما أريد لأنى أعرف وأتقن هذه المهمة .. ولاتتدخلوا فى شئون مصر الداخلية .. وأنا مستعد أن أترك لكم جميع المصالح الاستراتيجية والمواصلات الامبراطورية »

وقد تمكن الملك — بالفعل بمساندة الانجليز من السيطرة على نظام الحكم سواء بين عامى ٢٦/٢٥ حين حكم القصر بوزارات أقلية (زيور)، أو منذ عام ٢٩ حين حكم القصر منذ الثلاثينات فى ظل تعطيل الدستور (محمد محمود) ، أو اجراء انتخابات حرة كما يرد (عدلى يكن) ، أو الالتزام بالدستور (مصطفى النحاس) ، أو تغييره للدستور بدستور آخر (اسماعيل صدقى) ، وهو مافعله ايضا فى عهد خليفته (عبد الفتاح يحيى) معتمدا على تأييد الانجليز له أو محايدتهم .

وقد كانت نزعة الحكم المطلق هى نفسها النزعة التى ترسمها فاروق . وهو ماتردده كل مراجع هذه الفترة .

ويمكن باستعراض الخط الليبرالى الذى آثره طه حسين وعاد به من أوروبا منذ بداية العشرينات أن نقف عند أول مؤثر حدد طبيعة العلاقة بينه وبين القصر .

لقد تبدى هذا الاتجاه عنده فى مرحلة اليونانيات خاصة ، فى أول أعماله التى كتبها فى فترة مبكرة (صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان) عام ١٩٢٠ ، فعلى الرغم من أن مقدمة الكتاب تضمنت إهداء للملك ، فان نفس المقدمة كانت تشى بالاتجاه الليبرالى الذى عرفته مصر منذ تبلور ثورة ١٩ ، وهو هنا لايذكر الفن والعلم ، وإنما على حد قوله (أذكر السياسة والحياة الاجتماعية فيما نشأت الحياة الديموقراطية ، بل

والمذاهب الاشتراكية فى أوروبا الا حين انتشر هذا التاريخ القديم فيها ، وعرف الناس ديموقراطية اليونان »[٤]

كما أن طه حسين فى فترة اثارة مواد الدستور والقضايا النيابية عهد الى ترجمة كتاب آخر سماه (نظام الاثينيين) عام ١٩٢١ محاولاً فيه تقديم مفهوم واضح لمعنى الديموقراطية فالكتاب كما يقول فى مقدمته هو (أحسن صورة موجودة تمثل الحياة النيابية وهو مع ذلك صورة حية لنشأة الديموقراطية واستحالتها ورقيها قليلا قليلاً حتى تصل الى اقصى مايقدر لها من النمو والسعة والسلطان)[٥] .

ولايلبث طه حسين عام ٢٤ أن يبدأ فى كتابه (قادة الفكر) ، الذى يعبر فيه من خلال عدة تراجم عن فكرة مؤداها ان شخصية القائد ليست منفصلة عما حولها ، بل قبل كل شيء مثل لعصره ، فالآدب والأراء هي (اجتماعية اكثر منها ظاهرة فردية، أى منها اثر من اثر الجماعة والبيئة اكثر منها من آثار الفرد الذى رآها واذاعها)[٦] .

وقد خصص فى هذا الكتاب بعد ذلك اكثر من فصل متحدثا فيه عن الديموقراطية وأصولها وتطورها التاريخى[٧] .. وهذه هى الفترة التى يتردد فيها أنه بصدد تأليف كتاب جديد يحمل موضوع الديموقراطية .

ولاتكاد تمضى سنتان أخريين حتى تبدأ ضجة كتاب (فى الشعر الجاهلى) ترتفع ، وهى ضجة لابد وأن ننظر اليها من داخل اطار أوسع « السلطة بين الملك الذى اراد ان يحتفظ بالمميزات الملكية العادية التى شغف بها ، وبين السلطة التقليدية للسياسيين المتأثرين بالغرب الذين كانوا يبحثون عن مميزات ومزيد منها فى اطار النظام الدستورى المستورد من الغرب فى هذا الوقت »[٨] .

لقد كان منهج طه حسين يهدد الملك ، أو على الأقل خيل للملك أنه يهدده ، للتناقض بين فكر الغرب (الليبرالى) ، وفكر الشرق (الأتوقراطى) ، مما يجسد الخلاف ، ومن ثم ، القطيعة بين فكر المثقف والحاكم .

(٤) مقدمة (صحف مختارة ..) ص ٥/٦
(٥) المقدمة (نظام الاثينيين)
(٦) قادة الفكر ، ص ٦
(٧) السابق ص ١٢٣ ، ١٣٣

وفى هذا الاطار يمكن النظر الى كتاب مثل (مستقبل الثقافة فى مصر) والذى صدر بعد ذلك بسنوات ، والذى كان من زاوية معينة يحمل افكارا هامة يمكن أن تعد تحدياً للملك أو مناوئة له ولسياسته ، فقد حاول طه حسين فيه أن يدافع عن الفكر الغربى ، فاذا إضفنا الى هذا أن افكار الكتاب فى هذا الوقت عرفت فى مناخ وفدى كان طه حسين قد انحاز اليه ، لتصورنا المدى الذى دفع بالملك الى أن يعتقد ، أنه ، يحمل مضمونا مناهضاً لنظام الحكم المطلق .

وقد تمثل اتجاه طه حسين الليبرالى ، المناهض للاتجاه الأوتوقراطى فى الثلاثينات والأربعينات أكثر من ذى قبل ، سواء ماتمثل منه فى الخط الاجتماعى ، أو كتاباته التى أثارت أفكاره ، ومنذ نشأة حزب الأمة لم تكن علاقته بالخديوى عباس الثانى علاقة طيبة ، فقد تعقدت هذه العلاقة فى فترة وجود جورست وإن لم تعلن عداءها للخديوى صراحة[9] ، حتى إذا ماسافر الخديوى للحج فى عام ١٩٠٩ عاد حزب الأمة لمراجعة نفسة ، خاصة وقد كانت اسباب الاستقالات تدور حول تهجم الجريدة على السلطة الشرعية ، فى الوقت الذى كانت هناك حركات تعيينات وترقيات فى مناصب الأدارة ، الأمر الذى قد يتيح للخديوى فرصة جديدة لضرب ذوى المناصب من ابناء الأعيان الذين ينتمون لحزب الأمة ، وعلى ذلك ، بدأت الجريدة تراجع مواقفها ، وقد شرعت فى هذا الخط منذ بداية عام ١٩١٠ ، بانشاء المقالات والقصائد فى مدح الخديوى واستقباله من رحلة الحج واسهبت فى وصف رحلة عودته ، فاذا بطه حسين يشارك مع من شارك فى مظاهرة حزب الأمة وينظم عنه قصيدة ويهنىء بها الخديوى عقب عودته مباشرة لتنشرها الجريدة الناطقة بلسان حزب الأمة ويزيلها بطلب الدستور[10] .

وعلى الرغم من أن موقف الحزب الوطنى من الخديوى لم يكن ليصل الى درجة العداء الى الحد الذى وصل اليه حزب الأمة فى فترة من الفترات ، فموقف طه حسين هنا وهناك ، فى هذا الحزب أو ذاك ، لم يجاوز غرض النشر اكثر من فرض رأى والذود عنه ، مما حتمت عليه العلاقات الشخصية التأييد الذى لايصل بصاحبه الى مكانة خاصة متميزة .

(٩) الجريدة ١٩٠٨/٩/٦

(١٠) الجريدة ١٩١٠/١/٢٦

ولم يكد يرحل الخديوى عباس الثانى وتولى مكانه السلطان حسين كامل حتى كان طه حسين يقف أمام لجنة من الجامعة المصرية لامتحان علنى للحصول على درجة الدكتوراه فى مايو ١٩١٤، فيرسل مجلس ادارة الجامعة المصرية الى الخديوى لكى «يسمح وقته الثمين الإذن السامى بحظوة الطالب المذكور بالمثول بين يدى سموه»[١١]، وتخبره الجامعة بيوم المقابلة، فيلتقى به اكثر من مرة فيما بعد قبل سفره الى الخارج[١٢]، محدثا طه حسين نفسه حينئذ «اين هو من صاحب العرش ؟» .

ويقف مرة ثالثة بين يديه عام ١٩١٥ متحدثا عن بعثة الجامعة، مؤكدا أنه ليس لدى اولئك المبعوثين من غاية غير أن :

(نخدم وطننا العزيز وسلطاننا المحبوب خدمة علمية صادقة . فباسم الجامعة المصرية نرفع الى عرشكم الكريم تحية العلم طاهرة صادقة تمثل شكره لك ورجاه منك .

ولقد احسنت يامولاى الى العلم . ورفعت قدره . فليزد الله قدرك نعمة، وليحسن جزاءك عن العلم، والمتعلمين[١٣])

وراح يعيد هذا فى عديد من كتبه التى راح يشير الى الملك فى اغلبها بالتلميح[١٤]

هناك أمر آخر حدد العلاقة بين طه حسين والقصر ..

توازى مع خط الاستئثار بالسلطة المطلقة من جانب الملك محاولة التدخل فى العقيدة فى محاولة استخدامها الى صالحه، وهو مايبدو واضحا فى مواقف القصر منذ فترة مبكرة، سواء لتأييده لكل دعوات الرجعية مثل الالتزام بالحجاب ولبس الطربوش او ضد الدعوات العصرية، أو لموقفه الخاص من مسألة (الخلافة) الى غير ذلك من المسائل .

لقد حاول الملك فؤاد منذ فترة مبكرة التعبير عن رغبته فى ان يكون مرشحا للخلافة، فان علماء الأزهر وجماعة مصر الفتاة والاخوان المسلمين كانوا وراء ذلك بايعاز

(١١) ارشيف الجامعة، محضر جلسة الادارة ١٤/٤/٢٥

(١٢) الايام ج ٢ ص ٩١/٦٥

(١٣) وادى النيل ١٩٦١/١/٢٠

(١٤) انظر : المعذبون فى الأرض، وجنة الشوك

منه ، غير أنه امام المعارضة الشديدة التي ووجه بها[١٥] ، تحول عن هذا الموقف خاصة وقد وقف محمد محمود ممثل الأحرار الدستوريين قائلا : مشيراً الى الملك : « يجب الا يكون (زعيما) اسلاميا ، لأن معنى ذلك أن يتحكم تماما فى مسائل الأوقاف وتعيين الرؤساء الدينيين » ، وهو مادفع بالملك الى التراجع .

على أن المهم هنا ، هو أن الملك حرص عند وضع دستور ٢٣ على الاحتفاظ بحقه كاملا فى مباشرة سلطته فى شئون الأزهر وهو ماانتهى فيه الى صدور نص المادة ٣٥ من الدستور [١٦] ، وقد حاول ذلك وفشل فى بسط سلطته على القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم بالأزهر ، كما كان أهم شروط تعيين عضو «جماعة كبار العلماء ، المعاونين لشيخ الأزهر ان يعين العضو بأمر ملكي بناء على مايعرفه شيخ الأزهر وبعد ترشيحه من أغلبية أعضاء الجماعة[١٧] » .

ومن يقرأ مذكرات الظواهرى (شيخ الأزهر بين عامى ٣٥/٢٩) يدرك طبيعة هذه العلاقة التى حرص الملك فؤاد عليها ، واستخدام شيخ الأزهر الى جانبه الى درجة انحيازه له تماما ، كما ظهر هذا واضحا فى درجة ميل الأزهر الى القصر فى تلك الفترة .

ويروى الشيخ الظواهرى كيف ان الأزهريين اشفقوا من أن يكون انضمامهم للحكومة فى النظام النيابى الجديد معرضا لهم ولمعهدهم القديم لشيء من هذا التصادم والتدافع بين الأحزاب فمالوا الى سلطة الملك مما نتج عنه أن اهتبل الملك الفرصة فى إدارة الأزهر وتعيين رؤسائه الى غير ذلك .

وقد كان الملك فؤاد ، كما اكد الظواهرى رجله ، حريصا على أن يعرف كل شيء عن الأزهر والمعاهد الدينية ، وقد كان يعتبر هذه الناحية من الأمور المصرية ، الناحية الخاصة به ، يديرها دون وساطه احد من الوزراء . كما لم يكن الملك فاروق اقل من والده فى استخدامه للدين ولممثليه لتدعيم مركزه المطلق ، وهو العنصر الذى كان يقع عنده الخلاف دائما مع حزب الوفد ، الذى كان يمثل ، فى الاتجاه الآخر ، الحزب المناهض للثيوقراطية فكما وقع أكثر من صدام بين الملك فؤاد وممثلى حزب الأحرار الدستوريين من

(١٥) عارضه عباس العقاد ، على سبيل المثال ، الهلال ٣٢/٣ ، ايضا : عمر طوسون .
(١٦) حسين يوسف ، ص ١٣٠
(١٧) السابق ص ٢٣١

قبل ، كذلك توالت الصدامات بين فاروق وممثلي حزب الوفد بعد ذلك ، فمنذ فترة مبكرة من توليته نشب خلاف بينهما فيما اقترحه الأمير محمد علي رئيس مجلس الوصاية على فاروق من أن «تشتمل حفلات تولية الملك فاروق على حفلة دينية .. على اعتبار أنه الامام الذى ينوب عنه الأئمة وتصدر باسمه احكام الشريعة . وقد رحب علماء الأزهر بهذا الاقتراح وارسلوا الى الأمير يؤيدون اقتراحه ويشكروه عليه »[١٨] . فكان هذا الصراع يمثل أول اسباب الصدام بين التيار الأوتوقراطي الذى يمثله الملك وبين التيار القومي الليبرالي الذى يمثله الوفد .

وكما أن موقف طه حسين من غلو التيار الأوتوقراطي كان واضحا منذ البداية ، كذلك فان موقفه من التيار الثيوقراطي كان من الوضوح بحيث أنه لم يجد مناصا من الاصطدام بسياسة القصر .

وعلى هذا ، لم يكن غريباً أن ينهال عليه الهجوم العنيف ولما يمض شهران على صدور كتابه (فى الشعر الجاهلى) عام ٢٦ مما دفع به ليكتب تحت عنوان (خطران) يقول عنهما :

« اولهما الجهل ، وثانيهما الجمود .. وكلاهما عقبة كؤود فى سبيل الحياة الدستورية الصالحة بل فى سبيل الحياة الصالحة من حيث هى ... (و) .. واريد ان اصارح البرلمانيين والذين لهم أمور مصر فى هذه الأيام بأن فى مصر شرا عظيما هو جمود الشيوخ »[١٩] .

كما لم يكن غريبا ان يثير فى كتابه التالى (مستقبل الثقافة فى مصر) عام ٣٨ ، فى المناخ الذى ظهر فيه حينئذ ، كثيراً من الاضطراب فى وقت كانت تتأثر فيه الأزمة الدينية عند اعتلاء فاروق العرش وذلك بين القصر والوزارة القائمة ، فهذا الكتاب ، فضلا عما فيه من أفكار هامة ، يمكن ان يعد تحديا للملك أو مناوئة لافكاره ، اذ حاول

(١٨) عبد العظيم رمضان ، تطور الحركة الوطنية ج٢ ص ٦١ ومابعدها ، ايضا : حسن يوسف ، ص ٨٢ ، ١٩٠

(١٩) السياسة ٢٦/٧/١٦ ، ويتابع الهجوم على رجال الدين (انظر على سبيل المثال : ج٢ ص ١٧٢ ، ج٣ ص ١٢ ، ٢٠)

ان يدافع فيه عن الافكار الليبرالية ضد الهيمنة الدينية اذ ينتمى فكر صاحبه ومعتقده الى الهيئة الوفدية التى كانت تدين فى كثير الى الثقافة الفرنسية ، وهو مايفسر موقفه من محاولة الدفاع عن فكر الوفد ضد فكر الملك الثيوقراطى بهدف ضرب القصر وانبطار الخلافة من الأزهريين وغيرهم (٢٠) .

ومن ناحية أخرى ، فان (مستقبل الثقافة ..) يحمل مضمونا غربيا ، يدافع عن الفكر الليبرالى ، ويهاجم الحكم المطلق للملك وهو مايرفض من جانب القصر فى هذا الاطار .

ولم تنجح اسلاميات طه حسين أو كتبه التى كان يهديها للملك ، أو كلمات الاطراء التى كثيرا ماكان يلقيها جزافا فى المناسبات الملكية ، كما سنرى ، فى التخفيف من حدة مواجهته للنظام الملكى سواء فيما دعا اليه من مفاهيم ليبرالية أو من مواجهة للسيطرة الدينية .

وهنا ، نجاوز أهم المؤثرات التى ترسم محددات الصراع الفكرى الى ارض الواقع السياسى وملابساته ..

تردد موقف طه حسين فى علاقته بالقصر بين ثلاث دوائر متداخلة

فبينما تميز موقفه فى الدائرة الأولى ، بالعداء المطلق للقصر أو تبنى الأفكار المناهضة له

راح فى الدائرة الثانية التى تداخلت فيها الجزيئة بالذاتية يمزج بين الثابت والمتحول ، فتميزت علاقته بعدم الثبات مع الملك

حتى اذا ماكانت الأربعينات بدا أن الفراق واقع لامحالة بين محاولة الاقبال على الملك وترضيته ، والإعراض عنه ومعاداته بالدخول الى دائرة التحول ، نهائيا ، فى وزارة الوفد عام ١٩٥٠ ، فقد عرف طه حسين قبل دخوله الوزارة وبعدها مباشرة بالاسراف فى الثناء على الملك والاشادة به وباجداده دونما تحفظ .

فلنحاول الاشارة الى كل دائرة على حدة ، مع ملاحظة ، ان هذه الدوائر كانت دائمة التماس دائمة التداخل ..

(٢٠) Smilh, P 4 O8

على الرغم من أن طبيعة طه حسين منذ كان في الأزهر تؤكد على التصادم مع القصر، خاصة حين كانت سياسة القصر تنحاز الى هذا الشيخ أو ذاك[٢١]، فضلا عن ارتباطه بالحزب الوطنى أو صداقته بآل عبد الرازق[٢٢]. فان هذا الموقف لم يثبت طويلا خاصة بعد عودته من البعثة منذ عام ١٩١٩.

وتفصيل هذا، أنه، فى لقاءين متتالين مع الملك تحددت العلاقة بينهما أكثر حين حاول الملك ان يستميله الى جانبه، والافادة منه فى صراعه مع القوى الحزبية الأخرى.

المرة الأولى أنه ماكاد يعود الى الجامعة حتى التمس له مقابلة السلطان. وفى القصر «خف السلطان للقائه، كأحسن مايكون اللقاء. ثم أجلسه غير بعيد عن المائدة التى كان يجلس عليها وتلطف له فى الحديث وشمله بعطف كثير»[٢٣]، ثم راح يسأله ظاهر الرضاء عنه مثنيا عليه مترفقا به حتى انتهى اللقاء. فمضى طه حسين وهو يشعر باضطراب شديد مبعثه موقف خاص كما يبينه هو فيقول عنه، أنه، حين كان السلطان رئيسا للجامعة قبل أن يرسل الى البعثة والتقى به فى الجامعة طالبا فأخذ بمجامع جبته طالبا منه ان يلقى خطبة فى مؤتمر يبحث فى شئون العميان، وكان رفض طه حسين حادا فلم يكن يعرف من يطلب منه ذلك.

على أن لقاء السلطان به متلطفا هذه المرة أيضا رده الى شىء كثير من الهدوء.

أما المرة الثانية حين طلب من الجامعة رفع مرتبه الى المستوى الذى يستطيع اصطحاب قارىء يفيده فى ظروف عمله بالجامعة وانتهى به الخلاف الحاد مع مجلس ادارتها الى تقديم استقالته ومالبث أن استردها راغما معتذرا الى الجامعة[٢٤].

وما كادت تنته هذه (الخصومة) بينه وبين الجامعة حتى فوجىء بمقابلة أخرى أعدت له مع السلطان الذى تلقاه هنا «لقاء حسنا وتحدث اليه فأطال الحديث ثم قال له فجأة :

(٢١) الأيام، ج٢، الصفحات ١٥١، ١٥٢، ايضا: اديب، ص ١٩

(٢٢) خدورى، السابق ص ٢٢٣

(٢٣) الأيام، ج٣، ص ١٥٣

(٢٤) المحفوظات، محفظة ١١١، ايضا، ارشيف جامعة القاهرة، محفظة ٣

ـــ لقد بلغني نبأ استقالتك من الجامعة ، وقد أحسنت بالعدول عن هذه الاستقالة ، ولابد من صبر طويل واحتمال كثير من الجهد ، فبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت مازال طويلا . ولكن أذكر دائما ماقلته لك حين لقيتك فى المرة الأولى »[٢٥] .

ومن هذا الوقت فقد شعر طه حسين ، كما يؤكد ، أن « عليه منذ اليوم للسطان دينا يجب أن يؤدى » ، ولما لم يكن يعلم دخيلة السلطان وطبيعة الطلب الذى اراده منه ، فانه سعى سعيا متواصلا حتى أتم كتاباً بعنوان « صحف مختاره من الشعر التمثيلى اليونانى » ، مرجحا بأنه باهداء هذا الكتاب للسلطان يكون قد أدى دينه عليه ، فيرضى عنه ، وهو مايظهر فى كلمات الاهداء ،[٢٦] ، ثم التمس لقاء بالسلطان فأُجيب الى طلبه ظانا بانه قد « أدى للسلطان حقه وشكر له عطفه عليه وبره به » ، على أن السلطان على حد قول طه حسين كان يريد «شيئا آخر ، وينتظر شكراً آخر غير اهداء كتاب مهما يكن موضوعه »[٢٧] .

وهنا ، كان بداية التوتر الحاد بينه وبين القصر ، فعلى الرغم من ان علاقته الخاصة بالسلطان كان يراد منها ، من وجهة نظر السلطان ، فيما يبدو ، مساندته ضد أية قوى أخرى تحاول النيل من سلطاته كملك أوتوقراطى ، فان تكوين طه حسين الفكرى فضلا عن علاقته الحزبية بحزب الأحرار ، حينئذ ، شاءت له موقفا آخر .

* * *

لما كان طه حسين محسوبا على حزب الأحرار منحازا اليه ، فقد اضطر الى اتخاذ مواقف الحزب بشكل مباشر وغير مباشر فى احيان كثيرة ، فالى جانب القناعات

(٢٥) الايام ، ج ٣ ، الصفحات ١٥٥ ، ١٥٦

(٢٦) جاء فى الاهداء : (الى صاحب العظمة «فؤاد الأول » سلطان مصر/ مولاى/ يحفظ التاريخ مالعظمتك من اثر محمود فى انشاء الجامعة واحيائها ، واحفظ انا ماتفضلت به من عطف على وتشجيع لى على درس «الأدب القديم » واذاعته . فمن الحق ان ارفع الى مقامك الجليل اول كتاب انشره فى «ادب اليونان» . وانا سعيد كل السعادة أن ارتاحت اليه نفسك الكريمة ، وانتفع به ابناء هذا الوطن العزيز) .
انظر صحف مختاره من الشعر التمثيلى عند اليونان ، الاهداء

(٢٧) السابق ، ص ١٥٦

الفكرية التي أشرنا اليها سلفا ، من حرص الملك على الحكم المطلق ، وتبنى الثيوقراطية باستحواذه على شيوخ الدين ومؤسساتهم ، فقد اضيف العامل الحزبي كأهم عامل فى هذه الفترة خاصة بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، فاذا كانت علاقة طه حسين قبلا ترتبط بالشخصيات التي تنتمي الى التيار الفكرى الذى آثره ، فإن شخصيته بعد ذلك ارتبطت أكثر بالمؤسسة الحزبية التي انتمى اليها ، والتي كانت تدخل فى علاقة مع القوتين اللتين حكمتا مصر : القوى الشرعية / الملك ، القوى الفعلية / الانجليز ، مما اضطر معها القوى الثالثة / الحاكم الى الدخول فى صراع محتم مع القوى الأخرى .. خاصة وأن الوزارة بعد تصريح ٢٨ فبراير « أصبحت طرفا اصيلا فى العمل السياسى ، وقد تمخض عن هذا التسليح نتيجة هامة ، هى ، أن الوزارة لم تعد بالضرورة ، وبصورة مبهمة ، ارادة الاحتلال او سياسة القصر ، كما كان الحال من قبل ، بل وجب عليها ان تكون ذات لون سياسي محدد ، وكان هذا اللون فى الغالب حزبيا» .

وقد دخل حزب الأحرار فى خلافات حادة مع القصر منذ تولى الوزارة عدلى ممثل الحزب ورئيسه[٢٨] . ثم ثروت الذى لم ينضم للأحرار رسميا وان كان يمثل جزءا من تيار المعتدلين الذين تزعمهم عدلى باشا فيما بعد وكون معهم حزب الأحرار ، كما كانت وزارة توفيق نسيم وزارة ملكية دخلت فى صراع حاد مع حزب الأحرار وهو ماعرفت به ، فيما بعد ، وزارة يحيى ابراهيم قبل أن يتولى سعد زغلول وزارة ٢٤ .

وفى الوقت الذى كانت فيه علاقة عدلى بالسلطات علاقة سيئة عبر عنها السلطان للمندوب السامي البريطانى فى أحد المواقف بأن عدلى يريد «ان يفرض نفسه على »[٢٩] ، فان ثروت بدأ خلافات حادة مع القصر ايضا نتيجة لأزمة نصوص الدستور الخاصة بسلطة الأمة ، ووقوف الوزارة ضد رغبات القصر وعدم تصريحها بعدم الاجتماع لتأييد الملك ، وتعطيلها لصحيفة « الليبرتية» التي كان القصر يستخدمها فى اغراض الدعاية .

وقد ترتب على هذا أن علاقة ثروت بالملك وصلت الى مدى سيىء ،سواء بتجاهل ثروت لرغبات القصر أو فيما ارتآه القصر من أن لجنة الدستور التي شكلتها

(٢٨) بين ١٦ مارس/٢٤ ديسمبر ٢١

(٢٩) يونان لبيب ، تاريخ الوزارات ص ٢٢٨

الوزارة قد ذهبت حدا بعيدا فى تقييدها لسلطانه ، وهو مايتم برغاية ثروت وتشجيعه مما دعا الملك الى أن يبث العراقيل فى طريق وزارة ثروت مما بدا منه واضحا فى رفضه لانعقاد مجلس الوزارة لبضعة أسابيع وهو ماترتب عليه «تعطيل سير الأحكام الحكومية الى حد خطير »[30] ، الى درجة أن اتصل ثروت بالمندوب السامى ليخبره برغبته فى تقديم استقالته .

فاذا استقالت وزارة ثروت وجاءت وزارة نسيم ، كانت علاقة الملك بالأحرار الدستوريين تمر بمرحلة سيئة استمرت فيما بعد فى فترة تولية وزارة يحيى ابراهيم فلم يتخذ الأحرار فيها من الملك موقفا مجاملا قط ، او التساهل فى تأييد بعض مطامعه الدستورية ، ومن هنا ، يمكن تلخيص موقف الأحرار من القصر كما وصفه د. محمد حسين هيكل حينئذ بأنه على النحو التالى :

(كان الملك فؤاد ينظر الى الأحرار الدستوريين كافة .. نظرة توجس وعدم رضا ، ألم يتألف حزب الأحرار الدستوريين فى سنة ١٩٢٢ من أعضاء لجنة الدستور التى حرصت على توسيع حقوق الأمة وتضييق حقوق العرش ؟ ألم يعلن عدلى يكن «باشا» فى الخطاب الذى ألقاه يوم تأليف الحزب ان من اغراضه المحافظة على سلطة الأمة وحقوق العرش ؟ ألم تدافع جريدة الأحرار الدستوريين عن المشروع الذى وضعته لجنة الدستور دفاعا حارا مخافة أن ينتقص من سلطة الأمة فيه مايزيد فى حقوق العرش ؟ أو ليس الأحرار الدستوريون هم الذين استقالوا من وزارة زيور «باشا» المنسوبة للقصر فى سنة

١٩٢٥ ، وبعد قليل من هذه الاستقالة القى رئيسهم اذ ذاك عبد العزيز «باشا» « فهمى خطابه الجرىء يعارض فيه سلطة القصر معارضة عنيفة ..»[31]

وقد كان الطبيعى ان يكون موقف طه حسين مع كل هذا موقف حزب الأحرار فى كثير من القضايا التى عرضت فى هذا الوقت .. ففى الفترة التى كان يثار فيها الرأى حول مواد الدستور وحقوق العرش عام ١٩٢٢ راح طه حسين يكرر نغمة كررها كثيرا

(٣٠) السابق ، ص ٢٤٨ ، ايضا : احمد زكريا الشلق ، الاحرار ص ٢٣٨/٢٤٠ .
(٣١) محمد حسين هيكل ، ج٢ ص ٣٦

وقتها من ان «الأمة مصدر السلطات »[٣٢] مشيرا فى اكثر من موضع ومناسبة من ان القصر يركب رأسه ، فقد كان يريد برلمانا لا سلطة ولا حقوق له ، ولم يكن يريد سيادة وطنية ولا مسئولية وزارية[٣٣] .

وتمضى الحركة الوطنية وتؤلف لجنة الثلاثين لتكوين الدستور ، ويرى حزب الأحرار أن هذه اللجنة ماضية فى عملها حتى يصبح الدستور الديموقراطى من حقوق الشعب ، ويظهر الخلاف حادا بين القصر والوزارة بسبب هذه الجدية ، وطه حسين فى هذا الوقت ، بالتبعية ، ماض فى تأييد الدستور الديموقراطى غير ملق بالا الى «القصر ولا الى صاحب القصر الذى أحسن لقاءه ومنحه كثيرا من العطف والبر والتشجيع »[٣٤] ، ويكتب طه حسين فى الصحف حينئذ بما يعنى عدم رضائه عن سياسة القصر ، بل ويواصل هجومه العنيف عليه سواء فيما يتعلق بمواد الدستور ، أو بقضية أثيرت حينئذ من تلقيب ملك مصر (ملك مصر والسودان) ، وفيما يتعلق بمواد الدستور الخاصة بالسودان أو فيما يرد من طلب الانجليز من الحكومة المصرية التعويضات التى تطلب منها ، ثم موقف السلطان الغريب من هذا .

وتثار قضية الخلافة حين يتطلع اليها الملك فؤاد ، ففى الوقت الذى يصرح فيه محمد محمود أحد قادة حزب الأحرار بأن الملك : «لايجب أن يكون زعيما اسلاميا[٣٥] » وهو مايعنى اتجاه حزب الأحرار ضد ارادة الملك ، يتخذ طه حسين ، من ثم ، موقفا مناهضا للملك ، فيكتب مقالا طويلا على اثر الغاء الخلافة فى تركيا وفصل السلطتين المدنية والدينية مؤكدا على أن «التطور السياسي للعالم الاسلامى ، يقضى قريبا او بعيدا بأن يذهب المسلمون طوعا أو كرها مذهب الأوروبيين ، فتصبح الخلافة عندهم سلطة دينية خالصة ليس بينها وبين الحياة السياسية والمدنية صلة وتصبح سلطة روحية كما يقول

(٣٢) مابعد الايام ، الزيات ، ٢٢يناير ٨٢ج٢

(٣٣) سوزان ، ص ٥٣

(٣٤) الايان ، ج٣ ص ١٦٣ ، ايضا : سوزان ص ٥٧

(٣٥) F.O. 141/681, M Mahmd 23,4,1923 ايضا انظر الشلق ، الاحرار ص ١٨٦ ،

الأوروبيون »[٣٦] مرددا اكثر من مرة نفس الرأى مصرا عليه ، مركزا على ضرورة فصل السلطتين السياسية والدينية وإن لم يقلل من احترام الدين فى قلوب المسلمين وعقولهم .

وقد وصل القصر الى درجة من الغضب من طه حسين الى درجة ان أسر ثروت الى طه حسين بهذه الدرجة من الغضب والسخط الذى وصل القصر اليها ، ناصحا اياه أن يلطف من هذه الحدة ويستدرك منها .[٣٧] .

وقد كانت علاقة حزب الأحرار بوزارتى نسيم ويحيى ابراهيم خاصة علاقة سيئة يفسرها موقفهم من سلطة الملك فى لجنة الدستور ، ومن ثم ، فان هجوم طه حسين على وزارة ملكية ، يعنى ، هجومه على الملك مباشرة وهو يعترف بهذا ولا يتردد عن التصريح به فى هذا الوقت ، فيقول :

« تكلم نسيم اليوم . فأعلن فى لفظ جرىء واضح أنه كان يعتمد فى وزارته الثانية على تأييد جلالة الملك وعلى تأييد الكثرة المطلقة » .. (و) .. يجب ان نخاف ويجب أن نحذر . فان الرجل الذى كاد يضحى بمصر لسلطان البلاد لم يفارق ملعب التمثيل فراقا أبديا »[٣٨] .

* * *

على أنه بسقوط وزارة نسيم وتولى سعد زغلول لوزارة شعبية (٢٨ يناير/٢٤ نوفمبر ٢٤) يلحظ تحول هام فى علاقة طه حسين بالملك .. ففى الوقت الذى يهاجم فيه سعد زغلول كان يستدر عطف القصر ويتقرب منه بسبب العداء القديم بين سعد والملك .

كان موقف الأحرار ، منذ البداية ، معارضا لحكومة سعد زغلول ، فما كادت صحيفتهم ترحب بتولية سعد للحكم متفائلة بالوزارة الجديدة[٣٩] حتى بدأت هجومها فى افتقاد برنامج للاصلاح الاقتصادى والذى يحقق التوزان بين عناصر الاقتصاد المصرى

(٣٦) السياسة ٥ نوفمبر ٢٢
(٣٧) الأيام ج٣ ص ١٦٣ ، ١٦٤
(٣٨) السياسة ٢٧ مايو ٢٣
(٣٩) السياسة ٢٨ يناير ٢٨

وذهبت تحاج سعدا بأن الحكومة قد صارت فى يده ، وأنه كان يتعلل وهو فى المعارضة بأنها لم تكن فى يده[٤٠] ، وبدأت «السياسة» ، لسان حال حزب الأحرار ، فى هجوم عنيف على الوزارة السعدية فى وقت كان لابد فيه أن تقترب من القصر ، الذى كان بدوره ، يضيق ذرعا بالوزارة الجديدة التى كانت تحرص على برلمان منتخب انتخابا سليما ، ومن ثم ، فحين استشرى الخلاف بين سعد والملك حول مسألة دستورية ، تتالى هجوم حزب الأحرار فى عنف شديد ضد هذه الوزارة .

وكانت هذه هى الفترة التى قدم فيها طه حسين للنيابة مع كل من الدكتور حافظ عفيفى وتوفيق دياب ، كما توالت ملاحقات الحكومة لصحيفة (السياسة) ومحرريها حتى حكم بالغرامة على محمد حسين هيكل[٤١] ، كما حوكم طه حسين وقدم الى النيابة وحقق معه فى ٧ يونيو سنة ٢٤ بسبب عديد من المقالات التى راح يهاجم فيها سعد زغلول وأن حرص فى بعضها على عدم ترك توقيعه مما دفع بالوزارة القائمة الى تقديمه للنيابة[٤٢] .

وتزخر مقالاته فى الفترة التالية بهجومه العنيف على سعد المقترن بدفاعه عن العرش وإعلاء شأنه والتقرب إليه ، فهو يذكر فضل الملك فؤاد على الجامعة حين يقارن بين سعد والملك[٤٣] ، وهو يشير الى أن اصحاب سعد هم اعداء العرش مضيفا بأن «أمثال صاحب الجلاله الملك فؤاد قد طبع فى نفوس رعيته عميقا ، فليس يخلو منه قلب الا قلب مريض او نفس معتلة ، ولا عجب ولا غرابة . فالمصريون مدينون له ولأبيه اسماعيل وبجده العظيم محمد على ، لانقول بما وصلوا اليه من رقى بعد انحطاط وماظفروا به من عزة بعد ذلة ، بل نقول أنهم مدينون لهؤلاء .. »[٤٤]

وقد كان واضحا أن الهجوم على الوفد ، وهو من أهم أهداف حزب الأحرار ، يصحبه هدف آخر من أهداف الحزب ، وهو التقرب من القصر ، فبمراجعة مقالات طه حسين حينئذ نرى أن الهجوم على سعد تركز فى محورين اثنين : المحور الأول ، هو

(٤٠) السياسة ٣١ يناير ، ١٨ فبراير ٢٤ ، ايضا : الشلق ، حزب الأحرار ص ٢٤٥

(٤١) الشلق ، الاحرار ص ٢٤٦

(٤٢) المحفوظات ، السابق ، ملف طه حسين

(٤٣) الاتحاد ٢٥/٣/١٧

(٤٤) السابق ٢٥/٣/١٩ ، وايضا انظر : انور الجندى ، الصحافة السياسية ص ٤١٠ ، ٤١١

ديكتاتورية سعد وطغيانه ، وهو مايرتبط بالمحور الآخر ، من أن سعدا كان ضد الملك فؤاد ..

فعلى الرغم من أن خلاف سعد والملك كان يدور حول نقطة دستورية هامة فى الظاهر ،وفى الباطن من جانب سعد على محاولة السيطرة على جموح الملك وسلطته التى يراد لها أن تكون سلطة مطلقة ، فأن الهجوم على سعد من جانب طه حسين ، على الأقل ، كان يقصد به التقرب من الملك فؤاد اكثر من الاحتجاج على مسلك وزارة سعد ، وهو المستغرب تماما من جانب طه حسين الذى كان يحرص أشد الحرص على مواجهة سياسة الملك الأتوقراطية منذ عاد من أوروبا .

وما يؤكد هذا موقفه بعد قليل من حزب (الاتحاد) ، فعلى الرغم من أن حزب الأحرار الذى انتمى اليه قد أيد نشأة هذا الحزب تأييدا كاملا ، بل وقبل رئيس حزب الأحرار عبد العزيز فهمى حينئذ العضوية الشرفية التى عرضها حزب الاتحاد عليه واعلن وجود حزب الوفد مؤكداً أن وجوده لايمس مطلقا الحزب الدستورى فى خطبته التى القاها بدار الحزب[45] .. فان انضمام طه حسين الى هيئة الحزب الجديد انما كان على وجه الترجيح بقصد مداهنة الملك والتقرب من القصر الذى تتفق جميع المصادر فى هذا الوقت على أنه كان الوحيد وراء انشاء الحزب ورعايته[46]

* * *

على أن شهر العسل بين طه حسين والملك الذى ظهر فى تأييد الملك فى وزارة الشعب (وزارة السعديين) أوشك على الانتهاء بمجىء وزارة ملكية جديدة بتولية زيور الوزارة بعد اقالة سعد زغلول فى ٢٤ نوفمبر ٢٤ .

ومن هذا الوقت وحتى قرابة ربع قرن من الزمان بعد ذلك ، غادت القطيعة بين

(٤٥) السياسة ١٥/٢/١٥ ، ايضا : الشلق ، الاحرار ص ٢٤٩

(٤٦) انظر ملف حزب الاتحاد : FO. 141/819, Unionist Thanly, FO B, 1925 ايضا : محمد حسين هيكل ص ١٨٨ ، احمد شفيق ص ٥ ، ٢٨ ، ٢٩، علوبة ص ٣٦٤ ، عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول ج٢ ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، الرافعى ، فى اعقاب الثورة ج١ ص ٢١٣/٢١٥

طه حسين والقصر ، وعاد طه حسين الى هجومة على صاحب القصر إما اثناء تواجد الوزارات الملكية (وزارة زيور — وزارة صدقى) وإما فى عديد من المواقف التى كان لابد لطه حسين فيها أن يدفع ثمنا باهظا لموقفه المعارض للقصر .

وقد كان أهم المواقف التى ظهر فيها عداء طه حسين للقصر فى وزارة زيور ازمة (الاسلام وأصول الحكم) ، ففى الوقت الذى اتخذ الملك فيه موقفا معارضا من الكتاب وصاحبه ومؤيديه وصل الى درجة اقالة عبد العزيز فهمى من وزارة الحقانية فى الوزارة كان لابد أن يزيد الكتاب من حدة القطيعة بين الأحرار والملك ، لقد كان مؤلف الكتاب ينتمى الى عائلة عرفت بمعارضتها للقصر رغم أن الكتاب لم يتضمن اى هجوم مباشر عليه ، الى جانب أن الملك كان مهتما بالخلافة الذى كان الملك قد عاد للحديث عنها بشغف خاص فى صيف ١٩٢٥[٤٧] .

وعلى هذا النحو ، وجد طه حسين نفسه مضطرا للدفاع عن الكتاب وصاحبه لأسباب كثيرة ، منها ، ارتباطه بعائلة الشيخ صاحب الكتاب ، وثانيها ، لاتجاه طه حسين الغربى الذى يتعارض دائما مع تطلع الملك وطموحه الى الزعامة الدينية ، ومنها ، ايضا ، لارتباطه الحزبى مع الأحرار الدستوريين الذين وجدوا أنفسهم لامحالة مدافعين عن الكتاب ، مدفوعين للهجوم ، معرضين للاقالة من جانب الملك .

راح طه حسين يدافع عن الكتاب ، وهو مايعنى أنه يهاجم الملك الذى رأى ان الدفاع عن الكتاب يطوى ، لامحالة ، نزوعا للهجوم عليه .

وفى العالم التالى مباشرة وجد طه حسين نفسه فى أزمة لاتقل فى ضراوتها عن أزمة (الاسلام وأصول الحكم) ، وهى أزمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، وعلى الرغم من أن موقف الملك من هذه الأزمة الأخيرة كان واضحا لتداعى الأحداث وضراوتها ، فان مصادر عديدة تلقى ضبابا كثيفا على هذا الموقف .

لقد وجد نفسه فى الضجة التى صحبت صدور كتابه فى منتصف عام ٢٦ ، ومالبثت أن انتهت بعد عدة شهور بتدخل العديد من الأطراف التى يشك فى أن الملك كان طرفاً اصيلاً فيها .

(٤٧) هيكل ، ج١ ص ١٩٤ ، ايضا : الظواهرى ص ٢١٣

وهنا يثور السؤال : ماهو موقف الملك من طه حسين فى هذه الأزمة ؟

وهل سعى الملك الى محاكمة صاحب الكتاب وفصله من الجامعة كما يردد فى البرلمان ، أم أن الملك آثر عدم التدخل مباشرة لهدف انهاء الأزمة لصالح طه حسين ؟

انه مما يحيرنا أن نجد رأيين متعارضين لموقف الملك ، فمن ناحية تؤكد قرينة طه حسين ان «القصر كان معاديا لنا »[٤٨] ، وتؤكد المصادر المعارضة أن «الملك فؤاد سعى بنفسه الى أن تنتهى المناقشات بعقوبة رادعة ضد طه حسين »[٤٩] ،ومن ناحية أخرى ، تذهب تقارير البوليس السرى الى أن «السراى كان لها يد فى اسكات الضجة فى البرلمان .. كما كان لها يد — أكيدة — فى قرار النيابة بالحفظ لانعدام القصد الجنائى »[٥٠] ، بحجة ان طه حسين كان عدواً لدوداً للوفد حينئذ ، بل أن طه حسين نفسه حين يهم بالسفر بعد ذلك بسنوات قليلة فانه فى معرض شكره لمن ساعده فى هذه الأزمة لاينسى أن يقول «وسأشكر ماحييت .. صاحب عرش مصر »[٥١] ، ويؤكد هذا بعض المصادر التى تذهب الى أن الملك لم يتدخل حينئذ «لاشعال الحريق ، وربما كان هذا الموقف سببا فى اطفائه » .

ونحن أمام رأيين متناقضين :

أحدهما ، موقف الملك المعادى لطه حسين .

وثانيهما ، موقف الملك المؤازر له فى محنته .

ونعتقد أن الملك آثر الجانب الأول ، اى ، عداء طه حسين ، والأسباب كثيرة لعل من أهمها :

— كان الملك يواجه عددا كبيرا جدا من العرائض والتلغرافات الغاضبة المرسلة من شيوخ الدين ، وجماهير الشعب[٥٢] ، والمعروف أنه كان حريصا على استمالتها .

(٤٨) سوزان ص ٧٩

(٤٩) آخر ساعة ٦٩/١٢/٣١

(٥٠) البوليس السرى ص ٨٢

(٥١) فى الصيف ص ٢٧

(٥٢) المحفوظات ، السابق ، تلغرافات عام ١٩٢٦

ـــ كان الملك يحمل لطه حسين موقفا قديما ، اذ كان هذا الأخير قلب له ظهر المجن من جديد بعد موقفه من مهاجمة سعد زغلول عام ٢٤ ، وما أعقبه من الانضمام الى حزب الاتحاد ثم الخروج منه وقد كان ينتظر الانحياز له .

ـــ وقبل هذا وذاك كان الملك لايغفر له افكاره التى تهدده ، والتى كان ـــ فى رأيه ـــ يتضمنها هذا الكتاب الجديد بما يعنيه من التمرد على القديم متمثلا فى هذا القديم السلطان وسلطته الشرقية ، ويؤيد هذا ويرجحه قول شيخ الأزهر فى هذا الوقت ـــ الشيخ ابا الفضل الجيزاوى ـــ ان الحملة التى كان يقوم بها الأزهر ضد طه حسين انما كان وراءها الملك فؤاد لما كان يعنيه موقف طه حسين من الدستور وحديثه الدائم عن الحياة الديموقراطية بما يتنافى مع ماجبل عليه السلطان من نزعة شرقية فى الحكم تجعله يعتقد ان هذه الأفكار الغربية لا تتواءم مع طريقته فى ممارسة الحكم .

ـــ وقد اتسم موقف الملك فى هذا الأمر من حزب الأحرار بعدم الرضا ، بل والسخط الشديد على اثر اللغط الذى ارتفع فى هذا الوقت فى مجلس النواب حول مخصصاته مما أحرج القصر وأساء اليه الى غير ذلك من البواعث التى كانت تهدد أوتوقراطية الملك .

ومن هنا ، لم يكن غريبا أن طه حسين حين يعين عميدا لكلية الآداب فيما بعد ، فانه لايجد من القصر الملكى أى تأييد ، فعلى الرغم من أنه ينتخب عميدا ، وترفع نتيجة الانتخابات الى وزير المعارف وترفض ، فان طه حسين لم يجد غير الاستقالة فى ٤ يناير ٢٨ خوفا من تدخل القصر الذى قد يضطره تحت الضغط الى الاستقالة .

لقد كان القصر يتمتع بنفوذ كبير ، اذ كان يتولى الحكم مشتركا مع الوفد بين عامى ٢٨/٢٦ ، ومن هنا ، كان عليه أن يفعل اى شيء ليحول بين طه حسين وبين الاحتفاظ بعمادة الآداب بأى شكل ، فقد كان بموافقه المناوئة للقصر لايرتاح اليه .

* * *

ماكاد ينتخب طه حسين عميدا لكلية الآداب عام ١٩٣٠ حتى طلب صدقى منه الاستقالة ، والتفرغ الى صحيفة (الشعب) التى أنشأها بايعاز من الملك كما هو الحال حين انشأ من قبل صحيفة (الاتحاد) والحزب الذى انتمى اليها .

تؤكد الأسباب التى انتهت بطه حسين الى الرفض ، وانتهت بصدقى الى النقل والفصل بعد ذلك من الجامعة ، أن جميعها تجمع على أن الملك كان المحرك الأول فيها ، فمن المستحيل ان نعتقد ان صدقى قام بهذه الاجراءات ضد طه حسين دون أخذ مشورة الملك وموافقته ..

واعتقادنا مبنى على عدة شواهد ..

تؤكد المصادر على علم الملك بعد ذلك كله ، فطه حسين يشير فيما بعد الى أن الملك انما كان وراء فصله من الجامعة حين «أخرجنى وأراد أن يضطرنى الى الجوع »(٥٣) ، ومن ناحية أخرى تشير المصادر البريطانية الى أن السبب يعود الى أن طه حسين اعترض على خطاب وزير المعارف أمام الملك فؤاد عند زيارته للجامعة مما سبب حرجا شديدا للملك(٥٤) ، ومن ناحية ثالثة ، تذهب عديد من المصادر الى ان كراهية الملك له انما كانت تعود الى واقعة قديمة ، تلخص فى أنه حين ذهب الملك لزيارة الجامعة هتف بعض الشباب لطه حسين «حنق الملك واوعز الى صدقى ليفصل طه حسين »(٥٥) وهو مايمكن أن يلتقى مع رفض طه حسين الانضمام لحزب الشعب الذى هو ، فى النهاية ، حزب الملك ، وهو مايضعنا فى نهاية الأمر أمام حقيقة واحدة ، هى ، أن ماحدث لطه حسين كان بعلم الملك وبمشورته .

ويمكن ان نستدل أكثر على طبيعة العلاقة بين الملك وطه حسين اذا وضعنا فى الاعتبار عدة شواهد أخرى ..

فمن ناحية كان الملك قد حقق خطوات بعيدة فى المشاركة فى الحكم والسيطرة على أجهزته الدستورية ، بوزارتى صدقى الأولى والثانية (١٩/٦/٣٠ ــ ٢٧/٩/٣٣) ووزارة سلفه عبد الفتاح يحيى (٣٣/٩ ــ ٣٣/١١) بمبادرات ملكية صرفة ، فالملك فؤاد دون أية سلطة دستورية أخرى ، ودون اى قوة سياسية ، ودون اى تأثير ، قد انفرد باتخاذ القرار ثم بتنفيذه ، وذلك رغم ارادة البرلمان الوفدى الذى كان قائما وبدون علم الانجليز الذين اعتادوا على التدخل فى مثل هذه المسألة .

(٥٣) روزاليوسف ٢٩ مارس ٥٤

(٥٤) كان ذلك فى فبراير ٣٢ ، انظر Public-revord office: Marchj.3. 1932,

(٥٥) مجلة الثقافة ،

وهذا يعنى أن الهجوم على أية وزارة من هذه الوزارات التى جاءت برغبة الملك انما كان هجوما على الملك ذاته ، وهو ماوجد طه حسين نفسه مترديا فيه ، فالفصل بين الوزارة القائمة وبين الإرادة الملكية القائمة وراء وجودها فصل مستحيل .

ومن ناحية أخرى كان الملك وراء قيام حزبى (الاتحاد والشعب) ، اذ أن هذين الحزبين تشكلا بايحاء من القصر ولم يخف هو ذلك ، واستفادا من ناحية الوزارة القائمة ، وقد كان وراء اشتراك عديد من الأعضاء شكلا من اشكال التطلع الى القصر والتحلق حوله .

وقد حدد طه حسين موقفة من الحزب الأول حين اتصل به ثم انفصل عنه ولما يمض وقتا وطويلا ، ثم حين رفض الانضمام أو المشاركة النهائية فى الحزب الآخر بشكل قاطع مما زاد من حنق الملك واغراء صدقى بأن يضيق الخناق على طه حسين بعد فصله من الجامعة .

لقد كان من اثر سيطرة الملك على الحكم بواسطة حزب الأقلية فى الفترة بين عامى ٣٤/٢٩ أن وجد طه حسين نفسه أمام حتمية مهاجمة صدقى ومنددا بطغيان الملك معا ، وفى الحالتين فان هجومه على النظام كان هجوما على الملك الذى سيطر على أداة الحكم حينئذ .

ومراجعة صحيفتى (كوكب الشرق) و (الوادى) ترينا هذا الهجوم الذى استهدف صدقى فى الظاهر ، واستهدف الملك وأوتوقراطيته فى الباطن .

فما كادت الوزارة تفرج عن أحد المتهمين فى القضية المعروفة بقضية (العامل ..)[٥٦] بأمر ملكى فى نهاية عام ٣٣ فكتب ، أن صيغة هذا الافراج «ستفسد اكثر مما تصلح ، وستغرى الناس بالشر أكثر مما تنهاهم عنه ، وسترغب الناس فى الإثم

(٥٦) بعد أن أعلن عن القاء قنبلة على سور جمعية الحشرات الملكية قبض على ابراهيم الفلاح وافرج عنه ، وكان قد حكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة لمدة خمسة عشر عاما من محكمة جنايات مصر فى تهم كثيرة ، وقد تعرض القضاة فى هذه القضية لضغوط كثيرة انتهت بصدور الأمر الملكى بالافراج عنه .

أكثر مما ستنفرهم منه ، ويكفى أنها ستشكك الناس تشككا فظيعا مخيفا فى هذا الذى تجرى به ألسنة الوعاظ والأتقياء والمعلمين ..)[٥٧] .

وحين يصرح احد وزراء حزب الشعب تصريحا غريبا يقول طه حسين ان ذلك «نوع من الدعابة نتركه نحن للوزارة وانصارها لأننا كما قلنا لانريد أن نضع الحديث الملكى موضع المناقشة بين الأحزاب »[٥٨] .

وهو لايكاد يجاوز التلميح الى التصريح ، فاذا اضطر الى التعرض للحديث عن الملك ، فهو لايجاوز الحديث الحذر المتقرب منه ، ففى (عريضة) يتحدث عن زيارة الملك لاقليم فى مملكته فيقول : « وقلوب المصريين جميعا سواء فى حب الملك ، والاخلاص له ، والالتفاف حول عرشه المفدى ، وشخصه الكريم ..»[٥٩] وهو فى هذا لايستطيع توجيه سهام النقد الى الملك او النيل من مكانته بشكل مباشر .

وفى نهاية وزارة عبد الفتاح يحيى ، وكان قد قطع شوطا بعيدا فى النيل من الوزارات الملكية يكتب الى الملك فى مقالاته الى أن ينظر لشكاوى الكثيرين الذين ممن اختيروا فى عهد صدقى أو سلفه أولئك الذين «مضوا على اثره يحنثون بالايمان التى اقسموها للدستور ، ويتخذون الدستور شعارا لأقبح انواع الحكم لايخافون شيئا ولا يستحون من احد » .. مؤكداً على أن «الشعب المصرى يامولاى يرفض كل الرفض مايديعه دعاة السوء من أن ارادتك السامية تناقض فى هذه الظروف ارادة شعبك المخلص الأمين »[٦٠] ولا يلبث فى اليوم التالى أن يصرح موجها كلامه الى الملك بأن « جلالتكم تحرصون على نظام لايحبه الشعب ، وتؤيدون عهداً قد كرهه الشعب ، وتأبون ان تأذنوا بافتتاح عهد لايريد الشعب به بديلا »[٦١]

(٥٧) كوكب الشرق ١٣ أغسطس ٣٣
(٥٨) السابق ٢٥ اغسطس ٣٣
(٥٩) السابق ٢٠ ابريل ٣٣
(٦٠) السابق ١٢ نوفمبر ٣٤
(٦١) السابق ١٣ نوفمبر ٣٤

وقد كان طه حسين فى هذا لايخفى حقيقة ان صدقى هو الملك وأن الملك هو صدقى ، فهو لايتعب من ترديد ان على الملك ان « يكف هؤلاء الساعين عن سعيهم .. وان المصريين يرغبون الى جلالتكم فى ان تنفضلوا فتأمروا بمحو آثار هذا التمرد على حقوق الشعب ، ورفع اوزار هذا العدوان على سلطة الأمة وفى ان تتفضلوا فتأمروا برجوع الدستور الذى لم يلغه صدقى باشا لأنه لم يكن يملك الغاءه ، وفى ان تتفضلوا برفع هذا الظلم القائم الذى لم يستطع صدقى باشا ، ولن يستطيع غيره أن يفرضه على الأمة شرعا ، لأن نظم الحكم لاتفرض على الشعوب »[٦٢] .

وقد كان هجوم طه حسين على صدقى يعنى الهجوم على الملك ، خاصة وأنه اثناء غياب صدقى للعلاج زمنا طويلا فى الخارج كان نفوذ القصر يستفحل ، وبشهادة دار المندوب البريطانى فى القاهرة أنه « بعد غياب صدقى للعلاج فان السلطة الوحيدة المؤثرة فى الوزارة قد اصبحت فى القصر » ففى هذا الوقت كان يبرز رجل هو ناظر الخاصة الملكية — زكى الابراشى — يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة الى درجة أن كريم ثابت يذكر أن تأثيره بلغ درجة ان اتصالات الملك فؤاد بالوزارة كانت تتم عن طريق الأبراشى[٦٣]، فالابراشى لم يكن ليدع ، بايحاء الملك ورغبته ، أمراً من الأمور إلا وكان له رأى فيها حتى دفع بطه حسين الى الهجوم على الملك تلميحا ، وعلى وزير خاصته تصريحا وجهارا فى كثير من المواقع على مانتج من هذا من تدهور المسائل المالية والتصرفات المشبوهة[٦٤] .

وبانتهاء وزارة عبد الفتاح يحيى يكون عصر القصر وأحزاب الأقلية قد انتهى ، ليبدأ عصر آخر اعُيدت فيه السلطة الى حزب الأغلبية ، وتحول فيه طه حسين ، نهائيا ، الى حزب الأغلبية مع ماترتب عليه من موقفه الجديد من القصر الذى اضحى الآن يسير

(٦٢) الوادى ١٣ نوفمبر ٣٢

(٦٣) الجمهورية ١١ يونيو ٥٥

(٦٤)الوادى ١٤/١١/٣٤ ، ايضا انظر : الجهاد ٢٤/٤/٣٥ ونشرت فيما بعد فى كتابه (بين بين) ص٥ .

فى الخط الحزبى ويحرص عليه الى حد كبير .

فما هو موقف طه حسين ، الجديد ، من الملك ؟

* * *

يمكن اعتبار الفترة التى يستكمل بها العقد الثالث دورته هى فترة التردد التى عانى فيها طه حسين كثيرا بين الولاء للملك والولاء للحزب .

ويعود هذا أول مايعود الى أن حزب الوفد فى صراعه الدائم ضد القصر من أجل تثبيت الدعائم الدستورية كان يدخل فترة تأييده والعمل على عدم إغضابه باطلاق يده فيما يرى ، فعدا الفترة التى تقع بين عامى ٤٤/٤٢ الذى حكم فيها القصر بتعضيد من الانجليز ، فان الفترات السابقة واللاحقة شهدت سيطرة القصر على احزاب الأقلية وعدم تعرض حزب الأغلبية لتصرفاته ، بل أن وزارة الوفد الأخيرة لم تستطع الاستمرار فى الحكم بدون مساندة القصر ، ومن ثم ، ارخت الحبل على الغارب للملك .. الى جانب أنه بعقد معاهدة ٣٦ كانت البلاد تدخل مرحلة جديدة ، فبعد أن كان الانجليز يتدخلون بشكل مباشر فى الحكم ، وفرض مايريدون فرضه ، فان الفرصة حانت اكثر لقوتين اثنتين تثنّى لهما محاولة السيطرة والحكم كل بمفرده ، فقد تدهورت العلاقة بين القصر والوفد ، خاصة ، تدهورا حال مع سياسة الوفد الجديدة دون الوقوف دون ارادة القصر كما أعلنت بيانات حزب الوفد المتتالية . وتعدد المصادر أسبابا كثيرا للخلاف بين الوفد والقصر ، على أنها تتفق ، جميعا ، على أن الخلاف الفعلى بدأ حين فرض القصر ارادته باصدار أمر ملكى بتعيين على ماهر رئيسا للديوان الملكى اعتبارا من ٢٠ اكتوبر ٣٧

ولقد كان هذا اشبه باعلان الحرب من جانب القصر على الوفد .

وعلى مدى يومين اخذت المظاهرات الموالية للقصر تجوب شوارع القاهرة لتهاجم معسكرات القمصان الزرق هاتفة بحياة الملك ، فى الوقت الذى بدأ فيه طلبة كليات الأزهر حركة عنيفة فتدفقت امواج المظاهرات والتجمعات ضد وزارة الوفد فى المحيط الجامعى وكليات الأزهر فى أواخر اكتوبر عام ٣٧ حيث اصطدمت احدى هذه المظاهرات المؤيدة للملك الهاتفة بحياته بالدكتور طه حسين ، وقد كان عميدا ، بمكتبه .

ويذكر شاهد عيان أنه تصادف مجيء د. محمد حسين هيكل الى الجامعة للقاء لطفى السيد ليحدثه فى إحدى القضايا العامة ، فما كاد الطلبة يرونه حتى حملوه على ظهورهم فألقى الدكتور هيكل كلمة بسيطة على اساس أنه زعيم المعارضة فقد كانت كل القوى تتحالف مع القصر ضد الملك(٦٥) ، وقد استمر الطلبة يهتفون «ليسقط النحاس عدو الملك ليسقط الدكتور طه حسين »(٦٦) .

وقد حدث ان التهب حماس هذه المظاهرة فارتكبوا حماقة الاعتداء على مكتب طه حسين ، وكادوا يهددون حياته لتخرج صحف الوفد فى اليوم التالى وهى تتهم الدكتور هيكل بالتحريض على هذا العدوان المزعوم .

وتنقل لنا أحد تقارير البوليس السياسى التى أرسلت الى الملك من أحد عملائه، على مايبدو ، صورة حية لما حدث فى هذا اليوم ، فهى تذكر أنه حين تمكنت قوة البوليس حينئذ من اختطاف طالب من الآداب وأوسعته ضربا وأرسلت به الى مكان معلوم ، وخوطب طه حسين فى امكان قبوله ، قال : «مادام متظاهرا فليتحمل نتيجة عمله » ، ثم أنه قدم طالبين من كليته لمجلس تأديب وحكم عليهما بالرفت سنة(٦٧) .

ومما سبق ، يبدو جليا موقف طه حسين من القصر الذى تؤيده كافة القوى السياسية المعارضة للوفد ، وهو مايتعارض مع موقفة السابق من ضرورة التقرب من القصر .

وهنا ، نصل الى فترة الأربعينات ،حيث اسهمت تطورات هامة دعت بطه حسين الى أن يحث الخطى فى اتجاه الملك وأن تخلل هذا فترات اطراد وتمهل سنبينها حال الوصول اليها .

* * *

(٦٥) الجمهورية ١٨/١١/٦٧ مقالة حافظ محمود ، وقد اكد الواقعة فى لقاء لى معه .

(٦٦) دار الوثائق ، محفظة ٦٤٤ ، رسالة خطية بتوقيع محيى الدين ناصف

(٦٧) السابق ، الرسالة

بدأت الأربعينات ولم يكن لطه حسين موقف مضاد من القصر ، وهو موقف لم يكن نابعا من قناعات ذاتية وحسب ، وانما من قناعات حزبية ايضا ..

أما عن الوفد ، فقد كان موقفه من العرش وصاحبه فى فترة الحرب العالمية الثانية مشوبا بالاحترام والتأييد الكامل ولم يفكر فى اشهار عدائه للملك حتى فى احرج اللحظات

وعلى هذا النحو ، فان الفترة التى تقع بين معاهدة ٣٦ وحتى نهاية العقد تميزت بالخلاف الحاد بين القصر والوفد ، وبالنسبة لطه حسين تتصاعد حالة من التردد بين اثنين : إما محاولة ارضاء الملك وإما محاولة ارضاء الحزب .

وسوف نرى صوراً من صور هذا التردد فى موقفين متناقضين ، فى هذه الفترة التى تصاعدت فيها ازمة حادة بين القصر والوفد ..

الموقف الأول حاول فيه طه حسين رأب ذات البين مع الملك الجديد ، وكما حاول ذلك من قبل حين أهدى الملك السابق بعض اعماله ، كذلك ، فانه مع الملك الجديد بدأ بإرسال كتبه المنشورة حينئذ ، فأرسل كتابه (على هامش السيرة) ممهورا باهدائه مشفوعا بالثناء(٦٨) ، ففهم القصر المعنى من وراء اول أعماله فى هذا العهد ، فرد عليه برد قصير يحمل الشكر والثناء .

ولا يمضى وقت طويل حتى يعلن عن عقد القرآن الملكى ، بين الملك فاروق وفريدة ، فيكتب طه حسين ، أو يستكتب ، فنقرأ فى صحيفة الأهرام مقالا طويلا بعنوان (تحية طه حسين بك بمناسبة القرآن الملكى) مليئا بكلمات من امثال (البهجة ، الغبطة ، السعيد) ، وبعد أن يؤكد فى مقدمة طويلة جدا عن عجز الأدب فى أن يوفى هذه المناسبة حقها يقول :

« على أن هناك حقيقة واقعة يستطيع الأدب ان يصورها وهو صادق ويستطيع التاريخ ان يسجلها وهو واثق بأنه يسجل الحق الذى لايرتقى اليه الريب وهى أن سبعة

(٦٨) دار الوثائق ، الصحافة والمطبوعات ١٨٩٣/١٩٥٢ رقم ٦٠٧ ارسل بالبريد فى ٣٧/١٢/٧ كما لم يكن هذا هو الكتاب الوحيد .

عشر مليونا من الناس هم أبناء مصرقد اجمعو على الابتهاج الذى لاحد له والاغتباط الذى لايبلغه الوصف لأن الله قد أسبغ على مليكهم فضلا من نعمته واتاح له حظا من السعادة فهم يشاركونه فى هذه النعمة ويستمتعون معه بهذه السعادة ويتمنون له ولأنفسهم المزيد .. (و) .. **فالمصريون مجمعون على حب مليكهم لأنهم يرون فيه صورة بارعة لمصرهم الخالدة ورمزا كريما لوطنهم العظيم** .. (و) .. **والمصريون يجمعون على حب مليكهم لأنهم يجدون فى شبابه النضر بهجة طالما نازعتهم اليها نفوسهم وزينة طالما هامت بها قلوبهم** . يظهر فتمتلىء به العيون وينطلق فتمتلىء به الاسماع . ويذكر فتمتلىء به القلوب والعقول . قد خلصوا لمليكهم وخلص لهم مليكهم .. »[٦٩]

وعلى الرغم مما يقال من أن الأدب قد يغلو من حيث لايريد صاحبه هذا الغلو ، او أن النص الأدبى لايحمل بالضرورة إدانة ، فإننا نرى العكس ، فقد يدل النص الأدبى على مالايستطيع النص المباشر أو الخطبة الموجهة ان تدل ..

وفى هذه الفترة التى يحاول كسب رضاء الملك وفى الباطن يحاول أن يتخذ موقفاً آخر مناهضا للملك ، ما كادت تعقد معاهدة ٣٦ حتى اتجهت الوزارة الوفدية خاصة بعد الحد من التدخل البريطانى ، الى العمل على الحد من نفوذ القصر .. ورأى اقطاب الوفد أن طريقهم الى ذلك قد يكون إما بانشاء وزارة لشئون القصرأو بدعم فرقة القمصان الزرقاء وتسخيرها لخدمة الوفد ولتكون سياجا للوزارة فى مواجهة القصر وإما بتحديد الحقوق الدستورية التى يمارسها الملك الشاب .. وقد كان هذا من شأنه السيطرة على الوفد فى وقت يلغى فيه منصب رئيس الديوان الملكى .. فى هذا الوقت فان طه حسين يرى أن العرش فوق الأحزاب وأنه «ليس لأحد ولا لفئة ان تحتكر ماللعرش وصاحبه فى نفوس المصريين كلهم من محبة وولاء »[٧٠]

أما طه حسين ، فانه وقد كان مراقبا للثقافة فى وزارة المعارف بين عامى ٣٩/ ٤٢ ، ثم منتدبا بجامعة الاسكندرية طيلة فترة الوزارة الوفدية ، لم يظهر موقفا مضادا من الملك فان كتاباته التالية فى هذه الفترة تتعرض بشكل ما للقصر ، كما أن كتاباته لم تقف منه موقفا يحسب عليه رغم أن الخلافات الحادة بدأت تدب بين الملك وبين الوزارة الوفدية

(٦٩) الاهرام ٣٨/١/٢٤

(٧٠) الوفد المصرى ٤٠/٨/٣ ، ايضا : عاصم الدسوقى ، ص ٤٥/٣٩

التى تولت بعد حادثة ٢ فبراير المشهورة بارادة الانجليز ، فعدا مقالاته المتفرقة حول ضرورة الحرص على فهم الديموقراطية أو ذكر مشكلة التعليم الجامعى الى غير هذا ، لم نجد تصريحا واحدا يخالف رأى الوفديين الذين امتنعوا عن إعلان رأيهم فى موقف مصر من الحرب ، الى معارضة الملك الذى حاول عدم الزج بمصر الى الحرب .

وقد يكون التفسير الوحيد لكتابه (أحلام إشهر زاد) الذى ظهر فى هذه الفترة — عام ٤٣ — مهاجما فيه الملوك والسادة والزعماء لاتخاذ قرار الحرب، هو أنه كان ادخل الى فقدان الديموقراطية السياسية والتذكير بالدمار الذى لحق بالشعوب من جراء حرب لامصلحة لمصر فيها اكثر من مهاجمة الملك كمسئول عن هذه الحرب او لطغيانه بشكل مباشر فضلا عن تبلور البعد الاجتماعى الذى شغف به طه حسين حينئذ من هذه الديموقراطية « التى اخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب مابين الطبقات ..»[(٧١)] .

ويؤكد هذا أن سياسة القصر التى كانت ترمى الى تجنب مصر لويلات الحرب هى السياسة التى كان تبناها وينفذها بناء على ايعاز من الملك على مايبدو رئيس الوزراء حينئذ وهو على ماهر ، الى جانب هذا ، فان طه حسين كان مستشارا فنيا لوزير المعارف ومديرا لجامعة الاسكندرية فى وزارة وفدية (٤٢/٤٤) بما لايدع مجالا للشك ان طه حسين لم يرد هجوما ما على الملك للتواؤم مع سياسة الوفد التى كانت طيلة الحرب تتميز بالاحترام والتأييد الكاملين من «العرش وصاحبه » .

على أن الملك الذى كان يضيق ذرعا بسياسة النحاس ظل ينتهز الفرصة للخلاص منه حتى حانت له فأقال الوزارة ، وراح يصب جام غضبه على عناصرها ، فكان أن اصدر فى الوزارة التالية لها امرا ملكيا بالغاء كافة الترقيات والعلاوات والمعاشات الاستثنائية التى تمت فى فترة وجود وزارة النحاس ، كما اصدر مرسوما باحالة عدد من وكلاء الوزارات ومن فى درجتهم الى المعاش فعمد أن يكون منهم طه حسين لعلاقته الوثيقة بحزب الوفد ، ومن ثم ، وجد طه حسين نفسه ، مع حزب الأغلبية خارج كرسى الحكم .

* * *

فى هذه الفترة التى تقع بين وزارة وفدية (عام ٤٤) ووزارة وفدية اخرى (عام ٥٠)

(٧١) احلام شهر زاد ، ص ٧

طرأت عدة عوامل اثرت فى تحديد موقف طه حسين من الملك ، ومن ثم رد فعل الملك منه ، فمن ناحية لم يتعد موقفه من الملك ونظامه هذه المقالات الرمزية الموجهة اليه فى شيء من الغموض ومن ناحية كان الملك يضيق أشد الضيق بما يكتبه طه حسين معتقدا أنه يهاجمه ، فى الوقت الذى لم يستطع فيه طه حسين ان يجد فرصة سياسية ليلعب دورا حيويا فى علاقته من الملك وهو مايعود الى ضآلة الدور الذى كان يلعبه حزب الوفد حينئذ ، اذ عرض على النحاس ان يشترك فى الحكم مع احزاب الأقلية غير أنه كان يعتذر فى كل مرة (أعوام ٤٠/٤١ ، ٤٦/٤٨) .

وسوف يتضاءل دور طه حسين السياسى فى وقت لم تكن مقالاته لتخلو من هذه النبرة ضد الملك متوسلا بكتاباته الأدبية ، مركزا فيها على اثنين :

ــ الاشارة الى الطغيان والدفاع عن الديموقراطية

ــ الضرب على وتر البعد الاجتماعى

والجدير بالذكر أنه وان كان الملك يشعر بالضيق الشديد لمن يشير الى الطغيان او يدافع عن مظاهر الحياة الدستورية فهذا مايقلل من طبيعته كملك يريد ان يسيطر على كل شيء حينئذ ، فقد كان المطلب الاجتماعى يثير لديه كوامن الخوف سيما وقد كان من يطالب بتطوير المجتمع والبحث عن قضاياه يوصم بالتطرف فى هذا الوقت .. وهو مايفسر ضيق الملك بما تحتويه كتابات طه حسين فى فترة الأربعينات سواء منذ روايته الأسطورية (احلام شهر زاد) عام ٤٣ وحتى نماذجه النقدية (جنة الحيوان) عام ٥٠ ومرورا بكل من (المعذبون فى الأرض) ٤٦/٤٨ ، (شجرة البؤس) ٤٤ ، (الوان) ٤٥/٤٨ ، (ماوراء النهر) ٤٦/٤٧ ، (القدر) ٤٧ ، (مرآة الضمير الحديث) ٤٨ ، (جنة الشوك) ٤٥ .. الى غير ذلك .

وعلى هذا النحو ، كان موقف طه حسين من ناحية ، وكراهية الملك له التى ورثها عن أبيه من ناحية أخرى كافيا ليتخذ القصر ضده موقفا حادا فى هذه الفترة ، وهو مايفسر سلسلة المضايقات التى أخذ الملك يضغط بها على طه حسين .

وتبدأ هذه المضايقات حين أقيل طه حسين على المعاش بمرسوم ملكى لكونه كان أحد المشايعين لحزب الوفد ، ثم سعى الملك للتضييق عليه اثناء تأدية وظيفته كمدير

لجامعة الاسكندرية اذ عين مراقبا من قبله اخذ يضايق طه حسين حتى صاح فى وجهه فى إحدى المرات ، كما أمعنت الوزارة السعدية (وهى وزارة ملكية) فى التضييق عليه ايضا حتى اضطر الى الاستقاله من جامعة الاسكندرية .

وقد اغلقت مجلة الكاتب فى وقت كان الملك فيه وراء هذا الاغلاق وهو مايبدو من ملابسات إغلاق المجلة ، فمع ان طه حسين صرح بأن الحكومة أجبرته على تصفية أعمال دار النشر والمجلة(٧٢) وروت قرينته أن القصر كان السبب فى توقف المجلة (٧٣)، كما أن بعض الباحثين روى ان أن اصحاب دار النشر انفسهم طالبوا ايقافها فبيعها الضئيل «لايفى بنفقات الانتاج » ، أى أنها مجرد (الخسائر المالية)(٧٤) .. فمن الأرجح ان يكون القصر السبب الرئيسى وراء ايقاف المجلة على لسان الحكومة(٧٥) .

ويبدو أيضا أن القصر كان وراء التدخل لمنعه ترشيح نفسه نقيبا للصحفيين حين رشح لهذا المنصب من مجلس ادارة النقابة ، ففى الوقت الذى قرر فيه الصحفيون انتخابه نقيبا لهم على اثر انتهاء فترة رئاسة فكرى اباظة ، قرر الملك الاعتراض على هذا ، كما هدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد النقابة فى حالة اذا ماتم ذلك ، وقد ابلغ هذا الانذار لأعضاء النقابة ورئيسها بواسطة رئيس الوزراء فى هذا الوقت — حسين سرى — الذى راح يهتبل الفرصة للسخرية من طه حسين ، سأل عنه فأجاب (وهل هو من الصحفيين ؟) ، ولم يجد طه حسين غير الاعتذار عن الترشيح فانتخب أحمد أبو الفتح(٧٦) .

(٧٢) Cachia pierre Taha Husayn, his place in the Egyptian Literay renaissance s, London 1956 ايضا مقابلة خاصة معه فى ١٩٨٤/٣/٢٨ .

(٧٣) سوزان ص ١٤٤ ، وقد اكدت على ان ظهور (الكاتب) لم يرق (للقصر)

(٧٤) لويس عوض ، الأهرام ٦٨/١٢/٢٠ مقال (الوزير) وهو مايردده كثير من الباحثات من امثال د. عواطف عبد الرحمن وسهام عبد الرازق .

(٧٥) مجلة (المجلة) ١٥ تشرين الأول ٨٢ (مقالتان) ، ايضا لقاء مع بيير كاكيا ، فى ١٩٨٤/٣/١٨ .

(٧٦) ملف الانتخابات ، نقابة الصحفيين ، عام ٤٩ ، ايضا : الأهرام ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٩/١٢/٢٣ ، ايضا : لقاء مع حافظ محمود نقيب الصحفيين السابق ، ايضا : لقاء خاص مع الاستاذ مصطفى لطفى سكرتير صحفى مكتب حسين سرى رئيس الوزراء فى هذا الوقت ، وهو يؤكد لى من واقع وجوده فى هذا المكتب ان حسين سرى تحمس جدا لموقف الملك وراح يهاجم

واذ حالت الفترة بين عامى ٤٤/٤٢ دون تحديد موقف واضح لطه حسين من القصر لوجوده فى وزارة حزبية ــ الوفد ــ دخلت فى خلاف مع الملك ، فان الفترة التالية بين عامى ٤٩/٤٥ ، وقد كان الوفد فيها بعيدا عن كرسى الحكم بينما يمارس الحكم بعض أحزاب الأقلية .. كانت تحكم بتردد طه حسين فى موقفه من الملك بكتاباته الرمزية ، مما انتهى بالملك معه الى تلمس اسلوب الوعيد مرجئا التهديد الى حين .

لقد تتالت محاولة الملك لاستمالة طه حسين ، فأرسل إليه من حاول ان يضمه الى القصر أو تأييده فى أول وزارة ملكية تولت بعد سقوط وزارة ٤٢ فأحجم طه حسين ، كما حاول فى نهاية الأربعينات استرضاءه فمنحه جائزة الملك فؤاد للأدب وعينه رئيسا للجنة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة ابن سينا ، على أن هذا كان يتخلله غضب الملك منه حين ينشر بعض كتاباته الرمزيه مثل هذه المقاله التى نشرها بعنوان (قلب مغلق) ووصل فيها الى اقصى درجات الرمز الذى يغلو فى الهجوم على الملك متخذا لسان ابن المقفع ، وقد بلغت كراهية الملك له ان طلب من رئيس الديوان ، حينئذ ، تبليغ الدار الذى كتب فيها ــ الهلال ــ غضب السراى الشديد[(٧٧)] .

على أن قمة غضب الملك من طه حسين يمكن أن نلمسها فى التأكيد لمن حوله فى إحدى المرات مشيرا اليه « انتم لاتعرفون خطورة هذا الرجل ، انه الرئيس السرى للشيوعية فى مصر . والحكومة نفسها لاتعرف ذلك . ولكن أنا أؤكد لكم ان المعلومات التى عندى تثبت أنه الرئيس الأعلى للشيوعية عندنا »[(٧٨)] .

وعلى أية حال ، فان موقف طه حسين المعارض (بالرمز) ، وموقف الملك الغاضب (بالفعل) دفع بطه حسين فى نهاية الأربعينات الى شيء من التردد فى هذا الموقف ، وتحول التردد الى التحول فى موقفه من الملك خاصة حين نجحت وزارة الوفد فى تولية مقاليد الحكم واصبح فيها وزيرا مسئولا ..

طه حسين بعنف وهو يفسر بأن ثمة خلافاً عنيفا كان بين حسين سرى وطه حسين لكونهما من بلدة واحدة ــ المنيا ــ
(لقاء مصطفى لطفى بمبنى نقابة الصحفيين فى ١٩٨٤/٨/١١) .

(٧٧) تاريخ الفكر السياسى ، دكتوراه مخطوطة بقاعة الرسائل بالقاهرة ص ٣٠٧ ، وهو ماورد فى كتاب كريم ثابت (الملك فاروق) ، دار المعارف يوليو ٤٤

(٧٨) محمد حسين هيكل جـ٢ ص ٢٨٨

فلنر صفحة أخرى من علاقاته مع الملك ..

فى نفس يوم استقالة حسين سرى فى ١٢ يناير عام ١٩٥٠ عهد الملك الى مصطفى النحاس بتأليف آخر وزارة وفدية عرفت فى تاريخ مصر الحديثة .. واذا كانت الوثائق البريطانية تؤكد فى هذا الوقت على أن «وجهة النظر البريطانية فى ذلك أن يكون رئيس الوزراء الجديد (غير وفدى) ولكن يتمتع بثقة الوفد ، على أساس أن تعيين وزارة وفدية سيكون من شأنه إغضاب القصر وبعض الدوائر السياسية الأخرى »[٧٩] .. فان الزعيم الوفدى الجديد كان يدرك هذه الحقيقة ، فلم يحاول تضييق الخناق على الملك بشأن استبداده واستفحال نفوذه او الفساد المستشرى .. الى غير ذلك ، من شأنه ان يغضب القصر ، وانما سعى الوزير الجديد الى احتواء الملك « ضماناً لبقاء النظام وضمانا لاستمرار الوفد فى الحكم »[٨٠] .

هذا هو الأمر الأول الذى يجب التنبه له ، ونحن نحاول رصد هذه العلاقة بين وزير فى وزارة وفدية ، وبين ملك يحاول الوفد كسبه الى جانبه بأى ثمن .. ومع ذلك ، فلنحاول التعرف على الظروف التى عين فيها طه حسين وزيرا للمعارف فى وزارة اغلبية قبل أن نصل الى علاقته بالملك وموقفه منه فى فترة توليه الوزارة .

تؤكد كل مصادر هذه الفترة أنه عند تشكيل الوزارة الجديدة والطلب من الملك للنظر فى مشروع التشكيل الوزارى كما هو متبع دستوريا ، وقد سلمه اياه بواسطه رئيس الديوان مصطفى النحاس .. حدث أنه حينما وصل الملك الى اسم طه حسين وقيل أنه مرشح ليكون وزيرا للمعارف بغت وصاح «مستحيل .. مستحيل ! فقال حسين سرى : هل لمولانا اعتراض عليه ؟ فقال انتم لاتعرفون خطورة هذا الرجل »[٨١] وهنا تختلف الروايات ، فبينما يقول كريم ثابت انه السبب فى إثناء الملك عن رفضه لتعيين طه حسين مؤكدا أنه استطاع ان يضمه الى التشكيل الوزارى ، فان حسن يوسف وكيل الديوان

(٧٩) يونان لبيب ، الوزارات ص ٤٢١

(٨٠) طارق البشرى ص ٣٠٣

(٨١) كريم ثابت ، الجمهورية ٢٦ يونيو ٥٥ ، ايضا : جمال سليم ص ٨٥/٨٤ ، حسين سرى فى محاكمات الثورة رقم ١٠ لسنة ٥٣ ، صلاح الشاهد ص ١٥٦/٧٣

الملكى حينئذ يؤكد بشهادة شاهد عيان أن كريم ثابت لم يكن موجودا وانما الذى يعول عليه هو حسين سرى فقط ..

ومهما يكن ، فقد كان الملك متشددا جدا فى موقفه من طه حسين بحجة ان أفكاره متطرفه .. على أن غضب الملك ورفضه انتهيا أمام اصرار النحاس من أنه (مستعد يتنازل عن كل الوزراء الا طه حسين »[٨٢] ، غير أن الملك مالبث أن قبل طه حسين على مضض .

ولكى نعرف حجم السيطرة التى كان يتمتع بها الملك ، لابد أن نعلم أنه فى حفل حلف اليمين ، حين يصل طه حسين وغيره من الوزراء الى القصر ، يقول الملك له أمام الجميع ، وبلهجة عنيفة وعالية : «ياحسين هذه تجربة لك هذه آخر مرة امتحنك فيها وانا مش عايز مبادىء هدامة ، حسين هذه هى التجربة الأخيرة »[٨٣] ، فلا يكون على طه حسين أن يجرؤ بالرد على الملك ، او يتصدى لاستفزازه فيصمت .

ويتغاضى طه حسين عن موقف الملك الأوتوقراطى الذى لم يتردد أن يهدد بأمر ليس فى حكم حوزته بحكم أنه ملك يلتزم بدستور وارادة شعبية يكون قد بدأ تنازلاته كوزير ، وهو موقف سيتكرر بصور أخرى عديدة كما سنرى .

والفترة التى تولى فيها طه حسين وزارة المعارف بين (١٢ يناير عام ٥٠ ــ ٢٧ يناير ٥٢) يقف أمام فاروق أكثر من مرة ، فلا يزيد فى كل مرة منها على أن يتحدث حديثا متواصلاً متنازلا عن كبريائه كوزير فى وزارة دستورية وكإنسان يعرف حقوقه وواجباته ..

فلنرى بعض صور هذا الموقف

إن رصد كتابات طه حسين تضع بين أيدينا على قرابة عشرين مقالة، فقط هى كل ماكتبها أو كتبت عنه فى هذه الفترة .. ثلاث منها خطب ألقيت فى مناسبات أمام

(٨٢) محاكمات الثورة ، حسين سرى ٥٣

(٨٣) طه حسين فى اخبار ١١ يوليو ٥٥ ، وقد جاء هذا المشهد فى كل من شهادة حسين سرى ، وصلاح شاهد ص ٧٤

الملك ، واثنتان تدوران حول قضية التعليم ، وبقية المقالات تدور حول أشياء متنوعة فى الفن والأدب .

فما كاد يأتى (العيد الفضى لجامعة الملك فؤاد) حتى يقف طه حسين أمام الملك يفيض فى شكر الملك وتوجيه عبارات الثناء على والده حتى أنه يذكر ست مرات عبارة واحدة (**والدك العظيم الأمير أحمد فؤاد**) ، وعبارات الخطبة تضطرنا لإثبات بعضها هنا :

(وقد كان والدك العظيم ملهما يامولاى . فانه حين أنشأ هذه الجامعة لم ينشىء معهدا من معاهد تحرير المصريين تحرير عقولهم وقلوبهم ودعائهم الى الحرية الكاملة ..

وانى أستأذن جلالتك فى أن أترك التواضع دقيقة أو بعض دقيقة لأقول أن وزير المعارف الذى يشرف بالحديث الآن بين يدى جلالتك انما هو الثمرة الأولى لغرس فؤاد الأول ..)

ويختم كلمته ، فيقول :

(باسم هؤلاء جميعا أتوجه الى الله عز وجل أن يمنحك القوة والجلد وأن يتيح لك من الحياة الخصبة النابغة مايملأ مصر والشرق العربى كله حياة ونورا وأن يتيح لك يامولاى أن تحيى الأعياد الفضية لجامعتك كما تحيى الآن العيد الفضى لجامعة والدك .. أطال الله بقاءك يامولاى جعل حياتك كلها عيدا لعقول مصر وقلوبها وللشرق العربى كله) .

وقد ران على وجه الملك فور سماعه هذه العبارات «علامات الرضا والسرور الى درجة أنه قبل أن ينهى طه حسين خطابه كان قد أعطى تعليماته بمنح الباشوية له ، فبعد أن خاطبه فى الحفل مضيفا عبارة (باشا) ، أصدر القصر بعد يومين اثنين ، بمنح الرتبة رسميا وذلك فى ٣٠/١٢/٥٠

وهذا ، يعنى ، أن طه حسين حصل على المنحه قبل زملائه فى الوزارة بنحو عام كامل[٨٤] .

(٨٤) الأهرام ٣١/١٢/٥٠ ، ايضا انظر من كتاب المذكرات كل من عبد الفتاح حسن ص ٢٩/٣٠ ، وصلاح الشاهد ١٥٧

وماكادت تمضى أيام ثلاثة على هذه الخطبة حتى وقف طه حسين ثانية فى أول مناسبة أتيحت له ، وبعد منحه الباشوية بيوم واحد ، وفى مناسبة افتتاح معهد (فؤاد الأول بالصحراء) ليمعن اكثر فى دائرة التنازل ، ويكرر عبارة (**والدك العظيم**) بشكل يكاد لايخلو سطر واحد منها ، فقال ضمن ماقال :

(منذ ثلاثة أيام كنا نحتفل بمأثرة جليلة من مآثر والدك العظيم ، هى جامعة فؤاد الأول ، وأمس كنا نحتفل بمأثرة عظيمة من مآثر جدك الكريم ، هى الجمعية الجغرافية . ونحن اليوم نحتفل بهذه المأثرة الكبيرة من مآثر فؤاد نضر الله وجهه ، وهو معهد الصحراء .

(وأنت أمامنا دائما يامولاى فى هذه الحفلات ، تشرفها فتملأ قلوبنا غبطة ونفوسنا ابتهاجا . ويرى الشعب عنايتك بالعلم والعلماء ، كما كان يرى عناية أبيك بالعلم والعلماء ، فيرى صورة جليلة رائعة من صور الوفاء والذى لانظير له والذى لاحد له . انت جدير أن تكون استاذ شعبك فى الخلق ، فى الخلق الذى يمس سيرة الفرد فيما بينه وبين الناس ، وفى الخلق الذى يمس سيرة الشعب مع ملكه ، وسيرة الملك مع شعبه .

(أنت تعلم الناس كيف يعنى الأبناء لذكرى آبائهم ، وتعلم الشعب كيف يقتدى الشعب بملكه فيبقى للملوك الصالحين المصلحين ..

ويضيف :

(هذا المعهد يامولاى ثمرة إذن من ثمرات ذلك الملك السعيد الذى أشرف عليه والدك العظيم ولكنه ثمرة بدأها هو وأنضجتها أنت ، فاذا وفيت لوالدك العظيم فشهدت هذا الحفل وأتممت مابدأ ، فالشعب المصرى كله يتعلم منك الوفاء)[٨٥]

وقد بلغ من رضاء الملك بثناء طه حسين له ان صاح ، فى ابتسامة ساحرة ، كما تقول سوزان «اشكرك ياباشا »[٨٦]

(٨٥) الأهرام ٥٠/١٢/٣١

(٨٦) سوزان ، ص ١٧٠

غير أن هذا ماينطوى على خطأ وقع فيه من شهد هذا الحفل او من نقل عنهم ، فان لهجة طه حسين المتخاذلة جعلت كثيراً من كتاب المذكرات التاريخية ، بعد قرينته ، يذكرون ، ان الملك منح الباشوية لطه حسين بعد هذه الخطبة فى معهد الصحراء[87] خاصة وان شكر الملك اقترن به لفظة (الباشا) مما جعل البعض يعتقد ان طه حسين منح هذه الرتبة حينئذ ، والواقع ان رتبة الباشوية منحت لطه حسين قبل هذا بيوم بأمر الديوان الملكى .

ولا يكاد يمضى شهر واحد حتى يتكرر مشهد التخاذل من جديد ، ففى احتفال الجامعة بعيد الميلاد الملكى ، يحضر نائب الملك ليشهد توزيع الجوائز فى هذه المناسبة ، فيلقى طه حسين أمام النائب الملكى خطبة تحتوى على عبارات لاتقل مداهنة ، وقد تزيد ، عن العبارات التى سبق وأن ألقاها فى حضرة الملك ، وهو مايضطرنا الى اقتطاف جزء منها :

يقول (سيدى صاحب السعادة مندوب جلالة الملك المعظم/ فى هذا اليوم السعيد الذى هو يوم الملك ويوم الشعب يحتفلان فيه بعيد الملك فاروق أعزه الله/ فى هذا اليوم الذى أراد الله ان يضيف نعمة الى نعمه وأن يضاعف آلائه على جلالة الملك فأتاح له مصدرا من مصادر الغبطة والسعادة والسرور له ولشعبه الذى يشعر بشعوره ويبتهج بابتهاجه ويسأل الله له اتصال السعادة له .. (و) ..

من حق الجامعيين الاسكندريين جميعا أن يبتهجوا يفخروا ويفرحوا فى هذا اليوم لأن كل واحد منهم فاروق فهم الفارقيون ومن حق الفاروقيين أن يفرحوا ويفخروا ويبتهجوا بكل مايسوقه الله الى مليكهم من نعمة وسعادة وغبطة وابتهاج .. (و) .. أنا واثق أن علماءنا الشبان والكهول يسمعون ويفهمون عني ويستجيبون لهذا الدعاء .. أيد الله جلالة الملك وجعل أيامه كلها اعيادا لمصر)[88] .

ولم تكن كلمات طه حسين أمام الملك فقط هى التى أكدت موقفه الضعيف ، بل أكملت دائرة هذا الموقف الضعيف مارددته المصادر من أنه قام بتقبيل يد الملك ،

(٨٧) صلاح الشاهد ص ١٥٧ ، ايضا : عبد الفتاح حسن ص ٣٠

(٨٨) المصرى ١٢ فبراير ٥١

والمرجح أن يكون حدث هذا فى وقت افتتاح معهد الصحراء كما يؤكد شاهد عيان ، على أنه ماكادت تمضى فترة وجوده فى الوزارة ، وكانت كتاباته الرمزية تضايق الملك حينئذ ، حتى وجد نفسه وجها لوجه أمامه ، وبين جمع كبير من الوزراء حاول أن يمد يده لمصافحة الملك الذى تجاهل اليد الممدودة اليه وذلك فى حفل اقيم بمسجد الرفاعى فى ٢٨ ابريل ١٩٥٢ فى ذكرى وفاة الملك فؤاد(٨٩) .

والسؤال الهام هنا هو :

هل كان طه حسين حقا مضطرا الى هذا الموقف ؟

وما هو المبرر للتناقض بين موقفه خارج الوزارة وداخلها ؟

نظن أن طه حسين لم يكن مضطرا الى ذلك .. واعتقادنا مبنى على الشواهد الآتية :

رأينا أن مواقف طه حسين من الملك ، خاصة فترة الأربعينات ، لم تكن طيبة كلها ، وإنما حاول ان يجمع بين انتمائه الحزبى ودوافعه الشخصية .. أما إنتماؤه الحزبى فكان يحتم عليه اتخاذ موقف من احزاب الأقلية المؤيدة للقصر ، والتى كان القصر يحكم فيها خاصة بعد سقوط وزارة الوفد عام ٤٤ . واصرار الملك على اخراجه من وزارة المعارف حيث كان مستشارا فنبا بها .. وهو فى سبيل هذا كان متماسكا الى حد ما فى علاقته بالملك الذى كان يكن له كراهية شديدة الى درجة أنه حاول استمالته كما فعل والده من قبل .

وأما دوافعه الشخصية فقد حاول -ها أن يظهر الودّ تجاه القصر فيما يرسل به من كتب وما يتجنب به الاساءة للقصر فى بعض المقالات ، او فيما يبديه من صمت ازاء بعض القضايا التى كان يمكن أن يرسل فيها اللوم على سياسة الملك .. على أن كتاباته التى نحا فيها منحى اجتماعيا كانت تخيف الملك ودفعت به دائما على أن يكون على مسافة بعيدة من القصر تحميه من الرياء له أو مداهنته .

وقد حاول ان يجنب نفسه تلك السنوات التى سبقت تشكيل وزارة ٥٠ ، حتى اذا ماأصبح وزيرا ، مسئولا ، تحولت اللهجة من محايدة او اجتماعية مشوبة بالرمز والتلميح

(٨٩) لقاء خاص مع حسن يوسف فى ٤/٧ ، ٨٤/٤/٩

الى لهجة مادحة ، حافلة بالثناء والتقديس ، فهو لم يتوقف عن ترديد العبارة (مآثر فؤاد ونضر الله وجهه) الى درجة ان اصبحت العبارة شائعة ، كما كان يخاطب فاروق دائما فينافقه (استاذ شعبك فى الخلق ..) وجعل الشعب المصرى يتعلم من الملك (الوفاء) ، وهو فى كل ذلك يخاطب علماء مصر محذرا (وويل لمن لم يستجب لدعاء الملك والوطن) ! .

وعلى هذا ، فان موقف طه حسين خارج الوزارة اختلف عنه داخلها .

كما أن طه حسين الذى كان قد **اضطر** ، نظرا للتقاليد الدستورية القائمة ، ان يخطب أمام الملك ، لم يكن عليه الاغراق فى كلمات المديح والرياء ، كان يمكن أن يكون حديثه تقريريا ، أو تغلب عليه السمة التجريدية يقتصر على الموقف وحسب ، فالناس يعلمون ، كما يقول هو ، وفى معرض حديثه عن نفسه بعد قيام الثورة « .. ان الوزراء ماكانوا ليخطبوا امام فاروق ليعيبوه ويذموه ، ويدلوا الناس ويدلوه على ماكان يتورط فيه من طغيان وماكان يقترف من آثام » ، فاذا كان هذا صحيحا ، كان يمكن الا يعرض نفسه لموقف يحسب عليه بما يمنح فيه الملك من كلمات الرياء ، وماكان يقترف فى المناسبة من موقف لايمكن أن يبرر قط مدعما موقف الملك مبررا له مسلكه .

لقد كانت حجة طه حسين فيما فعل أنه قد كسب بهذا الموقف لمصر وأهلها فائدة كبيرة مما أتاح «لهم التعليم ويسر لهم أمره .. وانشأ معاهد كثيرة فى انحاء العالم »[(٩٠)]

غير أن هذا لايبرر له قط كل كلمات المديح التى منحها لملك فاسد فى وزارة أغلبية ، كان ينبغى لها أن تتصدى لميوله الأوتوقراطية ولا تكرس جهدها لتيسير مطالبه والخضوع لرغباته .

لقد وصل طه حسين فى علاقته مع الملك الى درجة أنه قبل يد الملك أو قيل أنه قبلها ، ومهما يكن من حقيقة هذه الواقعة ، فهى تدل ، فى جميع الحالات ، على الموقف المشين الذى تردى فيه .

وهذا يرتبط بنقطه أخيرة .. أن موقفه من القصر لايمكن أن يبرر ايضا ، إذ راح

(٩٠) روزاليوسف ٢٩ مارس ٥٤ ، ايضا : الأخبار ١١ يونيو ٥٣

يفسر تهالكه على الملك على أنه تهالك على الرمز واصراره عليه «ان كلامى عنه لم يتجه الى فاروق فى نفسه قليل او كثير وإنما اتجه كلامى الى هذا الملك الذى صورته لنفسى وللناس تصويرا وصنعته لنفسى وللناس صنعا »(٩١) .

وهو حين يقول فى موضع آخر « أننى حين خاطبت فاروق لم أخاطب شخصه ولكن خاطبت الملك أيا كان اسمه ، ولم اذكر صفاته ولكننى ذكرت الصفات التى يجب أن تكون له »(٩٢) ؛ فانه يكون قد دافع عن نفسه بكلام مردود ، فهل كان الملك ايا كانت صفاته فى هذه الأيام ينطبق عليه الرمز الصحيح للحاكم و وهل كانت صفات الملك تلك مايجب أن يتحلق حولها الناس ويشيدون من أجلها بملكهم ؟

لقد جسد الملك اهمال الدستور والاستبداد واستغلال النفوذ ، وكان السبب فى الفساد الذى استشرى فى كل مرافق الدولة ، فاذا هو رمز لكل التجاوزات غير الدستورية فى دولة قامت على التقاليد الدستورية .

وهل كان الملك والحال هذه ان يصبح رمزا للحاكم المثالى الذى يضع كل الأمور فى نصابها الصحيح فيستحق صفات التقديس التى غالى طه حسين كثيرا لابرازها ؟ وهو مايمكن القول معه ، أنه ، مهما يكن من مبررات طه حسين ، وهى كلها مبررات ذهب اليها بعد انتهاء العهد الملكى وحاول أن يخلص بها ، فان موقفه منها كان مكرسا لاستغلال النفوذ ومزينا لطغيان الملك ، وضرب كل الحريات وافتقاد كل القيم النبيلة التى كان هدف طه حسين أن يؤكدها دائما .

وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير موقف طه حسين من خلال موقف الحزب الذى انتمى اليه ، فانه لايمكن إغفال العامل الذاتى الذى دفع به دفعا الى هذا المصير .

لقد ظل طه حسين يحوم حول نار القصر لسنوات كثيرة ، حتى إذا ماجاءت الأربعينات ومضت سقط مع من سقط فى نار القصر ، وحين أبلغ بمكالمة تليفونية فى أحد أيام يوليو ١٩٥٢ ، وكان بأوروبا ، بأن الملكية سقطت وأن الثورة قامت ، اصابته

(٩١) روزاليوسف ٢٩ مارس ٥٤
(٩٢) الأخبار ١١ يونيو ٥٣

الدهشة التى خر على اثرها مغشيا عليه ، وحين افاق ، كانت مرحلة طويلة قد طويت من علاقته بالعصر الملكى .

لم يكن موقفه من البداية من القصر واضحا بحيث يمكن أن نصفه بالعداء ، وإنما تارجح أول الأمر بين خيارين :

- اما اتجاه ذاتى
- واما اتجاه مؤسسة حزبية

وما إن عاد من الخارج بعد ثورة ١٩ حتى تحدد موقفه الجديد فى اتجاه حزبى تمثل فى مناوئته الظاهرة أو الرامزة للوزارات الملكية خاصة بين السنوات (٢١/٢٤ ، ٢٤/٢٦ ، ٣٠/٣٤ ، ٤٤/٥٠) وهى السنوات التى كانت تحكم فيها احزاب الأقلية بمعاونة القصر ومباركته .

ويمكن أن نوجز أهم النتائج حول مواقف طه حسين من القصر فيما يلى : تداخل مع الاتجاه الحزبى الانتماء الشخصى ، اذ يلاحظ أنه حاول التقرب من القصر من آن لآخر ، سواء بمحاولة استجابته لرغبة الملك فؤاد (بين عامى ٢١/٢٢) ، او انضمامه لحزب الاتحاد عام ١٩٢٥ ، او استمالة الملك فاروق فيما بعد ، إما باهدائه كتبه وإما بتوخى الخوض فى الكتابه عنه أو عن نظامه فى المناسبات الملكية او فى خطبه امامه .

على أن شقة التردد زادت فى الأربعينات خاصة ، ففى الوقت الذى حاول فيه استدرار رضاء الملك ، استجلب غضبه بالكتابة الاجتماعية والرمزية .

ظلت علاقته بالقصر بين مد وجزر حتى مجىء آخر وزارة وفدية ، واختيار طه حسين وزيرا للمعارف فيها ، فنفض اسباب العداء بينه وبين الملك ، كما أنهى حالة التردد ليسقط بعدها فى احضان القصر زمنا ظل فيه يكيل عبارات التقديس والمديح والثناء حتى تردد أنه قبل يد الملك اكثر من مرة ، وان الملك رفض ان يمد له يده فى إحدى المناسبات الملكية .

اختفت فى هذه الفترة ـــ حين أصبح وزيرا ـــ من أحاديث طه حسين وكتاباته معانى الديموقراطية والقيم الدستورية ومحاربة الثيوقراطية وغيرها من القيم الفكرية التى ظل يذود عنها لسنوات طويلة سواء فى حزب الأحرار أو حزب الوفد ، ولم نعد نسمع الصوت القديم فى مواجهة أوتوقراطية الملك أو فضائحه التى تزايدت يوما بعد يوم .. الى غير ذلك من مظاهر النظام المتآكل الذى سجل سقوط طه حسين ضمن سقوط عديد من المثقفين المصريين فى المرحلة التى انتهت بمجىء ثورة ٥٢ .

الفصل الخامس

طه حسين وإسهامه الثقافى والفكرى والعقائدى

ـــ موقفه من الليبرالية
ـــ من قضايا الليبرالية
(مسألة التعليم
(بين الليبرالية والاسلامية
ـــ موقفه من الأيديولوجية
(سمات الشخصية المصرية
(فى اتجاه الفكرة العربية
ـــ من الفكر السياسى
(نظام الحكم
(الشريعة والقانون
(الفكر الاقتصادى
ـــ نتائج أخيرة

تحاول كتابات الفكر العربى ان ترصد فى هذه الفترة عدة تيارات سياسية نشأت فى هذا المناخ نتيجة لتفاعل تم بين الثقافة السلفية ـــ الاسلامية ، وبين الثقافة الغربية ـــ الأوروبية ؛ وقد اتفقت جميعها على وضوح عدة تيارات مع بعض الاختلافات غير الجوهرية بينها ، وقد تبلورت هذه التيارات فى القرن العشرين على النحو التالى :[1]

(١) لتحديد اتجاهات الفكر العربى الحديث وتياراته هناك مراجع كثيرة ، من اهمها : لمحمد جابر الأنصارى (تحولات الفكر والسياسة ..) ، على الدين هلال (التجديد فى الفكر السياسى المصرى) ، البرت حورانى (الفكر العربى فى عصر النهضة) ، فاضل زكى محمد (الفكر

اولا : تيار حرص على الميل للغرب ميلاً تاما ، وإن حرص على عدم المساس بالدين .

ثانيا : تيار حرص على الميل للغرب وإلى تراثه بكل مافيه من سلبى وايجابى .

ثالثا : تيار حرص على تجنب كل عقيدة لمعالجة المشكلات ، بمعالجة اكثر عصرية ، مع الميل لتطوير العقيدة

واولئك الأخيرون كانوا يؤمنون بامكانية معايشة العصر داخل الاطار الوطنى ، ومواءمة الأساليب العصرية بالمتطلبات المحلية ، وقد كانوا يجهدون لخلق صيغة فكرية جديدة فهم « الليبراليون الحقيقيون »[٢] .

ومع أن رواد الاتجاه الليبرالى برزوا بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة ، فقد كانت جذورهم الأولى تعود الى عصر محمد عبده الذى ترك حوارييه ، كما ترك مشايعين لفكره مع بعض التحفظات ، وفى الوقت الذى ترك فيه محمد رشيد رضا (ممثلا للاتجاه السلفى) ، فانه ترك لطفى السيد (الاتجاه الليبرالى) .. غير ان جيل محمد حسين هيكل وطه حسين بعد ذلك لعب دورا حيويا فى اطراد الخط الليبرالى وتبلوره داخل مصر .

وعلى هذا النحو ، فان طه حسين ، مثل لطفى السيد ، كان متأثرا بتيار غربى خاص فى التفكير يمكن ان يعرف بالتيار (الليبرالى)[٣] ، الذى كان قد بلغ اقصاه فى

العربى الاسلامى بين ماضيه وحاضره) ، ندوة للجامعة الأمريكية (الفكر العربى فى مائة سنة) ، أنور عبد الملك (مصر مجتمع عسكرى) ، هشام شرابى (المثقفون العرب والغرب) ، محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) ، ايضا انظر :

- Ahmed J.M., The intellectual origins of Egyptian nationalism.

وايضا انظر :

Safrain, N.,-Simth ch.,

(٢) عفاف لطفى ، ص ٣٢٨ ، أيضا : الفكر العربى فى مائة سنة ص ٤٦٤

(٣) احمد محمد عطية ، القاموس السياسى والاقتصادى ، ص ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ايضا : عبد العاطى محمد ، ص ٢٧٣ .

(الليبرالية السياسية والمدنية هى فلسفة تقوم على الايمان بالتقدم واستقلال الفرد لذاته ، وتنادى بحماية الحريات السياسية والمدنية ، والليبرالية مدهب عرف بأوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر ، وقد عرف عند طه حسين خاصة بعدة عوامل تعد اساسا للمدنية الغربية التى كانت ــ

هذا الوقت فى الفترة التى امتدت بين عامى (١٩٢٥ ـــ ١٩٣٠) ، ففى هذا الوقت عرف العالم العربى قمة الصراع الفكرى بين تيارين .

وهنا ، نشير الى ملاحظة هامة قبل ان نصل الى صراع القديم والجديد فى فكر طه حسين ، فاذا كنا فى رصد الليبرالية فى مجتمع نواجه الصراع بين القديم والجديد ، فان القديم خاصة يحتاج الى تفسير خاص ، ونحن فى هذا نوافق جاك برك على ان (القديم) ليس نقيض (الجديد) بمقدار ما قصد ان (العضوى) نقيض (النقدى) ، وهو مايسهل علينا فهم ثنائية القديم والجديد أو السلفية والليبرالية .

ويتمثل الصراع بين القديم والجديد لدى طه حسين فى الاتجاه الأدبى خاصة فى ممارساته الأدبية[٤] ، كما يتمثل فى الاتجاه الفكرى والثقافى والدينى للتباين بين ممارساته

النموذج ـــ للفكرة وهى : المجتمع القومى ، حكم الأمة لنفسها على ضوء مصلحتها الخاصة ، وفصل الدين عن السياسة ، والنظام الديموقراطى فى الحكم ، اى سيادة الارادة العامة المتمثلة فى مجالس وطنية منتجة ووزارات مسئولة امام هذه المجالس واحترام الحقوق الفردية ، وبنوع خاص حرية القول والنشر ، ومتانة الفضائل السياسية .. وماتبع هذا من ضرورة التوحيد بين الأديان واحترام الحكومة الدستورية واحترام المرأة .. وما الى ذلك مما كان له تأثير كبير فى مفكر مثل طه حسين الى الدرجة التى كان البحث فيها عن الأصول لديه بالعودة الى التاريخ والقيم الاسلامية انما كان للبحث عن القيم الليبرالية والافادة من القيم الايجابية فى التراث لتأكيد القيم المعاصرة وبلورتها ، واذن ، كان الهدف الرئيسى لديه هو القيم الليبرالية أولا وأخيرا ..)

- Donald E.Smith, Religion and political Development p 85-90

ايضا انظر : عز الدين هلال ص ١٠٣ ، وحورانى ص ٣٨٧ ، تشارلز فرنكل ، ترجمة د.نيقولا زيادة فى كتاب (ازمة الانسان الحديث) ص ٣٥٣ ، وان كنا لانجد تعريفا شاملا لمصطلح الليبرالية .

(٤) تبدأ معركة القديم والجديد حين أرسل مصطفى صادق الرافعى برسالة الى صحيفة (السياسة) تحت عنوان (اسلوب فى العتب) ، ذهب فيه مذهب السلفيين من القدماء ، فرد عليه طه حسين ممثلا لمذهب جديد ، وقد شارك فى هذه المعركة التى استمرت بين (ديسمبر ١٩٢٢ ـــ فبراير ١٩٢٤) عدد كبير من الكتاب لعل اهمهم الأمير شكيب ارسلان وخليل السكاكينى وسلامة موسى ، وقد اثمرت فى النهاية عن عدد كبير من الكتب منها : حديث الأربعاء التى كانت النتيجة الهامة التى لخصت هذه المعركة من ان (هذا العصر الذى انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت فيه الدولة العباسية ، قد كان عصر شك ومجون) ، ص ٧ ، كما يمكن فى هذا

ومواقفه ، على انه يلاحظ ، انه وان مثّل أهم ممثلى الليبرالية وآخر رموزها الحية فى الفكر النظامى ، لم يكن ليضحى بالتراث من اجل المعاصرة ، وانما ينظر الى الحاضر كما ينظر الى الماضى ، نظرة عقلية خالصة تقوم على الافادة ، وتقديم الأنفع وإيثاره بغض النظر عن قدسيته ومكانته المعروفة ، وهو مايميزه عن غيره بهذا الوعى ، الذى يوضح انه بالنسبة الى طه حسين ، فان ثمة صراعاً كان يدور من اجل صيغة عملية . فالجديد والقديم عنده انما كان يمثل الصراع بين عالمين عرفهما ، وليس مرحلتين كما يرى البعض .

ويمكن تفسير جانب هذا الوعى الى أن خلفيته الثقافية مختلفة كثيرا عن معاصريه ، ففى الوقت الذى كان فيه محمد حسين هيكل يتمتع بخلفية ثقافية تعود الى الفكر الغربى منذ فترة مبكرة ، كان لطه حسين خلفية دينية اكثر منها سلفية تقليدية ، وقد تبدى هذا أكثر ما تبدى فى موقفه الرافض من التيار الغربى الخالص الذى مثّل أحد وجوهه إسماعيل مظهر ، كما لم يَنْحَزْ الى التيار الدينى الذى مثل احد وجوهه حسن البنا ، ومن هنا ، يمكن القول ان موقفه من المؤسسات الدينية[٥] لم يكن عدائياً ، حتى فى احلك ساعاته فى ازمة (الشعر الجاهلى) عام ١٩٢٦ .

ويمكن ان نرى اتجاه طه حسين الليبرالى وممارساته فى مسألتين اثنتين :

أولا : التعليم

ثانيا : الصراع بين العلمانية والاسلامية

* * *

لم توجد قيمة ليبرالية اهتم بها طه حسين مثل قيمة التعليم .. وهو مايعود الى أسباب شخصية وسياسية ، فلم يكن رواد هذا التيار مثل لطفى السيد غير « خلفاء لمحمد عبده والتنور الفرنسى والفكر البريطانى الليبرالى » ، فبينما كان من المألوف لدى محمد عبده « ان الوسيلة الوحيدة الفعالة للنضج القومى والاستقلال الحقيقى انما هى

رصد أعمال أخرى له منها (شوقى وحافظ) وخاصة فصله فيه (الأدب الجديد) ، وكتابه (من بعيد) وفصليه الهامين فيه (بين العلم والدين) و (بين الجد والهزل) وكتابه (تقليد وتجديد) نشر عام ١٩٧٨ ، كما صاغ رأيه فى كتب أخرى منها (مستقبل الثقافة فى مصر) و (ألوان) وغيرها .

(٥) Vatikiotis, p.J. The Modern history of Egypt, 1929, p 302

التربية »[٦] ، فقد راحت نظرية التعليم لديه تلتمس النظرة المثالية الى درجة ان التربية ، والتربية وحدها كانت نافذة الأثر فى تحقيق الاصلاح بتغيير الأحوال السيئة فى المجتمع ، وهو ما دفع به الى انتقاد النظام القائم فى عصره ، وهو عين مافعله لطفى السيد فيما بعد حين كان التعليم هو مفتاح فلسفته وجوهرها الحقيقى فراح يهتم بتعليم المرأة ، وإعادة صياغة اللغة العربية ورفع مستواها عالياً فى التعليم والصحافة .. إلى غير ذلك مما يتأكد معه ان التيار الليبرالى حتى بداية القرن العشرين كان يولى للتعليم اهتماما كبيرا .

وقد كان من الطبيعى وطه حسين من أهم وجوه هذه المدرسة أن يُبدى اهتماما كبيرا بالتعليم والتربية منذ عاد من البعثة عام ١٩١٩ ، فراح يمضى فى خط صاعد بلغ أقصاه فى أكثر من مرحلة مولياً فلسفة التعليم اهتماماً غير عادى خاصة وقد تولى مناصب تعليمية هامة .

واذا التقى طه حسين مع سابقيه فى بعض الأفكار ، فقد اتفق مع لطفى السيد اذ تبنى الأفكار الرئيسية له ، إذ كان من « اخلص تلاميذه »[٧] ، وعلى هذا تميزت كل اسهاماته بهذا الطابع الذى يحتفى بالتعليم ويحث عليه .. فبينما كان وراء اهتمامه من وراء كتاب (الشعر الجاهلى) محاولته التأثير بالمعرفة الليبرالية فى الافهام القديمة ، راح يدعو فى (مستقبل الثقافة فى مصر) الى بعض الأفكار وصياغتها صياغة تتبنى القيم الليبرالية ، ومن هنا ، فان الجديد عنده عرف بهذه القيم الانتقالية « من عصر سلفى متخلف يسوده الجمود والسكون ، الى عصر متطور متقدم يشيع فيه الحركة والتجديد »[٨] .

والحاصل ان طه حسين جعل التعليم الابتدائى الزاما عاما ، اما التعليم الثانوى ، فأتاحه بكل نفقاته على أن يعلم الفقراء بالمجان ، والمتفوقون بالمجان أيضا ، وقد كان أهم ماورد فى التعليم الثانوى ان الثقافة الثانوية العامة يجب ان تقوم على دراسة التراث القديم من خلال اللغات القديمة منها ، كاللاتينية واليونانية ، ولم يمض طويل وقت حتى اصبح

(٦) حورانى ص ٢٢

(٧) El-Ahwany, A.F., Les penseurs contemporains, Revue du Caire 31, 1953, p 152-155

(٨) فؤاد زكريا ، قيم النهضة الفكرية ، مجلة الاداب ٧٤/٣

التعليم الثانوى بالمجان . وقد ساعد طه حسين فى فلسفته التربوية انه بينما كان له جملة افكار نظرية واتته الظروف الى ان يتولى عدة مناصب هامة مكنته من تحويل الفكر الى فعل وعمل[(٩)]

وتتلخص فلسفة طه حسين التربوية فى تعميم التعليم ، إذ تحددت هذه الفلسفة حول الجديد مما هو آت من الغرب مستفيدا كثيرا بنظمه ومناهجه وافكاره العامة .. وهذا لايعنى انه خاصم الأزهر كرمز للقديم ، وانما حاول الاهتمام اكثر بالوسائل التربوية فيه ، وان التمس فى هذا العنف « المعتمد على السباب »[(١٠)] ، وهو لم يطلب الغاء التعليم الدينى كما اعتقد رجال القديم من الأزهريين حين طلب ان تكون الخطوة الهامة ان يكون « توحيد التعليم فى طور الصبا والشباب »[(١١)] .

وتفسير هذا انه كانت تغلب على جيله هذه الازدواجية التى توحى انهم يعيشون فى عالمين ، وقد تمثل هو هذا الازدواج فى مجال التعليم وجود مجالين من التعليم : الازهر ووسائله الدينية ثم المدارس الأميرية الابتدائية وما شابهها من مدارس ثانوية وكليات جامعية ومدارس فنية مما حدا به الى يُثير معركة عاصفة على رجال الدين داعيا اياهم الى امر هام لخصه كما يلى :

توحيد التعليم الثانوى والابتدائى فى الدولة كلها ، على ان يفرغ التخصص فى علوم الدين لمن يريد ، وعلى ألا يكون فى التخصص فى علوم الدين مانع لصاحبه من المشاركة فى حياة الناس العملية والعلمية[(١٢)]

(٩) .. تولى طه حسين أول منصب له فى وزارة المعارف عام ١٩٤٢ فى وزارة وفدية ، فاذا بوزارة المعارف وفيها — نجيب الهلالى — تصدر قرارا ينصب على تكافؤ الفرص التعليمية ، وماكادت تتحقق مجانية التعليم الابتدائى عام ١٩٤٤ حتى اعلنت مجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥٠ اذ كانت الشروط التى تقدم بها طه حسين لدخول الوزارة كما قيل ان يكون التعليم الثانوى بالمجان ، وكان قد انشأ جمعية الاسكندرية مهتما بكثير من وسائل التعليم فيها (انظر : دار المحفوظات ، السابق) ، ايضا : عفاف لطفى ، ص ٣٠٢

(١٠) وهو مايبدو وخاصة فى مرحلة متأخرة حين كتب (مستقبل الثقافة فى مصر) ، ايضا : رزق موسى ، ص ٢٢١/٢٠٤

(١١) نقد واصلاح ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ومابعده

(١٢) السابق ص ٢٥٤

وموقف طه حسين فى مجال التعليم خاصة يؤكد على أن ممارسته للقيم الليبرالية حين تصطدم بالقيم الدينية وتتعارض معها انما كان يشوبه كثير من الشك الذى يخيم حول امكانية تطبيق مبادىء الليبرالية الخالصة ، وهو مايمكن ان يحسب عليه فى ممارساته ، فقد كان يبدو احيانا علمانى التفكير شرقى السلوك وان لم يلتزم هذا فى مجالات أخرى .

وقد أدرك طه حسين طبيعة العلاقة بين أثر التعليم وكثير من القيم الاجتماعية والسياسية منذ فترة مبكرة ، ففى بعض المقالات المتناثرة قبل السفر الى البعثة مباشرة عام ١٩١٥ نجده متبرما على الحكومة التى اضحت مدارسها « معامل سياسية لاخراج الذين يشغلون المناصب العامة »[١٣] ، مستدركا الى الجامعة ، منتقدا نظام التعليم الذى يقوم عليه خصومها « المتسرعين فى امرها »[١٤] .

ولايكاد يعود من البعثة حتى يعود ، ثانية ، الى مسألة التعليم ، اذ كان يدرك اهميتها ، وقد ابدى ادراكه لها حينئذ فقال « لا اعرف بعد المسألة السياسية الكبرى مسألة يجب ان تعنى بها مصر كمسألة التعليم[١٥] » ، وهو سر ربطه بين التعليم والاستقلال الوطنى فليس الى الاستقلال سبيل اذا لم تكن مصر متعلمة[١٦] .

واذ بدا اهتمامه واضحا بمناهج التعليم فهو لايتفاءل بسياسة مجلس الأمة التى تسعى الى بناء وزارة المعارف ، ذلك لأن وزارة المعارف تلك ستنهار قبل ان ينهار غيرها من ابنية الاستعمار[١٧] ، وكان دائم التنقل بين وزارة المعارف والتعليم العام بها الى الأزهر والتعليم الدينى ومدرسة القضاء حينئذ مشيرا الى رجال المعارف الذين لايستطيعون وضع نظم جديدة للتعليم غير النظم العتيقة ، وهو يعبر عن ذلك قائلا « ان الرحى فى وزارة المعارف تدور الى الشمال لا الى اليمين فنسمع بها جعجعة ولانرى طحنا .. قد الفوا سياسة تعليمية خاصة وضعها دنلوب فليس من العسير عليهم بل ليس من المتاح لهم ان يتبدلوا عن هذه السياسة »[١٨] .

(١٣) السفور ١٩١٥
(١٤) السابق
(١٥) السياسة ٢٣/٦/٧
(١٦) السابق
(١٧) السياسة ٢٣/٦/١٠
(١٨) السياسة ٢٣/٧/٣١

فهو يربط اذن بين الاستقلال وبين التعليم ومايلزم هذا من مقتضيات التحرر الخارجى كاهتمامه بالحرية والديموقراطية وما الى ذلك منتقدا فى كثير من اللوم تلك اللجان التى تعقد بين الموظفين من آن لآخر دونما وعى بحاجة التعليم وضرورة تغييره »[١٩] .

وقد عاد طه حسين بعد قرابة عشرين عاما يردد نفس الأفكار فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) وخارجه فى نهاية الثلاثينات ، مهتما بتغيير التربية المصرية ووضع برنامج تعليمى اصلاحى لها ، مركزا قبل هذا وذاك على الخط الغربى ، فبعد ان يوضح فى بداية الكتاب الذى خصص جزءا كبيرا منه فلسفته الأولية من ان التعليم عندنا يجب ان يكون على « النحو الأوروبى »[٢٠] الخالص ، فالتربية الابتدائية ، وهى « ركن اساسى من اركان الحياة الديموقراطية الصحيحة »[٢١] يجب ان تكون عامة واجبارية مفسرا هذا بأن « الدولة الديموقراطية ملزمة ان تنشر التعليم الأولى .. وتوكل بشئونه كلها »[٢٢]

كما انه بالنسبة الى مدارس التعليم الثانوى اشار الى ضرورة تبّنى الدولة لها لا الاعتراض على تنوعها .. اما المدارس الأميرية فانه اشار الى ضرورة انتشارها فى البلاد فى أسرع وقت ممكن ، مؤكداً أن التربية الثانوية يجب أن تكون فى متناول جميع القادرين على دفع رسومها ، اما مواد التعليم فقد اشار الى تعديل بعض عناصرها بما لايقضى على اللغة الأجنبية فى وقت ينمى فيه اللغة العربية ، حتى اذا ما وصل طه حسين الى التعليم العالى فانه بعد ان يستعرض اغراضه ومشكلاته ينتهى ، الى ضرورة استقلاله فلا يجب أن تخضع الجامعات لرقابة الحكومة المالية أو العلمية ، وسوف تصبح الجامعة عبثا كلها اذا لم تعرف الدولة للجامعة كما يقول : « استقلالها العلمى الصحيح واذا لم تحترم هذا الاستقلال كما تحترم استقلال القضاء »[٢٣] ، وهو ما أشار اليه اذا ماعاد الى التعليم الدينى فى الأزهر ، اذ يجب ان يتمتع بالحرية المطلقة لأنه يلعب دورا كبيرا فى تكون الثقافة القومية لكثرة طلابه وخاصة اختلاطه بالوجدان الشعبى وان حدد وظيفته فى ان يكون معنيا بالحياة الروحية

(١٩) السياسة ٢٣/٧/٣١ ، ٥ أغسطس ، ٢٦ أغسطس ٢٩ أغسطس ، ٣١ أغسطس ، ١ سبتمبر ، ١، ٥، ٢٥، ٢٧ نوفمبر ، ٣١ ديسمبر ٢٣

(٢٠) مستقبل الثقافة ص ٣٦

(٢١) السابق ص ٧٧

(٢٢) السابق ص ٦١

(٢٣) السابق ص ٣٣٦

فقط غير معنى بالتربية العامة ، وهنا كان لابد ان يصل طه حسين لهذه الثنائية التى كان يلقاها كل من يتناول التعليم الأزهرى بين التعليم المدنى والدينى ، وقد اتخذ رأيا فى هذا متسقا تمام الاتساق مع فكره العام ، فقال « انا مؤمن بأن من أيسر الأشياء ان يلائم الأزهر بين حياته الخاصة وبين حاجات الحياة العامة »[٢٤] .

واذا كانت فلسفته فى التعليم تقوم على (المجانية) فى المقام الأول لإيمانه بأن التعليم مفتاح الحياة الديموقراطية السليمة[٢٥] ، فكان من الطبيعى ان يصطدم بالطرف الآخر الذى رأى غير هذا الرأى ومن ابرزهم كان اسماعيل القبانى الذى كان يعارض سياسة فتح باب التعليم على مصراعيه ، وقد كانت حجة طه حسين فى اطلاق التعليم مالخصه فى احدى مناظراته مع خصمه ، قال « لو قال قائل ان الفلاح يعيش فى اكواخ مهدمة بلا سقوف ولكنه ألف ذلك فيجب أن يبقى كما هو .. لو قال قائل هذا لأبى الأستاذ ان يعترف به فهذا شيء ما اظن ان احدا يرضى به ونحن نتحدث عن الديموقراطية وحقوق الانسان .. أفتظنون ان قال قائل ان المصريين تعودوا الجهل طويلا فيجب ان نتركهم هكذا يخدعون فى يسر وينساقون الى مايفرض عليهم ، أفتظنون انه يرضى ان تظل كثرة الشعب جاهلة لأنها تعودت عليه .. تلك فكرة ما اظنها تخطر الا لرجل اعتقد انه ليس خصمى الشريف ، وانما هو رجل أنانى يحب أن تبقى الفروق بين الطبقات كما هى ، وان يظل التعليم لطبقة من الناس »[٢٦] .

ورغم انه ظلت توجه الى سياسة طه حسين التعليمية انتقادات كثيرة ، فانه تمكن من وضع افكاره موضع التنفيذ ، فقد شغل عديدا من المناصب الرسمية اذ كان عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ومديرا عاما للثقافة بوزارة التربية والتعليم كما أصبح مستشارا لوزير التربية بين عامى ١٩٤٤/٤٢ ، كما حاول فى جامعة الاسكندرية التى أسسها ثم أصبح عميدا لها ان يطبق فيها أفكاره التربوية بمنحها كثيرا من الحرية الفكرية والسياسية والعالمية ، وقد أسهم هذا كله بتأثير الكثيرين به من تلامذته ، ومن ثم ، الافتتان بمنهجه التعليمى واقتفاء اثره[٢٧] .

(٢٤) السابق ص ٣٥٦

(٢٥) Jaque burque, culture, p 113

(٢٦) السياسة الأسبوعية ٣٩/٤/٢٢

(٢٧) محمد محمد حسين ، ج ٢ ص ٢١٣

وبعد سقوط الوزارة الوفدية يظل يعرض لأفكاره فى الصحف مدافعا عنها فى حماس كبير ، متعرضا لأكثر من هجوم ، دافعا الى اكثر من مناظرة المجانية ، وهو فى رده على وكيل وزارة المعارف الذى اتهمه بالتجنى على التعليم لفرض المجانية ، يقول : « .. ان اولئك الجناة — يقصد نفسه — الذين توسعوا فى التعليم وفرضوا مجانية التعليم الابتدائى مستعدون اليوم كما كانوا مستعدين سنة ٤٤ للمضى فى جنايتهم تلك التى تمر فى اذواق قوم ، ولكنها تحلو فى اذواق الشعب كله . مستعدون للتوسع فى التعليم اكثر مما توسع هو واصحابه مرات كثيرة ، ومستعدون لفرض مجانية التعليم الثانوى والفنى بعد ان فرضوا مجانية التعليم الابتدائى .. ومستعدون لأن فى أيديهم عصا سحرية .. هى انهم يحبون الشعب ويحبهم الشعب .. هم مستعدون لهذا كله والأكثر من هذا لايحول بينهم وبين الوفاء بما وعدوا الا ان وزارة المعارف ليست فى ايديهم .. إن أولئك الجناة الذين يحبون التوسع فى التعليم ويعطون العلم لأبناء الشعب لايبيعونه عليهم بثمن بخس ، دراهم معدودات كما يباع البصل والكرات »[٢٨] .

وهو فى موضع آخر يحدد دور الوزارات ومسئولية الوزراء فيقول « ان الوزارات انما انشئت قبل كل شيء لتواجه المصاعب وتقهرها ، وان الوزراء انما يقاس احسانهم بمقدار تغلبهم على المصاعب[٢٩] .. مشيرا فى هذا الى ان مجانية التعليم لايجب ان تقهرها مصاعب مما يؤكد على هذه المجانية بما يشيعه طور بأنها يجب ان تكون كالماء والهواء او يقرنه طور آخر بالتعليم حين يرى انه يجب ان يكون كالبصل والكرات .

وهو لم يصبح وزيرا فى وزارة الوفد الأخيرة الا بعد أن اشترط على النحاس ان تعم (مجانية التعليم) ، وقام فى هذه الوزارة بعملية واسعة النطاق لتوسيع المدارس الحكومية على جميع مستوياتها فانشأ جامعات ومعاهد عليا ومختلف انواع المدارس الجديدة اذ جعل التعليم الثانوى بالمجان وعدل منهاج الدروس وفقا للخطوط التى كان قد رسمها فى كتابه عن التعليم[٣٠] ، وهو فى هذا كله ركز على هدفين اثنين ، كما راح يردد ، ضرورة « نشر التعليم

(٢٨) الأهرام ٤٩/١٠/٢٨
(٢٩) الأهرام ١٩٥٠/١/٢٣
(٣٠) حورانى ص ٤٠٠ ، وايضا جلسة مجلس النواب فى ١٩٥٠/١/٣١ ، والمصرى ١٩٥٠/٢/١ لنرى فيه الرد على خطاب العرش الذى تكلم فيه فؤاد سراج الدين وطه حسين وجاء ذكر التعليم .

فى جميع أرجاء مصر فى أسرع وقت ممكن ثم اصلاح التعليم وترقيته وتنقيته »[٣١] .

ومن نافلة القول ان نعيد ماسبق ان ذكرناه من ان طه حسين فى دعوته الى التعليم انما كان يصدر عن قيمة ليبرالية صريحة ، كان هو نفسه يعد آخر ممثل لها على الصعيد الفكرى ، كما كان دائم الربط بين قيمة التعليم والنشأة الاجتماعية والطبقات الاجتماعية ، وهو ما نجده بوضوح تام فى نصوصه الابداعية خاصة[٣٢] ، فبعد ان تحدث عن قيمة التعليم فى بعض المؤلفات الفكرية من امثال (روح التربية) و(مستقبل الثقافة فى مصر) ، فانه راح فى (القصر المسحور) عام ١٩٣٣ يبدى كثيرا من التخوف مما قد يجده من ارهاب من كونه عميدا يخوض الكلام او بالكلام فى (الأديان والآلهة) ، كما لم يكف فى هذا الكتاب الذى يتحدث عن قضية فنية عن ان يذكر كثيراً من المصطلحات التى تدل على معناها من امثال (سيادة القانون) و(قوانين الجامعة) ، كما راح فى (احلام شهر زاد) يشير الى قيمة التعليم بشكل اوضح ، اذ ان (فتنة) التى تثير حربا بين الملوك المتنافسين على الفوز بها تتحداهم وتخذلهم جميعا وبشيء واحد لخصه فى عبارته (الفطنة والعلم الغزير) ، أما فى (شجرة البؤس) ، فانه جعل الخلاص فى التعليم وبالتعليم ، والتعليم (الجديد) بوجه خاص ، ذلك الذى عرف منذ بداية هذا القرن فى مصر ممثلا لأوروبا وأفكارها ، حتى إذا ماوصلنا الى (المعذبون فى الأرض) نجده يشير الى قيمة التعليم حين يركز بشكل ما على قيمة الجهل ومسبباتها فى المناخ المصرى .. الى غير أولئك من الاشارات التى ترى فى التعليم الخلاص مما يعانيه الانسان المصرى فى جميع الحالات .

وهذا كله يضعنا أمام سؤال هام :

هل كان تحمس طه حسين للتعليم وراءه خلاصه من ظروفه الشخصية والاجتماعية ؟

وبشكل آخر : هل كان التعليم ــ وهو مرادف للوعى هنا ــ وراء احساس المتعلمين المصريين بأنهم كلما ازدادوا ثقافة خضعت تضحياتهم لأحلامهم ؟

وبشكل مباشر :

(٣١) روز اليوسف ١٩٥٢/١٠/٢٧

(٣٢) فضلا عن مقالاته العديدة التى جمعت فى مثل كتاب (جنة الحيوان) ــ انظر فيه مقالة (حديث الأوز) ص ١٥

هل كان التعليم ذريعة للخلاص الاجتماعى ؟

إن البعض يردد ان حرية التعليم ، ذريعة الخلاص ، التى نادى بها طه حسين كانت وراء تحمسه الذى جعله يتنقل من طبقة الى طبقة أخرى حتى اذا ماجاءت اللحظة المناسبة « كان قد وقع فى حب الطبقة المتوسطة التى ارتفع اليها ، كما وقع فى حب الذين عاونوه على التعليم على نشر أفكاره »(٣٣) .

والواقع انه رغم مايقال من أن احتفاء طه حسين بالتعليم كانت النغمة التى تردد أنها مفتاح الكثير من الأحداث الايجابية فى حياته ، فانها ، لايمكن أن تكون ، وحدها ، كذلك ، وليس التعليم وحده هو العامل الوحيد وراء اهتمامه به على هذا النحو ، وانما يمكن ان يعزى السبب الجوهرى الى عديد من المؤثرات الليبرالية التى وجدت طريقها الى عقل الرجل ووجدانه فى بداية حياته فى أوروبا .

لقد بدأت حياة طه حسين العملية والعلمية بعد عودته من أوروبا مباشرة عام ١٩١٩ (علمانى) التفكير والشعور ، ومن هنا ، كان التأثر الغربى وراء جزء كبير من تحمسه واستعداده لضرورة ان يكون التعليم حرا ، وهو تحمس واستعداد كان يجد له من طبيعته عونا كبيرا من « الظمأ الشديد للمعرفة »(٣٤)

ومن يعود الى مؤثرات أوروبا فى القرن الماضى يجد ان التعليم كان من أبرز العناصر الفلسفية لدى كثير من مفكريه فى هذا الوقت(٣٥) ، وهو مايؤكد على أن التعليم فى حياة طه حسين كان وسيلة يستطيع بها الوصول الى طبقة أعلى أو — حتى — التحرر من طبقة أدنى وحسب ، اذ كان التعليم عنده يعنى الوعى الذى يتسلح به الانسان فى مواجهة قوى الظلم ، وهو فى هذا يرى انه يجب « ان يعرف الشعب مواضع الظلم والى

(٣٣) فتحى غانم ، الفن فى حياتنا ص ٥٤ ، ٥٥

(٣٤) هذا مذهبى ، السابق ص ٣٩

(٣٥) جورج سباين ، تطور الفكر السياسى ج ٤ ص ٧٧٠ (.. لقد كان الأمر كذلك عند « هلفتيوس » و « هولباخ » بما يعنى من انصراف السيادة الوطنية وفيها تغتصب مصالح طبقة حاكمة المطاف الخاص بالمصلحة العامة وتقسيم المصالح بين الطبقات هو المصدر الرئيسى للضعف . والعلاج ، باختصار ، هو التعليم الذى فيه وحدة تدفع هولباخ الى ان « يصنع معجزة الاصلاح »)

ان يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله »[٣٦] .

والمعرفة هنا لاتعنى التعلم بقصد الخلاص الشخصى ، وانما الخلاص الجماعى الوطنى ، الذى يفرض نفسه فرضا منذ عصر رفاعة الطهطاوى ، ويبشر بقدومه الى العصر الذى خيم فيه الاستعمار بأجنحته الثقيلة على الوجدان ، وقد كان من الطبيعى أمام ربقة الاستعمار وهيمنته ان يبحث الوجدان الوطنى خارج الوطن عن رموز للخلاص والتحرر ، وقد حدث وان التفت الى المستعمر وحضارته ، فوجد ، ومنذ فترة مبكرة ، ان الوجه الأكثر اغراء لأوروبا المعاصرة ، أوروبا المستعمرة فى فكر المفكرين الليبراليين المصريين هو الوجه الحضرى ، وقد تركز الاهتمام من المثقفين على عنصرين هامين لهذا الوجه من أهمهما عنصر العلم[٣٧] .

واذن ، لم يكن العلم بالنسبة اليه يمثل الخلاص الفردى ، وانما يمثل الخلاص الوطنى العام .

. .

والانتقال من اسهامه الثقافى الى اسهامه الأيديولوجى أمر لابد من التوقف عنده ؟ لكون انتمائه الى الليبرالية بعد الثلاثينات امر يشوبه كثير من الشك بما لاينسجم مع موقف طه حسين خاصة .. اذ يعتقد أنه ارتد عن الليبرالية أو أقلع عنها تماما فى غضون كتاباته الاسلامية ، وتفصيل هذا انه فى النصف الأخير من العقد الثانى شهدت الليبرالية فى مصر أوجها بتحدى رموزها ممثلة فى كتابى (الاسلام وأصول الحكم) و (الشعر الجاهلى) الفكر السلفى مهما يكن من تأثير السياسة ودواعيها حتى اذا ما انصرم هذا العقد حتى كانت الليبرالية تلقى هزيمة نكراء او هكذا كان يبدو فى عديد من الكتابات التى آثرت الانصراف عن المبادىء الى الاسلامية[٣٨] بعديد من رجال الفكر

(٣٦) مستقبل الثقافة ، ص ٧٧ ومابعده (٣٧) شرابى ص ١٠٣

(٣٨) لقد بدأ هيكل منذ عام ١٩٣٢ فى اعداد دراسة منهجية يغلب عليها الطابع التاريخى عن حياة النبى (ص) قام بنشرها على شكل فصول فى (السياسة الأسبوعية) قبل ظهورها فى كتاب (حياة محمد) عام ١٩٣٥ ، ثم (منزل الوحى) عام ١٩٣٦ ، ومالبث ان تتابعت الاسلاميات بظهور الجزء الأول من كتاب (على هامش السيرة) لطه حسين ، ثم (محمد الرسول البشر) لتوفيق الحكيم عام ١٩٣٦ ، ثم بدايات (العبقريات) لعباس العقاد فى عام ١٩٤٣ وتتالت

ممَّن اثروا الانحياز ومنذ البداية الى النهج الغربى فى التفكير ، فعرفنا كتابات كثيرة لعل من اهمها كتاب طه حسين (على هامش السيرة) الذى ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٣٣ ، ومالبثت ان تتالت بقية أجزائه الثلاثة بينى عامى ١٩٣٨/٣٧ الى جانب العديد من الكتابات التى ترصد ، فى النظر العابر ، على انها ارتداد عن الليبرالية وانحار الى ضفاف الاسلامية التى نمتها عديد من الأحداث المعاصرة لهذه الفترة .

فهل ارتد طه حسين ، بالفعل ، عن الليبرالية فى الثلاثينات ؟

لايمكن الاجابة عن هذا السؤال قبل ان نلقى نظرة خاطفة على هذا العقد لنرى ملامح هذه الظاهرة ودواعيها قبل ان نصل الى موقف طه حسين كأحد ممثلى الليبرالية .

ليس من شك أن عقد الثلاثينات شهد شيئا من الاحباط الذى احس به المصريون بعد رحيل سعد زغلول ومجىء مصطفى النحاس الذى لم يكن ليستطيع ان يلعب دور سلفه سيما فى ظروف تولى صدقى الوزارة برغبة ملكية يغذيها تشجيع بريطانيا ، وعلى هذا النحو ، لم يستطع صدقى ، بكل اجراءات القمع غير فرض سطوة اخافت الجميع وجعلتهم يفكرون على المستوى السياسى فى الخلاص فى هذا المناخ الذى ركزت فيه الأزمة المالية الاهتمام على المتطلبات الأولية للطعام والكساء ، واضعة مسألة الصراع من أجل السلطة فى المقام الثانى عند رجل الشارع الذى كان ينظر الى المشاحنات فى هذا الوقت نظرة مريرة ، فضلا عن الأزمات الأخرى كأزمة الديموقراطيات فى الغرب التى هزت ثقة الكثيرين فى قيمة الديموقراطية الغربية ، كما زاد الاعجاب ببعض الأفكار الوهابية فى أوروبا نفسها وهو ما انعكس على بعض التنظيمات الوطنية .

وفى هذا الوقت اجتاح العالم الاسلامى — من وجهة نظر مؤرخ سلفى —[٣٩] موجة من الذعر ، ومن الاحساس بالخطر الذى جاء من حملات التبشير سيما بعد ان

الكتابات الاسلامية .. وتؤكد مصادر هذه الفترة ان طه حسين كان قد اتفق مع احمد امين وعبد الحميد العبادى على كتابة التاريخ الاسلامى حتى آخر عصر الدولة الأموية فيختص كل منهم بجانب (انظر مقدمة كتاب فجر الاسلام لأحمد امين — المقدمة لطه حسين ص د) ، ايضا دراسة الاسلاميات فى كتابنا (مشكلات فى الفكر العربى) ، دار الشروق ، تحت الطبع .

(٣٩) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ص ١٤٧ — ١٥٨ ،

توالت محاولات تفيد عزم فرنسا للقضاء على الاسلام وعلى اللغة العربية فى شمال افريقيا ، وجرائمها وهو ما اشتركت فيه معها ايطاليا التى كانت تحتل جزءا من الوطن العربى .. فى وقت تزايد فيه الخطر اليهودى فى فلسطين ، وقد بدا حينئذ ان القضية الطائفية التى كانت قد اضرمت فى سبيلها الى الانتهاء ، وكثرت الكتابات للتنبه الى مؤتمر المبشرين الذى عقد فى بيت المقدس ، وتنشر مجلة (الرابطة الشرقية) حينئذ بيانات الى العالم الاسلامى من المدافعين عن القضية البربرية فى المغرب الأقصى فى الوقت الذى تعلو فيه نبرة شوقى فى رثاء عبد العزيز جاويش وعمر المختار .

ومن هنا ، تبلور فى عقد الثلاثينات وعى خاص يمكن ان نميز فيه بسهولة هذا الاتجاه الى الاسلاميات ، يكتب فيه ويصاغ افكار اسلامية حتى لتصل الى ستة اعمال هامة منها اجزاء طه حسين الاسلامية .

وهنا نصل الى موقف طه حسين فنجد الكثير من الآراء التى تتباين فى تفسير موقفه فى السياق العام لاتجاه الظاهرة ..

فلنشر الى بعض هذه الآراء قبل ان ننتهى الى أكثرها ترجيحا فى فهم موقف طه حسين .

فبينما يرى البعض انه على غرار ماقام به الوطنيون الألمان فى القرن التاسع عشر وهم يحاولون إحياء التاريخ الألمانى القديم بهدف رفع معنويات الأمة الألمانية وإحياءذكرى الأمجاد الماضية .. حاول طه حسين إحياء أمجاد الماضى ، أى استعمال التاريخ استعمالا سياسيا ، فإحياء الأدب القديم فى كتابه (على هامش السيرة) يدفع الناس الى قراءته أولا ، وانعاش صورته فى أذهانهم لبعثه ثانياً ، ومن هنا ، يلقن الشباب خاصة درسا سياسيا هاما .

ويقترب مارسيل كولب من هذا الرأى ويتبناه حين يؤكد ان السبب يعود الى ان طه حسين من بين دعاة التجديد شعر بأن عليه ان يقدمّ « براهين جديدة على اخلاصة لعقيدته خاصة وقد اتهم فى هذه العقيدة من قبل »[٤٠] ، ويبدو ان طه حسين راح يغلو فى هذا الموقف الى درجة ان وصفه كاتب آخر — سميث — بانه ارتد صراحة الى الفكر

(٤٠) مارسيل كولب ، ص ١٧٩

الفلسفى ، وبأنه دعا الى التفكير المحافظ الذى ينتمى الى الزمن الغابر ، وهو السبب الوحيد لديه الذى دفع بطه حسين الى هذا الموقف[٤١] .

وهنا ، يفسر الموقف الجديد الذى أصبح فيه طه حسين من وجهة نظر كتابه ، أنه راح يتنكر ، كما اعتنق بسرعة ، الأفكار الليبرالية ، بل ويصل الأمر بهم الى ان يروا فى العشرينات بأنها مرحلة تقدم تتميز بأسباب الوطنية والليبرالية والفكر الحر ، ويؤيدها ويمثلها أناس يدافعون عن الثقافة الأوروبية ويعودوا فى الوقت نفسه الى الماضى الفرعونى كجزء من التراث المصرى ، كما تميزت الثلاثينات ، على ، أنها ، مرحلة تحول أطلق عليها مصطلح The Crisis of orientation ففى المرحلة الأخيرة رفضت الأفكار السابقة لتحل محلها نظريات اسلامية .

غير ان سميث الذى يهاجم سلفه على هذا الخلط[٤٢] يرى أن طه حسين لم ينته الى هذا الفصل او تكريس الانشطار فيه ، وهو ما اخطأ فيه ناديف سفران المؤرخ اليهودى الذى لم يستطع فهم هذا التداخل كما حاول تحليله ، اذ يمكن لمن يدقق فى هذه الفترة ان يرى بعض الفرعونية تتسلل فى فترة الثلاثينات ، ليلحظ ، انه كما توجد الفكرة الليبرالية كذلك توجد الفكرة الاسلامية ، وذلك يعد وضعا طبيعيا ينفى التراجع او الارتداد ويضفى على التفسير العام سمة التطور والنضج .

وقد لاحظ هذا معاصر آخر له ، اذ رأى فى كتاباته الاسلامية موازنة بين « مرونته العلمية الشخصية والتصلب الذى تتصف به الأغلبية من الجماهير التى ترفض محاولات التجديد ممثلة فى هذه الأساطير الميثولوجية حين يتناول فيها الأحداث الخاصة بالنبى ووحيه »[٤٣] .

غير ان ألبرت حورانى فسر هذا كله تفسيرا موافقا لطريقة طه حسين فى كتاباته الاسلامية ، فهذه الكتابات لن تعدو ان تكون « محاولة لسرد قصة الاسلام سردا جديدا ، بطريقة تستهوى الوجدان المصرى الحديث ، فهو يصور لنا النبى بطلا بالمعنى الحديث ، وعثمان رمزا للضعف البشرى ، وعلى نموذجا للحاكم المسلم المنصف . كما يصف

(٤١) Smith, c. p323

(٤٢) Smith, Ibid p 383

(٤٣) بشر فارس الذى رأى فى محاولة طه حسين (نوعا من اللعبة الخطرة) ؛

لنا تاريخ الأمة فى عهدها الأول كصراع الحقيقة والفضيلة ضد العالم ، وكمسعى الى اقامة حكم العدل فى الأرض .. وسوف تؤكد كتابات طه حسين حتى الأربعينات ، على الأقل ، ان نظرته الى الدين لم تكن ، كما يؤكد حوراني ، لتزيد عن « بعث الطمأنينة فى النفوس »[٤٤] .

ويزيد هذا الرأى ثبوتا عند آخر ، ان الناس فى عصر اسماعيل صدقى كانوا يحتاجون الى شيء من الطمأنينة لما كان متفشيا من اجراءات اوتوقراطية شديدة العنت الى درجة ان سميث يرى فى اتجاه طه حسين الى الموضوعات المثيولوجية على انه « تكتيك رسم لتجنب القمع الرسمى »[٤٥] .

وهذا الرأى الأخير اتفق فيه معه عفاف لطفى السيد من أن أساليب القمع التى أوجدها اسماعيل صدقى حينئذ خلقت الحاجة الى معالجة جديدة للسياسات . وقد أحس طه حسين بطش صدقى حينما نقله دون مراعاة لمكانته فى منصبه الجامعى فمضى فى هذا الاتجاه وأوغل فيه أكثر[٤٦] .

ومهما يكن من أثر التفسير السياسى أو محاولة خلق (ايديولوجية) وطنية من جانب رواد الثلاثينات من الليبراليين او ارجاع الظاهرة الى انكسار العقلانية وما الى ذلك ، فان التفسيرات السابقة تغفل الكثير بالنسبة الى رواد هذا الجيل وفترات التحول التى وجدوا فيها ، اذ يؤكد البعض هذا التطور الذى يمر به تفكيره واهتماماته الثقافية ، وخاصة موقفه من التراث الغربى وشعوره وأبناء جيله بضرورة الحاجة الى مسألة مراجعة تدفع به الى الوصول الى الاسلاميات والبحث فيها ، بوعى شديد ، عن القيم التى يبحث عنها ، وهو مايمكن ان نفسر به موقف طه حسين فى بعض نواحيه من هذه الحيرة التى مرت بجيله من اجراء تغييرات وتحولات مر بها أولئك .

وثمة وجه آخر يزيد معرفتنا بموقف طه حسين .. اذ كانت البيئة التى كتب فيها تمثل فراغا ماديا وذهنيا اراد طه حسين ان يملأه ويشغله ، اذ كانت هذه هى الفترة الأولى لاحالته الى التقاعد ، وقد أكد سكرتيره ـــ فريد شحاته ـــ انه « عندما بدأ ينشر أصول

(٤٤) حورانى ، ص ٣٩٨

(٤٥) Smith p 363

(٤٦) عفاف لطفى ، ص ٣٤٣

هذا الكتاب ــ على هامش السيرة ــ ، ماكان يظن أنه سيحقق هذا القبول عند القراء ، لكن الكتاب قد حققه ، وبدأ طه حسين يشعر باغتباط وسرور مادى عوضا عمَّا ألم به بسبب التقاعد »

وهذا وان لم يرسم بداية لتفسير الظاهرة ، فهو يمثل مؤشرا هاما لامتدادها ، وأيضا ، لتطورها .

وهنا نكون قد أتينا على بعض الآراء التى يمكن ان تفسر ظاهرة الاسلاميات فى فكر طه حسين ، وبقى ان نحاول تفسير الظاهرة من جانبنا ..

نعتقد ان طه حسين لم يرتد عن الليبرالية فى الثلاثينات ، وانما امتدت هذه الموجة الى الأربعينات وبعدها ، فعلى الرغم من انه اخرج فى الثلاثينات كتابات وكتبا كثيرة ، فانه لايشتم منها ، قط ، التراجع فى انتمائه الليبرالى ، واقصى مايمكن ان يقال ان هذه الفترة كانت بمثابة مراجعة هادئة ادت اليها الأحداث السياسية والفكرية وزادتها الظروف الشخصية له ، فمضت الاسلاميات فى خط توازى مع الخط الليبرالى ولم تسبقها قط .

ومما يؤكد على ثبات الخط الليبرالى وامتداده ان طه حسين يكاد يكون هو الكاتب الوحيد فى نهاية العقد الذى أخرج كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) ، عام ١٩٣٨ وهو يعد أعلى موجة ليبرالية تصل الى ذروتها فى هذا التيار فى حينها .

واعتقادنا مبنى على عدة تفسيرات لعل من أهمها، أنه ، لايمكن ، بأية حال ، إغفال التطور الفكرى الذى مر به رواد هذا الجيل ، من أبرزهم طه حسين ، ففى الفترة الأولى بعد عودته من البعثة غلبت عليه سمة العقلانية العلمية ، بينما قل غلواؤها فى عقد الثلاثينات .

لقد كان فى البداية مؤمنا أشد درجات الايمان بقيمة العقل ، وهو يفسر تقدم الغرب عن الشرق بسبب هام يراه فى ان « الشرق يذهب مذهبا دينيا قانعا فى فهم الطبيعة وتفسيرها .. فى وقت يرى فيه اليونان تفوقوا على الأمم الشرقية المتحضرة فى أمرين : أولهما العقل اليونانى الذى سلك فى فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفى الذى نشأت عنه الفلسفة اليونانية ثم الأوروبية الحديثة »(٤٧) ، وهو ماينم على ان احساسه بالعقلانية

(٤٧) ساباپارد ، ص ٤٣١ ، قادة الفكر ص ٧ ــ ١٦

العلمانية وحدها كفيل بترقية الشرق العربى الحديث .

فلنترو اكثر عند منحنيات هذا الموقف ..

وهذا الموقف الحاد يتبدى اكثر مايتبدى منذ البداية فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) ، حيث اكد فيه على ان العلم قد يناقض الدين ، بما يعنى ان لكل من العلم والدين معياره الذى لاينبغى ان يرى الواحد بالآخر فأكد على ذلك بقوله « للتوارة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها »[٤٨] ، وهذا يفسر انه حين وقف ليحاكَم لم يستطع ان يقلل من العلم وانما راح يفرق بينه وبين الدين تفريقا يظهر من عبارته التى جاء فيها انه « كمسلم لايرتاب فى وجود ابراهيم واسماعيل ومايتصل بهما مما جاء فى القرآن ، ولكنه كعالم مضطر الى ان يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمى كتاريخى ابراهيم واسماعيل »[٤٩] .

وماكادت تمضى الثلاثينات حتى كان موقفه دافعا للكثيرين الى التشكيك فيه ، فهو حين اعترف من قبل بقيمة العقل وردد انتصار العلم الى حد اليقين ، عاد هنا الى كتابة الميثولوجيا مبحرا فى التفسيرات الاسلامية الخالصة معترضا على ماقد يضيق بما فى الكتاب من اخبار واحاديث ، وقد راح يوضح موقفه صراحة فى تقدمة كتاب (على هامش السيرة) ، فرأى أن هناك من نصبوا انفسهم لحرب هذه الأخبار وتلك الأحاديث كما اوردها لمحوها من النفوس ، وقد جاء رأيه فى هذه القضية قائلا « أحب ان يعلم هؤلاء ان العقل ليس كل شىء ، وان للناس ملكات اخرى اقل حاجة الى الغذاء والرضا من العقل ، وان هذه الأخبار والأحاديث اذا لم يطمأن اليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم بها اساليب التفكير العلمى ، فان فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم الى السذاجة واستراحتهم اليها من جهد الحياة وعنائها ، ما يحبب اليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ، ويدفعهم الى ان يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تشق عليهم

(٤٨) فى الشعر الجاهلى ، ص ٢٦

(٤٩) قرار النيابة فى كتاب الشعر الجاهلى

الحياة . وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار الى العقل على انها حقائق يقرها العلم وتستقيم بها مناهج البحث . ومن يقدمها الى القلب والشعور على انها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على انفاق الوقت واحتمال اثقال الحياة »[٥٠] .

وقد راح يردد هذه النغمة كثيرا فى كتاباته المتفرقة فى عقد الثلاثينات ، فهو يستحسن « الاحسان كله اذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه »[٥١] ، ويضيف ماسبق ان أوضحه اكثر من مرة من ان « الخصومة بين العلم والدين اساسية جوهرية لأن العلم والدين لايتصلان بملكة واحدة من ملكات الانسان ، وانما يتصل احدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل »[٥٢] ، ومن هنا ، استطاع اكثر من غيره التفرقة بين العالمين اللذين كانا يصطرعان فى داخله حينئذ ، وهو ما ظهر فى توفيقه بين بعض القضايا التى تلح عليه مثل ايمانه بحرية الفرد وبالسلطة الآلهية بواسطة الفلسفة الروحية الشرقية[٥٣] .

اذن ، فقد منحه التطور الفكرى رؤية اشمل لدور الدين الذى لايمكن تجاهله ودور العلم الذى لا يمكن تجاهله قط ، فرأى ان لكل منهما حاله الذى يمضى فيه ، اذ كان الدين فى هذا الوقت يلعب دورا لايستهان به قط فى الوجدان المصرى .

وثمة تفسير آخر يؤكد على ان طه حسين لم يغفل الليبرالية ، وهو ، انه مع اغراقه فى الكتابة الميثولوجية لم يتوقف منذ ازمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) عن ترديد الفكرة الليبرالية من آن لآخر ، فهو لايتوقف عن ذكر حقيقة وجوب اخضاع الحقيقة الدينية للبحث والنقاش ، وان تقف « السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيدة التامة »[٥٤] .

ويؤكد هذا ان طه حسين سواء قبل الاسلاميات أو بعدها لم يتوقف قط عن مهاجمة رجال الدين واتهامهم بالجمود وحمله حملة شعواء عليهم لأنهم يمنعون كل اجتهاد

(٥٠) على هامش السيرة ، ج ١ ص ك
(٥١) السياسة ١٩٣٣/٤/٢٧
(٥٢) من بعيد ص ٢٢٧
(٥٣) سابايارد ص ٤٤٤
(٥٤) من بعيد ، ص ٢٤٣ ـــ ٢٤٤ ، ايضا : نقد واصلاح ص ٢٤٠

ولايسمعون اليه ، وقد وصف الشيخ وصفا يحمل فلسفته المميزة فقد قال « الشيخ يرسل الكلام ارسالا فى غير تحفظ ولا احتياط ، لا لشيء الا لانه لم يتعلم كما يتعلم الناس وانما عاش ومازال يعيش فى القرون الوسطى ، والناس يحيون فى العصر الحديث »[٥٥] .

وقد ظل يهاجم رجال الدين طيلة حياته منطلقا فى هجومه من هذه النظرة التى ترتبط بالفكرة الليبرالية ومفكريها .

كما ان تتابع صدور كتبه والدلالات التى تحتويها تؤكد بقاء هذا الخط .. فى كتابه (حافظ وشوقى) ، وقد نشرت بعض اجزائه فى صحيفة « السياسة الأسبوعية » فى بداية الثلاثينات ، لا يمكن تفسير موقفه الحاد فيه من كتاباته عن شوقى إلا من خلال فكرة الصراع بين القديم والجديد ، ليس مهاجمة الفكرة الاسلامية فى هذا الوقت ، فهو حين يجلس الى الجماعة ليستمع الى القصيدة التى يهنىء فيها مصطفى اتاتورك بالنصر الاسلامى يشغف بالقصيدة مثنيا على صاحبها ، حتى اذا ماخلا الى نفسه كما يقول « يتخذ رأيا آخر .. فاعجابنا الأول لم يكن الا ظاهرة اجتماعية ، وان بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضا غير قليل هذه المرة . ذلك لأننا كنا اثناء هذه القراءة الثانية قد تخلصنا من فوز الترك ، وتخلصنا من الجماعة التى كانت تحيط بنا ، ولم نحكم الا ذوقنا الشخصى »[٥٦] .

كما انه فى كتابه الآخر (على هامش السيرة) ، يدرك تماماً ان هناك قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم ــ على حد قوله ــ محدثون يكبرون العقل ، ولايثقون الا فيه .. فان العقل ليس كل شيء ، وهو مايعنى لديه ان العقل اذا اتهم بالقصور فلأنه لم تتح له فرصة للوصول الى مناطق قد يصل اليها الغير (أو الشعور) ، وهذا مايعنى انه لايوجد مرحلتان ــ محافظة ومستنيرة ــ تتداخلان كما يزعم سفران فيما قبل ، وانما لوجود عالمين مختلفين فى ذات الوقت[٥٧] ، فى فكر طه حسين الذى أصبح ذوقه كما يصفه « فيه

(٥٥) نقد واصلاح ص ٢٥٥ ، وقد جاء قريبا من هذا فى كتابه (مستقبل الثقافة ..) ص ٣٥٢ ، حين قال « الشر كل الشر ان يتحدث رجل الدين الى الناس فلا يفهمون عنه لأنه قديم وهم محدثون وان يتحدث الناس الى رجل الدين فلا يفهم عنهم لأنهم محدثون وهو قديم » ، ايضا : الجمهورية ١٠ ، ١٠/١٧ ــ ٢ ، ١٩٥٥/١١/٢٧ .

(٥٦) حافظ وشوقى ص ٣٦ ، وقد نشر الجزء الأخير منه فى ١٩٣٢/١٠/٩

(٥٧) على الدين هلال ، التجديد فى الفكر السياسى المصرى ص ٤٣ ، ايضا انظر :

- I.I.Ibrahim, The Egyptian intellectuals P 19-120,

اثر الأدب القديم ، وفيه اثر الأدب الغربى الحديث » ، وهو مايترجم لنا من جديد طبيعة هذا الصراع بين القديم والجديد ، السلفى والليبرالى .

اما الكتابان الآخران اللذان صدرا فى منتصف العقد فان مافيهما يؤكد على اطراد طه حسين فى طريق الوعى والنضج العربى ، إن (أديب) تصوير لحالة المثقف الأعزل أمام السلطة الطاغية ، والكتاب فى جوهره الحقيقى يصور هذا الصراع الفكرى بين الشرقية والغربية التى انتهى فيها بالانتصار للفكرة الغربية التى لم توجد فى اعماق صاحبها ، الشرقى ، أدنى مقاومة لافتقادها الى الفكرة الاسلامية بكل مافيها من اصالة وصمود ، فالصراع هذه المرة فى ظاهره بين الفكرتين ، وفى باطنه بين القديم والجديد ، واذا كان الجديد قد انتصر، فلأن القديم لم يستطع ان يتحصن بذاته كما ينبغى، وهو يدل فى النهاية على انتصار قيمة العقل وغلبتها عما سواها .

وكما ان الخوف من الطغيان فى (أديب) لم يرتد به عن الليبرالية ، كذلك ، فان الخوف فى كتابه الآخر (من بعيد) لم يرتد به عن الليبرالية كرمز للفكر الجديد ، وانما كانت كل كتاباته فى هذا الوقت تأكيدا لغلبة صراع الطغيان ضد قيم الحرية والديموقراطية التى كانت من اظهر قيم الفكر العلمانى فيما سبق ، وهو مانستطيع ان نستشمه من مقدمة هذا الكتاب الذى جاء فيه « نحس بالتحسر على تلك العهود التى كنا فيها نفكر ونقول كما نريد ان نفكر ونقول . كنا نلقى الواناً من المقاومة فلا تزيدنا الا طُمَوحا الى الحرية وامعانا فيها . وكنا ننظر الى الجهاد فى سبيل الرأى ، وحرية الرأى ، على انه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر ، فأين نحن من هذا الوجود »(٥٨) .

فاذا جاوزنا أعماله الأدبية فى هذا الوقت ، وكلها تعالج قضايا أدبية وفكرية(٥٩) ..

(٥٨) من بعيد ، ص ٥ ، ٦

- Safrain, p 141-164, 209-228

(٠) لابد من اعادة النظر فى ابحاث سفران عن العالم العربى خاصة بعدما تأكد ان أبحاث هذا المؤرخ اليهودى ممولة من وكالة المخابرات المركزية .

(٥٩) اخرج طه حسين عديدا من الكتب منها : من حديث الشعر والنثر عام ٣٥ ، القصر المسحور ٣٦ ، مع المتنبى ٣٦ ، الحب الضائع ٣٨/٣٦ .. ويمكن ان نجد فى « القصر المسحور » خاصة مايمكن ان يشى بحالة من التراجع السياسى ـــ لا الفكرى ـــ حين يتكلم فيقول لشهر زاد (انى

فان كتابه الهام (مستقبل الثقافة فى مصر) انما يمثل قمة الموجة الليبرالية ، فعلى الرغم من ان الكتاب ينحو منحى الغرب فى مسألة التعليم ، فانه يقدم قضية الحضارة برمتها ، فبعد أن ينفى وجود أى فرق جوهرى بين العقل الأوروبى والعقل المصرى(٦٠) ، فانه يعود ليوضح العلاقة بيننا وبين اوروبا بعد معاهدة ٣٦ على اننا التزمنا بها أمام أوروبا ــ كما يرى ــ أن « نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الادارة ، ونسلك طريقها فى التشريع . التزمنا هذا كله امام اوروبا . وهل كان من امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات الا التزاما صريحا قاطعا امام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والادارة والتشريع . والتزمنا هذا كله امام اوروبا .. فلو هممنا الآن أن نعود ادراجنا وأن نحيى النظم العتيقة لما وجدنا الى ذلك سبيلا »(٦١) .

وفى القول بضرورة ان نسير سيرة الأوروبيين فى كل شىء لم يحاول ان يبحث عن جذور مصرية متميزة او مختلفة عن الحضارة الغربية وانما راح يؤكد تأثر العقل المصرى فى عصوره الأولى بالعقل الذى ينتمى الى شعوب البحر الأبيض المتوسط محاولا التدليل عليه .

كما لاتشير آخر اعماله فى هذه الفترة (مع ابى العلاء فى سجنه) ٣٥ الى غلبة الاتجاه الوجدانى الاسلامى المجرد ، كما يعتقد ، فعلى الرغم من أن طه حسين يقر فى هذا العمل ان « العقل مهما يكن جوهره ومهما تكن طبيعته انسانى اى محدود . محدود الطاقة محدود المعرفة كغيره من ملكات الانسان .. »(٦٢) فان هذا فى حقيقته لون من الوان الصراع بين القديم الجديد ، القديم كما يراه ابى العلاء فى العزلة التى افضت به إلى الالتزام بالعقل الذى انتهى به الى العزلة عن تذوق الحياة ، والجديد ، كما يراه طه حسين ، متمثلا فى رفض العزلة ، ومن ثم رفض التشاؤم ، فقد راح يصوره على انه لامصدر له فى حقيقة الأمر الا العجز عن ذوق الحياة ، والقصور عن الشعور بما يمكن ان يكون فيها من جمال

الآن عميد مسئول .. ولاشأن لى بالكلام فى الأديان والآلهة وحسبى ماحدث لى قديما » ص ١٢٠

(٦٠) مستقبل الثقافة ، ص ٣٠

(٦١) مع ابى العلاء ، ص ٨٤

(٦٢) السابق ص ١٣

وبهجة[٦٣] وهو مايعنى فى نهاية الأمر ان محنة ابى العلاء دفعت به الى عدم المشاركة فى الحياة الاجتماعية دعك من فهم قوانينها .

وإذن ، يمكن الجزم بأن طه حسين لم يتراجع عن الفكرة الليبرالية وان تميز موقفه بالتطور مع واقعة ومراجعة مفرداته على ضوء التطورات الجديدة .

* * *

لم يكن ظهور القومية فى الغرب منفصلا عن ظهور الليبرالية بل كانت مقترنة بها ماضية معها ، ومن هنا ، فان تبلور الفكرة القومية فى بداية القرن العشرين فى مصر تواكب مع التيار الليبرالى الذى بدأ وتطور فى نهاية القرن الماضى وحفر له مجرى عريضا فى بدايات هذا القرن مع اهم ممثليه طه حسين .

وعلى هذا النحو ، لا تبدأ الدولة العصرية دون أن تنطلق من إيثار الطابع القومى والحرص عليه ، وهنا لايمكن ان نشير الى طه حسين وموقفه من التأثير القومى قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة دون ان نمر بأسماء عديدة من رواد الاصلاح فى مصر ، من على يوسف الى عبد الله النديم الى محمد فريد وجدى إلى أمين الرافعى وغيرهم[٦٤] حتى نصل الى لطفى السيد الذى صاغ نظريته فى القومية المصرية فى صحيفة الجريدة الخاصة وقد شايعه طه حسين .

وقد كان يمكن ان نرصد لطه حسين موقفا يعكس مشايعته للحزب الوطنى فى ميله للاتجاه الاسلامى فترة طويلة لولا انه تحول بسرعة بعد انهيار الحزب الوطنى ورحيل

(٦٣) وراح يضرب طه حسين الأمثلة لقصور فهم ابى العلاء الذى (ذهب الى تصوير عجز العقل عن فهم الحودات التى تعرض للناس وتعليلها وتحليلها من جهة ، والى اثبات ان هذه الحوادث التى لاتعلل ولا تحلل ولا تؤول تنتج فى حياة الناس اشياء يراها العقل ظلما وجورا فينكرها وينبو عنها ..) ص ١٨٢ وفى موضع آخر يقول (ينتهى به العقل الى ان الجور واقع لاشك فيه ، والى ان العدل أمل لا سبيل اليه ، والى ان اليأس المريح على مايشير من الآلام الممضة خير من الجهاد الذى لايغنى والمغامرة التى لاتجدى) ص ١٨٦ .
وقد ردد طه حسين هذه النبرة فى كثير من اعماله الأخرى حين ذكرا ابى العلاء وتشاؤميته ، انظر على سبيل المثال : الوان ص ٢٢٧

(٦٤) انظر شرحا وافيا لتطور القومية فى مصر فى كتاب فاروق ابو زيد ص ٦٣ ومابعده

ممثليه خارج مصر الى لطفى السيد ، ومن ثم ، تحول معه من جيل اسلامى الى جيل تولى مع أقطاب حزب الأمة وممثليه .

ومهما يكن ، فانه لايمكن ان نحاول رصد موقف طه حسين من الشخصية المصرية دون ان نربط بينه وبين فكر لطفى السيد خاصة لعمق الصلة بينهما وتوثيقها .. فقد ركز لطفى السيد على الأرض ووحدة المصالح الاقتصادية تركيزا كبيراً فى وقت استبعد فيه عامل اللغة والدين ، والدين عنده خاصة لايمكن ان يحسب من مقومات الوطنية ذلك لان « دار الاسلام ليست لمسلم بوطن .. فوحدة الاعتقاد الدينى ليست كافية لاقامة وحدة التضامن الوطنى وخاصة اذا ضيعت فيها الحقوق وعطلت الحدود .. »[٦٥] وسار طه حسين على نهجه ، فهو يرفض ان يكون الدين أو اللغة عنصراً من عناصر القومية ، يقول « ان الدين بعد ان ينزل به الوحى من السماء ويودعه نفوس الناس عن طريق الأنبياء والمبشرين — صلوات الله عليهم اجمعين — لايكاد ينتقل من وطن الى وطن ، ومن بيئة الى بيئة حتى يأخذ شكلاً خاصاً وصفة معينة هى بتلك البيئة اشبه . ولاتكاد تمر القرون حتى لايبقى بينه وبين التشابه فى اوطانه المختلفة الا انه نشأ من أصل واحد ، اى لا يبقى بينه من التشابه الا مابين أمم الانسان المختلفة من التشابه الفطرى ووحدة النوع فمن هنا ظهر ان الدين على مافيه من اصلاح للناس واقامة لحضارتهم وعمرانهم لا يمكن ان يكون جامعة منضبطة للحياة الدنيوية الصالحة »[٦٦] .

ولايتغير هذا الرأى كثيرا حتى يرحل الى أوروبا ويعود منها ، اذ يطالعنا مفهوم القومية كما عرفه عند لطفى السيد مضيفا اليه كثيراً من خطوط الليبرالية وسماتها ، فهو فى حين يرفض ان تكون اللغة والدين من مقومات القومية يراها — اى القومية — تقوم على عناصر بعينها ويحددها ، فيقول انها « المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية .. وعلى الوان اخرى من المنافع تختلف قوة وضعفا باختلاف الأقاليم والشعوب »[٦٧] .

(٦٥) الجريدة ١٠ مارس ١٩٠٧ ايضا : ١١ مارس ١٩٠٧ ، ١٩١٣/١/١٦

(٦٦) الجريدة ١١ مارس ١٩١٣ .

(٦٧) السياسة ٢٣/١٢/٣١

واذن ، يتفق طه حسين فى جانب كبير من فكره مع لطفى السيد ، وان كان يختلف معه فى النظر الى قيمة عامل الوحدة الجغرافية وما يطلق عليه (الأرض المشتركة) وهو مايختلف قوة وضعفا باختلاف الأقاليم والشعوب .

واذن يتفق طه حسين فى جانب كبير من فكره مع لطفى السيد وان كان يختلف معه فى النظر الى قيمة عامل الوحدة الجغرافية أو ما يطلق عليه (الأرض المشتركة) وهو فهم مستقى فى الأساس الأول من الفكر الليبرالى وقد بلغ الى اقصاه فى (مستقبل الثقافة ..) اذ راح يردد فى نهاية الثلاثينات ماسبق ان ردده حين قال ان « تطور الحياة الانسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لاتصلحان اساسا للوحدة السياسية ولا لتكوين الدول .. وان نظام الحكم وتكوين الدول انما يقومان على المنافع العملية »(٦٨) وقد كانت المنافع العملية ، دون شك هى العنصر الرئيسى الذى فسر به قيام القومية المصرية وتطورها عبر التاريخ المصرى القديم الذى يحدثنا كما يرى هو بأن « مصر كانت فى تلك العصور قوة اساسية من قوى التوازن السياسى والاقتصادى لا بالقياس إلى هذه البلاد وحدها بل القياس الى بلاد اخرى كانت مهداً لهذه الحضارة الأوربية التى تريد ان نعرف مايمكن ان يكون بينها وبيننا من صلة »(٦٩) .

ويربط طه حسين ربطا وثيقا بين القومية وبين (الاستقلال) فنحن نعيش فى عصر من أخص مايوصف به ان الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد اليها الشعوب وتسعى اليها الأمم وانما هى وسيلة الى اغراض ارقى منها وابقى »(٧٠) .

وقد تميزت القومية عند طه حسين باقترانها (بالمصرية) التى تعود بجذورها الى مصر القديمة متوخيا فى العود الى الوراء الى تلمس هوية متصلة لا منفصلة ، فمصر القديمة انما هى كما يعرفها « قد اتصلت بالعقل اليونانى اتصال تعاون وتوافق ، وتبادل مستمر فى الفن ، والسياسة والاقتصاد »(٧١) .

(٦٨) مستقبل الثقافة ص ١٩/٢٠ وهو مايدفع طه حسين الى مهاجمة رجال الأزهر ممن لايفهمون القومية والوطنية بمعناها الغربى ، انظر سابايارد ٢٣

(٦٩) مستقبل الثقافة ١٥ وهو مايردده فى كثير من أعماله الأخرى منها العدوان الثلاثى

(٧٠) مستقبل الثقافة ص ٩ وايضا : الجريدة ١١ مارس ٣١

(٧١) السابق ص ١٦

وهنا يصل الى هدفه من ان مصر الحديثة انما هى جزء من اوروبا ثقافياً وهو مايفهم من قوله « أنا لاأريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى ، وانما اريد الشرق الثقافى والغرب الثقافى »(٧٢) وهو مايعنى تخليا عن الهوية الشرقية بمالا يختلف مع فكره الأساسى الذى ينكر أن مصر بلد شرقى وانما هى جزء من أوربا فى كل ألوان الحياة .

وعلى هذا النحو كان من الطبيعى أن يختلف مع اتجاه الجامعة الاسلامية فى الفترة التى شهدت تطور الليبرالية الى درجة أنه حين كانت تثار قضية الخلافة كان يؤكد أنه يجب أن تتحول الخلافة الى منصب دينى فقط ، واشترط انه فى حالة الفصل بين السلطتين فى تركيا — وقد كان النقاش على أشده — يجب اختيار الخلافة بالانتخاب بين أية جنسية .

وهنا يمكن فهم القومية المصرية عند طه حسين بأنها تحتوى المنافع الاقتصادية والتاريخ ، ولا تغفل الاستقلال والثقافة ، وتستبعد اللغة والدين وهى العناصر التى يمكن على ضوئها فهمه للقومية العربية وتحديد دوره فيها .

* * *

ثمة ملاحظات أولية لابد منها لفهم موقف طه حسين من القومية العربية .. منها ان فكره هنا لم يكن نابعا من فراغ ، فالى جانب ان اسلامياته فى الثلاثينات دفعت أكثر من ذى قبل الى الاحتفاء بالعربية والحرص على تأكيد أهميتها(٧٣) فان حزب الوفد الذى اضحى مفكرا من مفكريه كان قد اهتم فى الوقت نفسه بالدعوة العربية رغم أن العربية لم تكن يوما تشكل فكرا أو عقيدة فى ايديولوجية الوفد . وكان طه حسين فى هذا قد عرف شيئا من الانتماء الشرقى حين كان منتميا الى حزب الأحرار اذ اعتقدت قيادات هذا الحزب فى العشرينات ، ان التيار القومى العربى جزء من تيار شرقى وان البلاد العربية يمكن ان ترتبط مع مصر برباط الشرقية فى اطار دولة شرقية كبرى ، فانضم عدد من قيادات الحزب الى (الرابطة الشرقية) وانخرطوا فى الكتابة لها وكان يروج لها حينئذ طه حسين أحد من

(٧٢) السابق ص ١٣

(٧٣) يلحظ أن طه حسين تحول باهتمامه فى الثلاثينات بالاسلاميات بما يتوازى مع معركة حول القومية العربية وتحديد موقفه منها ، ويلتقى مع هذا أن مارسيل كولمب يرى ان هذا الشعور الاسلامى تحول الى عقيدة أكيدة وعميقة حين لاحت بشائر العربية .

كتب فى صحيفة الرابطة فيما بعد (عام ٣١) ونشر اتجاهاته العلمية على صفحاتها ، وكانت الرابطة بمثابة البديل لهم عن الجامعة الاسلامية ، والقوة التى يمكن أن تقف فى وجه العرب مستقبلا .

كما أن عامل الدين — كما رأينا — لم يكن ضمن العوامل التى تشكل القومية المصرية فقد مضى هذا الوقت الذى كانت تتحكم فيه الفكرة الميتافيزيقية التى كانت تقوم عليها الحكومة وهو هنا يتساءل « أين هى الحكومة التى تستطيع أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم لحماية الدين .. »[٧٤]

كما ان اللغة العربية لايشدد عليها كأساس لبناء الحياة الوطنية السليمة .

ويمكن أن نشدد على ملحوظة اخرى مؤداها ان الشعور القومى عنده لم يعرف غير مصر ، فى وقت حرص فيه دائما على عدم اعتبار مصر جزءاً من الشرق .. وانما اعتبرها جزءا من أوروبا وإن حاول ان يبين بالقرائن التاريخية انه لم يكن بين مصر وجاراتها الأخريات فى الشرق القريب أو البعيد اية صلات مستمرة أو منظمة من شأنها ان تؤثر فى تفكيرها او سياستها وفى نظمها الاقتصادية ، ومن ثم ، حاول مرة أخرى ، ان يثبت دائما ان القضية المصرية تنتمى الى العقل الأوروبى أكثر من انتمائها إلى العقل الشرقى ، وهو حين يتحدث دائما عن الشرق الثقافى والغرب الثقافى فهو يخرج الجغرافيا من مجال تصوره الى درجة أن يتخلى عن الهوية الشرقية التى تميزه عن الغرب ليتقمص الهوية الأوربية وهو مايخرج بمصر كلية الى العالم الغربى .

ويمكن أن يضاف الى هذا كله ملحوظة أخرى تلخص فى أن الانتماء الغربى لم يَحُلْ بينه وبين الاعتراف بالرافد الغربى فى الشخصية المصرية ، فهو حين يهاجم أصحاب النزعة الفرعونية الذين انكروا العصر العربى فى تاريخ مصر وحضارتها يؤكد على ان عناصر الروح المصرى ثلاثة احدها هو « العنصر العربى الذى يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة .. وقد امتزج بهذه الحياة (المصرية) امتزاجا مكونا لها مقوما لشخصيتها » ، وقد تكرر هذا الدفاع عن العرب فى اكثر من موضع ..[٧٥]

(٧٤) من بعيد ص ٢٣٠ ، ايضا : مستقبل الثقافة ص ٢٠/١٩ .

(٧٥) رد على توفيق الحكيم فى عدد (الرسالة) ٣٣/٦/١٥ حين هاجم هذا الأخير العرب فقرن بين رايه ورأى المستشرقين ، قال « واحسبكم جميعا تظلمون العرب ظلما شديدا ، وتقفون فى امرهم بغير الحق » .

وقد دفع هذا البعض الى ان يرى فى موقف طه حسين من القومية العربية تناقضا حاداً . وهو يناقض ماذهب اليه من ان الثقافة المصرية الأوربية واحدة لأن الحضارة اليونانية الرومانية عنصر من العناصر المكونة للعقل المصرى والأوروبى على السواء .

وباختصار شديد ، فان اتجاه طه حسين الى الفكرة العربية لم يجاوز بأية حال الثقافة واللغة وحسب ، وهو ماسنراه خلال معاركه فى القومية العربية مع الطرف الآخر .

فلنخرج من العرض النظرى الى الواقع الحى ..

كانت أول المعارك حول العروبة بمفهومها السياسى فى عام ١٩٣٣ ، فعلى اثر إحدى مقالاته الى صحيفة كوكب الشرق التى ردد فيها ان المصريين قد خضعوا لضروب من البغض والوان من العدوان جاءتهم من شعوب شتى من بينهم العرب ، وحينئذ ، هبت عليه عاصفة عاتية لم يقف فيها الى جانب طه حسين غير ثلاثة اسماء تميزت بانتماءات اقليمية .

وفى هذه المعركة لم يستطع ان يخفى طه حسين رأيه فى الخلاف السياسى حول القومية العربية من حيث عناصرها ، فأكد ان العربية يدين لها ادبا وثقافة ونهضة ، وهكذا انتهت المعركة بعد قليل دون رد فعل عنيف من طه حسين .

على ان المعركة الثانية كانت اشد من سابقتها واطول زمنا ، فقد بدأت قبل نشر كتابه (مستقبل الثقافة ..) عام ٣٨ وانتهت به ، وكان الطرف الآخر أمامه ساطع الحصرى ، وفى هذه المعركة بدا رأى طه حسين واضحا فى القومية العربية اكثر من ذى قبل ، وقد جاءت الفرصة اليه ليسجل رأيه بصراحة شديدة حين سألته احدى المجلات عن موقفه فقال :

« ان كنت تقصد بذلك تضامنا ثقافيا بين البلدان العربية فان مصر مستعدة للدخول فيه . وانا من انصاره ودعاته وقد تباحثت مرارا عديدة مع بعض ـــ الأساتذة السوريين والعراقيين فى شكل هذا التضامن ومعناه . وانى انادى بتوحيد برامج التعليم فى جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافى بينها . وان كنت تقصد التعاون الاقتصادى فهو ممكن ايضا ومفيد .

أما إذا كنت ترمى الى أن مصر مستعدة للمساهمة فى الوحدة العربية او القومية

العربية فانت على خطأ فالمصرى مصرى قبل كل شيء . وهو لن يتنازل عن (مصريته) مهما تغلبت الظروف .

الوحدة العربية -كما يفهمها ذووها يجب ان تتحقق بشكل امبراطورية جامعة او اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكى او السويسرى . ونحن لانرضى بهذا او بذلك .. لاتصدق مايقوله بعض المصريين من انهم يعملون للعروبة . فالفرعونية متأصلة فى نفوسهم وستبقى كذلك بل يجب ان تبقى وان تقوى .

فهل تريدون ان تتحقق الوحدة العربية ؟

فعلى أى أساس علمى تنادون بها ؟

تعالوا معى نستعرض الروابط التى تصل مصر بالأقطار الأخرى فأولها اللغة وثانيها الدين وثالثها اصل السكان ورابعها شكل بعض التقاليد الموروثة من حقبات تاريخية متشابهة .. اما الدين فلا يصلح لأن يتخذ اساسا . وإلا أصبحت الوحدة المزعومة وحدة اسلامية لا وحدة قومية . واصبحنا من جهة ندخل فيها شعوباً غير عربية وكذلك اصل السكان فهو غير كاف لخلق الوحدة القومية العربية . فان الأكثرية الساحقة من المصريين لاتمت بصلة الى الدم العربى ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء .

ولاأخالكم الا معترضين معى بأن التقاليد العربية المنتشرة فى مصر قليلة ضعيفة التأثير ، متبعة بنوع خاص بين العشائر المنحدرة من أصل عربى صميم . وعلى كل حال فان التقاليد مهما كانت متشابة لقاصرة عن ان تخلق وحدها اتحادا قوميا .

فماذا بقى اذن من روابط مصر بجيرانها ؟ التاريخ ؟ اللغة ؟

ان تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن اى بلد آخر . ومصر اليوم هى مصر بالأمس اى مصر الفراعنة ، المصرى فرعونى ، قبل ان يكون عربيا . ولاتطلبوا من مصر ان تغير فرعونيتها او اكثر فما تستطيع ان تعطى .

مصر لن تدخل فى وحدة عربية ولا اتحاد عربى ، سواء كانت مساوية فيه للأمم العربية الأخرى او مسيطرة عليها . وسواء كانت عاصمة هذه الوحدة او الاتحاد القاهرة ام دمشق ام بغداد »[٧٦] .

(٧٦) المجلة الجديدة ديسمبر ٣٨

ويضيف طه حسين الى هذا الفهم للقومية العربية فهما آخر ، يلخص فى ان الصراع يدور حول هذه القضية بين أهل القديم ــ الداعين للوحدة ــ وأهل الحديث (يقصد نفسه) الداعين الى الاقلاع عنها او التحمس لها[٧٧] .

والملاحظ ان طه حسين فى الوقت الذى قال فيه بتوحيد برامج التعليم فى الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافى ، واستحسن ان يكون هناك تعاون اقتصادى وحتى تحالف عسكرى .. فانه اعلن رأيه بوضوح تام ولم يحد عنه فيما بعد ، فقال (مصر لن تدخل فى وحدة عربية ، حتى ولااتحاد عربى) ، فكان واضحا نفيه التام (لوحدة سياسية) بأية حال[٧٨] .

وقد امتدت هذه المعركة للعام التالى (٣٩) ولم تفرز غير تأكيد لوجهة نظر طه حسين على تأكيد الوحدة العربية على أساس استقلال وطنى ، فان الذى يؤدى الى

(٧٧) الهلال العدد الممتاز ٣٨ يقول تحت عنوان (العقل العربى الحديث) :
« ربما كان من الأمثلة الظريفة اللطيفة التى تبين الفرق بين العقل العربى القديم والعقل العربى الحديث فى هذا العصر الذى تعين فيه مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الاسلامية الذى يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة ... فأما اصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء فى ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه ، وليسم هذا السلطان خلافة ، وليسم ملكا له حظ من الطرافة ، فقد عرف القدماء الامبراطوريات واحتفظ بها المحدثون من الأوروبيين . وكذلك يخدع العقل القديم نفسه فيظن انه اصبح حديثا . اما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه فى البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوربية . يفهموها على انها لاتنفع ولا تفيد إلا اذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم فى حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذى لايفنى اية امة فى امة ، ولايخضع شعبا لشعب ، وانما يمكن الأمم من ان تتعاون على اساس مايكون بين الانداد من المساواة . فاذا قال صاحب العقل الحديث مقالته هذه ضاق به صاحب العقل القديم اشد الضيق ، لأن عقله لم يتطور بعد ، ولم يستطع ان يكون من اهل العصر الذى يعيش فيه وانما هو محتفظ بكل مشخصات القرون الوسطى وهيهات لمشخصات القرون الوسطى ان تسيغ مايقع فى القرن العشرين » .

(٧٨) انظر رسالة ساطع الحصرى اليه فى الرسالة (٣٨/١٢/١٩ ، و ٣٨/١٢/٢٦ ، المجلة الجديدة ٣٨/١٢ ، الرسالة ٣٩/٧/١٧ ، الرسالة من ٧/٢٤ـــ ٣٩/٨/٢٨ اسبوعيا ، الرسالة ٣٩/٨/١٤ .

الوحدة هو وحدة الثقافة والاقتصاد وحسب[٧٩] ، ولم ينس طه حسين فى غمرة دفاعه عن فكرته ، والهجوم الذى يصب عليه من كل جانب ، ان يشير الى نفسه ، رغم أفكاره المنافية للوحدة العربية ، على أنه ظل دائما مدافعا عن العروبة من حيث ما قدم للثقافة العربية من جهد وتطوير .

وقد حاول ان ينقل بعض فصول كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى لم يكن قد نشر بعد الى الصحف ليرد على ساطع الحصرى ، وقد راح يردد فيما سبق ان العقل المصرى منذ عصوره الأولى تأثر بالبحر المتوسط ، وان « وحدة الدين ، ووحدة اللغة لاتصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول » ، ويفهم من هذا الكتاب انه حين يشير الى العرب تاريخا يرى انهم من الغزاة الدخلاء وان مصر « لم تهدأ ولم تطمئن الا حين اخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده » .

وفى وقت يصور فيه الفتح اليونانى للبلاد على انه مألوف ولا غرابة فيه فقد اصبحت مصر دولة يونانية او كاليونانية . وهو قول مردود عليه بأن العرب وان جاءوا بعد اليونان والرومان ، وغيرهما ، فإنهم لم يمروا مرورا عابرا كما جاء من قبلهم ، وانما غيروا فى الهوية المصرية والتاريخ والثقافة بما يقضى المقارنة بينهم وبين غيرهم من حيث الغزو او الفتح . وهذا نفسه لايتناقض قط مع رأى طه حسين فيما بعد الذى اكد فيه على ان مصر لم تخرج عن عقليتها الأولى وتصبح أمه شرقية رغم انها اتخذت الاسلام لها دينا والعربية لها لغة وهو ما يقارن بأوروبا بعد انتشار المسيحية فيها .

وهذا يعنى لديه انه لافرق بين العقل المصرى والأوربى ، وبالتبعية ، الأخذ بالحضارة الأوربية قلبا وقالبا .

يستنتج من هذا ، ان موقف طه حسين من قضية (الوحدة العربية) لم يكن منبت الصلة بما قبله قط ، اذ تلوح دائما علاقة وثيقة بين انتمائه الى (القومية المصرية) والدعوة الى (القومية العربية) وشروط الانتماء لها ، وهو ما ظل يؤكد عليه حتى فترة متأخرة من حياته[٨٠] فقد أكد :

(٧٩) ملف عروبة مصر (مركز الدراسات بالاهرام) ص ٥٣

(٨٠) وقد نردد هذا المعنى فى فترات متأخره من حياته خاصة فى مؤتمر الأدباء العرب الذى عقد فى مصر ديسمبر ٥٧ .

« أننا متحدون مع العرب الآخرين بوسائل من أهمها اللغة والدين والثقافة والايمان ، ومع ذلك ، فبالنسبة لنا ، نحن جميع العرب ، فان الاتصالات مع أوروبا اتصالات تتصف بنفس الضرورة والأهمية » .

وهو رأى قد نختلف فيه الآن مع طه حسين كثيرا ومهما يكن فان (الانتماء الثقافى) أسهم فيه كثيراً سواء فى مجال التعليم أو الآثار أو الآداب لكنه لم يستطع أن يقر (الانتماء السياسى) على أى وجه وهو حين يتحدث عن العرب فانه يقول (نحن) بما يعنى الضمير الثقافى لا السياسى .

* * *

يمكن تحديد الفكر السياسى عند طه حسين من خلال رصد حركة الفكر العربى فى فترة مبكرة ، ومن خلال تيار ليبرالى تاريخى تعاكس مع التيار القائم طوراً واتفق معه طوراً آخر .. فقد بدا للمفكرين المصريين منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر صعوبة توافق حضارة العرب مع الاسلام وشرائعه ، وقد تعددت ردود افعال المفكرين العرب من اوروبا ، غير ان اظهر هذه التيارات تمثلت فى تيار الشيخ محمد عبده الذى بدا التناقض بين قوله من ان المدنية الحقيقية مطابقة للاسلام وبين رأى حلفائه الذين رأوا أن « الاسلام الحقيقى مطابق للمدنية »[(٨١)] .

واذن فمع التطور الزمنى سادت خاصة فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة الفكرة الاصلاحية التى رأت ان الاسلام بعد ان كان قطب الاصلاح ومركزه الرئيسى تحولت الآن لتؤكد حقيقة ان الفكرة الاصلاحية فى الاسلام فشلت فى ان تصبح نقطة المركز وانما أصبحت « موضوع معارضة العناصر المجددة على الطريقة الغربية والعناصر العلمانية »

وقد وجد طه حسين فى التيار الأخير أساتذته وزملاءه فى حزب الأمة وقد نما اليه هذا الاتجاه وبلغ أقصاه فى فترة ما بين الحربين .

وسوف نحاول هنا التعرف على اهم عناصر هذا التيار فى اتجاه الفكر السياسى فى ثلاثة محاور :

(٨١) حورانى ص ١٩٩

اولا : نظام الحكم
ثانيا : الشريعة والقانون
ثالثا : الفكر الاقتصادى

وفيما يتعلق **بنظام الحكم** فقد تفرع عنه سؤال هام يتعلق بالصراع بين الدين والدولة وقد بلوره طه حسين فى ضرورة استقلال الدولة عن الدين اذ راح يؤكد غلبة عنصر جديد يسهم فى تكوين الدولة ، قال « ان فكرة الوطنية ومايتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة قامت الآن فى تدبير الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدولة أو مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيزيقية »[٨٢] ، ومن ثم راح يطرح سؤالا كان له مايبرره على ضوء فهم طه حسين لوضع الدولة الجديد ، سأل سؤالا حول هذه الحكومة التى تستطيع الآن ان تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم على حماية الدين .. « لا تستطيع الحكومة المصرية مثلا ان تزعم أنها إنما تقوم على الإسلام وبالإسلام وللإسلام ؛ كلا »[٨٣] . وهو مايؤكد ان موقفه فى فصل الدين عن الدولة انما هو موقف ليبرالى خالص لازمه طيلة حياته .

وموقف استقلال الدولة عن الدين انما هو نابع فى المقام الأول عن تحديد الخصومة بين العلم والدين إذ أنهما كما يرى « لايتصلان بملكة واحدة من ملكات الانسان وانما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل »[٨٤]

وقد كان ابرز مايميز موقفه من نظام الحكم كراهيته الشديدة للحكم المطلق والطغيان الفردى فيقول « يحمد الديموقراطية الصحيحة التى تكفل للأفراد والجماعات من الحرية مايتيح لهم ان يعتقدوا ويعلنوا مايعتقدون فى غير مضارة ولاتعرض لتحكم السلطان »[٨٥] وقد تخلل هذا الموقف كتاباته كلها بدون استثناء فقد كان يجيء الموقف بشكل مباشر او بشكل عرضى بما يؤكد اهتماما بالظاهرة السلبية فى الحكم[٨٦] وهذا هو

(٨٢) من بعيد ص ٢٣
(٨٣) من بعيد ص ٢٣ ، وايضا : الشلق ، حزب الأمة ص ٢٨٧
(٨٤) من بعيد ص ٢٢٧ وانظر الى مقالة (شك ويقين) فى الكتاب
(٨٥) رحلة الربيع ص ٨٣
(٨٦) قادة الفكرة ص ١٢٣ ايضا : نفوس للبيع ص ١٥ ، ٤١ ، ايضا انظر : احلام شهر زاد (كراهية الملوك هم الطغاة / ١٥٣) ، ايضا فى رحلة الربيع ، (النظام الديكتاتورى / ٨٣)

السر فى انه لم يتعب قط من التحذير من الطغاة « .. انهم يأمرون دون ان يعرفوا الى اى حد تطيق الرعية »(٨٧)

وتأسيسا على هذا الموقف فانه لم يكف عن تأكيد ان الحكم المقيد بدستور هو خير الأنظمة التى يجب الأخذ بها فى ممارسة الحاكم لمسئولياته ، ولهذا قال انه « حين نشأت الديموقراطية فقد عرف الانسان ان سلطان الحاكم لايتنزل من السماء وانما يخرج من الأرض وان بين الحاكم والمحكوم عقدا اجتماعيا تصوره القوانين المكتوبة والدساتير »(٨٨) فاذا تم تنصيب الحاكم بعقد يتفق عليه بين الحاكم والمحكوم لحلت قضايا البشرية وعمت قيم العدالة والاصلاح ولتم « التوفيق بين الحاكم والمحكوم دون ان تضحى باحداهما فى سبيل الأخرى »(٨٩) وقد شدد على ضرورة العمل بالدستور حين يوضع وليس أن يمتدح بأنه « أعظم الدساتير الأوربية »(٩٠) وحسب .

واذ راح يفصل بين الدين والدولة ويبغض الحكم الديكتاتورى فان الخطوة التالية تتأكد فى اعترافه بأن الحكم الديموقراطى المقيد بعقد خاص انما هو نظام غربى خالص ، وبالتبعية ، فان كل ما ينتمى للنظام الحديث وما يجب أن ينتمى اليه انما هو « أوروبى المصدر أوروبى الجوهر ، اوروبى الشكل لم يعرف المسلمون شيئا منه فى العصور الوسطى وقبل هذا العصر الحديث »(٩١)

وعلى هذا النحو فان طه حسين كان يمضى فى طريق مغاير لطريق الجيل السابق له من أن فى الاسلام اصول الحكم النيابى ، وهو ما فسر أنه حين راح يقارن بين النظامين الاسلامى والغربى لم يكن للأخذ بنظام الاسلام فى الحكم ليدلل به على مميزات النظام الحديث للعالم وهو مايفهم من قوله « ويظن .. أن نظام الحكم ايام النبى وصاحبيه قد كان نظاما ديموقراطيا . وهذا تجوز فى الألفاظ وخروج بها عن الدقائق من معانيها ، وقد

(٨٧) احلام شهر زاد ص ٧٨ ، انظر أمثلة عديدة لطغيان الملوك ص ٦٤/٦٦/٦٧

(٨٨) رحلة الربيع ص ٨

(٨٩) السابق ص ٨٣

(٩٠) بين بين ص ١٠٥ ، ١٠٦

(٩١) مستقبل الثقافة ص ٣٣

ينبغى أن نتبين معنى الديموقراطية بالدقة أن نقول ان نظام الحكم هذا كان او لم يكن ديموقراطيا »[92] .

وهو ما تتصارع حوله التفسيرات التى راح طه حسين يحسمها بمقولته الخاصة حول النظام الديموقراطى مما يشير الى انحرافه فى هذا الفهم الذى يبرره .

وهنا نصل الى الصياغة الأخيرة لديه عن نظام الحكم ..

فقد رأى ان الحل الوحيد للاصلاح السياسى انما يكون (باقتباس) النظم الغربية الليبرالية ، وهذا (الاقتباس) لابد وأن يكون شاملا وذلك لنهيىء المناخ الشعبى ليتمكن بوعى من الأخذ بهذه النظم .

وفى الطريق الى ذلك انتهى الى ان الافادة بالفكر الغربى انما تأتى عن طريقين :

ـــ الطريق الأول : تطوير قيمة العقل والحث على الاجتهاد ، فقد رأى ان الاسلام ترك للمسلمين « حرية اختيار النظم السياسية التى تلائمهم ، وحرية تطويرها حسب ما تقضى احوالهم الاقتصادية والسياسية ، وبذلك ، بين ان الاسلام يوحى باقتباس النظم الديموقراطية الغربية ، من غير ان تكون مبادىء هذه النظم فيه »

ـــ الطريق الثانى : يفسر موقفه من ضرورة اقتباس النظم الاقتصادية على شريطة ان يرافقها استيعاب الأصول والمبادىء الكامنة وراءها ، وهو ما يبين دعوته الى تبنى العلم والآداب والفلسفة اليونانية واللاتينية ، اذ أدرك انها ينبوع الأسس الفلسفية التى بنى الغرب نظمه عليها[93] .

وقد يكون من قبيل التكرار ، ان نقول ، انه على العكس من كل مايقال عن كتاباته الاسلامية ، فانه حين يعود الى الأصول الأولى يكون الهدف عنده ، هو ، رسم دائرة لنظام الحكم المتميز الذى يمكن ان نجد ملامحه فى الاسلام ، وان كان هو بدوره فى دائرة اوسع يؤكد على ان هذه الأشياء التى ترسم حدود النظام قديما لاتعدو وان تكون ظاهرة فرضتها ظروف نشأة الدولة الاسلامية الأولى ، ومن ثم ، فان الأخذ بالنظام الغربى

(٩٢) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٢٨/٢٧

(٩٣) مستقبل الثقافة ، ص ٢٠٧ ، ٢٢٤

هو ضرورة تفرضها استحالة العودة الى التجربة الاسلامية ، الظاهرة التى لن تكرر لاستحالة ذلك فى ظروف مغايره .

وحين نصل الى **القانون والشريعة** فسوف نجد لها عند طه حسين اهمية كبيرة تؤكدها عودته اليها فى اعماله الفنية والفكرية ، كما يؤكدها ربطه بينها وبين نظام الحكم رباطا وثيقا ، فهو لا يمل فى منتصف الثلاثينات من ذكر الحكومات التى تسن القوانين ولاتخضع لها ، والملوك الذين يشرعون من قوانين وانتهاك هذا القوانين(٩٤) وان اخفى هذا بالرمز والتلغيز .

ومن هنا ، فان موقفه من القانون كان اكثر حسما ووضوحاً منذ فترة مبكرة .. اذ اتجه الى تبنى القانون الغربى اتجاها تاما وربما الى تبنيه تماما ، وهو ما يستنتج من قوله « أن قضاة المسلمين القدماء لو نشروا فى هذه الأيام لأنكروا من نظام المحاكم الشرعية شيئا كثيرا »(٩٥) ، ومن هذا فان « امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات ليس الا التزاما صريحا قاطعا امام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والادارة والتشريع »(٩٦) .

فمن المستحيل عنده ، اذن ، ان نحاول العود الى التشريع الى عصر الفراعنة او — حتى — العصر الاسلامى الأول ، وانما هو اقتفاء اثر الغرب فى قوانينه وتشريعاته المعاصرة .

وعلى عادته فى نظام الحكم حين رأى ان اطلاق حرية العقل هى الطريق الوحيد للافادة من الفكرة الغربى ، فان النظرة العقلية فى موقفه من الشريعة كان وراء محاولة توفيقه بين الشريعة الاسلامية و (القانون الغربى) فى بعض الأحيان ، والواقع انها لم تكن محاولة للتوفيق بقدر ماكانت البحث عن أصول المعاصرة فى التاريخ ، لقد أكد أن الشريعة

(٩٤) القصر المسحور ص ١٢١/١٤٣

(٩٥) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٣٣

(٩٦) السابق ص ٣٥ ، ولم يختف حلم الالتزام بالقانون الغربى ذوى الأصول اليونانية والرومانية قط من حياله ، فهو حين يقف امام الأكروبول يقول « فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت للقوانين مايكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين ، وردت القوانين الى الشعب أمور الشعب وجعلت القوانين حكام الشعب خداما للشعب ، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا الى الشعب حساباً دقيقا » رحلة الربيع ص ٩

الاسلامية متصلة « بما كان للرومان من سياسة وفقه »[٩٧] ، ومن هنا ، يمكن الموافقة على ان الشريعة الاسلامية لديه لم تكن مميزة لأنها منزلة ، بل راح يؤكد اتصالها بالقانون الرومانى ، وهو عينه مصدر القوانين الأوروبية ، وبذلك كان طه حسين يرى أن أصل الشريعة والقانون الغربى واحد . أى أنه ذهب الى أن الحضارة الرومانية من العناصر المكونة للشخصية المصرية ، مما يدفعنا الى الاستنتاج أنه « لم ير الشريعة الاسلامية اقرب الى الهوية المصرية من القانون الرومانى والأوروبى »[٩٨]

على ان هذه المحاولة لايجب أن تخدعنا عن أن فكر طه حسين لم يتلمس فى التراث الشرقى مبادىء القانون الحديث ، وانما قصارى مايمكن أن نقوله ، أنه ، تلمس فيه صياغة نظريته التى تسمح له بتأكيد أن الحضارة الغربية هى الحضارة الوحيدة التى يجب الأخذ بها ، أما الحضارات الأخرى كلها ، بدون تخصيص ، فحسبنا ان نأخذ منها الوسيلة التى تقربنا من هدفنا ، هدفنا القائم على مرمى حجر من الحضارة الغربية .

وعود على بدء ، فان طه حسين افترق عن غيره بأن اتخذ من القانون الغربى قانونا عربيا خالصا ، كما اتسق مع نفسه حين راح يوفق بين انتمائه العربى وايمانه بالقانون الغربى وذلك من خلال نظرة عقلية .

وقد كان **الفكر الاقتصادى** من العناصر التى أولى لها اهتماما لابد من الاشارة اليه .. فقد أدرك ان الاستقلال الاقتصادى من اهم العناصر التى تصنع الدولة وتدعمها وتقربها الى مصاف العالم الغربى المعاصر ، ومن هنا ، هاجم القلة الاقطاعية التى تزرع الفقر والحرمان حيث « نعيم قد قسم للقلة وبؤس قد فرض على الكثرة »[٩٩] ، كما هاجم بعنف حالة الرضاء التام التى تقترب من حالة الخضوع والاستسلام التى تميز بها الشرقيون[١٠٠] ، وقد اتخذ فى موقفه من الاصلاح الوجهة الغربية التى تلمس منها اية وسيلة أخرى ، فعرف التاريخ الاسلامى ، فقد كان طه حسين ينطلق من خلفية تتميز فيها الخطوط الليبرالية وتسيطر على النسيج العام .

(٩٧) مستقبل الثقافة ص ٣٠

(٩٨) سابايارد ص ٣٥٨

(٩٩) بين بين ص ٥٠

(١٠٠) يبدو هذا فى كثير من اعماله منها : المعذبون فى الأرض ص ٨٣ ، ايضا : القدر ص ٨

وهنا يمكن رصد أكثر من موقف من الدين له دلالة كبيرة .. فقد كان اصلاحه الذى يأخذ العبرة من التاريخ الاسلامى يتلمس فيه النظرة العقلية الغربية ، فاعادة النظر فى قانون الضرائب ، على سبيل المثال ، دفع به الى تلمس خط معين لخصه حين قال ان « أيسر المقارنة بين مايدفعه سكان مصر من الضرائب ومايدفعه سكان البلاد الأوروبية الراقية يقنعنا بأن النظام الاجتماعى فى مصر شديد الحاجة الى الاصلاح والتقويم »(١٠١) .

ومما يؤكد على استلهام الفكر الغربى فى الاصلاح الاقتصادى ان طه حسين حمل على كثير من مظاهر التقارب وأراد محوه إذ أن التعطل على العمل كما يقول انما « لايعالج بتضييق التعليم ، ولا بانشاء نظام الطبقات ، ولا باحتكار العلم لطبقة قليلة وفرض الجهل على كثرة الشعب ، وانما يعالج باصلاح النظام الاجتماعى نفسه ، وجعله قادرا على ان يتيح لأبناء الوطن جميعا أن يعيشوا على أرض الوطن ، وأن يعيشوا من كدهم وجهدهم وعملهم ، لا ان يعيش بعضهم على حساب بعض »(١٠٢) .

وبقدر اقتراب طه حسين فى طريق الاصلاح الاقتصادى الغربى بقدر اعتقاده بقصور بعض مبادىء الدين عن التطور المعاصر ، فهو فى مرة يرفض الاحسان ويهاجم بعنف شديد ، اذ رأى الاحسان يمثل « مظهراً من مظاهر الاستعلاء . ولابد ان تقوم مقام هذه العواطف عواطف الايمان بالمساواة والعدل بين ابناء الشعب »(١٠٣) ، وهذا يرتبط بدعوته الى الدولة ان تأخذ من الأغنياء بحد القسر مالايقدمونه بالملاينة الى الفقراء ، فبعد ان ضرب المثل بعمر فى احدى قصصه من انه حين فرغت الخزائن فى (عام الرمادة) كلف كل أسرة من الأغنياء بأن تطعم مثل عددها من الفقراء ، منتهيا من هذا كله الى مبدأ يجعل للدولة به اليد العليا فى المعاملات الاقتصادية ، قال « يجب ان تعلم الدولة ، ويجب ان يعلم الموسرون ، أن التصدق بالمال خير فى أوقات الرخاء والدعة واللين ، فاذا اشتدت الأزمة .. فالتصدق واجب يفرضه العدل ، فان لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم ، وجب على الدولة ان تأخذهم به اخذا . يجب على الدولة ان تعلم ان الله قد أمر أئمة المسلمين فى اوقات الرخاء والدعة ان يأخذوا من الأغنياء يردوا على الفقراء حتى

(١٠١) سابايارد ص ٣٦٣

(١٠٢) السابق ص ٣٦٣

(١٠٣) السابق ص ٢٤٨/٢٤٧ ، ايضا : من لغو الصيف ص ١١٠

لايبقى بين الناس جائع او محروم ، فاذا جد الجد وألمت الكارثة ، فحرام على الموسرين أن يطعموا وان يشربوا وان يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون .. وعلى الدولة أن تقوم بهذا كله بسلطان القانون »[١٠٤] .

وقد بلغ ضيق طه حسين بالنظام القائم الى درجة الكفر به ، ودعا الى تغييره برمته ، فهو فى البحث عن نظام جديد يبحث عن تعميم التعليم اصطدم بالنظام الاقتصادى الذى لايستطيع توفير عمل لكل من يتخرج ، ومن ثم ، تبقى ذريعة التجمد بالغاء التعليم بالصورة التى عمل لها طه حسين ، وهو مايفهم منه غضبه حين قال « لابد من تعديل النظام الاقتصادى بغية تأمين العمل للجميع »[١٠٥] .

واذن ، فان طه حسين أولى جهده للقيم التراثية التى لم تتطور بعد بحثا عن تخفيف ربقة النظام الطبقى ، وقد اتجه فى هذا الى الغرب ليتخذ أفكارة ويتلمس فيه الحلول الاقتصادية الناجعة التى لم يجدها فى التراث ، كما وصل فى الالحاح على التغيير والعمل له الى درجة تغيير النظام الحاكم كله .

ويمكن ان نوجز أهم النتائج التى أثيرت هنا على النحو التالى :

مثّل طه حسين التيار الليبرالى فى مصر فى أكثر وجوهه حيوية من حيث كونه فلسفة ونظاما متكاملا فى الحياة ، وهو مايبدو فى تبنيه لكثير من قضايا الواقع فى المجالات الثقافية والفكرية والعقائدية ، ولعل اهم هذه القضايا تتمثل فى مسألة (التعليم) وأيضا فى الفترة التى اصطرعت فيها الليبرالية بالفكرة الاسلامية فى الثلاثينات والتى بلغت أقصاها فى انتصار النهج الغربى فى التفكير فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) عام ١٩٣٨ .

وحين كان يواجه التناقض الحاد بين الفكرة الليبرالية والفكرة الاسلامية كان يؤثر المنهج الغربى إما صراحة أو موارية .... وهذا وراء موقفه الفكرى من تأكيده على حقيقة ان الاسلام يوصى (باقتباس) النظم الغربية من غير ان تكون مبادىء هذه النظم فيه ، وعلى مستوى آخر ، فان طه حسين يربط الهوية الشرقية بالغربية ـــ على المستوى الثقافى ـــ من باب تأكيد الأصول الأولى بقصد تبرير اضفاء هذا الاتجاه الليبرالى .

(١٠٤) المعذبون فى الارض ص ١٦٣/١٦٤

(١٠٥) مستقبل الثقافة ص ١٤٢

يعتقد البعض ان إدخال طه حسين للعنصر الروحى فى كتاباته متمثّلا فى الكتابات الاسلامية يُعدّ انحرافا به عن الخط الليبرالى ، وعند البعض الآخر ، إمعانا فى تبنى المنهج الاسلامى ، غير ان تحرى الطريقة التى يكتب بها طه حسين وأهدافها ، يؤكد ، انه لم ينحرف عن الخط الليبرالى إلا بقدر ، كما لم يغل فى تلمس الدين وانما كان (التطور) الذى لحق به منه من تجريد قناعات جديدة متسقة مع القناعات القديمة .. فهو فى بحثه عن اصول العدالة والحرية لم يجدهما فى الاسلام ، كما لم يجد غضاضة فى الاعتراف عن تخليه عن نظرية الجبر التاريخى التى تغلو فى اكبار دور الجماعة والبيئة الى البحث الفردى والاجتماعى معا ، وهو الفارق بين كتابه (ذكرى ابى العلاء) عام ١٤ وكتابه (قادة الفكر) عام ٢٥ .

بل ويكاد يكون طه حسين المثقف الوحيد فى تياره الذى تبنى هذا المنهج فى التفكير حتى فترة متأخرة من حياته فى نهاية الثلاثينات من خلال (نظرية) جهد ان تكون مكتملة ، ويؤكد هذا ان الانكسار الذى حدث عند بعض رواد جيله لم ينتقل اليه ، وهو مايتأكد من كتابيه الهامين فى الثلاثينات (من بعيد) عام ٣٥ و (مستقبل الثقافة فى مصر) عام ٣٨ فقد حاول فيهما صياغة موقفه السياسى والفكرى .

واذن ، مع التسليم باتجاهه الليبرالى يمكن تفسير كثير من مواقفه واسهاماته .. فالشخصية المصرية تتوفر ـــ بالمنطوق الجديد ـــ بالمصالح الاقتصادية والأرض والتاريخ والاستقلال وجغرافيا الثقافة وانتفاء عنصرى الدين واللغة ، وهو مايصلح مدخلا لفهم موقفه من (القومية العربية) التى يمكن ان تقام على المستوى (الثقافى) و (الاقتصادى) اما المستوى (السياسى) فقد رفضه تماما .

واذا كان عقد الثلاثينات هو العقد الذى شهد الصراع بين الليبرالية والاسلامية ، فان الأربعينات كان العقد الذى انتهى فيه الصراع بين الفكرتين ـــ الليبرالية والاسلامية ـــ الى التنبه للتبعية الغربية التى كشفت عن نوايا الاستعمار ، ومن ثم ، حاول نقد ليبرالية الغرب ونظمه الحضارية ، واذا كان (مستقبل الثقافة) فى مصر فى نهاية الثلاثينات مثل فكر طه حسين ، فان (المعذبون فى الأرض) فى منتصف الأربعينات مثل فكر طه حسين الذى اصطرع فيه الطموح المصرى بالجموح الغربى ليتولد لديه الأمل فى المشروع الحضارى الليبرالى فى جانبه الاجتماعى .

إن كتابات طه حسين الاسلامية فى الأربعينات تؤكد على هذا التصور القيمى والمنظور الاجتماعى والسياسى ، إن الليبرالية لديه لم تتراجع — أو حتى — تتوقف ، فبعد ان يستطرد طويلا حول الحركة السياسية التى جاء بها الاسلام فى جانب نظام الحكم ، من أن هذه الفترة التى انتهت بقيمها الآلهية التى كان يعرف بها مجموعة من الصحابة ممَّن جبلوا على التقوى والاسراف فى القسوة على النفس يصعب وجودهم فى هذا العصر ، يرى استحالة تكرار هذه التجربة ، اذ ان هذا الضمير الدينى « ليس من الكفول ولا من المحتوم أن يرثه عنهم الأبناء » .

وكما انعكس هذا فى الفكر الأيديولوجى ، كذلك ، انعكس فى الثقافة والفكر السياسى سواء فى نظام الحكم او الشريعة أو القضايا الاقتصادية وما الى ذلك....

الفصل السادس

طه حسين والفكر الاجتماعى

- المؤثرات الاجتماعية الأولى
- ارهاصات التطور الاجتماعى
- من التجديد الى الاصلاح
- المذهب الاجتماعى
- سمة التفكير العملى
- الرمز الاجتماعى
- قضايا اجتماعية :
- قضية العدالة الاجتماعية
  (المرأة
  (رجل الدين
  (العودة للاصول
- نتائج أخيرة

تحددت الفترة التى تبدأ بالأربعنيات ، خاصة ، على أنها الفترة التى شهدت تحول طه حسين من التجديد الفكرى الى الاصلاح الاجتماعى ، وبلوغه حده الأقصى فى البحث عنه فى اسلامياته .

وبعيدا عن مناقشة البواعث التى دفعت بفكرة الاصلاح الاجتماعى الى الظهور ، فان هذه الفكرة لم تكن وليدة ظروف الحرب العالمية الثانية وحدها ،وإنما تعود الى العقدين السابقين ، فنحن ازاء ارهاصات متناثرة تؤكد اهتمامه بتطور المجتمع قبل سفره الى البعثة وبعد عودته منها .

وعلى هذا النحو ، سيكون علينا ان نقف فى هذه الفترة الأولى من حياة طه

حسين ، لنرى فيها أكثر من بعد اساسى : مايتصل بالمؤثرات الاجتماعية الأولى فى حياته ، او مايتصل بارهاصات المشاركة فى الحياة الاجتماعية قبل سفره .. وقد تبلور هذا كله فى نظرية او صيغة تحدد ايمانه بالاتجاه العلمانى بعد سفره اثرت فى كتاباته الاجتماعية التى وصل الى طور كبير من النضج فى الأربعينات خاصة .

لنعد الى الفترة الأولى ..

على الرغم من أن جهد طه حسين الاجتماعى لم يكن على المستوى الفكرى ، فلم يكن له اسهام علمى فى قضية ما باستثناء مسألة «التعليم» ، فان تكوينه المبكر يَنم عن مؤثرات لعبت دورا كبيرا فى الجانب الاجتماعى الذى بدا فى صورة المشاركة فى الحياة السياسية حوله ، أو فى تضاعف مؤلفاته العديدة .. فعامل البيئة فى (الأيام) ينم عن تجربة هامة لحياته فى القرية سواء لملاحظاته عن المناسبات مثل المولد النبوى او شم النسيم او اخلاقيات رجال الدين المسلمين فى كثير من أحوالهم ، وهو مايظهر فى روايته (شجرة البؤس) ، واغلب اعماله الفنية مثل شخصيات (المعذبون فى الأرض) التى تشبه شخصيات الحكايات الشعبية ، بل وتشترك القصة فى المجموعة الأخيرة فى قصة الحكاية الشعبية ونهايتها الى غير ذلك مما ترك آثار هامة فى البيئة . .

كما أن الدراسات الاجتماعية له فى فترة مبكرة تترك ملامح كثيرة تؤكد طبيعة تأثره.. ففى دراستيه الجامعية بين مصر وفرنسا(ذكرى ابى العلاء) عام ١٩١٥ ثم (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) عام ١٩٢٥[1] ، فى هذه الفترة يكون قد عرف بعدد كبير ممن اهتموا بالمجتمع وتطوره فى الشرق أو الغرب .. فالشيخ محمد عبده ، على سبيل المثال ، يكاد يلتقى مع طه حسين فى بعض الملامح والصفات التى تؤكد ان محمد عبده حرص على الاصلاح قبل مواجهة المستعمر ، فى وقت لم يغفل فيه الاهتمام اللغوى والاهتمام بالمعنى وايراده وابرازه فى الفاظ سهلة سلسة يقرها اللسان العربى ، وبهذا يوفر له معنى الاصلاح الذى يمكن أن يرقى بالمجتمع الى درجة تؤهله لحمل السلاح ، اما قاسم امين فوجهة نظره تتلخص فى تأكده من ان اسباب تدهور الأمة الاسلامية ، يعود ليس الى الاسلام ، وإنما الى الجهل العام المتفشى فى الشعوب الاسلامية وتنكرها للعلم الذى هو اساس البشرية ،

(١) الأيام ، ج٣ ص ١١١ ، ١٢٨ ، ايضا : الاب كمال قلته ص ١٣ ، المجمعيون ، فصل خاص بطه حسين ٧٩/٨٣ ، رزق : دكتوراه غير منشوره ص ٢٠٤/٢٠٥ .

ولما كان يرى ان الجهل يبدأ فى العائلة ، فان نقطة البداية فى الاصلاح لديه كانت فى اصلاح العائلة ، فقاسم امين توجه مباشرة الى البيئة الاجتماعية ، واضعا قضية المرأة فى صميم المشكلة الاجتماعية .

هذا فى الشرق ، أما فى الغرب ، فقد عرف من اصحاب الاتجاهات الاجتماعية دور كايم عالم الاجتماع المعروف ، والذى كان قد اشرف على رسالته هناك من الناحية الفلسفية قبل رحيله بفترة وجيزة ، وقد بلغ اعجاب طه حسين به الى درجة « توشك ان تبلغ حد الفتون » ويؤكد الفصل الأخير من الجزء الثالث (الأيام) ، ان طه حسين كان « شديد التأثر بدروس دور كايم فى علم الاجتماع » ، فهذا الفيلسوف صاحب فلسفة تقدر الجماعة ، اذ يبحث مع مدرسته عن حلول للقضايا القديمة المختلفة عن طريق التحليل الاجتماعى والبحث عن سر الحياة الاجتماعية والتأمل فى تطورها باعتبارها مصدر ما فى حياة الفرد من فكر وطموح . ومالبث أن تبدى تأثير تلميذه سلستان بوجليه بعد رحيله فى طه حسين ، اذ اقترح عليه موضوع (علم الاجتماع كما يتصوره اوجست كونت)[٢] ، كما امتد التأثير الاجتماعى الى عدد كبير آخر : فالى جانب دور كايم وبوجليه عرف وتأثر بسان سيمون الذى انفق عاماً كاملاً فى دراسته وان كان لم يتحدث عنه كثيرا ، ثم كل من مونتسكيو وارنست رنان وهيبولت تين وغيرهم . ممن تأثر بهم فى هذه الفترة ، وغلب على فكرهم الاصلاح الاجتماعى المميز .

وعلى أية حال ، فقد ربط طه حسين بين الفرد والبيئة ربطا وثيقا .. ففى(الأيام) نعرف أنه كان مشغولا بكثير من القضايا التى اثارها المعتزلة فى الاسلام كقضية (الجبر والاختيار)[٣] ، وفى كتابة (قادة الفكر) ، نلاحظ ازدياد هذا الربط بين البيئة والفرد ، أما فى كتابه(مع ابى العلاء فى سجنه) ، نلحظ أنه فى الوقت الذى تخفف فيه كثيرا من

(٢) الأيام ج ٣ ص ١٢٨.

(٣) الأيام ج٣ ص ٣٥ (يذكر طه حسين موعده مع سنتلانا استاذه الفرسى الذى دعاه ليحضر معه درسا من دروس الأزهر ، يقول : وقد اقبل الأستاذ الى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسى . وذهب مع الفتى الى درس الشيخ سليم البشرى رحمه الله .. واخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هى قول الله عز وجل : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ماكانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون » .

هذه العلاقة ، فانه لم ينف تماما تلك الصلة بين الانسان ومجتمعه ، وهو ماقاله صراحة فى كتاب آخر كتبه فى وقت متأخر وهو (ماوراء النهر) اذ اكد فيه أن(هناك صلة متينة وثيقة بين اقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التى يعيشون فيها ، ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية)[٤] ، ويذكر جاك برك فى هذا المجال ان طه حسين عمد الى أن يستخدم آيات القرآن الكريم استخداما اجتماعيا اكثر منه عقليا ، فمعظم آيات القرآن الكريم التى ذكرها واستشهد بها لاتتناول بشكل عفوى بأية حال ، وإنما يبرز الآيات التى تتضمن مضمونا اجتماعيا مهملا غيرها من الآيات التى تتضمن مضمونا آلهيا او غيبيا[٥] ، وهو مايفسر لنا اتجاهه المباشر فى الثلاثينات والأبعينات فى الخط الاجتماعى .

واذن ، يمكن تحديد المؤثرات الاجتماعية الأولى التى عرفها طه حسين فى الفكرة (الراديكالية) ، التى ذهبت فى الاتجاه الاجتماعى الى ضرورة الدعوة الى اصلاح مباشر وحاد « يمس جذور المشاكل التى تواجهها الدولة »[٦] ، دون الالتزام بالمادية التاريخية او الخطوط الرأسمالية .. وبهذا المفهوم الذى يلتزم به فكر كتاب وفلاسفة القرن التاسع عشر مضيفا اليه فى حدود المجتمع الشرقى بعض الاجتهادات النابعة من البيئة ، يمكن رؤية

وفسر الشيخ .. وخاض فى حديث الجبر والاختيار .. وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم ، ويأخذ الفتى فى حوار الشيخ على عادة الأزهريين ، فيسمع شيخ له ويرد عليه ردا لايقنعه ، ويأبى الفتى الا اللجاج ، فينهره الشيخ : ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن الله اكبر على العلم والايمان . حضرتك مسلم ؟) .

(٤) ماوراء النهر ص ٢٠

(٥) ويضيف جاك برك : ان سورة (يس) لاتظهر ولا تكاد تظهر عنده ، كما ان سورة (الشعراء) التى كان من المتوقع ان تظهر عند مفكر مثل طه حسين ، يندر ان تظهر ايضا ، بل وتختفى سورة (النمل) وسورة (الرحمن) ، وهذه السورة الأخيرة تحتفظ بايقاع مميز يؤثره طه حسين ويحرص عليه بجرسه الموسيقى المميز .

اما السور التى تظهر عند طه حسين ــ يضيف جاك برك ــ ويستشهد بها بشكل متتابع ودائم فهى السور الأولى (الطويلة) ، تلك التى تتضمن خاصة الأخلاق والتنظيم الاجتماعى ، فطه حسين ، إذن ، استخدم القرآن استخداما اجتماعيا ، وهو مايفسر اهماله للسور التى تهتم بالقيامة والأساطير والقصص .. الخ .

(٦) القاموس السياسى ، ص ٥٥٦ ، ايضا يمكن العود الى :

Larrousse, P 990/99 Jaque berque, Cultures, Ibid

خطوط تطور المجتمع فى كتاباته سواء منذ الارهاصات الأولى او الدعوة الى العدالة الاجتماعية والبحث عن رموز العدالة فى التاريخ الاسلامى بعد ذلك ، وتطبيقات هذا كله فى عديد من القضايا التى سنفصل بعضها فى مكانها من هذا الفصل .

* * *

ولنخرج من السَّرد النظرى الى آفاق التجربة الاجتماعية ..

ان الفترة التى سبقت بعثته الى أوروبا عام ١٩١٤ ، والتى اعقبتها ، تصور لنا موقفه من بعض القضايا والرذائل الاجتماعية التى تمثل الارهاصات الأولى فى هذا الاتجاه ، ففى الفترة الأولى مال الى نقد المجتمع بعنف ، فراح يدعو مرة الى ضرورة الاحتفاظ بالزّى الشرقى الذى يمثل كيان الشرق وكرامته ، يقول «مخطىء كل الخطأ صاحب الزّى الشرقى الجميل يستبدله بالزى الغربى مرضاة لهوى كاذب ، وشهوة خادعة ، مخطىء لأنه ينزل عن كرامة الأمة فى عاداتها وآدابها ليندمج فى أمة أخرى من غير حق ولا داعية » ، وهو لايتحدث فى هذا عّمن يتخلى عن زيه فى الداخل وإنما يضيف من يرتكب هذا فى الخارج « يقطع مابينه وبين مصر ، ويصل مابينه وبين أوروبا ، فيترك لنا ازياءنا ولغتنا وآدابنا ، وينتحل مثلها من أزياء اوروبا ولغاتها وآدابها . وربما عمد الى لحيته فاتخذ منها شكلا فرنساويا ، أو أتى عليها وعلى شاربه تقليدا للانجليز ، كأن لم يكن له بنا عهد طريف »(٧)

وراح فى مرة أخرى ينتقد هذه المظاهر الاجتماعية السيئة فى الموالد مثل مولد الحسين مما يخلو من عاطفة دينية صحيحة ، فكل المظاهر التى يراها هى (وثنية صرفة) أو مظاهر لهو ومجون كما هو الحق الذى لاشك فيه . « والا فان حلقات الذكر التى قامت ليلة الأمس على نقر الدف وصوت المزمار .. لم تكن اسلامية ، لاسيما اذا كان الغناء الذى يرقص عليه من أغانى النساء فى الحانات والمراقص»(٨) .

(٧) الجريدة ١٩١٠/١٠/٣٠

(٨) الجريدة ١٩١٠/١١/٣

وهو لايفوته فى هذا كله ان يحاول تبرير هذه التصرفات ، فهو دائم الربط بين الذوق المتدنى وجمهور العامة ، ممن يترددون على أماكن اللهو خاصة ، فهذه هى الفترة التى راح يلوم فيها المصريين لحالهم الذى وصفه بأنه يكثر فيه الخمول ويشيع الكسل ، وهو مانلمح معه دعوة الى التغيير فى كل مايكتب(٩) .

والطريف ان طه حسين بعد أن رحل الى فرنسا ثم عاد الى مصر بعد البعثة تحول الى بعض العادات التى دعا الى الاقلاع عنها ، فارتدى الملابس الأوروبية ، وتزوج من أجنبية رغم أنه رفض هذه العادة الذميمة كما سنرى ، غير أن تحوله الى القضايا الاجتماعية كان قد نضج وتطور فراح يشير الى الجريمة ، مبغضا لها ، غير متعاطف مع فاعلها ، كما استنكر لدور العرافين الذى بلغ من السخرية منهم والتنديد بكل مايزعمون به معرفتهم وتأثيرهم فى الآخرين(١٠) ، كما راح يصور صورة بشعة للخيانة الزوجية بقصد تجسيدها ،

(٩) مصر الفتاة ١٩٠٩/٢/٢٨ ، ويقول :

كاتب نائم وذو الشعــــر لاه ... واديب سبتـــه كأس الشمـــول
شاعر النيـل لاعـدتك العـوادى ... هل لهذا السكوت من تأويـل ؟
اسلمـوا دهرهـم وعقــوك يانيــل ... فمـــا ان لهم سوى التنكيـــل
فض فاغرقهمــــو فانت حليم ... غض فأهلكهمــــو غير بخيـــل
وايك ارشدهمو فلا من سميـــع ... وايك وانصحهمو ولا من قبـول
مايفيـــد الأرشاد قومــا نيامــــا ... اصبحوا عن حقوقهم فى قفـول

وجاء فى موضع آخر مصر الفتاة ١٩٠٩/٨/٢٦) :

حسبكـم يابنـى الكنانـه عجبـــا ... كسل مخجـــل وفخــــر كثير
ليكن قولكـم اقـل من الفعـل ... فلــن يبلـــغ الغـــلاء فخـــور
يابنـى إسمعوا النصيحـة منـــى ... فهـــــى الاتنفعكمـــــو لاتضير
اخـلصوا تصدق الأمـانى وتنجـح ... ان مصر بالمخلصين نزور
اجمعوا ان اردتم السير للسؤدد ... والمجد امـــــــركم ثم سيروا
كنت ارجو لكم من المجد والسؤدد ... لو أن عزمكـــــــــــم لايغور

والجدير بالذكر ان هذه النبرة ترددت فيما بعد فى صحيفة (السفور) عام ١٩١٥ حين كتب بعنوان (بعد الأوبة) فى الفترة التى كانت الجامعة المصرية تمر بظروف مالية اضطرته للعودة ، ومن ثم حاول ، فيما يبدو ، اسقاط ازمته على الناس فى مصر ، أولئك الذين لايعرفون (من اللذات الا مايتملك مشاعرهم الظاهرة) وهو لم يقلع عن هذا فيما بعد .

(١٠) دعاء الكروان

ومن ثم ، التنفير منها[11] ، كما لم يتوقف عن تقديم صورة سيئة للرشوة كإحدى الرذائل الاجتماعية واصفا اياها من خلال الشخصيات الاجتماعية المطحونة ، والتى تعانى كثيرا من ربقة الحاجة ممثلين فى طبقة الموظفين ، مفصلا فى هذا الدوافع الحقيقية التى تدفع الأغنياء ، على ثرائهم ، الى اهتبال الفرصة لاقتراف هذه الجريمة[12] .

* * *

شغل طه حسين فى فترة العشرينات بالتجربة الليبرالية التى بلغت أوجها فى النصف الثانى منه ، فاذا بنا أمام حلم الديموقراطية (نظام الاثينيين) و(قادة الفكر) ، وارتفع صوت العقل والجبر التاريخى فى كتابيه (فى الشعر الجاهلى) و(رسالة ابن خلدون) ، كما اثيرت المعارك بين القديم والجديد على صحيفة «السياسة» فعرفت فيما بعد خلال كتاب (حديث الأربعاء) ..

وعلى الرغم من أننا لانعدم خطوطا بيانية صاعدة حينئذ ، فان مشاركته الاجتماعية لم تجاوز اثر الضغط السياسى حوله ، كان يضيق بسياسة صدقى الداخلية ، فيرثى الى حال الشباب فى (النوادى الليلية)[13] بشكل عابر ، وقد استمرت هذه المباشرة الفكرية تؤثر فى عقل طه حسين مادام يعرف حزب الصفوة ويتعامل معهم ، حتى اذا مامضى العقد الثانى ورحل فيه عدد كبير من نظرائه وأساتذته فى هذا الحزب حتى لم يتبق الا محمد حسين هيكل على وجه التقريب ، فى وقت انصرم معه مضمون الحزب بأحلامه الديموقراطية ، وآلت زعامة الحزب الى محمد محمود ، ومن ثم ، لم يبق من حكم الصفوة الممتازة بالعقل والثقافة وبالحسب والمال إلا حكم الغطرسة الممتازة بالحسب والمال من دون العقل والثقافة[14] .

وعلى هذا النحو ، لم يكن هناك مناص من مواجهة الواقع الجديد ، فقد كان تحت هيمنة صدقى وغلوائه التى اطاحت بكل أحلام الديموقراطية ، وهنا كان على طه حسين ان يعمل للتحول من عصر الى عصر ، وقد تمثل هذا التحول فى مدارين :

(١١) الحب الضائع
(١٢) شجرة البؤس
(١٣) سوزان ، ص ٤٦
(١٤) لويس عوض ، اهرام ١٢/٦٨

ـــ التحول من التجديد الفكرى الى الاصلاح الاجتماعى

ـــ التحول من حزب الأحرار الى حزب الوفد .

ومما سبق ، فقد تميز التحول من الفكرة الى العمل الاجتماعى ، ومن الكادر المثالى الى الجماهير العريضة .

ومن نافلة القولة أن نذكر أن مشاركة طه حسين فى جانب تطور المجتمع ظل متسما دائما بالفكرة الليبرالية كما أسلفنا ، اذ لم تكن الفكرة الاسلامية ـــ فترة كتابة الاسلاميات ـــ الا كوسيلة أراد بها صاحبها تأكد فكره الغربى ، وليس استبدال بالفكرة المعاصرة فكرة اصولية ، اذ لم يخطر بذهنه هذا .

وقد تحددت القضية الاجتماعية عند طه حسين فى بداية الثلاثينات ، فتبلورت فى عصر صدقى ، ومالبثت أن سرت فى خطوط تمثلت فى النظرة الواعية فى الأربعينات .

ويمكن القول هنا ، إن اهتمام طه حسين بالقضايا الاجتماعية لم يكن اهتماما تفصيليا واعيا بجزئياتها بالقدر الكافى ، وانما تحددت مشاركته فى القضايا الاجتماعية فى الثلاثينات حين مثلت موقفه من عملية تطوير المجتمع وفى وقت كانت البلاد تمر بأزمات خلقتها ممارسات صدقى بعد توليه الحكم مباشرة فى يونيو ١٩٣٠ .

وسوف نرى مشاهد من اهتمام طه حسين بالأزمات الاقتصادية والاجتماعية قبل أن ينصرف فى منتصف العقد على وجه التقريب من السياسة الى الجامعة ، ومن ثم ، يقل اهتمامه بالقضية الاجتماعية ، بالقدر الذى يزيد به ثانية فى الأربعينات ، فاهتمامه فى بداية الثلاثينات والأربعينات مرجعه الى تصاعد الضغط الاجتماعى والسياسى فى كل من الفترتين .

والملاحظ أنه كلما زاد الضغط حوله زادت استجابته للمشاركة وابداء الرأى .. فحين يسيطر مرض التيفوس على الفقراء المعذبين والأطباء المصابين سواء بسواء يجد نفسه مدفوعا دفعا إلى رسم صورة صادقة له ، يقول «الشر أقوى من الأطباء ، واذا الأطباء انفسهم يسقطون فى شباك هذه الحمى .. ولا يستطيع المستشفى أن يفعل شيئا .. والذين اليهم حماية صحة الشعب لايفكرون فى الشعب ؟ كيف السبيل الى ذلك والمصرى قد تعود أن يجوع فيحتمل الجوع ، وأن يظمأ فيحتمل الظمأ ، وأن يعدم

فيألف الاعدام . تقصير من أولى الأمر فى ذات الشعب ، وتقصير من الشعب فى ذات نفسه . والحمى تستفيد من تقصير أولى الأمر ، ومن تقصير الشعب ، فتفتك بالفقراء وفقر الأطباء »(١٥)

ويتلفت طه حسين حوله فيجد أن الفاقة تصل اقصاها ، الى درجة أن يبيع أحد الفقراء ابنته بالاتفاق مع أمها من أجل الحاجة ، فيروعه الثمن ، فالبيع يتم «بثمن بخس دراهم معدودة .. ولكنه يحس على كل حال اذا قدرت فيه هذا الثمن مهما يكن بالقياس الى عواطف الأمومة التى لم تمنع أما من ان تبيع ابنتها بالمال »(١٦) ، مشيرا الى هذا المناخ الذى انتهت اليه البلاد ، راسما مشهداً حقيقيا للطبقة المعدمة والحالة المتردية التى وصلت اليها حينئذ .

ولم تقتصر المشاهد على مايجرى فى العاصمة ، وإنما جاوزتها الى تلك المصادمات التى تتم بين الحكومة طورا ، والعمال طوراً آخر لضيق ذات اليد ، وتضييق الحكومة بالتحالف مع الأزمات الحادة حينئذ .. إن طه حسين يتأمل المشهد الذى اعتدت فيه الشرطة على الآلاف ، مناجيا جموع الشعب الفقير بقولة « إيه أيتها الألوف المؤلفة من العمال واشباه العمال ، من الفقراء والبائسين من المعدمين والمحرومين .. ما أجدر الناس لو فكروا ان يجتهدوا فى ان يهبط الانصاف من الممتازين على غير الممتازين ، كما تهبط الرحمة من السماء على الناس . ولكن الناس لايفكرون ، ولا يعتبرون ، ولكن الممتازين لايعطفون ولا ينفقون ،واذا الانصاف يصعد من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا فيرد الطبقات العليا فيرد المسرف عن أسرافه ويعيد الجائر عن جوره »(١٧) .

وهو يتناول فى مشهد آخر قضية المساواة التى تتمثل فى فرض الضرائب على طبقة دون طبقة ، ومن ثم تنتفى المساواة أمام القانون ، غير أن الفلاحين ـــ وهى الطبقة التى تحدث عنها بعد طبقة العمال ـــ لاينالون هذه المساواة ولا يعرفونها ، فهم كما يراهم «ليسوا سواء فى الحقيقة الواقعة وانما يتمايزون فيما بينهم تمايزاً ، اقل مايوصف به أنه إثم ينكره القانون ، وخزى يوصم به البلد الذى يقع فيه هذا الفقير الذى لايملك من الأرض

(١٥) كوكب الشرق ٣٣/٤/٢٣
(١٦) كوكب الشرق ٣٣/٨/٢٢
(١٧) السابق ٣٣/١٠/٢٤

الاقيراطين ، والذى يفرض عليه القانون ضريبة عقارية ، تظلمه الحكومة ظلما فاحشا حين تكلفه ان يدفع ضريبة للخفر .. قل ان الدولة تظلم ظلما قبيحا منكرا بالقياس الى الوزير الذى يمسه بهذا الظلم ، ويخضعه لهذا الجور ، ويضطره ان يأتى مايستطيع ومالايستطيع ، ويعرضه لاقترافه الإثم والتورط فى المحظور واكراه اهله على الجوع والحرمان ليؤدى الى الدولة هذا المقدار الذى لايجب عليه ان يؤديه ، ولا أن يؤدى نصفه ، ولاثلثه لو أن المساواة تراعى »[١٨] .

وتصل الحاسة النقدية الى درجة بعيدة ، ففى حديثه عن المساواة يقارن دائما بين هذا الفلاح الفقير وبين (وزير الداخلية) الذى لايؤدى (ضريبة الخفر) بما يتبع هذا فى جانب من اليسر والرخاء وفى جانب البؤس والحرمان ، ويبرع فى رسم هذه الصورة بين الموسرين والمعسرين بقصد ابراز الحالة التى انتهى اليها الشعب فى هذه الفترة الصعبة ، إنه يردد هذه النغمة كثيرا فى هذه الفترة ، انه يشير الى الحكومة التى يضعها فى كف أمام الفقير ، يقول «رأت الحكومة فقيرا فأبت الا أن تكون غنية ، ورأته معسرا فأبت إلا أن تكون موسرة ، ورأته مضطرا الى الجوع والحرمان ، فأبت أن يغيب من الشرف مايباح ومالايباح »[١٩]

وقد تركزت كتاباته فى هذه الفترة فى هذا التناقض بين الطبقتين ، إنه فى مشهد اخر يرسم هذا الغلو فى التفرقة بين الطبقتين ، الموسرة والمعسرة ، وهو يرسم المشهد ويتركه بعد ذلك ليدل على مافيه من ظلم واسراف شديدين ، يقول :

(وأخذهم مالذ وطاب وانتظارهم كؤوس القهوة ، لترشيح الرئيس لمجلس النواب .

....

(فى أثناء هذا كله كان أهل القرية البائسة محزونين مكلومين وذهبت عنهم عقولهم .. وهذه الحجوز التى بلغت اربعمائه وهذه القضايا التى بلغت ثلاثين ومائة وهؤلاء الأطفال والنساء الذين يملكهم الجوع)

ويجاوز الظلم الاجتماعى الى لون آخر من الرذائل الاجتماعية متمثلا فى المحسوبية

(١٨)السابق ١٦/١٠/٣٣
(١٩)السابق ٢٣/٤/٣٣

والفساد والمحاباة ، فالموظفون وقد كانوا حينئذ طبقة معدمة « يعيث بنفوس بعضهم التأسى والحزن والبؤس[٢٠] ، كما أن المعلمين العاملين بالدولة يضيقون بهذه المحاباة » فى تطبيق القوانين من الناحية الادارية على افراد الشعب »[٢١] ، وهو فى هذا كله يحمل حملة عنيفة على فساد الادارة والاستبداد بحقوق الشعب[٢٢] ، ولايتردد عن فضح كل أساليب الرشوة التى راجت فى هذا الوقت حتى أصبح شراء الضمائر سهلا[٢٣] .

وعلى هذا النحو ، فان دعوة الاصلاح الاجتماعى لم يكن لها صدى بين المسئولين ، وهو مادفع به فى نهاية الثلاثينات الى السخرية من جهد المسئولين المزعوم فى هذا المضمار ، فهو لايقوم الا على (المواويل) والأغانى المبتذلة والزكاة الذى يدعو اليه بتراخى شديد ، يقول « يجب أن تأخذ الدولة امرها بجد ، فانا لانبلغ بعد أن نفكر ولا أن نقدر على هذا النحو ، وإنمانحن نفكر ونقدر على قد حالنا المتواضعة لا على قد وطننا العظيم »[٢٤] .

وعدا الفترة التى عمل فيها بالجامعة وابتعد عن السياسة بين (١٢/٣٤ — ٣٩/٥) ، فان طه حسين يظل يدعو الى دعوته الى الاصلاح الاجتماعى مهاجما العديد من الرذائل الاجتماعية ، ويظل يمضى على هذا المنوال حتى بعد سقوط وزارة صدقى فيرسل بالرسائل المفتوحة الى الوزارة الجديدة مؤكدا على أن الناس لايزالون يحسون بالألم والظلم » . وعناوين مقالاته فى هذا المضمار يمكن أن تدلنا على صدق هذا الاتجاه وطبيعته :

— أزمة
— تنبيه
— مساواة
— ظلم
— تضحية

(٢٠) كوكب الشرق ١٦/٥/٣٣
(٢١) الثقافة ٧/١٠/٣٩
(٢٢) كوكب الشرق ٢٥/١٠/٣
(٢٣) السابق ٢١/٥/٣٣
(٢٤) الثقافة ٣١/٣/٣٩ ، ايضا : بين بين ص ٩٨

ـــ قلق

ـــ المصرى الغريب فى مصر .

ـــ يأس

ـــ مظلوم

ـــ دعاة الفساد

ـــ العدل

وماكادت تبدأ الحرب العالمية الثانية حتى كانت قناعات طه حسين قد تبلورت على لهيب الحرب ودويها ، وتميز فكره الأساسى رويدا رويدا فى قضيتين اساسيتين هما :

أولا : نضج الدعوة الى العدل الاجتماعى

ثانيا : سمة التوجة الى التراث الاسلامى للبحث عن المطلب الاجتماعى .

وسوف نرجىء قضية (العدالة الاجتماعية) لموضعها فى الفصل لفترة تبلورها ونضجها ، ونتوقف عند القضية الأخرى .

* * *

تنتهى الثلاثيات بمشاهداتها المتوالية وكتاباتها التى جاءت كرد فعل غاضب لما حاق بالفئات الشعبية الى درجة التفريط فى الأولاد .. فاذا كانت بداية الأربعينات قد تميزت بأن دخل طه حسين الى مرحلة جديدة كانت مصر تمور فيها ،تميزت ايضا ، فى تحول جديد نتيجة للحرب وما أعقبها من تطورات داخلية عنيفة دفعت بطه حسين الى بلورة فكره فى الاصلاح الاجتماعى بشكل أكثر وضوحا وجلاء .

غير أنه لابد من المامة خاطفة عن المناخ الذى حاول فيه طه حسين ممارسة دوره الاجتماعى .. اذ مرت البلاد فى سنوات الحرب العالمية الثانية بتطورات متتابعة ، فالى جانب سلبيات الحرب من اختلاط عدد كبير من الجنود الأجانب بالسكان واهتزاز القيم استفحل الغلاء وقلت الأقوات وزادت الحرب من ضراوتها فأعلنت الأحكام العرفية ، وعاشت البلاد فترة اهتزاز اجتماعى حاد ، وظهر وباء الملاريا بين عامى ٤٢/٤٤ فارتفعت الوفيات وزادت حالات سوء التغذية وتعرض المصابون لرداءة الجو بسبب سوء الكساد ... وزادت شراهة الوباء الى درجة أن انمحت قرى كاملة فى الوجه القبلى ، كما

ظهرت سلسلة طويلة من الفساد نتيجة لرداءة الأحكام العرفية والمحسوبيات والاستثناءات وفصل الموظفين وما الى ذلك من العوامل التى دفعت الى زيادة الضغط الاجتماعى والاقتصادى ، ومن هنا تعمقت ظاهرة هامة فى هذا الوقت تمثلت فى محورين يمكن تلخيصهما كما يلى :

(١) زيادة مخاوف الطبقة التى أثرت ثراء فاحشا .

(٢) زيادة ضيق الطبقات التى عانت من الفقر المدقع .

وقد زاد من هذا كله ، حقيقة ، انه مقابل ذلك (الضمور الاقتصادى) ، كان عامل نقيض اخر ينمو ويزدهر ، وهو عامل (الوعى) الثقافى العام .. ومن خلال المقارنة بين الضمور المعيشى الاقتصادى ، والنمو الثقافى الشعبى ، يمكننا تلمس سبب من أسباب التحلل الاجتماعى ، بل الصراع الطبقى الذى شهدته مصر فى الأربعينات والخمسينات ، وعلى الأقل فى السنوات القليلة العنيفة بعد الحرب وقبل الثورة ٥٢/٤٦[٢٥]

وعلى هذا النحو ، ففى الوقت الذى تدهورت فيه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ارتفع الوعى فى اتجاه صاعد .

فما هو موقف طه حسين من هذا كله ؟

لاتكفى كتابات طه حسين فى هذه الفترة لنجد فيها أصداء لهذا الواقع ، وانما لنجد فيها وصفا يدفع بنا دفعا الى الاحتجاج والغضب ، كما يدفع بنا الى البحث عن مخرج لهذه الكارثة التى عاشت فيها البلاد .

ان كل مايكتبه هذا الوقت ، حتى ولو كان أدبا خالصاً ، انما يعبر فى المقام الأول عن شعوره الاصلاحى فى فترة من اكثر فترات مصر اضطرابا ، وحيث وجد طبقتين ، حيث بدا إنتفاء العدالة الاجتماعية أمراً واقعاً ، وحيث مصر تمور بالظلم والوباء ، وحيث مشكلة الفقر بأقصى درجاتها — الجوع — كانت تفرض نفسها فرضا مريعا ، وقد راح فى بداية هذه الفترة يضرب على وتر العدالة الاجتماعية المفقودة بين طبقتين ، فمن

(٢٥) يوجد تحليل جيد للفترة عند د. الأنصارى (تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى) ، ص ١٥٧

الاجرام ، كما يرى ، ان «يشبع قوم من أهل الوطن حين يجوع آخرون ، وحين ينعم قوم من أهل الوطن حين يبتئس آخرون ، وبأن من الحق عليهم جميعا ان يبتغوا الوسيلة التى تمكن مصر من أن تطمئن الى أن أبنائها يشبعون جميعا اذا لم يكن بد من أن يكون بين ابنائها هذا التفاوت فى الحظ من الغنى والفقر ومن البؤس والنعيم »[٢٦] .

وطه حسين فى هذه الفترة يقرأ مايأتيه من خطابات ثم يكتب مايعيشه كاتبه أمامه من الحاجة والعوز والجوع ، وبعد ان يشير الى مظاهر هذا الظلم الاجتماعى يطلب من الحكومة والبرلمان العناية بهذا العدد الكبير الذى يجد نفسه مضطرا الى أن يصبح «بحكم الجوع والبؤس على ان يصبح عدوا للنظام »[٢٧] ، ولا تلبث ان تعود الحاسة النقدية أكثر حدة فى الاتجاه النقدى ، فيعود الى تصوير الهوة الشاسعة بين الغنى والفقر ، ففى مقالة بعنوان (حول الموائد) يعدد مظاهر الثراء الفادح ، ثم يعدد مظاهر البؤس المدقع ، يقول « .. كل ذلك والفقراء يتضورون جوعا وهؤلاء الأغنياء الآكلون الشاربون يتوجعون للفقراء ويتصعبون من شقاء الفقراء ، ويعطفون على الفقراء ، ويتحدثون عن الانسانية التى تأمر بالاحسان بالفقراء والمقراء والنقراء ، ولكن عطف بالكلام الطائر فى الهواء ، وكل مايريده هؤلاء أن تكتب الصحف وان تنشر الصحف وان تذيع الصحف .. (و) .. إنهم يأكلون ويشربون وينامون ويشخرون فهل هذا هو العطف على الفقراء أيها الأغنياء وهل ادعاؤكم انكم متألمون من حالة الفقراء وأنتم لاتشعرون بحالة الفقراء مما يخفف ويل الفقراء »[٢٨] .

وتتعدد مشاهد الدعوة الى العدالة الاجتماعية فى أعماله الفنية ايضا وفى دلالالتها .. ففى كتابيه عن (ابى العلاء المعرى) الذى كتبهما بين عامى ٤٤/٣٩ يركز على افتقاد الوعى لدى ابى العلاء مما انتهت به فلسفته الى التشاؤم والعزوف عن الحياة الى القصور ، فى رؤية الجانب الاجتماعى كما ينبغى[٢٩] .. أما فى (احلام شهر زاد) رغم أن

(٢٦)الثقافة ١/١٠/٤٠

(٢٧)السابق

(٢٨)الأيام ١١ ، ١٢/١٠/٤١

(٢٩)مع ابى العلاء ، ص ١٣ يقول (كنت أحدث أبا العلاء بأن تشاؤمه لامصدر له فى حقيقة الأمر الا العجز عن ذوق الحياة ، والقصور عن الشعور بما يمكن ان يكون فيها من جمال وبهجة) ، ويقول فى موضع آخر ص ١٨٦ بان اشتراكية ابى العلاء استمدها من الثورات ولكن (يحكم فيها عقله فينتهى

هدفه الأول فيها كشف كراهية الملوك وطغيانهم وأنانيتهم ، فان أصداء عديدة فى هذا العمل تشير الى افتقاد العدالة الاجتماعية ، فهذا الشعب لايملك من أمر نفسه شيئا فى التغيير ، وقد ترك شيئا من هذا فى روايته التى كتبها فى هذه الفترة (دعاء الكروان) فراح يصور فيها حال الانسان البائس فى رؤية تقترب من (الواقعية) التى عرف بها الاتجاه الاشتراكى السائد حينئذ رغم ، ماتحتويه ، من رؤية رومانسية لاتخدعنا عن فحواها الاجتماعى ، بالخط الاجتماعى وتكون هذه الفترة أيضا التى يكتب فيها (شجرة البؤس) ، متفردا فيها ، كسابقتها ، بالخط الاجتماعى خاصة فى اقليم من اقاليم مصر فى القرن الماضى محاولا أن يدين كثيرا من الرذائل الاجتماعية فى عصره كإستنكار دور العرافات المخادعات ، ويصور حالة المرأة المقهورة المغلوبة على أمرها ، وهو فى كل هذا لايغفل رجل الدين السلبى الذى يتدخل أكثر من مرة فى هذه الرواية فى تحديد مصير هذه العائلة التعسة ، وهو فى كل هذا لم يغفل قضيته الأثيره ، الطبقية ، ورسم التناقض بين الطبقات ، على لسان إحدى الشخصيات فيها ، يقول :

« أما أنا وامثالى فنرتشى لنعيش ، هذه رشوتى قد اتاحت لى ان اقرضك ماتعين به اباك ، وان اعينه من غد . فاما غيرنا .. ثم سكت قليلا ، ثم قال : فاما رؤساؤنا وسادتنا فان الحكومة تبسط لهم فى الأجر ، وتوسع عليهم فى الرزق .. وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشى »(٣٠)

ويكتب (جنة الشوك) فيتلمس الرمز يبطنه بما يريده من اصلاح .. وان كان الانصاف يقتضينا ذكر أنه بينما يركز على عديد من القضايا(٣١) ، فان الطبقية فيه تستحوذ على مساحات شاسعة فى الكتاب ضئيل الحجم ، يقول فيها على سبيل المثال، حين يدور الحوار بين الطالب ــ الفتى ــ واستاذه ــ الشيخ ــ مايريده بالأسلوب الذى اختاره : فما يكاد الطالب يسأل فى شىء من الانكار بانه لايوجد ادق فى تصوير البائسين وثراء المثرين والتفاوت المخزى بين الطبقات من هجاء (جوفينال) ، فان الشيخ

به العقل الى هذا اليأس المريع المؤلم الذى يكون للفلاسفة والشعراء ، ينتهى به العقل الى أن الجور واقع لاشك فيه ، وان العدل امل لاسبيل اليه ، والى أن اليأس المريع على ما يثير من الآلام الممضة خير من الجهاد الذى لايغنى)

(٣٠) شجرة البؤس ص ١١٦

(٣١) جنة الشوك ، الصفحات ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦

يرد قائلا « ألا أدلك على شيء هو أبرع ، وأبلغ وأدق تصويرا لذلك من هجاء (جوفينال) ؟! انظر الى حياة المصريين »[٣٢] .

ويصل جهد طه حسين الاصلاحى أقصاه فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية إما جهرا وإما رمزا ، ففى منتصف الأربعينات يواصل دعوته الى المساواة ورفع الظلم عن الطبقات الفقيرة بصراحة ووضوح ، وهو فى نفس الوقت يجاوز الجهر الى الغموض ، فروايته التى لم تكتمل ، ماوراء النهر ، تكشف رغم قدر الابهام الكبير فيها عن نقد عنيف للنظام الاجتماعى القائم ، وهو حين يحدثنا عن المكان الذى تدور فيه الأحداث والشخصيات التى تتواجد يكشف عن الهدف الاصلاحى الذى قصده ، فالزمن الذى كتبت فيه القصة هو زمن نشرها بالفعل ، وهو يصرح بهذا حين يقول « قصتنا تحدث فى العصر القديم وانما نزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه »[٣٣] ، والمكان الذى كتبت فيه ايضا هو مصر رغم مايشوب حديثه من سخرية شديدة حين يقول «ليست هذه القصة مصرية . لأن مكانها لايوجد فى أرض مصر »[٣٤] ، أما الشخصيات فهى تلك الشخصيات المصرية دون شك ، انظر اليه وهو يمعن فى السخرية فيمعن فى كشف اللغز الذى قصد أن يكون مباشرا يقول فى موضع آخر «أهل مصر كلهم أخيار أبرار لايحبون شيئا كما يحبون العدل ، ولايبغضون شيئا كما يبغضون الجور ، ولايؤثرون شيئا كما يؤثرون زكاء القلب وصفاء النفس .. ولايرفعون أنفسهم عن شيء كما يرفعونها عن مفارقة الاثم أو مصاحبة الفساد .. ينأون عن السيئات اشد مايكون النأى ، ويتجافون عن الموبقات أشد مايكون التجافى وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه ، فلست ترى بينهم قوياً يستغل ضعيفاً ولا غنيا يستذل فقيراً ولا ناعماً يستطيل على بائس ، ولا سعيداً يستخفف بشقى[٣٥] ، الى غير ذلك من الصفات التى تؤكد حال المصريين القلقة فى هذه الفترة

أنظر اليه فى موضع آخر حين يتحدث عن الفلاحين فيقول «الفلاحون الذين يزرعون الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم . يقدمون إليهم كل هذه الخيرات

(٣٢) السابق ص ٢٣ ، ٧١ ، ١٦

(٣٣) ماوراء النهر ص ٢٢

(٣٤) السابق ص ٢٣

(٣٥) ماوراء النهر ص ٢٣

ويعيشون على مايُساقط منها هنا وهناك على مايتفضل به عليهم سادتهم من الفتات . لايملكون شيئا وليس لهم أمل فى أن يملكوا شيئا ، لايكادون يملكون أنفسهم وليس لهم أمل فى يستقلوا بملك انفسهم . هم أحرار فى ظاهر الأمر يذهبون ويجيئون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق فى حقيقة الأمر »[٣٦] .

على أنه يلاحظ هنا أن الدعوة إلى التغيير كانت اكثر تأكيداً من سابقتها ، فقد كان محصلة إهتمامه بالمعدمين رابطاً بينهم من ناحية وبين الموسرين ، وبينهم وبين البيئة من ناحية أخرى إذ دعا وتنبأ فى وقت واحد أنه لابد أن تهب رياح التمرد والثورة ، فقد كان مؤمنا أنه لابد أن تتغير الدنيا ويهب على «هؤلاء البائسين .. ريح علمتهم ان لهم شرفا تراق فى سبيله الدماء ، ويحتمل فى سبيله العقاب والعذاب ، لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس ، .. (و) .. ولن أدهش اذا أنبئت غدا ، أو بعد غد بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، ويرون أن لهم فى أنفسهم حقوقا يدافعون عنها ، ويتكلفون فى الدفاع عنها مالم يتعودوا أن يتكلفوا .. »[٣٧] .

وفى العام الذى كتب روايته الناقصة (ماوراء النهر) عام ٤٩ أتم الجزء الأول من كتابه (الفتنة الكبرى) ، فراح يرسم فيه نموذجاً لنظام الحكم ، وصورا للعوامل الاجتماعية مُبَّينا أثرها فى حركة الأحداث التاريخية وتكوينها ، كما راح يؤكد فى هذا السياق أن عمر رغم كونه ليس صاحب اشتراكية او شيوعية بالمعانى المعاصرة ، فانه كان ينتمى الى هذه الأفكار لأنه حاول أن يحقق العدل الاجتماعى «الذى تحاول بعض الديموقراطيات الحديثة ان تحققه محتفظة للمالكين بما يملكون وللأغنياء بكثير مما يجمعون »[٣٨] ، وهو مايُفسر إهتمامه الكبير بالبيئة الاجتماعية فى التفسير التاريخى للكشف عن اثر البيئة فى تكوين الأحداث رابطا بينها وبين الدين من حيث أن الدين يمكن أن يمثل ثورة ضد الظلم الاجتماعى .

وتتتالى صور المساواة وانتفاؤها فى أعماله الفنية .. فلابد أن يكون الناس « سواء امام القانون لايمتاز منهم فرد عن فرد ولاتتفوق طبقة على طبقة ، ولايتفاوتون فيما بينهم الا

(٣٦) السابق ص ٣٢/٣٣

(٣٧) السابق ص ١٠٠

(٣٨) الفتنة الكبرى جـ١ ص ١٥/ ٢٠

بالعمل الصالح والبلاء الحسن »[٣٩] ، كما كان دائم التأكيد على حقيقة انسانية تلخص فى أن «حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التغيير هى التى تجعل الانسان انسانا »[٤٠] ، وهو فى كل هذا لايغفل عن المقارنة بين محظور الاختيار ، الحرية أم المساواة ، متمنيا ، أن تمنح الديموقراطية لحيرة هذا العصر الحرية والمساواة معاً وليس أحدهما على حساب الآخر[٤١] .

ولما كان هذا العام هو عام الوباء ، فقد أضاف الى الجهل والفقر الوباء أيضا .. ومن هنا ، فان المرض يزيد الهوة بين الطبقتين إتساعا رحيبا ، وهو مايبدو اكثر وضوحا فى كتاباته فى هذه الفترة واشهرها المقالة التى كتبها تحت عنوان (مصر بين النعيم والجحيم) ، وفيها يقول الى صديقه فى رسالة طويلة ضمن مايقول « اقم حيث أنت ياسيدى .. لاتبرح الأرض ولا تعبر البحر فان من ورائه فى مصر هولا هائلا ، وشرا ماثلا .. (و) .. إن فى مصر جحيما من الوباء والموت والفقر والجهل والمرض ، وجحيما آخر من الحسد والحقد والبغض والموجدة .. (و) .. هؤلاء هم أصحاب النعيم أما أصحاب الجحيم .. فهم الجائعون الضائعون ، والبائسون اليائسون ، والمأزومون المحرومون»[٤٢] .

ويصل مشهد التفاوت الطبقى الى أقصاه فى كتابه (المعذبون فى الأرض) .. و(الوعد الحق) ففى مقدمة الكتاب الأول يرسم صورة بليغة[٤٣] حين يقول «المصريين فريقان : احدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقا الى العدل مصبحة وممسية فيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التى تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار وتفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل ، وكأن فريق الكثرة ذاك لايجد ماينفق فى رزق نفسه وفى رزق من يعول .. (و) .. وكأن

(٣٩) رحلة الربيع ص ٨

(٤٠) السابق ص ١٠/٩

(٤١) السابق ص ٨٣

(٤٢) نفوس للبيع ص ٨٥/٧٩

(٤٣) يكتب فى المقدمة إهداءين ، الأول (الى الذين يرهقهم الشوق الى العدل ، والى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ، الى أولئك وهؤلاء جميعا ، أسواق هذا الحديث) أما الإهداء الآخر (الى الذين يجدون مالا ينفقون ، والى الذين لايجدون ما ينفقون ، يساق هذا الحديث) ص ٥

فريق القلة القليلة يرى بؤس الفريق الأول .. فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت اليه ..)[٤٤] .

وعلى هذا ، فان الاحساس بالظلم الاجتماعى يمثل السمة الرئيسية لهذه المجموعة ، لاسيَّما فى قصة (صفاء) الذى يمثل حاجز المال فيها درجة عاتية من درجات الطبقية فمتى استطاع الفقير المعدم ــ على حد قوله ــ « أن ينفذ من اسوار المال والثراء »[٤٥] .

وفى (المعذبون فى الأرض)، أكثر أعماله تعبيراً عن السنوات التى كتبت فيها تزخر بالرموز الاجتماعية والدلالات التى توحى بالتمرد الشديد على العصر .. فصالح الفقير البائس يمكن أن يكون أى مصرى فى أى مكان من مصر[٤٦] ، كما لاينبغى للفقير أن يتطلع للحياة الكريمة ، وأن يحس المشاعر الطبيعية حتى لو انتهى الأمر بالقضاء عليه[٤٧] ، كما لايكف عن ذكر مسببات الوضع الذى إنتهت اليه البلاد ، فهوى يرى أن « الضرائب قليلة جدا ، اقل مما ينبغى ، المرتبات قليلة جداً أقل ماينبغى ، والعدل يقتضى أن تضاعف الضرائب ، وأن تضاعف المرتبات ، وان تكف الدولة عن الأسراف فى الأموال العامة ، وأن يكف الأغنياء عن الاسراف فى أموالهم الخاصة وليس الى الاصلاح الاجتماعى من سبيل الا إذا وجدت الادارة السياسية الصالحة[٤٨] .

والصفحات الأخيرة من الكتاب زاخرة بالمعانى الاجتماعية التى ترسم خيوطا دالة نتيجة للمعايشة والتأمل والاسراع الى التوجه والإرشاد .

ولايمكن قراءة (المعذبون ..) دون أن تقرأ (الوعد الحق) فكلاهما يكمل الآخر ، وكلاهما صدر فى وقت واحد ، فقضية العدل الاجتماعى فى (الوعد الحق) هى هى عند سلفه ، والدعوة الى العدل الاجتماعى تتكرر هنا وهناك ، والتركيز على الهوة الشاسعة بين الطبقتين الهدف الأساسى فى العملين .

(٤٤) المعذبون ، المقدمة ص ٨/٦
(٤٥) السابق ص ١٤٥
(٤٦) المعذبون ص ٢٥/٢٤
(٤٧) السابق ص ١٤٩/١٤٧/١٤٥
(٤٨) السابق ص ١٥٦

نجد فى (الوعد الحق) أولئك الذين « يتحدثون فيما بينهم بأن الحرية والرق ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف أعراض تزول ليس من شأنها أن تميز بعض الناس عن بعض ، ولا أن تسود بعضهم على بعض ، ولا أن تحكم بعضهم على بعض[(٤٩)] » ، وفى (المعذبون ..) نلتقى مع أولئك الذين لايجدون الخلاص مما هم فيه الا « أن يأتى العدل فيلقى بينهم وبين ضيفهم ستارا ، ولكن العدل كان بطيئاً مسرفاً فى البطء ، كأنه كان يمشى فى القيد ..»[(٥٠)] ، وكما تكررت هناك لفظة مثل (المعذبون) تكررت هنا لفظة مثل (المستضعفون) ، وكما تكررت هنا لفظة مثل (المترفين) تكررت فى العمل الآخر لفظة مثل (الأغنياء والسراة) ،وكما يصل الى درجة تحذير المترفين فيسألهم (الى اى الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا : الى طريق الموت أم إلى طريق الحياة[(٥١)] » فهو فى الموضع الآخر يؤكد فيما لايخلو من مغزى أن « الله وارث المستضعفين ارضه»[(٥٢)] .

وتملأ دعوة العدل الاجتماعى عليه نفسه حتى لايكتب كلمة أو ينشر مقالا حينئذ الا ويأتى فيها تمثيل بهذه العدالة والدعوة لها حتى يستفيد من كتاباته الاسلامية الجذابة المؤثرة لمحاولة ان يبث هذه الدعوة ويوفر لها الأسانيد اللازمة والمؤكدة لوجودها فى التراث ، بل وصل الى درجة أن راح يصطنع الخيال فى هذا الصدد فيصفها بأنها (غانية) ، فهو فى قصة خيالية طريفة تروى كيف أن رؤية أهل القرية فى احد مدن الوادى اقتصرت كل يوم على هذه المخلوقات الجميلة التى تروح وتجىء فى يسر وتصطنع الابتسام وتتميز بالخفة فى صورة «ساحرة باهرة ، تحيط بها حالة من الفتنة الفاتنة وهى تظهر وتختفى عدة مرات حتى لتثير عجب (شيخ القرية) و(الباشا) حاكم القصر ، ويشيع خبرها فى الشوارع فإذا الجميع يتحدث هذا الحديث وأهل المصانع كلهم يتحدثون هذا الحديث والعاملون فى الدواوين والمصارف والشركات .. والطرق والمواصلات يتحدثون هذا الحديث »[(٥٣)] ويتحير الجميع فى تفسير ظاهرة (الغانيات) التى تمتلىء بها

(٤٩) الوعد الحق ص ١٨

(٥٠) المعذبون ص ٧

(٥١) السابق ص ١٩٢

(٥٢) الوعد الحق ص ١٧٦

(٥٣) جنة الحيوان ص ١٣٤

الأرض والسماء حتى يقول الشيخ إنه كلما سأل إحداهن أجابت أن اسمها هو (العدالة الاجتماعية)[٥٤] .

وتتتابع كتاباته التى تركز على الطبقية ، فلا يجد فى البلاد غير نعيم قد قسم للقلة وبؤس قد فرض على الكثرة[٥٥] ، ولا يوجد غير « البؤس والحرمان اللذين ينتهيان الى الجوع والشقاء »[٥٦] ثم ذلك «الفساد الذى يحيط بمرافق الشعب كلها ، ويتغلغل فيها كلها .. »[٥٧] ، وهذه الأحاديث التى تلقى من المسئولين جزافا فى وقت كان الناس فيه يموتون مئات ، ويمرضون مئات ، يتخطفهم هذا الموت الطارىء .. وفى أثناء هذا كله كانت ملايين تنعم بالجهل .. وتنعم بفقرها »[٥٨] .

على أن أكثر مقالاته تأثيرا فى جانب العدالة الاجتماعية نشرت تباعا فى عام واحد (٤٦) .. أما إحداها[٥٩] ، فراحت فى عرض بسط أسباب ثورتى سبارتكوس فى الشرق والزنج والقرامطة فى الشرق تؤكد على حقيقة واحدة ، هى ، أن « الرق الإجتماعى لم يذهب بعد ولم ينقض عصره .. فهناك طبقات من الناس تسترق طبقات » ، ويحاول الاجتهاد فى تفسير اسباب هذه الثورات فيرى لأن الثروة إنما كانت فى « أيدى طائفة قليلة من الناس يمكن إحصائهم » ، وقد استطاع أن يبسط حقيقة هامة هى أنه ماكادت هذه الثورات أن تحصل على الحرية أو على شيء من الحرية حتى اكتشفت أنها لم تحصل بعد على العدل ، فقد دفعت ثمن ثورتها من انتقاص قدر العدل الذى خرجوا من أجله .

وقد توقف فيما بعد كثيراً عند هذا الصراع بين العدل والحرية لاسيما فى هذه المقالة التى صدرت فى نفس العام[٦٠] ـــ ٤٦ ـــ وراح يستعرض فيها ذلك الصراع القائم

(٥٤) السابق ص ١٣٥

(٥٥) [illegible] ص ٥٠

(٥٦) السابق ص ٨٠

(٥٧) السابق ص ١٠٠

(٥٨) [illegible] ص ١٠٠ ، ايضا : المصور ٢١/١١/٤٧

(٥٩) ثورتان ، الكاتب مايو ٤٦ ، ايضا : كتاب (الوان) ص ١٦٤

(٦٠) .. العدل والحرية ، الكاتب يوليو ٤٦ ايضا كتاب (الوان) ص ٢٣٣ ، وقد اعاد ذكر هذا الموضوع فى عديد من كتبه التالية وكتاباته الحديدة لعل من أهمها مقالة (الادب بين الاتصال والانفصال) فى اغسطس ٤٦ ، ايضا كتاب الوان ص ١٩٤/٢١٦

فى عصره بين الرأسمالية فى الشرق والشيوعية فى الغرب ، مبينا كيف أن الحرية يمكن أن توجد فى معسكر ، هو المعسكر الغربى ، ولاتوجد العدالة ، وهو العكس مما يحدث فى المعسكر الآخر ، المعسكر الشيوعى ، مستهدفا فى نهاية الأمر تصوير افتقاد العدالة الاجتماعية على المستوى العالمى إنطلاقا من المستوى المحلى الذى وجد نفسه مضطرا الى الصدور منه .

وقد حاول طه حسين فى الفترة الأخيرة قبل توليته الوزارة بيومين أن يصل الى تشخيص شخصى لافتقاد قيمة العدالة ، فراح يؤكد أن أزمة الضمير أو (الأخلاق) التى تفتقد هى السبب فى افتقاد هذه القيمة . فاذا صلحت أخلاقهم ، صلحت سياستهم ، انجلت عنها ظلمات الجهل والفقر والمرض[٦١] ، حتى إذا ماعيته الرؤية وأضناه الواقع ، فانه لايملك حين تصل الأخبار اليه فى باريس أن فى مصر انتخابات أن يتمنى أن يحيا (عصر الأحلام) ، وهذا العالم يطرد منه الجهل والمرض ، وتكون آخر تمنياته قبل أن يعود الى مصر أن يحل على مصر « عهد المساواة والتضامن الاجتماعى »[٦٢] بما يعنى أن المطلب الاجتماعى لم يغب فترة من فكر طه حسين ، الذى بدا أنه من أبرز مطالبه فى هذا الوقت الذى كانت فيه الدعوات الاشتراكية تدعو الى هذا المطلب وتعمل له فى دأب حثيث .

وعلى أية حال ، يمكن أن نفهم كتابات طه حسين وفكره الاجتماعى حينئذ حين نسرد بعض عناوين مقالاته فى هذا الوقت على النحو التالى :

— إسراف
— بؤس
— حول الموائد
— مصر المريضة
— جوع وأحاديث

(٦١) المصرى ١٩٥٠/١/١٠

(٦٢) الأهرام ٤٩/٨/١٩

— مصر بين النعيم والجحيم
— إرهاق وإملاق
— مشكلات مصر الاجتماعية

* * *

على أنه لايمكن تناول فكر طه حسين الاجتماعى فى وقت نغفل فيه تصنيف هذا الفكر ، وبشكل آخر ، تحديد (مذهبه الاجتماعى) الذى يصبغ فكره بصبغة اشتراكية كما يرى اصحابها ومعتنقوها عندنا .

لقد تعددت الآراء التى تذهب بطه حسين الى دائرة الفكر الاشتراكى وتنسبه اليه ، فرأى البعض أن فى كتاباته « استهلالا متأنيا متمهلا على استحياء »(٦٣) ، بينما يذهب آخر الى أن منهج طه حسين كمؤرخ « يجمع بين العوامل المختلفة الذاتية والخارجية فى تفسير التاريخ »(٦٤) ، كما ذهب البعض الثالث الى أن طه حسين يعد « أول مؤرخ عربى يقيم وزنا للعامل الاقتصادى الاجتماعى فى تفسير مواقف التاريخ الاسلامى »(٦٥) ، بل والى درجة أنه تأثر ضمن من تأثر بكارل ماركس وشراحه ، فى وقت يرى فيه كاتب آخر الى أن فكره ومواقفه العملية « لم تخل من آثار الفكر الاشتراكى الخيالى »(٦٦) ، مستدركا هذا الكاتب الى أن نظرية طه حسين فى جوهرها انما هى « نظرية الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية فى الغرب »(٦٧) ، ذاهبا الى أن عصره ، بما فيه من عنت وارهاق شديدين حال بينه وبين التصريح بالانتماء الى المذهب الاشتراكى والجهر به .

وهنا نجدنا أمام آراء متفرقة وسؤال واحد :

هل كان طه حسين — حقا — اشتراكيا ؟

ويزيد هذا السؤال تعقيداً أنه قد اتهم فترة الأربعينات خاصة اما (بالاشتراكية)

(٦٣) فتحى عثمان ص ٧
(٦٤) محمود امين العالم ص ١٢٧
(٦٥) محمود اسماعيل ، الطليعة ديسمبر ٧٧ ص ١٥٧
(٦٦) عبد العظيم انيس ، السابق ص ١٥٣
(٦٧) السابق ص ١٥٤

من الملك ومن ورائه البوليس السياسى ، وإما بأنتمائه الى طبقة (البرجوازية) ، كما ألصقت به بعض الصحف التقدمية فى هذا الوقت ، ثم هذه الأفكار التى يطلقها عليه دعاة الاشتراكية فى مصر .

والواقع أن الآراء التى وصفت طه حسين بأنه (اشتراكى) أو (مادى) وما الى ذلك ، تعود الى كتاب عرفوا فى مصر باعتناقهم المذهب الاشتراكى ، وهو مايدفعنا قبل أن نجيب عن مدى ارتباط طه حسين بالاشتراكية ، ان نحاول ، مراجعة ، ماتضمنته أفكاره بشكل أدق عن الاشتراكية .

إن السمة الرئيسية لفكر طه حسين الاجتماعى انما تركز على ابراز البون الشاسع بين الطبقتين : الغنية والفقيرة وماتفرع عن هذا من ضرورة رفع الظلم الاجتماعى ، والتنبه الى بعض الرذائل الاجتماعية التى تحول دون حصول الفقير على متطلبات الحياة ..

فاذا عدنا الى أعماله سنجد هذه الأفكار تتناثر فيها ، فأصداء المفارقة بين الغنى والفقر نجدها فى رواية (دعاء الكروان) ، «هنادى » الفقيرة المسلوبة تمثل الطبقة التى هزمت من طبقة «المهندس » الأفاق الثرى ، وهذا مانجده ايضا وبشكل ما فيما يمثله الدافع الذى دفع بطبقة الموظفين المطحونة الى الارتشاء فيما تمثله الطبقة الثرية التى لاتتردد فى ممارسة رذيلة الرشوة بشكل مخيف ..

أما فى (ماوراء النهر) ، نجد هذا التناقض الطبقى متمثلا فى الصراع بين القرية والربوة ، بين البؤس والنعيم ، بين المالكين والمملوكين .

أما فى — (المعذبون فى الأرض) فيكفى أن ننظر الى المقدمة لنرى هول التفرقة بين (الذين يجدون مالاينفقون .. والذين لايجدون ماينفقون)

وهو عين مايذهب اليه القاص فى (الوعد الحق) من عدم المساواة التى راح يؤكد خلالها على أن الدعوة الى الحق إنما هى أساس من أسس الاسلام ، بما يعنى أن العدل الاجتماعى من أهم ابعاد الدين وأكثره أهمية .

— واذا جاز لنا أن نُعدّ كتابه (مع ابى العلاء فى سجنه) الذى صدر عام ٣٩ هو أول عمل فكرى متكامل ، فإننا يمكن أن نستشم منه الحس الاجتماعى ، فحين يعجب طه حسين من موقف أبى العلاء من مجتمعه ، وهو موقف تشاؤمى سلبى ، إنه يتساءل عن ابى العلاء ، مفسرا فلسفته ، فيقول «لم يستأثر زيد بالغنى ويضطر عمرو الى

الفقر ؟ وكيف السبيل الى دفع هذا الظلم ووضع العدل مكانه وتحقيق الانصاف بين هذين الرجلين اللذين يظفر احدهما بأكثر من حاجاته ويحرم الآخر أيسر هذه الحاجات ؟، ولا يلبث أن يجيب على السؤال قائلا سبيل ذلك تحقيق المساواة من غير شك . سبيل ذلك أن يؤخذ من الغني وأن يرد على الفقير ، حتى لاتكون بينهما هذه الفروق التى تبيح لأحدهما ان يظلم الآخر ويستعلى عليه ويكره أحدهما الآخر على أن يبغض صاحبه ويضمر له الضغينة والموجدة »[٦٨] .

.. هذا معنى بسيط لفهمه للمساواة .

ــ وثمة معنى آخر لكلمة المساواة نجده حين يذكر الحال الذى «يتحقق فى غير الغاء للملك ولا تحريم للغنى ، والذى تحاول بعض الديموقراطيات الحديثة أن تحققه محتفظة للمالكين بما يملكون ، وللأغنياء بكثير مما يجمعون .. وهو أن تكفل الدولة للناس حياتهم وصحتهم وحاجتهم وكرامتهم دون ان تضطرهم الى ان يستذلوا أو يستغلوا ، ودون أن تغريهم بالتبطل والفراغ ، على أن هذا كله يأتى فى عرض تفصيل آخر اشتراكية عمر فلا يفوته ان يوضح موقفه ، فيقول «ماأذكر الاشتراكية وما أذكر الشيوعية ، فلم يكن عمر صاحب اشتراكيه ولا شيوعية »[٦٩] .

.. هذا معنى آخر لفهم المساواة عنده ، فهو لايعترف ، بأنه ، صاحب رأى اشتراكى أو ، حتى ، يقرن شخوصه بالاشتراكية أو الشيوعية وأن كان لايفوته فى تضاعيف الكتاب أن يذكر أنه يعتنق الفكر الذى يحقق المطلب الاجتماعى ، فالكتاب ملىء بألوان المساواة المثالية دونما تحديد .

ــ فلنأخذ مثلا آخر يؤكد مانذهب اليه ، انه حين حدد أسباب ثورتى الزنج والقرامطه يقول ان غايتهما واحدة هى «تحقيق العدل فى الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور »[٧٠] ، وفى الوقت الذى يضرب امثله الثورة الفرنسية أو الثورة الشيوعية لتقريب حالة الثورة الاجتماعية الى الأذهان التى يشير اليها ، فانه لايوجد شبه بين الثورة الشرقية هنا

(٦٨) مع ابى العلاء ص ١٨٣

(٦٩) الفتنة الكبرى ، ج١ ص ٢٠/١٩ ، ايضا : المعذبون فى الأرض ص ١٦٤

(٧٠) الوان ، السابق ص ١٨٣

والثورة الغربية فى أوروبا حتى من باب «التسمية» ، وحين يضطر الى ذكر أسباب الثورات هنا أو هناك فانه يقول صراحة فى نهاية مقاله الطويل « ليس يرى كتابنا وشعراؤنا فى أحداث التاريخ العربى القديم مايستطيع أن يلهمهم »[٧١] .

الالهام والعبرة هما الشيء الوحيد الذى يخرج به من دراسة الثورات القديمة منها أو الحديثة ، بما يعنى ، أنه ، فى شخوصه الى اوروبا ، ومع إيثاره للنهضة الغربية فى التفكير ، لم يصل الى درجة اعتناق المذهب الاشتراكى بشكل مطلق .

وهذا مثل ثالث لفهم معنى المساواة بعيدا عن ذكر كلمة (اشتراكية) بالمعنى المعاصر .

اضف الى ذلك كله ، ان طه حسين كان يفصل دائما فى الحديث بين الاشتراكية المعاصرة كما يعرفها روادها وشارحوها واشتراكية العصور القديمة كما حاول ان يشير اليها فى التاريخ العربى أو التاريخ الرومانى ، فهو حين يذكر «اشتراكية» ابى العلاء — على سبيل المثال — لايتورع فى القول صراحة ان اشتراكية ابو العلاء قديما ليست هى اشتراكية كارل ماركس قط ، ويقول « يبغى ان يفهم من اشتراكية ابى العلاء ، مايفهم من اشتراكية العصور القديمة ، ومن اشتراكية الثائرين الساخطين فى القرن الثالث والرابع للهجرة . وقد استبقى من هذه الفلسفة الشعور بالظلم فى توزيع الثروة والانكار لما يكون عليه من انقسام الناس الى طبقات الأغنياء والفقراء »[٧٢] .

وهذا يلتقى مع فهمه للاشتراكية كما يحاول استخراجها من التاريخ العربى ، فهو لايعود للتراث قط إلا بهدف العبرة والعظة ، وقد يلتمس فيه مايدفع «الى الجد ويثير النشاط[٧٣]» وهو مايؤكد ماسبق أن اشرنا اليه ان القديم عنده انما هو وسيلة للافادة من الحديث على أنه غاية ، ومع أنه لايعتنق الاشتراكية بمفهومها المعاصر ، فهو يعتنق المعانى الانسانية فيها .

على أنه من المفيد ان نذكر أن بحث طه حسين الدائم بين الحرية فى المعسكر الرأسمالى فى الغرب ، وتوفر العدالة فى المعسكر الشيوعى دفع به فى بعض الأحيان الى

(٧١) السابق ص ١٨٦/١٩٤
(٧٢) مع ابى العلاء ص ١٨٤
(٧٣) الكاتب ٤٦/٥

البحث عن رؤية ذاتية تعنى له الخروج بفكرة جديدة فصلها فى فقرة ننقلها هنا ، يقول :

«اذا امكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى ، ويتخذ الدين اساسا لحياة انسانية جديدة ترتفع عن المادة وترقى الى المثل العليا وتؤمن بأن فى الانسان قوة لاتستطيع ان تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للانسان حظه فى الرقى الا اذا تصلت بمصدرها القدسى الأول عن طريق الايمان والثقة والأمل ، اقول اذا امكن أن ينشأ هذا المذهب ، كان فى نشوئه الخير كل الخير لأنه يصلح ماافسدت الثورة فيرد الى الدين مكانته فى القلوب وسلطانه على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة ومن الالحاد المتمرد ، ويكفل لهم فى الوقت نفسه نصيبا معتدلا من الحرية ويبيح لهم فى الوقت نفسه سعيا متصلا لتحقيق العدل فى الأرض»[٧٤] .

وثمة ملاحظة أخيرة تفيدنا فى هذا السياق ، فمع أن خيوط الفكر الاجتماعى لدى طه حسين يمكن أن نجدها فى المذهب (الاشتراكى) بمفهومه العلمى ، فانها تظل دائما الخيوط العامة التى تشترك مع اى مذهب اجتماعى آخر ينطلق الى كرامة الانسان وكيانه واحتياجاته بما فيها المذهب الاشتراكى ، غير أن اوجه الخلاف بين فكره وفكر المذهب الاشتراكى يظل عاملا قائما فى جميع الحالات .. فاذا كان الانتاج الاشتراكى الآن يقوم على الملكية الاجتماعية[٧٥] فان طه حسين لم يرفض ، قط فكره الملكية بشريطة ان يوجد (التضامن الاجتماعى) بين جميع الأفراد ، فاذا لم يوجد ، فهو يدعو ، بشدة ، الى ان تعمل الحكومة على فرض الضرائب مايعين لها ان تعين المنكوب[٧٦] وهو ماجاء فى مواضع كثيرة من كتاباته .

كما أنه فى دعواته المتكررة للتعريض ضد النظام القائم كما سنرى ، فيما بعد ، لم يدع ، كما هو الحال فى الفلسفة الاشتراكية الى انشاء الطبقة العاملة ، وهى القوة الملقى على عاتقها بناء الاشتراكية فى ظل الرأسمالية حتى تمر خلال تدريب نضالى شاق ضد البرجوازية وتنظيم حزبها المستقل .

(٧٤) الكاتب ٤٦/٧ ، الوان ص ٢٤٦

(٧٥) دائرة المعارف الاشتراكية ، ص ٢٥

(٧٦) المعذبون .. ص ١٨٢

ويضاف إلى هذا ، أنه فضلا عن دعوته المستمرة الى العدالة الاجتماعية والعمل لها فانه لم يعرف أنه دعا قط الى قيام «ثورة اشتراكية ومرحلة كاملة من الانتقال » كما تدعو الفلسفة الاشتراكية وتعمل له فى طريق تحقيق افكارها المعاصرة .

ومعنى ذلك كله ، ان طه حسين الابن المخلص لليبرالية ، لم يتجاوز اطارها فى دعوته الى الاصلاح الاجتماعى ، ولم يهتم بأن تنتمى دعوته الى المذهب الاشتراكى أو غيره ، وقصارى ماشغله بالنسبة الى الاشتراكية تحقيق الحد الأدنى للعدالة ، فاتفق معها فى أنها تطرح الأفكار العامة للعدالة ، واختلف معها فى أنه لم يتلمس وسائلها التنظيمية وخطوطها من النهج الذى اختارته لنفسها .

وقد بلغ اهتمام طه حسين من رفض الانتماء لهذا المذهب أو ذاك ان قال فى معرض حديثه للقارىء فى سخرية شديدة «انى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن اصحاب اليمين الذين لايضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال »[٧٧] ، وهو مايؤكد حرصه .. على النزعة الاصلاحية رغم ماكان يعوقه من بطش السلطات به .

وقد يقال بعد هذا كله ان افكار طه حسين فى هذا الصدد كانت تلتقى مع افكار المذهب الاشتراكى ، ومع التسليم بأنها كانت تلتقى مع الأفكار العامة التى لايخطأها الفهم فى اية دعوة راديكالية للاصلاح ، فاننا لايمكن التسليم قط ، بوجود صلة عملية فى تنفيذ «اسلوب الانتاج الاشتراكى كما يعرف لدى اصحابه من الاشتراكيين..»

ولتوضيح موقف طه حسين اكثر ، فانه يمكن الجزم أنه كان ينتمى الى اصحاب اليسار ممن تمردوا على الواقع الجامد والقيم المتخلفة فى المجتمع المتحول ، ومصداقا لهذا أنه لم يرفض ان يصنف فى هذا التيار قط فحين اتهم من الصحف التقدمية فى منتصف الأربعينات بانه مفكر برجوازى ، قال فى رسالة طويلة عن مذهبة السياسى والاجتماعى « انى لأحب الديموقراطية المحافظة ولا المعتدلة ولا اقنع بالاشتراكية الفاترة وانما أياسر الى اقصى مااستطيع »[٧٨] ، وهو عين ماقصده حين قال لمن سأله عن كتاباته «انكم تتياسرون وتظنون انى على يمينكم »[٧٩] ، بما يمنح كلمة (أياسر) من معنى لايدخل فى

(٧٧) السابق ص ٨٩

(٧٨) الفجر الجديد ١٩٤٥/١١/١

(٧٩) مجلة العربى ، مارس ٨١

اطار الاشتراكية بمعناها المحدد ، وإنما ، انطلاقا من الواقع الذى عايشه ، وإن كان حريصا خاصة بعد ان شهد ازمة الليبرالية الغربية ان يصل الى اقصاها من جهة اليسار ، بما يؤكد ، ان ليبرالية طه حسين لم تظل فى إطارها المحدد فى ذهنة وإنما تطورت لديه بما شهد وماعانى من ظروف خاصة بنا فانعكست فى تمرده هذا الاجتهاد الخاص به .

ومما سبق ذكره ، فان كلمة (أياسر) هنا لاينبغى أن تفهم على أنها اتجاه نحو الاشتراكية أو إغراق فيها ، وإن كانت لاتلغى أنها كانت اتجاها نحو اليسارية وانحيازاً لها بما فيها من تمرد على الواقع والثورة على معطياته من التجمد والخضوع .

وهو ماتؤكده كتاباته كلها .

* * *

ويرتبط بهذا ، ماتميز به طه حسين عن غيره من الكتاب المعاصرين له ، من أنه كان (مفكرا عمليا) .. استطاع أن يستثير الافهام ويستثمر الخيال فى ايقاظ الوعى الذى هو المحرك الأول للتغيير ، ويذكر عنه أنه فى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة حين كانت البلاد حبلى بالتغيرات قال للبعض « انكم تتحدثون كثيرا عن الثورة ، وتكتبون عن ضرورة الثورة ، ولكنكم لاتعرفون ولا تتقنون فن العمل الثورى .. وما أحوجكم الى دراسة التكتيك الثورى والاستراتيجية الثورية ..»[٨٠] .

اذن ، فنحن أمام مفكر عملى ، رغم ظروفة الشخصية والسياسية ، فانه لم يحجم صراحة عن أن يبين الهدف الحقيقى للمثقف فى الفترة التى وجد فيها ، وهو مايدفعنا الى تصور بعض خطوط (العمل الثورى) كما ارتآه صاحبه .

ــ لقد كان من ابرز السمات فى تكوين طه حسين حقا أنه كان (مفكرا عملياً) ، وهذه النزعة تميزت لديه منذ فترة مبكرة من حياته ، كما تأكدت فى كتاباته الأولى ، فلم يختر للدراسة العليا فلسفة (ابن خلدون) عبثا ، كما تتوزع خطوط (حديث الأربعاء) فى هذا الدافع ، وهو مانراه منذ الثلاثينات ايضا سواء فى (مع ابى

(٨٠) عدد الهلال ، السابق ص ١٢٣ ومابعده ، لمحمود امين العالم

العلاء فى سجنه) او (فى مرآة الضمير ..) فهو يؤكد ان تغيير القناع أو إلغائه بين الفكر والفعل عند المثقف عمل لاجدوى منه ، فأبى العلاء ليس صاحب اصلاح عملى صراحة [٨١]

.. وتتدرج النبرة العملية فى إعماله حتى تصل الى اقصاها فى (المعذبون فى الأرض) (وعلى هامش السيرة) و(دعاء الكروان) و(مستقبل الثقافة) و(الفتنة الكبرى) .. فكلها تسعى لتأكيد طابع العملية ، فلم يكتف بأن يدعو بالكلمة المجردة او يغلو فى الخيال وحسب وإنما اضاف لهذا وعيا بالواقع ووسيلة لتغييره .

وقد كان من أثر الطابع العملى الذى عرف به طه حسين ان تعددت الآراء بشأن منهجه الفكرى ، فرؤى فكره على أنه تابع للمذهب الاشتراكى كما رأينا من قبل ، كما اتهم من قبل المحافظين منذ فترة مبكرة من كتاباته حين كتب على هامش السيرة أنه يتصف بنزعة (براجماتية) [٨٣] ، كما وصف أيضا من غير المحافظين بأنه ليس براجماتيا ولكنه «يربط بين الفكر والواقع ، بين العقل والعمل » [٨٤]

وهو فى جميع الحالات لايجاوز الكاتب الذى يرفض ان يظل أسير الصور الأدبية والرومانسية فى عصره

ــ ويرتبط بسمة الايجابية فى التفكير سمة أخرى ، ونقصد بها سمة التحريض ضد النظام ، وهى سمه رغم تغلبها على فكره ، فان طه حسين قد حرص على أن ينفيها نظرا لبطش السلطة وعنت المناخ القائم ، وقد أشار الى هذا فى أهم كتبه (المعذبون فى الأرض) فقال فى مقدمته « ليس فى الكتاب سياسة أو شىء يشبه السياسة ، وليس فى

(٨١) مع ابى العلاء ص ١٨٣

(٨٢) يقول فيه (ان تغيير الأشياء لايكون بالكلام الذى يقال عن اخلاص اوتكلف ، وعن تفكير واندفاع ، وانما يكون بالعمل الذى ينقل الأشياء من طور الى طور) .

(٨٣) يوسف نور ص ٣٦

(٨٤) العالم ص ١٣٢ ، ويعلق على هذا على قول طه حسين (القديم لاينبغى أن يهجر لأنه قديم ، والجديد لاينبغى ان يهجر لأنه جديد ، والجديد لاينبغى ان يطلب لأنه جديد وانما يهجر القديم لأنه برىء من النفع ، وخلا من الفائدة ، فاذا كان نافعا مفيدا فليس الناس اقل حاجة اليه منهم الى الجديد)

الكتاب تحريض على النظام الاجتماعى ينكره القانون، وليس فيه اغراء بتلك المبادىء الهدامة »[٨٥] ، مما يؤكد على أن الكتاب بما احتوى فيه كل هذه الأشياء حتى منع طبع الكتاب ونشره فى حينه .

ونبرة التحريض نجدها فى مواضع كثيرة أخرى لعل من أهمها ، أننا فى نهايات بعض قصصه لانجد بطلا بالمعنى المألوف ، وإنما وجدنا واقعا ممرورا يصدم القارىء بمدى مرارته ، وفى الكلام المباشر لانلتقى بالسرد والتصوير القصصى بالشكل الفنى وحسب وإنما نجد «استطرادات صريخة من خلال قصصه الى الحاكم والمحكوم» فكثيرا مايغفل عن خط القصة ليترك هنا أو هناك عبارة دالة الى حد كبير لما يريد أن ينبه اليه ، وهذا التوصيف نجده خاصة فى كتبه (ماوراء النهر) و(جنة الحيوان) و(المعذبون فى الأرض) وغيرها .

فاذا جاوزنا الكلام المباشر الى غير المباشر فسنجد كثيرا من الاشارات التى تدعو الى التحريض بسخرية ممضاة ، كهذه العبارة التى أتت فى سياق بعض كتبه ، وجاء فيها محرضا الشعب على واقع مخيم ، يقول « مابال هذه الرعية لاترفق بنفسها ولاتعنى بأمرها والتفكر فى مصالحها ، وإنما ندعوها فتجيب ، ونأمرها فتطيع ، ونوجهها الى حيث نشاء فتتجه الى حيث نشاء ، لايخطر لها ان تأبى اذا بلغها الدعاء ، ولا أن تعصى اذا صدر اليها الأمر ، ولا أن تمتنع اذا وجهت الى حيث لاتحب ؟ »[٨٦] .

ويمكن أن يضاف هذا التدخل الفنى من آن لآخر ، فكثيرا ماكان يتدخل بضمير المتكلم فى السرد الفنى ، فيقول على سبيل المثال «لا احاول ان اضع قصة فأخضعها لما يبغى أن تخضع » .[٨٧] ، أو يقول فى موضع آخر « قد يظن القارىء أنى قد أسرفت فى البعد عن هذه الأسرة[٨٨]وهو مايكرره كثيرا فى عملية (المعذبون ..) و(وما وراء النهر) ، وهو مايؤكد مانذهب اليه من أنه لم يرد أن يكتب قصة تقليدية يرتفع فيها الخيال سامقا وينخفض فيها العمل هابطا ، وأن يسلى القارىء أو يزجى قرائه ،

(٨٥) المعذبون ص ١٠

(٨٦) احلام شهر راد ص ٦٨

(٨٧) المعذبون ص ٢٢

(٨٨)السابق ص ٨٧

وإنما أراد ان يوقظ الأفهام من آن لآخر ليؤكد من أن الخيال الذى يقصه يمكن أن يصل الى آماد بعيدة من الواقع حتى ليستحيل الواقع ، لفرض غرابته ، الى خيال يراه فى كل مكان ، فينتفى الحاجز المصمت بين الواقع والخيال ، وهو ماحاول طه حسين دائما أن يحرص عليه .

وقد كان واعيا الى درجة بعيدة الى هذا التحريض ، ففى الوقت الذى أكد فيه على أن كتابه (المعذبون ..) صدر مع غيره من كتب «كانت تريد ان تبصر المصريين بحقائق امورهم ، وان تعظ منهم الطغاة البغاة ، وتعزى منهم البائسين واليائسين »[(٨٩)] ، فانه يقول بعد قليل ان الكتاب ليس به هذا التحريض الذى يزلزل الكيان الاجتماعى حتى ليتآمر على قصصه البوليس السياسى وقوات الأمن ووراءهما كل من يهمه القضاء على من يبحث عن العدالة .

وتكتمل دائرة العمل الثورى عند طه حسين حين يعرف أنه لم يستخدم اللفظ الصريح والفكرة الواضحة فحسب ، وإنما أضاف اليهما الرمز واللغز .. فبقدر مانلحظ هذه الميكانيكية العملية فى أعماقه ، وهذه التحريضية الواضحة لديه ، بقدر مانلحظ الشكل الذى راح يستخدم فيه الغموض ليدلل عن فكرته ويعمل لتغيير المجتمع من الجذور .

فلنقف قليلا عند بعض ملامح الرمز الاجتماعى .

* * *

على الرغم من أن الرمز عرف على المستوى التراثى إستجابة للفترة التى عاشها وعاناها .. فانه عرف على المستوى الاجتماعى لديه ، استجابة ليس للتغييرات الحادة التى عرفت فى عقد الأربعينات وإنما ، أيضا ، لاهتمام صاحبه بتلمس هذا الرمز وتوظيفه فى اطاره الفنى بحثا عن تأثيره السياسى فى المقام الأول .

ولايجب أن نعتقد كما يرى البعض أن لجوء طه حسين للرمز كان وراءه دافع فنى آخر وقد يكون هو الأقوى من الدافع السياسى الذى صرح به .. ذلك أن الرمز الذى

(٨٩) المعذبون ص ٩

استخدمه فى ابراز فكره الاصلاحى عبر أعماله الرمزية لم يكن الا رمزا مفضوحا.. ومعنى هذا أن الرمز عنده كما يزعم البعض لم يتلمس القضايا الاجتماعية والسياسية ولم يعبر عنها وإنما هدف الى الناحية (الفنية) لممارسة التجريب فيها .

والواقع ان هذا الرأى يتعارض مع فكر طه حسين وفهمه لدور الكاتب فى مجتمع يعانى دورة التحول ووطأة الظروف الصعبة ، فكتاباته فى الأربعينات ، خاصة ، تعبر قبل كل شىء عن المشاركة السياسية والاجتماعية ، ومحاولة الخروج به من الضغوط السياسية التى وجد نفسه فيها ، ومن هنا ، فان الرمز عنده ، سواء تمثل فى التراث أو استخدام الأسطورة فقد كان له هدف واحد ، هو ، التصدى لقضايا المجتمع الأساسة ومحاولة الاشتراك فيه بالادراك الواعى .

واعتقادنا هنا مبنى على عدة شواهد :

(١) ليس من شك أن طه حسين الكاتب العملى ، كان يكتب الرمز وهو مدرك تمام الادراك أنه يستطيع به التعبير عما يجول بخاطره ومايدور حوله من أجل التغيير وليس من أجل الاستثمار الفنى وحده وهو مايفهم من رسالته التى أرسلها الى توفيق الحكيم فى صيف ٥١ حين قال وهو يقرأ قصصا تمثيلية لكاتب بلجيكى ، ان هذا المجلد الذى يقرأة «هو الى الرمز اقرب منه الى التصريح وهو الى حرية التعبير اقرب منه الى المصانعة والتلطف وهو على ذلك أو من اجل ذلك عميق بعيد الغور يؤثر فى النفوس اشد التأثير »[٩٠] .. واذن ، فهو يفهم الرمز وتأثيره على الوجه الذى يستطيع به المشاركة ، ثم التأثير ، فى القضايا .

(٢) حين أشار الى ظروفه السياسية اثناء كتابه (المعذبون فى الأرض) ، انما كان ليؤكد هذا الوعى الذى دفع به الى تلمس الرمز ، يقول «وانظر الى مانشر صاحب هذا الكتاب فى « جنة الشوك » و«جنة الحيوان » و«مرآة الضمير الحديث » و«احلام شهر زاد » ، فلن ترى فيها الا رمزا لمظاهر كنا نبغضها ولا نستطيع ان نتحدث عنها فى صراحة أثناءتلك الأيام السود فكنا نؤثر الغموض على الوضوح والرمز والالغاز على التصريح ، والاشارة والتلميح على تسمية الأشياء بأسمائها ، وكانت حكومات ذلك العهد ورقابتها تقرأ

(٩٠) الأهرام ٧٣/١١/١٦

فلا تفهم ، تتخلى عن الكتاب ومايكتبون ، وتخلى بين القراء ومايذاع فيهم من ذلك الأدب القديم »[91] ، وكما قد قال قبل هذا بقليل ان ذلك الأدب الجديد الذى ينزع هذا المنزع السياسى انما كان قد انشأته «حكومات الطغيان انشاء حين اضطرت الكتاب الى العدول عن الصراحة »[92] .

وعلى هذا النحو ، فان طه حسين بتكوينه الاجتماعى لم يكن ليهتم بالرمز الفنى وحده ، ولا يستطيع ذلك ، وإلا ، فما الفارق بينه وبين أى كاتب آخر ، اذ لم يكن المجتمع المصرى حينئذ يسمح برفاهية الرمز ، كما لم يكن فى حالة من الاستقلال السياسى أو الفكرى فيسمح له الانشغال بغير الكاتب الذى يستخدم الرمز استخداما موجها الى القضايا التى كانت تفرض نفسها فرضا .

(٣) ومما يؤكد هذا الاعتقاد ايضا ، اننا اذا دققنا النظر فى أعمال طه حسين الرامزة ، فسوف نرى أنها كتبت — جميعا — فى عقد الأربعينات ، حيث كانت البلاد فى هذا العقد تموج بالتغيرات الحادة ، ففى هذه السنوات كتب طه حسين جملة اعماله الاجتماعية ذات الخط الرمز على النحو التالى :

— احلام شهر زاد (١٩٤٣/٤٢)
— جنة الشوك (١٩٤٥)
— المعذبون فى الأرض (١٩٤٨/٤٦)
— ماوراء النهر (٠٠/٤٦)
— جنة الحيوان (١٩٥٠)

فضلا عن مقالات عديدة كتبت فى هذه الفترة من أمثال (مرآة الضمير الحديث) و(الوعد الحق) وغيرهما ، وهذا يؤكد فى كثير من الترجيح ان كتاباته حينئذ اتسمت بالخط الاجتماعى وسارت فيه ، تعبيرا عن اضطرابات الفترة واستجابة لمتطلباتها .

وهنا نصل الى بعض الأمثلة التى لابد أن نشير اليها فى الرمز المباشر ، والتى تحددت مساحاته حول فترة الأربعينات .. (فأحلام شهر زاد) هى محاولة لاستخدام الأسطورة العربية بهدف التعبير عن قضايا كانت تحول دون تناولها ظروف الحرب العالمية

(٩١) المعذبون ص ١٢
(٩٢) السابق ص ١١/١٢

بضغوطها السياسية ، ومن ثم ، استطاع بها التعبير عن كثير من القضايا التى أشرنا اليها من قبل مثل الطغيان الذى واجه الشعب ، وافتقاد قيم الديموقراطية ، وقضية اضطرار مصر لدخول الحرب[٩٣] ، كما أن (أرض الشوك) والمحاولة كلها تجربة ذاتية زاخرة بالدلالات بها الكثير من قضايا الظلم[٩٤] والبناء الاجتماعى[٩٥] ووسائل التملق[٩٦] والمحاباة[٩٧] وما الى ذلك من صنوف التغيير الاجتماعى الذى يتم فى عصر تحول يقول عنه طه حسين أنه من عصور الانتقال التى تمتاز «بما يكثر فيها .. من انحراف السيرة الفردية والاجتماعية »[٩٨] .

وحين نصل الى (المعذبون فى الأرض) نشهد الرمز الذى يكاد لاتخلو منه قصة واحدة الى درجة انما يمكن أن تستبدل بعنوان أية قصة عنوانا رمزيا أكثر دلالة على هذا النحو :

(٩٣) تمثل مرحلة الرمز الذاتى ــ لا الاجتماعى ــ فى كتابه (الأيام) حيث يبدو من السياق العام ان هذا الكتاب جاء نتيجة للمحنة الشرطية التى عرفها بعد أزمة (الشعر الجاهلى) سيما الجزء الأول من هذه السيرة الذاتية ، ويمكن أن يذكر فى هذه اعماله (اديب ، رحلة الربيع ، فى الصيف) اذ كتبها جميعا وهو غاضب على اثر معركة سياسية واجتماعية وهو ماتؤكده كتاباته ، ومن هنا ، يمكن أن نلحظ فى الرمز الذاتى فى هذه الأعمال ويمكن أن يضاف الى هذا (القصر المسحور) الذى تحدث فيه عن حرية الفنان ومداها .

(٩٤) المعذبون ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨

(٩٥) جنة الشوك ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٧

(٩٦) السابق ٩٧

(٩٧) السابق ص ١٢٢

(٩٨) السابق ص ٧ (انظر المقدمة)

فهرس	كلمة دالة
صالح	بؤس
قاسم	الحاجة
خديجة	الجهل
المعتزلة	الوباء
رفيق	التغيير
صفاء	الطبقية
خطر	الفقر
تضامن	الفقر
ثقل الغنى	الفقر
سخاء	الوباء
مصر العريضة	الوباء

ويصل طه حسين فى تلمس الرمز والتعبير به الى درجة بعيدة ، فهو حين يتحدث من دلالة النموذج فى القصة الثالثة ، نلحظ أن الرمز يتوارى أمام كثافة الوضوح الذى يتميز به القاص ، فهو يقتحم فكر القارىء ووجدانه حين يخرج من السرد الفنى ليقول بغتة «القارىء ليس فى حاجة الى ان أقص عليه هذه الخطوب ، فأيسر شىء لديه أن ينظر الى هذه الحياة الصاخبة من حوله ، فيرى فيها أمونات وسكينات كثيرات لايحصين بالمئات ولا بالألوف ، وإنما يحصين بالألوف وقد يحصين بالملايين »[٩٩]

وهو مايتأكد معه أنه مع بساطة الرمز يبدو الالحاح قائما فى توصيل الدلالة الى القارىء بهذا الشكل المباشر .

ونستطيع أن نستخرج القوانين الداخلية لقصة واحدة لنتأكد أنه يمكن تطبيقها على قصصه كلها فضلا عن أعماله كلها .

(٩٩) المعذبون فى الأرض ، ص ١٣٥

ويصل الرمز الى أقصاه فى عمله (ماوراء النهر) ، فيثرى هذا العمل بالرموز التى تثرى الفكرة ، فمنذ الاسم نلحظ تركيز الرمز حول هذا المجهول الذى يكتب عنه القاصّ ، ويتدرج الرمز لنلحظ التفاوت الطبقى الحاد فى كل فصول العمل ، وهو هدف القصة الأول ، وحين نصل الى نهاية المرحلة فى كتاب آخر (جنة الحيوان) نكون قد وصلنا إلى لون جديد من ألوان الرمز السياسى والاجتماعى ، فهذا رجل مسئول ماكر يشبه الثعبان بما عرف به الثعبان من مكر ومراوغة ، وذلك رجل ثعلب بما تحتوى طباعه من خلال التعلب وحرصه .. الى غير أولئك من الرموز الحيوانية التى توقف عندها كثيرا .

وعلى الرغم من أن الكثيرين اختلفوا فى فهم دلالة الرمز ، هل مقصود به شخص بعينه ، أم هو رمز لشخص غير محدد ، فاننا ، نعتقد ، أن الرمز قصد به المستويين معا ، وأن كان المستوى الأول والطبيعى للرمز عند طه حسين يتحدد حول شخص معين مثل (العشماوى) على سبيل المثال الذى اكدت كل الظروف السياسية حينئذ أنه ، هو المقصود بالرمز الأول ، فمع أنه فى كل مجتمع يوجد الرجل/ الثعلب ، فان ثعالب مصر وثعابينها الكثيرة كانت هى المقصودة دون شك .

ويأتى بعد ذلك أن هذا الرمز فى المستوى الأول ، المباشر ، يمكن أن يمتد ليصل الى المستوى الآخر ، غير المباشر ، الذى يرى فى الرمز دلالات إنسانية عامة .

ومما يؤخذ على طه حسين فى هذا الصدد أنه قصد أن يكون الرمز مباشراً فى المستوى الأول ، فهو فى أعماله الرامزة خاصة كان من الوضوح بحيث لم يكن يغفل ذلك ، وهو قد أشار الى ذلك صراحة حين قال فى إحدى قصصه الرامزة مخاطبا القارىء بشكل مباغت « ماقصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ ، او لأطرفك بهذه النوادر البارعة .. فلسنا فى وقت ترفيه ولا اطراف ولا ترويح ، وإنما نحن نحيا فى أيام سود »[(١٠٠)] .

وهنا يمكن القول أن طه حسين تلمس الرمز السياسى والاجتماعى خاصة ، واستطاع من خلال النقد المباشر وغير المباشر التركيز على قضية العدالة الاجتماعية ، فأصبح كاتباً فاعلاً ، ليس على المستوى الانسانى فقط ، وإنما على المستوى المحلى .

(١٠٠) السابق ص ١٦٢/١٦٣

وهو مايؤكد انحيازه للمجتمع ..

* * *

نفرغ الآن الى ثلاث قضايا اجتماعية أولاها اكثر من غيرها عناية خاصة ، وقضية (المرأة) أول مااهتم به طه حسين لموقفه المتمرد فى كثير من الأمور .. فموقفه من المرأة هنا اتفق فيه خاصة مع فكر قاسم امين فى وقت اختلف فيه مع فكر عبد العزيز جاويش الذى انتمى اليه فى الحزب الوطنى حينئذ ، فبعد ان تحدث طويلا فى عدة مقالات(١٠١) عن المرأة وحريتها من وجهة نظر الاسلام انتهى الى نتيجة مؤداها أن «العلم الصحيح يؤيد الحرية ويمقت الرق »، وهو مايفهم منه أنه لم يؤيد الحجاب لأنه عنده نوع من الرق والاستعباد الذى لايزال قائما ، وقد استطرد من هذا الى أن «رقى المسلمين رهين بأن يرجعوا الى أصول دينهم الذى أهملوه .. »(١٠٢) .

ويلحظ أن موقف طه حسين تركز على محورين اثنين :

أولا . حرية المرأة

ثانيا . تربية المرأة

أما بالنسبة الى حرية المرأة ، فقد راح يؤكد ان الاسلام « لم يأخذ بحجاب ولا نقاب »(١٠٣) ، متعمداً ترديد هذه العبارة فى كتاباته التالية بشكل حرفى أو بتورية ، وهو

(١٠١) الهداية ، ينار ١٩١١ مقالة (كلمات فى المرأة) ، ايضا : السيد تقى الدين ج١ ص ٤٤/٣٩ ، ايضا : انور الجندى ، السابق ص ٤٩

(١٠٢) الهداية ، السابق

(١٠٣) لخص حكمة الاسلام فى المرأة وحريتها ، فقال :

(لافرق بين المرأة والرجل فى الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق منهى عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه . فالمرأة لاتخلو بالأجنبى ولاتسافر وحدها ، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى . ولها بعد ذلك أن تفعل ماتشاء فى غير إثم ولا لغو . لها أن ترفع النقاب وتطرح الحجاب ، وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل ، وليس عليها الا أن تقوم بما احدث به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الانسانى كافة) الهداية ، ١٩١١/١ ، ايضا يمكن العودة الى سورة الأحزاب/٥٣ ، وابن كثير ، تفسير القرآن ج٦ ، ص ٤٤٦/٤٤٠

مايؤكد أنه لم يلتزم التفسير الظاهرى للآية القرآنية التى نزلت من أجل حجاب زوجات الرسول (فسئلوهن من وراء الحجاب) ، اذ أن التفسير الصحيح للآية يؤكد على أن الذى خصص بها زوجات الرسول ــ ص ــ على اثر حادثة وقعت ، فحضت الآية على عدم الدخول الى نسائه او التحدث اليهن بالكلية ، فاذا كان لابد من الحديث فلابد أن يكون من وراء حجاب ، وعلى هذا النحو ، فان موقف طه حسين هنا يبدو متحررا بالنسبة الى عصره .

لقد كانت المعركة ضد الحجاب فى هذا الوقت على أشدها بين أنصار الحجاب وأعدائه ..

اما موضوع (الزواج) ، فقد كان رأى طه حسين فيه صريحا فى هذا الوقت اذ رفض تماما الزواج من (أجنبيات) مسهبا فى التحمس لوجهة نظره والدفاع عنها الى حد كبير . وهو مايؤكد أن موقف طه حسين لم يكن ليزيد على موقف سلفى ممن كثروا فى هذا الوقت ، وهذا لايضيف لفكره اية قيمة فى وقته .

ومن الطريف ان طه حسين فى موقفه هذا لم يدع الى زواج المسلم من (كتابية) ، مشددا على تقليد الأجانب الذى أصبح «محببا على نفوسنا ، مستحسنا منها .. فنحن نقلدهم فى الحسن والقبيح ، ونقفوا أثرهم فى النافع والضار ، وليس لنا من قوة الأنفس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد »[(١٠٤)] ، وقد اعقب الدفاع عن حرية المرأة الدفاع عن تربيتها التربية الصحيحة ، فتعليمها هو أكبر ضمان أكيد للحصول على حقوقها ، اذ يظل التعليم الضمان الوحيد لتأكيد فهمها لأسباب وجودها ، ثم لفهمها كجزء من القاعدة الاجتماعية فى اى مجتمع .

على أن موقفه من التربية خاصة تبلور بعد عودته من البعثة ..

فبعد أن عاد من الغرب حتى زاد تحمسه لحقوق المرأة وخاض معركة تربيتها والدفاع عن هذا الرأى ، فالتعليم لازم للتقدم والرقى ، وقد زاد هذا الرأى ترديدا فى فترة الثلاثينات

(١٠٤) ويضيف .. (يجب علينا ان نحتاط كل الاحتياط فى استعمال هذا الحكم ، أى اباحة تزوج المسلم بالكتابية . ولست أرى على من بأس ان قلت انه الآن حرام ممقوت .. ماذا تكون نتيجة هذا الزواج ؟ لاشىء الا أن يصبح الرجل وبيته وأبناؤه وبناته اوروبيين فى كل شىء اللهم الا افراد افذاذ) الهداية ، السابق .

حين كان يحيا فترة تربص الأعداء به ، وكراهيتهم له بشكل ملحوظ ، وتسقّطَ افكاره لمحاربته بها ، اذ اخذ يولى اهتماما كبير لتربية المرأة ، فنادى «بحق المرأة فى التعليم حتى أكبر الدرجات العلمية » ، فى الوقت الذى شارك فيه فى ضرورة « اباحة التعليم العالى للفتاة العربية »[١٠٥] .

وقد تمثلت ثمرة كفاحه حين قبلت كلية الآداب عدداً من الفتيات لأول مرة فى تاريخ الكلية ، كما لم يتردد فى تقديم الفتاة الجامعية الى الجمهور لأول مرة فى حفل اقيم خصيصا لهذه المناسبة فى (الاتحاد النسائى) ، والأكثر من هذا ، أنه اتاح لبعض الفتيات فرصة السفر والدراسة فى باريس .

وقد واجه طه حسين الكثير من المتاعب لموقفه من المرأة .. فحين اشتد الجدل حول اختلاط الطالبات بالطلبة فى الجامعة ، ووجهت اليه اتهامات مدبرة من اسماعيل صدقى ورجاله اذ اتهم « بالاختلاط الجنسى فى معاهد التعليم »[١٠٦] ، بل إن كلية الآداب تُسمَى فى هذه الفترة بكلية (العواهر) ، كما يعاب عليه أنه قبل ثلاثمائة طالبة وهو عميد للكلية ، كما أثيرت ضده أكثر من مظاهرة من جراء دفاعه عن قضية تعليم المرأة واحترام حقوقها التى تساوى عنده حقوق الرجل « عقلا وقلبا وشعورا وضميرا . فهى تفكر كما يفكر الرجل ، وهى تشعر كما يشعر .. وهى تحب الخير كما يحب »[١٠٧] .
يفكر الرجل ، وهى تشعر كما يشعر .. وهى تحب الخير كما يحب »[١٠٧] .

والملاحظ هنا أنه بينما دعا الى حرية المرأة وتعليمها فى بداية هذا القرن (١٩١١) ، فان نفس الدعوة تكررت ، بشكل يكاد يكون بحروفها وألفاظها ، بعد ذلك بقرابة نصف قرن ، اذ أنه راح يردد نفس الأفكار عن المرأة ويتحمس لها كثيرا .

وتحمس طه حسين لتربية المرأة وتعليمها بلغ به أنه كان يذهب الى مدرج الكلية وتصحبه زوجته ليدخلا فى نقاش مع الطالبات لتغيير بعض العادات القديمة ، وموقف طه

(١٠٥) الجمهورية ٥٤/٣/٢٦

(١٠٦) مضبطة مجلس النواب جلسة ٣٢/٣/٧ ، وقد تعرض لهجوم الرافعى العنيف من جراء سياسة التعليم فى مقالته (شيطان وشيطانة) ، وحى القلم ١٩٧/١٨٩

(١٠٧) الجمهورية ، ٥٤/٣/٢٦

حسين «المتحرر من تعليم المرأة كان وراءه التفسير الذى يمكن الخروج به من احتفاله بتخرج الطبقة الأولى من الفتيات من كليتى الآداب والحقوق وظفرهن بدرجة الليسانس ، وهذا الحماس الشديد نجده فى مقالته التى وضع لها عنوان (فوز) ، اذ رأى فى هذا الفوز « حدثا خطيرا فى حياتنا المصرية والعقلية والاجتماعية ، واى فوز عظيم هذا الفوز لأنصار الرقى والنهوض وأصحاب تحرير المرأة والتسوية بينها وبين الرجل فى الحقوق والواجبات . اى أمل عظيم وسط هذا الحادث أمام المصريين فى ان يروا انفسهم كغيرهم من الأمم الراقية لايحتفى فيها بالعلم فريق دون فريق ، ولا يحتكر الثقافة فيهم جنس دون جنس ، ولايحتفظ فيهم الرجل بما كان يحتفظ به من أسباب القوة والعصر والسلطان »[١٠٨] .

ويفهم من دعوته الملحة الى مساواة الرجل بالمرأة ان يجعل من المرأة «نداً للرجل » ، ومن ثم ربط مشكلة المرأة بالتخلف وتدهور المجتمع ؛ فالاصلاح الاجتماعى لديه حين يتحدث عن المرأة انما هو الاصلاح فى مجالاته العامة والخاصة ، وهو مايفهم من قوله « حققوا العدل بين الناس فى الغنى والفقر وفى الاستمتاع بلذات الحياة والاحتمال لآلامها ومشقاتها وفى الاستمتاع بالحق والنهوض بالواجبات وانشئوا للحكم وتحقيق العدل ونشر التعليم والعناية بالصحة العامة أدوات صالحة مستقيمة ، وثقوا بأن هذا كله سيصلح شئون الرجال والنساء جميعا .. لأن الرجال والنساء يشقون جميعا شقاء مشتركا بحياة قوامها البؤس والضنك والعلل والأمراض »[١٠٩] .

وتصل سعادة طه حسين بتعلم المرأة الى درجة ان يصرح معها بمناسبة تخرج المرأة فى الجامعة لأول مرة ، انه لو عاش قاسم أمين الى هذه الأيام لوجد فى هذا الفوز «عزاء عما لقى فى حياته من أذى ، وما احتمل فى دعوته من مكروه »[١١٠] .

والأكثر من هذا كله ، أن طه حسين جاوز تحمسه لتعليم المرأة الى إتخاذ موقف إيجابى آخر تلخص فى تحمسه لحقوق المرأة السياسية ، فهو لايساوى بين المرأة والرجل فى المشاعر العامة وحسب ، وانما يضيف أحقيتها للمشاركة فى السياسة ، يقول «لست

(١٠٨) كوكب الشرق ٣٣/٧/٢٦

(١٠٩) من لغو الصيف ص ١٥٧

(١١٠) كوكب الشرق ، السابق

اعرف ان الاستمتاع بالحق السياسى يتجاوز طاقة المرأة .. ولست اعرف فى استمتاعها بالحق السياسى فسادا فى الأرض »[١١١] .

ولايمكن ان نشير الى موقفه من المرأة دون ان نشير الى هذا فى مؤلفاته ، فالأفكار والشخصيات والأحداث ترتبط بالمرأة بأبعاد اجتماعية ملحوظة ، فهناك جميع وجوه المرأة سواء أكانت الأم الصعيدية أو الغازية أو اللعوب .. الى غير ذلك[١١٢] من صور المرأة . وتلتقى الشخصية مع الحدث الاجتماعى ، فهو لايتردد فى التنديد بجريمة (هتك العرض) فى أكثر من موضع فى أعماله[١١٣] ، كما يتناول الجنس تناولاً هادفا هادئا بغرض الاصلاح وفى ألفاظ محتشمة ، ليس فيها الاثارة ، ولايبقى منها غير الفكرة التى ارادها .

وهنا نصل الى قضية ثانية .. ..

ومن أهم القضايا التى أولاها طه حسين اهتماما فرض عليه فرضا كانت قضية (رجل الدين) ، ورجل الدين .. هو مصطلح أطلق على رجال الدين المعروفين فى الكتاتيب أو المتخرجين فى الأزهر ، والذى أطلق عليهم لفظة (المشايخ) فى أعماله[١١٤] .

ورجل الدين مفهوم له معنى خاص به فى عالم طه حسين ، حيث أشار الى نماذج عديدة من رجال الدين سواء فى (الأيام) أو (شجرة البؤس) و(أديب) و(فى الصيف) ، كما أثيرت قضية رجل الدين سواء فى (الأيام) فى الضجة التى عرفها كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، وقد انتهى هذا كله بمفهوم خاص يجاوز به عديداً من سمات رجال الدين المعروفين ، فهم عنده يجاوزون اولئك الذين يقومون بالقاء الدرس بشكل منتظم بالجامع الأزهر ، الى الذين عرفوا خارج الأزهر :

— إما نالوا قسطا غير محدد من العلم وكانوا يعرفون بالمشايخ

— أو الذين يعرفون فى كتاتيب مصر وقراها

— أو أولئك الذين نالوا قسطا متباينا من العلم

(١١١) الجمهورية ٥٤/٣/٢٦ ، ايضا : المصرى ٤٩//٢٦

(١١٢) طه حسين ، عدد الهلال ، ص ٢١٤ — ٣٨

(١١٣) فى دعاء الكروان ، وماوراء النهر ، والمعذبون فى الأرض .

(١١٤) الظواهرى ، ص ٤٥ ، ايضا انظر : مجتمع علماء الأزهر للدكتور عاصم دسوق ، ص ١٠ .

غير أننا يمكن أن نطوى كل هذه الظلال لنعيد توزيعها فى نوعين من رجال الدين كما يراهم فى التحديد الأخير ، على النحو التالى :

ـــ إما رجل دين جاهل أو غير جاهل

ـــ إما رجل دين واع مستنير الفكر والوجدان

وهنا ، سنحاول الاشارة الى ملامح رجل الدين السلبى لنصل منها الى ملامح رجل الدين الايجابى عنده ، وسوف نكشف من نماذج رجل الدين غير الفعال هذه النماذج :

هناك الحاج الذى «كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح ، والذى كان متصلا بشيخ من كبار اهل الطرق ، والذى كان يزدرى العلماء جميعا ، لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ »(١١٥) ، وهناك شيخ آخر « كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى ، وأثرى على حساب الضعفاء »(١١٦) ، ثم كان هناك من لايقرأ أو يكتب ولكنه كان « يجمع الناس الى الذكر ، أو يفتيهم فى أمور دينهم ودنياهم »(١١٧) ، وهناك أمثلة كثيرة لرجل الدين السلبى تصل الى العشرة أو تزيد..

وكما التقى طه حسين بكثير من انماط رجل الدين ، الجاهل والسيىء ، كذلك ، التقى بكثير من انماط رجل الدين الواعى والمستنير ، فعلى الرغم مما يردد من أن لاعلاقة كبيرة بينهما ـــ طه وعبده ـــ وأن ثمة مايشوبه الغموض أو عدم الارتياح يسيطر على هذه العلاقة ، فان الذى لاشك فيه هو أن محمد عبده كان قد ترك فى أعماق الصبى ثم ، الفتى ثم ، استاذ الجامعة أثرا لايمحى .

إن طه حسين لم يسمع من الشيخ محمد عبده سوى درسين اثنين فقط ، ألقاهما هذا الأخير فى شتاء ١٩٠٥ ، ومع ذلك فانه لايخلو من دلالة كبيرة ان نجد ذكر الشيخ محمد عبده فى (الأيام) قرابة ثلاثين مرة، إما معجبا به وإما مثنيا عليه ، او ذاكراً له فضل أحد

(١١٥) الأيام ، ج١ ص ٨٥

(١١٦) السابق

(١١٧) السابق ص ٨٦ ، ايضا انظر نماذج عديدة لرجل الدين السلبى فى : ص ٩٦/٨٨ ، ١١٠ ، الأيام ، ج٢ ص ٤٧/٤٦ ، ٧٧ ، ١٣٣ ، ج٣ مواضع متفرقة وخاصةفى الفصل السادس .

تلامذته النابهين هنا وهناك ، على أنه يجب التشديد على ان تأثير محمد عبده عند طه حسين كان يقترن عنده دائما بتطلعه الى الجديد وتمرده على القوالب التقليدية فى الأزهر ، وهو ما يؤكد أن تأثير الإمام لم يكن مباشراً ، وإنما كان تأثيراً فى معنى التعبير وضرورته(١١٨)

على أن المهم هنا ، أنه برصد الصور الايجابية والسلبية لهذه الشخصية ـــ رجل الدين ـــ يمكن فهم الكيفية التى رسم بها ملامحها ، فهو يغلو احيانا فى درجة السلبية بشكل يصل فى بعض الأحيان الى درجة السخرية الشديدة ، والتى توحى بتأكيد الدلالة فى الجانب السلبى خاصة ، اذ يلاحظ أنه فى الوقت الذى يرسم فيه الصورة السلبية ، فانه يرد بها فى تواز مع الصورة الايجابية لرجل الدين أن تؤكد الصورة الايجابية وتشير اليها .

(١١٨) .. وعلى سبيل المثال ، فحين يأتى اسم محمد عبده فى اللوحة الثامنة ـــ جزء اول ـــ فانه يأتى فى عرض الحديث عن الطلبة من رواد الأزهر الذين (يضيقون بكتب الأزهر ضيقا شديدا ، فيتأثرون بذلك برأى استاذهم ـــ الامام ـــ ضمن كتب الأزهر ومناهجه . وكانوا يسمعون من الأستاذ الامام حين يشهدون دروسه او حين يزورونه فى داره أسماء كتب قيمة فى النحو والبلاغة والتوحيد والأدب ايضا وكانت هذه الكتب القيمة بغيضة الى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها ، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الامام قد دل عليها ونوه بها) ، الأيام ج٢ ص ٦٤ .

وفى موضع آخر ، حين يتحدث الناس عن المدرسة التى انشأها الشيخ رشيد رضا بعد وفاة الامام لإرشاد المسلمين الى دينهم الصحيح يضيف :

(وقد ضاق المجددون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق ، وسخطوا عليها أشد السخط) ، الأيام ج ٣ ص ١٢

وهو فى موضع ثالث حين يذكر عبد العزيز جاويش يقول عنه (أنه كان يمقت من الشيخ رضا ممالأته للخديوى وانحرافه عن طريق الأمام) ، السابق ص ٢٤

ومن هنا ، يبدو ان تأثير الشيخ الامام فى اعماقه لم يكن تأثيرا مباشرا ، فهو لم يعتنق مبادئه او سار على دربه على الأقل فى فترة متأخرة من حياته ، وإنما كان تأثيرا فى معنى التغيير وضرورته ، وهو يلتقى فى حقيقة الأمر مع طبيعته التواقة الى التغيير المتمردة على التقليد .

(انظر كتابنا . طه حسين .. المثقف وثورة يوليو) .

وعلى أية حال ، فان قضية رجل الدين عنده ترسم خطوط الفكر الليبرالى فى إطاره الغربى ، ممتزجا بالرغبة فى الاصلاح الذى يتواءم مع البيئة المصرية .

وهو مايصل بنا الى القضية الثالثة ..

اذ يلاحظ أن البحث عن حلول للقضية الاجتماعية عند طه حسين دفعت به الى العودة الى الأصول للبحث فيها عن حلول ، أو لأخذ العبرة منها ، وبمراجعة أعماله يتأكد لنا هذا الروح الاسلامى الذى كان قد تسرب فى كتاباته هادئا منسابا أول الأمر فى كتابيه (الأيام) و(أديب) ثم فى اسلامياته منذ الثلاثينات خاصة ، ومالبث ان تسارع وتهدر خاصة فى فترة الأربعينات ، اذ يندر ان نفقد هذه الروح قط ، فنحن أمام هذه المؤثرات فى (دعاء الكروان) و(شجرة البؤس) و(صوت ابى العلاء) و(جنة الشوك) و(آراء حرة) و(ماوراء النهر) و(الفتنة الكبرى) و (المعذبون فى الأرض) و(الوعد الحق) وفى اغلب مقالاته التى كتبها فى العقد الرابع .

وهنا يفرض السؤال نفسه :

هل عاد طه حسين الى الاسلام بقصد البحث فيه عن (نظرية) اجتماعية ، أم بقصد استلهام العظة ؟

وهل كان الاسلام فى كتاباته هدفا من اهدافه

فى البحث عن صيغة اجتماعية معاصرة ، أم كان وسيلة يؤكد بها صحة المنهج الليبرالى فى التفكير ؟

نعتقد ان نظرة طه حسين الى الدين لم تتغير قط طيلة حياته سواء فى العشرينات او الثلاثينات او الأربعينات ومابعد ذلك .

وبشكل واضح ، لقد ظل الفكر الاجتماعى عند طه حسين مع تطور الزمن وحدوث الطفرة الاجتماعية فى الأربعينات كما هو ، ليبراليا ، فى جوهره ، سواء فى التعرض للنظام القائم بشكل مباشر أو فى العود للتراث الاسلامى بقصد البحث فيه عن وسيلة يستطيع بها تمرير فكره الغربى — وهذا يلتقى مع الرأى القائل فى ان طه حسين لم يتعد فى محاولاته فى سرد تاريخ الاسلام الشكل الذى يرضى الحاسة الشعبية ، كما يمكن من التدليل به ومنه فى الوقت نفسه على ضرورة الأخذ بالنظم الغربية كما يفهم من كتاباته الاسلامية .

فلنحاول الاجابة عن السؤال الذى طرحناه آنفا من خلال النصوص ..

قد يكون من المفيد ان نشير الى أن التشدد الفكرى عند طه حسين فى العشرينات بدا يقلل من غلوائه رويدا رويدا منذ الثلاثينات ، وهو ماتمثل فى تقليله من دور الجبر التاريخى ،ونضج رؤيته المتغيرة حول دور العقل ومكانته ، وقد ظهر هذا الفهم الجديد فى موقفين اثنين .

احدهما ، حين رأى ضرورة اقتباس الحضارة الأوروبية كاملة غير منقوصة ، بخيرها وشرها ، يقول « يجب مجاراة الأوروبيين فى سيرتهم التى انتهت بهم الى الرقى والتفوق »[119] ، وهو مايعنى استحالة تجاهل التجربة الغربية وهو ماأسهبنا فيه فى غير هذا الموضع .

وثانيهما ، الاجتماعى خاصة ، فقد ظهر اكثر وضوحا فى الأربعينات ، فالتجربة الاسلامية فى العصر الزاهر كانت تجربة مفيدة أشاد بها كثيراً رغم إخفاقها ، فقد كان لابد لها أن تخفق فى رأيه لأنها «أجريت فى غير العصر الذى كان يمكن أن تجرى فيه »[120] .

وهو يجاوز مسألة الخلافة الى مسألة العدالة الاجتماعية ، اذ يؤكد ان المطلب الاجتماعى ، المثالى ، الذى طبق فى العصر الزاهر للاسلام يستحيل تحقيقه فى هذا العصر لأكثر من سبب لعل من أهم هذه الأسباب ان الضمير الدينى الذى أتاح لأولئك المصلحين الأوائل اجراء اصلاحاتهم ليس من المفروض ان يرثه الأحفاد ، يقول «ليس من المكفول ولا من المحتوم ان يرثه منهم الأبناء والحفدة ، فالذين اتصلوا برسول الله اتصالا قريبا ، تعلموا منه وتأدبوا بأدبه ، خليقون ان يتأثرون فى سيرته وان يتمثلوه كلما عملوا او قالوا او فكروا ، فأما الأجيال التى تأتى بعدهم من الأبناء والحفدة فقد يتأثرون بهم وقد لايتأثرون »[121] ؛ فاذا خلص الى النتيجة ، استحالة عودة النظام الاسلامى فى عصره الزاهر ، فانه يتوقف عند السبب الرئيسى فى هذا ، فان أولئك الخلف للحكام لم يتصلوا بالنبى قليلا أو كثيرا أو يتأثروا بفلسفته أو مبادئه التأثير المباشر «فليس غريبا الا يتاح

(١١٩) مستقبل الثقافة ص ٤٨
(١٢٠) الفتنة الكبرى ص ٥
(١٢١) السابق ص ٣٨

لضمائرهم الدينية من اليقظة والقوة والحياة مااتيح لخاصة النبى وصفوة اصحابه الأقربين » ، فلا يكفى ان يكون للحاكم الضمير الحى والتضامن مع المحكوم ، وإنما «يجب أن يكون لرعيته حظ من هذا الضمير الحى اليقظ ، ومن حب العدل وايثار المعروف »[١٢٢] ،

وهى كلها شروط لاتوجد لتقادم العهد وتطور الأزمنة .

وعلى هذا النحو ، فان تجربة طه حسين الاسلامية هنا تؤكد على أنه لم يعَدُ الى الأصول لاقتفاء أثر التجربة الاسلامية والافادة منها واستلهامها ، وإنما ليؤكد حقيقة ان الاسلام مع نبله وقيمه ومثاليته ، لن يعود الى صفائه الأول وعصره الذهبى لايريد رجالا كالرجال ولا ناساً كالناس بل يحتاج الى أولى العزم واين هم فى نظره »[١٢٣] ، ولأن حال العالم الاسلامى الآن متخلف ، فانه لايمكن قط اللحاق بركب الحضارة والتقدم وفرض تجربة اجتماعية جديدة ، واذن ، لابديل قط ، عن إتباع التجربة الليبرالية المتقدمة .

هذه الفكرة تمثل الخط الأول والرئيسى فى كتاباته الاسلامية والاجتماعية خاصة فى الأربعينات ، وهو لايتوقف عن الإسهاب فيها كثيراً .. فالماضى لديه لايعدو ان يعنى شيئاً واحدا هو على حد قوله «الفخر بالقديم ونلتمس فيه العبرة والعظة أيضا ، وقد نلتمس فيه مايدفعنا الى الجد ويثير فينا النشاط ويعزينا عن بعض مانلقى بما لايلائم كرامتنا ولايوافق مجدنا القديم »[١٢٤] ، ومن هنا ، فان الماضى لديه لايشكل إحياء هذه الحركة الاجتماعية القديمة أو التعصب الى مافيها من أحداث تنتمى الى الوجدان العربى ، وإنما لاتعدو محاولته ان تكون «تاريخا حافلا عظيم الغناء »[١٢٥] ، كما أن هذا التاريخ وعصوره إن صحت «كانت لنا عزاء ، وهى إن لم تصح أتاحت لنا أن نحلم »[١٢٦] .

ويؤكد هذا مايلحظ حين يتحدث طه حسين طويلا عن الصراع بين العدل والحرية فى العصر الحديث فإنه لايذكر قط تجربة الاسلام كتجربة رائدة لابد أن يستفاد بها ، وحتى اذا مابرقت هذه التجربة فى خياله فى نهاية المقالة الطويلة ، فانه لايذكر غير

(١٢٢) السابق ص ٣٨

(١٢٣) يوسف نور الدين ص ٣٥٧

(١٢٤) مقال (ثورتان) ، الكاتب مايو ٤٦

(١٢٥) السابق ص ١٦٧

(١٢٦) المعذبون فى الأرض ص ١٧٩

رائدها (عمر) ذاكرا معه كلمات الشاعر الذى رثاه بنظم ذى مغزى بما يعنى استحالة تكرار التجربة الأصولية ، فقد قال هذا الشاعر :

عليك سلام الله من إمام ، وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يسع او يركب جناحى نعامة ليدرك ماقدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق فى أكمامها لم تفتق[(١٢٧)]

واذن ، فان التاريخ ، والتاريخ الاسلامى الذى يعود اليه طه حسين من آن لآخر لايعدو لديه أن يقصد العظة أو العبرة ، وأيضا لايزيد على أن يكون وسيلة — كما يقول — لكى «ننسى العصر الذى نعيش فيه ، والى أحاديث القدماء لنتسلى عن سيرة المحدثين » وحسب

وهو ، مايعنى ، ايضا ، هو ، العزاء الذى يفر فيه مما يلاقى من عنت وإرهاق وإملاق وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التى اصبحت سمة مميزة للتاريخ المصرى فى هذا الوقت .

ولعل هذا هو السبب الذى دفع بجاك برك[(١٢٨)] حين حاول تحديد فكر طه حسين فى دوائر ثلاث ، أن يرسم الخطوط الدائرة بالترتيب التتابعى ، فبينما مثلت الدائرة الأولى التقاليد والعادات التى تلخص المحلية وتنحصر فيها ، ومثلت الدائرة الثالثة السمات العالمية الانسانية ، فان الدائرة الوسطى بينهما مثلت المساحة الشاسعة للفكر الاسلامى ، وهو مايتأكد معه أن دائرة الفكر الاسلامى مع سموها ونبل مبادئها ، فإنها فى حالة البحث عن صيغة انسانية للفكر العربى لاترقى الى الدائرة العالمية ، قط ، وإنما لها دائرتها التى تدور فيها ، كما أن للفكر الانسانى دائرته التى يدور فيها .

قد تحتوى الدائرة العالمية الدائرة الاسلامية ، غير أن الدائرة الاسلامية لاتحتوى التجربة العالمية التى جاءت نتاج حضارة الغرب ومنهجه الحديث .

ويمكن أن نعرض النتائج التى أثيرت هنا على النحو التالى :

يلاحظ أن طه حسين فى الفترة التى سبقت سفره الى باريس كان محافظا

(١٢٧) مقالة (العدالة والحرية) الكاتب ٤٦/٧

(١٢٨) Jaque berque, Ibid

وعصريا معا ، محافظا فى بعض الأفكار التى تبناها كالزواج من أجنبيات ، وكالحفاظ على الزى الشرقى ، وعصريا فى بعض القضايا الأخرى كقضية المرأة التى دعا فيها الى حرية المرأة وحسن تربيتها ، غير أنه بعد أن عاد من البعثة ارتد عن بعض هذه الأفكار الاجتماعية ، فتزوج من أجنبية ، وارتدى الزّى الغربى ، أى ، تبنى الليبرالية فى مظاهرها ..

فى الفترة الأولى ، بعد عودته من أوروبا ، بدت آثار الليبرالية فى إتجاهه الفكرى ، وإن لم يول القضية الاجتماعية اهتماماً كبيراً فى العشرينات ، ومالبث ان توازى تطوره السياسى مع تطوره الاجتماعى ، مما بدا معه واضحاً أن المؤثرات الاجتماعية كانت نتاجا من التطورات فى الجانب السياسى الذى غذته مواقف شخصية من سياسة صدقى بشكل شخصى ، ففى الفترة التى شهدت تضييق اسماعيل صدقى عليه ، شهدت انتقاله من طور التجديد الفكرى الى طور التجديد فى المجتمع وإن اتخذ تطوره الاصلاحى أول الأمر اتجاه رد الفعل لما يحدث على الساحة السياسة .

على أن القضية الاجتماعية شهدت فى الأربعينات طفرة عالية ، فقد كان لابد لطه حسين أن يتواءم مع الحركة الشعبية التى صهرتها الحرب العالمية الثانية ، ويتواءم مع الحركة الاشتراكية التى شهدت أوْج تطورها فى هذه الفترة وإن لم يتخذ طه حسين اطارا مذهبيا خاصا به .

يلاحظ ان السنوات التى شارك فيها طه حسين فى القضايا الاجتماعية كانت هى السنوات التى شهدت انعزاله السياسى ، بمعنى أنه لم يكن منتميا لحركة الحزب الذى يحظى بأغلبية فى الحياة السياسية ، ومن هنا ، نفهم كيف كان تطور طه حسين الاجتماعى ناميا فى فترة الثلاثينات أثناء وجود اسماعيل صدقى ، ثم كيف تسارعت حركة طه حسين الاجتماعية فى الاتجاه الآخر ، فى فترة تولى وزارات الأقلية نهاية الأربعينات .

ويرتبط بهذا أن كتابات طه حسين الاجتماعية فى فترة الثلاثينات كانت فى كثير من جوانبها رد فعل لضغط اسماعيل صدقى ، ومن هنا ، فهى لم تعد أن تكون مشاركة برد الفعل وليس اقتناعا واعيا بالقضايا الاجتماعية وجذورها ، وقد امتزج رد الفعل فى الفترة الثانية ــ الأربعينات ــ بالمسحة الروحية بما يعنى ان طه حسين حاول فى هذه الفترة الغوص فى محيط التاريخ الاسلامى للخروج منه بصيغة اجتماعية جديدة للمطلب الاجتماعى المعاصر له ، غير أن هذه المحاولة كانت تدرك تماما أن أية نظرية لا [illegible] عن

الحلول الاجتماعية ورفع الظلم عن الطبقات الاجتماعية الفقيرة لن توجد فى الماضى الاسلامى ، وإنما فى الحاضر الغربى ، ولأن طه حسين كان ليبرالياً مخلصاً ، فان محاولته للعود الى التاريخ اقتصرت على العظة ، اى الوسيلة ، التى يمكن بها الوصول الى الغاية ، التى لاتخرج فى نهاية الأمر على النهج الليبرالى وان كانت قد جاوزته فى تعاملها مع قضايا البيئة المصرية .

ان محاولة طه حسين فى البحث عن صيغة جديدة لقضايا المجتمع خاصة القضية الاجتماعية ، لم تستهدف القوالب الغربية فتضع هموم المجتمع فيها ، وإنما حاولت الافادة من أية نظرية ، بما يعنى تكوين صيغة مضرية للقضية الاجتماعية بالشكل الذى يمكن أن تكون صيغة مصرية وعالمية فى الوقت نفسه .. وهذا يفسر أنه لم ينتم صراحة للمذهب الاشتراكى، كما لم يحبذ صراحة أيا من المذهبين: الرأسمالية أو الاشتراكية ، وقد كانت وسيلته لاستكمال مظاهر البحث عن رؤية اجتماعية سمة التفكير العملى ، كالم يعدم أية وسيلة الا واستعان بها فى التغيير الاجتماعى حتى ولو كان (الرمز) ، فراح يستلهم الرمز المباشر وغير المباشر ليستكمل الرؤية .

وعلى الرغم من أننا لانعدم خيوطاً اجتماعية واضحة لطه حسين طيلة الأربعينات وقبل ذلك بقليل ، فإنه يمكن القول ، صراحة ، أن جهده فى الناحية الفكرية كان أكثر منه فى الناحية الاجتماعية ، فما فعله فى الجانب الاجتماعى كان رد فعل المرحلة ، كما أن الجانب الاقتصادى لم يحظ منه باهتمام كبير ، وهو مايمكن التسليم معه ، أن أعمال طه حسين تفتقد هذه المعرفة التفصيلية بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية ، وتحدد خطوطها العامة ، والبحث لها عن حلول يمكن معها القول أن طه حسين صاحب نظرية فى القضية الاجتماعية أو فى تطور المجتمع يمكن التعويل معها على التغيير .

خاتمة

ولد طه حسين بإحدى قرى محافظة المنيا لأسرة تنتمى الى الطبقات الفقيرة ، فعانى من الفقر والمرض ، وأصيب بالآفة التى أودت ببصره ، ووجه كغيره من أبناء طبقته الى الإلمام بمبادىء العلوم الدينية والعربية قبل أن يرسل للأزهر .

وقد كان يمكن لطه حسين أن يتخرج فى الأزهر لولا أنه فى السنة الأخيرة فيه ، عام ١٩٠٨ ، تبرم بنظام الأزهر واتجه الى الجامعة المصرية القديمة فحضر دروسها حتى حصل منها على رساله مكنته من السفر فى بعثة اربع سنوات الى باريس .

وحين عاد الى مصر عام ١٩١٩ ، ليعين بالجامعة المصرية ، كانت البلاد تمر بفترة الثورة التى انحاز فيها الى حزب الأحرار الدستوريين المناوىء لحزب الأغلبية ، ومالبث أن تحول بعد ذلك الى حزب الأغلبية الذى عرف سعد زغلول زعيما له .

وبين عودة طه حسين وسقوط آخر وزارة وفدية كان وزيراً فيها تحددت أسباب إنتمائه الحزبى فى أكثر من اتجاه ، منها ، تأثير الروابط الأسرية التى كانت تربط بين عائلته وبين عائلة آل عبد الرازق ، وتبنى ريادات حزب الأحرار له بواسطة ريادته الفكرية وطرحها أمامه الفكر الليبرالى فى هذه الفترة ، كما كان طه حسين بطموحه تواقاً للمشاركة السياسية والعمل السياسى ، فقدم طلبا الى مجلس ادارة الجامعة الذى هو موظف فيها للتصريح له بالكتابة فى صحيفة (السياسة) .

ولعل من أهم الأسباب التى دفعت به الى المشاركة السياسية محنة فقد البصر ، التى عانى منها منذ فترة مبكرة فدفعت به الى «خصلة التصميم على اقتحام العقبات » ، فوجد نفسه ـــ كما يؤكد هو ـــ «اخاصم السياسة » .

وقد يكون الانسان بغير آفة ومع هذا يتمتع بهذه الخصال التى تدفع به الى المشاركة والاصلاح ، غير أنه مع الآفة تزيد درجة حساسيته وتدفعه دفعا الى شىء من (المغامرة) رغم ادراكه لها ، والتى يمكن أن يفسر بها كثيرا من مواقفه مثل تصميمه على نشر كتابه (فى الشعر الجاهلى) ، رغم إدراكه سلفاً عظم الضجة التى سيثيرها ، ولايخطىء قارىء (الأيام) ، هذا الاحساس الحاد الذى يريد به صاحبه ان يثبت وجوده لنفسه حتى ، لنرى، وكأن العاهة هى التى تعبر عن نفسها كما يؤكد جاك برك

ويشير برك حين يحاول تفسير مواقف طه حسين الى أن «المحن كانت أساسية فى حياته » ، متوقفا فى هذا عند محنة فقدان البصر مشددا عندها على أنها أول هذه المحن التى ألمت به فدفعته دفعا الى الاستجابة للتحدى القدرى الذى فرض عليه .

وفترة تحول طه حسين من حزب الأقلية الى حزب الأغلبية يشير الى بعض الملاحظات ، لعل من أهمها موقف صدقى منه الذى لم يكن هو الموقف الوحيد الذى دفعه الى التحول ، وانما أدت ظروفه الخاصة فيها لعل منها التضييق المادى الذى فرض عليه فدفع به الى حث الخطى فى طريق التحول الى درجة أنه قيل أن (كوكب الشرق) ، الصحيفة الناطقة بلسان الوفد دفعت له مبلغا كبيرا يعد «اكبر رقم حصل عليه صحفى فى هذا الوقت » ، كما كان طه حسين يدرك بحاسته ان حزب الأقلية كان فى طور الضعف بوفاة رواده الفكريين وتسلط رواده السياسيين المتبقين حين تولوا الحكم .

ومن هنا ،يمكن القول ان طه حسين فى فترة انتمائه الى حزب الأقلية كان مكرسا فكره لخدمة علاقاته ، وفى الفترة الأخرى كان مكرسا علاقاته وظروفه الشخصية فى خدمة أفكاره ، غير أنه يحمد له فى الحالين أنه لم يدافع عن حكومة رجعية يمكن أن تمثل قيدا على مقدرات الشعب وقضاياه .

وربما كانت الملاحظة العامة فى هذا الصدد أنه فى إنتمائه الى الأحزاب لم يجاوز الانتماء الفكرى الى الانتماء (الوظيفى) قط ، وهو ماالتسق مع تحوله السياسى (الأحرار الدستوريين/ الوفد) او تحوله الفكرى (السياسة/ الفكر الاجتماعى) .

واذا كان القصر والانجليز هما الضلعين الآخرين اللذين يمثلان مع الأحزاب مثلث الحكم فى مصر خاصة الفترة التى سبقت دستور ٢٣ ، فقد كان موقف طه حسين منهما مرتبطا اشد الارتباط بموقفة الحزبى ، وأخص مايتميز به موقفه من القصر ، حينئذ ، أنه فى السنوات التى تولت الحكم فيها الوزارات الملكية كان يوجه نقده الى القصر بايعاز من موقف حزبى خاص فى الفترة الأولى .

غير أنه لم يستطع الاستمرار فدفع الى دائرة التردد سيّما فى نهاية الأربعينات ..

ففى الوقت الذى كان فيه يوجه سهامه الى عنت الملوك وكراهيتهم للحكم النيابى فى كتابه (أحلام شهر زاد) ، كان لايستطيع الهجوم على القصر هجوما مباشرا ملتزما بخط حزب الوفد ، الذى كان يبدى للملك الاحترام والتأييد الكاملين ولم يفكر فى إشهار

عدائه للملك حينئذ ، وحين كان يكتب مقالة عنيفة ضد الملك ومساوئه ، فانه لم يغفل أن يغلفها بأسلوب رمزى يستطيع الملك بها الجزم بنية صاحبها .

غير أنه ماكادت الأربعينات تصل الى نهايتها ، ويختار طه حسين وزيراً فى وزارة وفدية حتى أسلمة التردد الى السقوط فى شباك الملك ، فتقتصر خطبه وكلماته على التركيز على القصر فقط بعبارات التقديس والثناء ، حتى يردد غير مرة أنه قبَّل يد الملك ، وغير مرة أن الملك رفض ترك يده ليقبلها طه حسين .

ولأن تسلط قوى الاحتلال وتدخلها فى شئون الحكم لم ينقطع قبل دستور ٢٣ وبعده ، فقد حاولنا رصد موقف طه حسين المعادى للانجليز ، وقد بلغ درجة العداءقبل الحرب العالمية الأولى وبعدها درجة كبيرة ، وان بدا أقل غلوا بين الحربين العظميين ، نظرا ، لأن معاهدة ١٩٣٦ قللت كثيراً من حدة الكفاح الوطنى ، غير أنه مع نهاية الأربعينات واكتشاف خداع قوى الاحتلال ومماطلتها دفع بطه حسين الى زيادة العداء مع الانجليز وإن ارتبط وعيه هذه المرة بوعيه الاجتماعى .

إن طه حسين الذى عرف كآخر مُمثلى الاتجاه الليبرالى فى الثلاثينات كان آخر مُدافع عن الحضارة الأوروبية فى هذه الفترة مُعاد لها فى فترة الأربعينات خاصة ، فبعد أن خيل اليه ان الفكر الليبرالى هو الفكر المثالى لاجراء التغيير الاجتماعى خاصة ، عاد أمام تعنت الانجليز واصرارهم بعد الحرب العالمية الثانية على التواجد العسكرى (بالقواعد) ، وأمام استفحال الواقع الاجتماعى .. عاد الى إنكار قيم الغرب مؤمنا أن وسائل حضارته لم تستطع أن تجد حلاً لما يعانى منه الناس فى كل مكان .

وهنا الفرق بين كتاب مثل (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى دافع فيه عن الحضارة الغربية ودعا الى احتذاء قيمها ، وبين كتاب آخر مثل (المعذبون فى الأرض) الذى هاجم فيه الحضارة الغربية وكفر بقيمها .

غير أنه من الخطأ الفادح أن نعتقد أن طه حسين تخلى عن الليبرالية بدءاً من الثلاثينات ، وإنما ظل ليبرالياً فى منهجه الفكرى والاجتماعى بوجه خاص .

فعلى الجانب الفكرى ، بدت ليبراليته فى قضايا كثيرة كقضية التعليم ، وقضية الصراع بين الفكرة الليبرالية والفكرة الاسلامية ، وإن آثر تطويع الفكر الليبرالى فى

كثيرمن الأمور على خدمة قضايا التغيير والاصلاح في بيئة شرقية اسلامية ، كما أكدت الليبرالية الاطار المرجعى للأيديولوجية القومية سواء تمثل هذا فى القومية المصرية او الاتجاه الى الفكرة العربية .

أما فى جانب الفكر السياسى ، فقد أبدى موقفاً محدداً فى تأكيد استقلال الدين عن الدولية وكراهيته للحكم المطلق مؤثراً الدستور مدافعا عنه مؤكداً فى نهاية الأمر أن العود للأصول الاسلامية إنما يكون بهدف (العظة) لا النقل لاستحالة تكرار التجربة الاسلامية ، وهو ما إرتبط الى حد كبير بموقفه من الشريعة والقانون ، إذ تبنى صراحة القانون الغربى ، وهو ماحاول خلاله تأكيد كثير من الأفكار مثل أن يكون الخلاص من الفقر والحرمان بالإصلاح للمسار الاقتصادى ، وذلك ، بالمساواة فى دفع الضرائب لا الاعتماد على مبدأ (الاحسان) كفكرة دينية ، داعياً فى هذ كله الى عدم الأخذ بهذا المبدأ .

والجدير بالذكر هنا هو جهده المستمر للعودة الى الأصول ، فهو فى الفكر السياسى يرجع دائما الى أصول يونانية لتأكيد حقيقة هامة ، هى ، أن اصل الفكر الواحد ، وماتجده فى الحضارة الغربية الآن لايعدو أن يكون حلقة من حلقات تطور الفكر القديم الذى ترتبط مصر به دون شك ، وهو مايميز طه حسين خاصة فى مجال البحث عن حلول لقضايانا المعاصرة .

وعلى الجانب الاجتماعى فان طه حسين فى ضوء المؤثرات الاجتماعية الغربية أو ارهاصات التغيير التى نادى بها بدا ليبرالياً صرفاً ، سواء فى دعوته الحثيثة لكشف البون الشاسع بين الفقر والغنى ، أو فى تلمسه للرمز الاجتماعى كوسيلة للتغيير ، أو — حتى — فى التعرض للقضايا الاجتماعية كقضية المرأة أو موقف رجل الدين أو كيفية العود للأصول الاسلامية للبحث فيها عن قيم غربية تستهدف قبل كل شيء البحث عن إجابات معاصرة للمطلب الاجتماعى .

وقد تميز عقد الأربعينات بالتركيز على القضايا الاجتماعية حتى أن المدقق فى أعماله الابداعية الرمزية من أمثال (ماوراء النهر) و(المعذبون فى الأرض) .. وغيرهما ، يجد معنى تحريضياً ، وأيضا شيئا أشبه (بانذار) موجه للقوى الاقطاعية .

على أن أكثر الأشياء دلالة بالنسبة اليه ، فهو وإن نجح فى وضع صيغة فكرية

للقضايا الثقافيةوالحضارية ، فانه فى الجانب الاقتصادى لم يستطع أن يصل الى هذه الصيغة نظراً لافتقاده الى المعرفة التفصيلية للقضايا الاجتماعية التى عاصرها .

غير أن موقفه السياسى قبل إقالة وزارة الوفد الأخيرة إختلف عنه بعد ذلك ، فبمجرد أن قامت ثورة ٥٢ حتى إستمر تأييد طه حسين لها ولرجالاتها دون تحفظات ، فهو تارة يبارك الجيش فيما فعل (الأهرام ٥٢/٨/٢) ، وهو تارة أخرى يؤيد ان تتحرك الثورة «لتحمى نفسها من جموح بعض الأقلام حتى تطمئن الى بلوغ غاياتها » (روزاليوسف ٥٣/٥/١٨) ، وفى تارة ثالثة لايتردد فى توجيه الشكر المباشر ، ولمرات معدودة « لحكومة الرئيس جمال عبد الناصر » مهنئا إياه بنجاته من محاولة الاخوان لاغتياله ، مسميا هذه المحاولة «بالشر العظيم » (الجمهورية ٥٤/٣/٣٠) .

ويتوالى تأييد الثورة فى كل مراحل تطورها ، فاذا ذُكر العهد السابق ذكر النفاق ، وذكر سأم مصر من هذا «النفاق للملوك وحواشى الملوك » ، متناولا بالقدح العنيف هذه الأنساب الكثيرة التى كانت تتردد للأسرة المالكة دون توجيه نقد واحد للقوى الجديدة .

ويتسق موقف طه حسين حينئذ فى الهجوم المباشر على الانجليز ، فهو لايتوقف فى كل مناسبة ذكر فيها عداءه للقوى البريطانية عن الهجوم عليهم متهما إياهم بالحمق وسياستهم بالتهويش (الجمهورية ٥٤/١٠/١ والأعوام التالية) وماأكثر المناسبات التى عمد فيها الى الهجوم ومسايرة الجو العام الذى يعيشه .

وهنا ، لانجد له موقفا سياسيا أو نقديا خاصا ضد الثورة أو ضد النظام والمؤسسات التى اقامتها ، كما لانجد لعلاقته بالقوى الجديدة أى رد فعل يشتم منه التصريح بموقف أو التلميح برد فعل ، وقصارى ماوجدناه عديدا من المقالات فى الأدب أو معارك الأدب والفكر والثقافة وما الى ذلك وقد فصلنا هذا كله فى كتابنا (طه حسين — المثقف وثورة يوليو) .

ومما سبق ، يمكن القول أنه منذ استقالت آخر وزارة وفدية فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ وكان طه حسين وزيرا فيها ، فانه لم يلعب أى دور فى الحياة السياسية المصرية زهاء عشرين عاما أو نيّف حتى رحيله فى ٢٨ اكتوبر عام ١٩٧٣

المصادر والمراجع

أولا : الوثائــق

أ ــ غير المنشورة

ــ دار المحفوظات العمومية بالقلعة .

محفظة رقم ٤٢/١٢/١١١/١٤٠ وتحتوى على ملف خاص (لطه حسين) من جزءين اثنين .

ــ دار الوثائق التاريخية بالقلعة :

ــ محفظة رقم ٦٤٤ وتحمل اسم طه حسين

ــ محفظة ديوان جلالة الملك ، رقم ٦ تلغرافات

ــ محافظ الأحزاب السياسية وتحتوى على ثلاث محافظ ، الأولى عن الحزب الوطنى وحزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والهيئة السعدية .. الخ ، محفظة خاصة بحزب الاتحاد ، محفظة خاصة بحزب الشعب وحزب الفلاح والحزب الوطنى وحزب الاتحاد .

ــ أرشيف جامعة القاهرة :

ويحتوى على محاضر جلسات محافظ من أهمها :

ــ محفظة رقم ٢ : محاضر جلسات ٢٠ يناير ١٩١٥ ١

ــ محفظة رقم ٢ : محاضر جلسات عام ١٩٢٢

ــ محفظة رقم ٢ : محاضر جلسات ١٩١٤

ــ محفظة رقم ٣ : محاضر جلسات ١٩١٤

ــ **مجموعة وثائق الخارجية البريطانية** Foreign office

وهى عبارة عن مطبوعات سرية مودعة بدار الوثائق العامة Public Record

office في Kew gardens بالقرب من لندن ، وقد استعنا منها بمجموعتين هما :
Further Correspondence

— مجموعة F.O. 407 بعنوان respecting the affairs of Egypt and the Suden وقد استخدمنا منها الرقم ٢٠٣ وهى فى عام ١٩٢٦ الذى كتب فيه نيفن هندرسون تقريره عن أزمة كتاب (فى الشعر الجاهلى) .

— مجموعة ملفات لموضوع واشخاص ، واستفدت منها بملف واحد ، هو ، ملف الاتحاد 141/819/17612

ب — منشورة

— جمهورية مصر : القضية المصرية ١٨٨٢/١٩٥٤
— طه حسين : قرار النيابة فى الشعر الجاهلى ، بدون
— مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة ، مؤسسة الأهرام : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ، القاهرة ٦٩ .

— مضابط مجلس الشيوخ : جلسات يوم ٦ يونيو ١٩٢٧ ، ويوم ٢١ مايو ١٩٢٨
— مضابط مجلس النواب : جلسات يوم ١٩٢٦/٩/١٣ ، ٢٦/١٢/١٣ ، ١٩٣٠/٥/٥ ، ٣٢/٣/٧ ، ٣٢/٣/١٦ ، ٣٢/٣/٢٨ ، ١٩٥٠/٣/٣١ ، ١٩٥٠/٣/١٢ ، ١٩٥٠/٣/٢٧ .

— محاكمات الثورة : القاهرة ٥٤ ، ج ٣

ثانيا : مذكرات وذكريات

أ ــ غير منشورة :

ــ مذكرات سعد زغلول ، وقد استعنا بالكراسة التى تحمل رقم ٤٧ فى صفحة ٢٧٧ ، ايضا الكراسة رقم ٥٣ فى صفحة ٣٠٠٧ ، وهى مودعة بدار الوثائق القومية .

ــ مذكرات عبد الرحمن فهمى ، وهى تقع فى ست محافظ من القطع الكبير ، فى الدار السابقة .

ــ ذكريات على علوبة باشا بعنوان (ذكريات اجتماعية وسياسية) ، وتقع فى محفظة واحدة تضم مجلدين ، ومودعة بالدار السابقة أيضا .

ب ــ منشورة :

ــ ابراهيم فرج : ذكرياتى السياسية ، دار المأمون للنشر ، اعداد حسنين كروم ، الجيزة ١٩٨٤ .

ــ جلال الدين الحمامصى : معركة نزاهة الحكم ٤٢ القاهرة ١٩٥٧ .

ــ سوزان طه حسين ، معك ، القاهرة ٧٤

ــ مذكرات فى السياسة المصرية : محمد حسين هيكل ، دار المعارف .

ج ١ ــ ١٩٥١

ج ٢ ــ ١٩٧٧

ج ٣ ــ ١٩٧٧

ــ احمد لطفى السيد : قصة حياتى ، الهلال ، بدون

ــ حسن البنا : مذكرات الداعى والداعية ، دار الشباب ، القاهرة ، بدون .

ــ صلاح الشاهد : ذكرياتى فى عهدين ، دار المعارف ط ١٩٧٦/٢

ــ فاطمة اليوسف : ذكريات ، روز اليوسف ١٩٥٣

ــ عبد الرحمن الرافعى ، مذكراتى ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٢

ــ على عبد الرازق (اعداد) اثار مصطفى عبد الرازق ، القاهرة ١٩٥٧

- قلليني فهمي : مذكرات قلليني فهمي ، مطبعة مصر ١٩٣٤
- ذكريات كريم ثابت : بعنوان (أسرار السياسة المصرية) نشرت فى صحيفة الجمهورية ١١ ــ ٢٩ يونيو ١٩٥٥
- محمد زكى عبد القادر : أقدام على الطريق ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ .
- فضلًا عن أعداد ضخمة من الدوريات والصحف .

ثالثا : المؤلفات والدراسات

أ ـــ العربية

أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة ، القاهرة ١٩٦٧ .

: حركة التجديد فى العالم العربى الحديث ، القاهرة ١٩٧١

: العلاقات المصرية البريطانية ١٩٥٢/٣٦ ، القاهرة ١٩٦٨

المجمعيون : مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما ، القاهرة ١٩٦٦ .

أحمد شفيق : الحوليات السياسية ، التمهيد ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٣٥ ، ج ١

أحمد بدير : الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ .

أحمد زكريا : حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٧٩ .

السيد نقى الدين : طه حسين آثاره وأفكاره ، القاهرة ١٩٧٨ .

ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ١٧٩٨/١٩٣٩ ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٦٨ .

أنور الجندى : المرأة فى حياة كتابنا المعاصرين ، القاهرة ١٩٥٥ .

: نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر ، القاهرة ١٩٥٧ .

: المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر فى مائة عام (١٨٤٠ ـــ ١٩٤٠) القاهرة ١٩٦١ .

: المعارك الأدبية ، القاهرة ١٩٦٦ .
: المساجلات والمعارك الأدبية فى مجال الفكر والتاريخ والحضارة ، القاهرة ١٩٧٢ .
: معارك الفكر العربى المعاصر ، القاهرة ، دون .
: الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ١٩٦٢ .
: طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام ، القاهرة ١٩٧٦ .
: عبد العزيز جاويش ، القاهرة ١٩٦٥ .

ابراهيم عبده : جريدة الأهرام ، تاريخ مصر فى ٧٥ سنة ، القاهرة ١٩٥١ .

أنور عبد الملك : الفكر العربى فى معركة النهضة ، ترجمة بدر الدين عردوكى ، بيروت ١٩٧٨ .
: المجتمع المصرى والجيش ، ترجمة محمود حداد ، وميخائيل خورى ، بيروت ١٩٧٤ .
: نهضة مصر ، القاهرة ١٩٨٤ .

إقبال على شاه : فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٣٩ ، ترجمة محمد عبد الحميد .

ايلز ليكتنسادتر : الاسلام والعصر الحديث ، ترجمة عبد الحميد سليم ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

بوتومور : الصفوة والمجتمع دراسة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، القاهرة ١٩٧٨ .

تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد فى مصر ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ١٩٣٥ .

جابر عصفور : المرايا المتجاورة ، دراسة فى نقد طه حسين ، القاهرة ١٩٨٣ .

جورج سباين : تطور الفكرى السياسى ، ج ٢ ، ترجمة حسن جلال العروسى ، القاهرة ٦٩ .

جمال سليم : البوليس السرى يحكم مصر ١٩١٠/١٩٥٢ ، القاهرة .

جابر الأنصارى : تحولات الفكر والسياسة فى المشرق العربى ١٩٣٠/١٩٧٠ ، الكويت ١٩٨٠ .

حسن يوسف : القصر ودوره فى السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٨٢ .

حمدى السكوت ود. مارسدن جونزأعلام الأدب المعاصر ، الجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ط ١٩٨٢/٢

رجاء النقاش : أدباء معاصرون ، القاهرة ٦٧

رشيدة مهران : طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

ساطع الحصرى ــ آراء وأحاديث فى الوطنية والتربية ، القاهرة ١٩٤٤

سامى الكيالى : مع طه حسين ، الجزء الأول ، القاهرة ٥٢ مع طه حسين ، الجزء الثانى ، القاهرة ٦٨

سامح كريم : معارك طه حسين الأدبية والفكرية ، بيروت ٦٨

: ماذا يبقى من طه حسين ، القاهرة ٧٧

: اسلاميات ، القاهرة ١٩٧٣

سهير القلماوى : ذكرى طه حسين ، القاهرة ١٩٧٤

شهدى عطية الشافعى : تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ــ ١٩٥٦ ، القاهرة ١٩٥٧ .

طارق البشرى : الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥/١٩٥٢ ، القاهرة ٨٣

طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ، القاهرة ، ط ١٩٦٨/٧

: آلهة اليونان ، القاهرة ١٩١٩

: صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان ، القاهرة ١٩٢٠

: نظام الاثينيين ، القاهرة ١٩٢٠

: فلسفة ابن خلدون السياسية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٢٥
: قادة الفكر ، القاهرة ، ط ٩ بدون
: حديث الأربعاء ، القاهرة
الجزء الأول ط ١٢ /٧٦
الجزء الثانى ط ١٢ / ٧٦
الجزء الثالث ط ١٢ / ٧٧
: فى الشعر الجاهلى ، القاهرة ١٩٢٦
: الأيام ، القاهرة
الجزء الأول ، ط ٥٥ ، ٧٧
الجزء الثانى ، ط ٢٦ ، ٧٧
الجزء الثالث ، ط ٤ ، ١٩٧٨
: فى الصيف ، القاهرة ١٩٣٣
: حافظ وشوقى ، القاهرة ١٩٣٣
: على هامش السيرة ، القاهرة
الجزء الأول ، ١٩٥٤
الجزء الثانى ، ١٩٥٠
الجزء الثالث ، ط ٩ ، ١٩٦٨
: أديب ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٧١
: القصر المسحور ، القاهرة ١٩٣٦
: من بعيد ، القاهرة ١٩٣٦
: من حديث الشعر والنثر ، القاهرة ١٩٣٥
: دعاء الكروان : القاهرة ١٩٤١
: مع المتنبى ، القاهرة ١٩٧٦
: مستقبل الثقافة فى مصر ، القاهرة ١٩٣٨
: مع أبى العلاء فى سجنه ، القاهرة ط ٢ بدون
: الحب الضائع ، القاهرة ١٩٧٧
: أحلام شهر زاد ، القاهرة ١٩٤٣

: صوت باريس ، القاهرة ١٩٧٦
: شجرة البؤس ، القاهرة ط ١٢ بدون
: ما وراء النهر ، القاهرة ط ٧ بدون
: صوت أبى العلاء ، القاهرة ١٩٤٤
: جنة الشوك ، ط ٧ ، القاهرة بدون
: فصول فى الأدب والنقد ، القاهرة ، ١٩٤٥
: فولتير : زاديج والقدر ، القاهرة ١٩٤٧
: المعذبون فى الأرض ، القاهرة ، بدون
: الفتنة الكبرى ، القاهرة .
الجزء الأول ، ١٩٦٨
الجزء الثانى ، ١٩٦٩
: رحلة الربيع ، القاهرة ١٩٤٨
: مرآة الضمير الحديث ، القاهرة ١٩٤٨
: الوعد الحق ، القاهرة ١٩٤٩
: جنة الحيوان ، بيروت ، ط ١٩٧٧/١
: بين بين ، بيروت ، ط ١٩٧٩/٩
: ألوان : القاهرة ١٩٥٢
: من هناك ، القاهرة ١٩٥٢
: خصام ونقد ، بيروت ، ١٩٥٠
: نقد واصلاح ، بيروت ، ط ١٩٧٩/٧
: من لغو الصيف ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ط ٥
: تقليد وتجديد ، بيروت ، ١٩٨١
: خواطر ، بيروت ١٩٧٩
: آراء حرة (بالاشتراك) ، القاهرة ١٩٤٥
: هؤلاء هم الاخوان (بالاشتراك) ، القاهرة ، بدون
: العدوان الثلاثى على مصر (بالاشتراك) ، القاهرة ١٩٥٦

: هذا مذهبى (بالاشتراك) ، القاهرة ، الهلال ، بدون

عاصم الدسوقى : مصر فى الحرب العالمية الثانية ، ١٩٤٥/١٩٣٩ ، القاهرة ١٩٧٦

عبدالله العروى الأيديولوجية العربية المعاصرة ، بيروت ١٩٧٠

عبد المنعم ابراهيم الجسيعى : طه حسين والجامعة المصرية ، القاهرة ١٩٨١

مجمع اللغة العربية ، دراسة تاريخية ، القاهرة ١٩٨٣ .

عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى الحياة السياسية المصرية

الحزء الأول ، القاهرة ٧١

الجزء الثانى ، بيروت ١٩٧٥

عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، تاريخ مصر القومى من ١٩١٤ ، ١٩٢١ ، جزءان ط ٢ القاهرة ١٩٥٥ .

: فى أعقاب الثورة المصرية ، القاهرة

الحزء الأول ، القاهرة ١٩٤٧

الجزء الثانى ، القاهرة ط ١٩٥٥/٢

الحزء الثالث ، القاهرة ط ١٩٥١/١

: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٧ .

عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع المتخلف ، القاهرة ١٩٧٧

عبد العظيم رمضان : تطور الحركة القومية فى مصر ١٩٣٦/١٩١٨ ، القاهرة ط ٣ ، ١٩٨٣

: تطور الحركة الوطنية فى مصر ، جزءان ، بيروت ١٩٧٣ .

عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج ٦ ط ١٩٦١/٢

عبدالحميد عبدالسلام المحتسب : طه حسين مفكرا ، عمان ١٩٧٨

عبد العاطى محمد : الفكر السياسى للامام محمد عبده ، القاهرة

١٩٧٨
عبد الرحمن بدوى : إلى طه حسين فى عيد ميلاده ، ط ١٩٧٠/٩
عفاف لطفى السيد : تجربة مصر الليبرالية ١٩١٩/١٩٣٦ ، القاهرة ١٩٨١
على الدين هلال : التجديد فى الفكر السياسى المصرى ، القاهرة ١٩٧٥
: السياسة والحكم فى مصر ، القاهرة ١٩٧٧
فاروق أبو زيد : أزمة الفكر القومى فى الصحافة المصرية ، القاهرة ١٩٧٧
فتحى غانم : الفن فى حياتنا ، القاهرة ١٩٦٦
فتحى عثمان : التاريخ الاسلامى والمذهب المادى فى التفسير ، الكويت ١٩٦٠
فخر الدين الظواهرى : السياسة والأزهر ، القاهرة ١٩٤٥
الفكر العربى فى مائة سنة : تحت اشراف الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٥
كريم ثابت : الملك فاروق ، القاهرة ١٩٤٤
لويس عوض : الثورة والأدب ، القاهرة ١٩٧١
لطفى السيد : قصة حياتى ، القاهرة بدون
ليفين (ز .ك) : الفكر السياسى والاجتماعى الحديث فى لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة بشير السباعى ، بيروت ١٩٧٨
مارسيل كولمب : تطور مصر ١٩٢٤/١٩٥٠ ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٢
مجيد خدورى : الاتجاهات السياسية فى العالم العربى ، دور الأفكار والمثل العليا فى السياسة ، بيروت ١٩٧٢
محمد ابو الحسن : طه حسين وديموقراطية التعليم ، القاهرة ١٩٥١
محمد زكى عبد القادر : محنة الدستور ١٩٢٣/١٩٥٢ ، القاهرة ١٩٥٥
محسن محمد : الشيطان ، تاريخ مصر بالوثائق السرية ، القاهرة ، ١٩٨٢

محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٢

محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المصرى الحديث ، جزءان ، القاهرة .

محمد فريد وجدى : نقد كتاب فى الشعر الجاهلى ، القاهرة ١٩٢٦

محمد كامل سليم : ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ج ١

: صراع سعد فى أوروبا ج ٢

: أزمة الوفد الكبرى ج ٣

: كتاب اليوم ، القاهرة ، مايو ـــ يونيو ١٩٧٥ ، مارس ١٩٧٦

مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن ، القاهرة

الأب كمال قلته : طه حسين واثر الثقافة الفرنسية فى أدبه ، القاهرة ١٩٧٠

غالى شكرى : السقوط والازدهار فى الفكر المصرى الحديث ، بيروت ١٩٨٠

هشام شرابى : المثقفون العرب والغرب ، بيروت ١٩٧٠

نازك سابايارد : الرحالة العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، بيروت ١٩٧٩

نبيه بيومى عبدالله : الفكرة العربية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٥

نجاح عمر : طه حسين أيام ومعارك ، بيروت ١٩٧٥

يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٩١٤/١٨٨٢ ، القاهرة ١٩٧٠

: تاريخ الوزارات المصرية ١٩٥٣/١٨٧٨ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ١٩٧٥ (باشراف حسن يوسف)

: الأحزاب المصرية قبل ثورة ، ١٩٥٢ ، القاهرة ١٩٧٧

يوسف نور عوض : الرؤية الحضارية والنقدية فى أدب طه حسين ، القاهرة ١٩٧٩

رابعا : رسائل جامعية

رزق مرسى أبو العباس : التيار الاسلامى فى أدب طه حسين ، رسالة دكتوراه فى جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ، قسم النقد ، ١٩٧٩

محمد نجيب التلاوى : طه حسين فى مسيرة القصة العربية ، رسالة ماجستير فى كلية آداب المنيا ، قسم اللغة العربية ، ١٩٨٢

أحمد زكريا الشلق : حزب الأحرار الدستوريين ، رسالة دكتوراه فى جامعة عين شمس ، قسم التاريخ ١٩٨٢

محمد فريد حشيش : حزب الوفد ١٩٥٢/٣٦ ، رسالة ماجستير فى كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠

عبدالله العزباوى : حزب الوفد ، رسالة ماجستير ، فى كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٠

زكريا سليمان بيومى : الحزب الوطنى ، رسالة ماجستير ، فى كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٧

Ibrahim,. Ibrahim. The Egyptian intellectuals between tradition and modesrity, a study of some important trends in Egyptian thought 1922-1952 (Unpublished ph. D. Dissertation, submitted to the university of OXFORD, 1967).

خامسا : قواميس وموسوعات

ـــ القاموس السياسى والاقتصادى ، القاهرة ط ١٩٦٨/٣

ـــ الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة ٦٥

ـــ دائرة المعارف الاشتراكية ، القاهرة

ـــ الموسوعة السياسية ، بيروت ط ٧٤/١

- Grand Iarousse (Encyclopédiaue) paris, 1961

سادسا : لقاءات شخصية

— لقاء مع بيير كاكيا فى فندق شبرد فى ٨٤/٣/٢٧ ، ١٩٨٤/٣/٢٨

— لقاءات عديدة مع الأستاذ حسن يوسف بمكتبه بجريدة الأهرام فى ١٩٨٣/٦/١٣ ، ٤/٧ — ١٩٨٤/٤/٩

— لقاءات مع الأستاذ حافظ محمود بالقسم الأدبى بجريدة الأهرام فى ١٩٨٢/٣/٢٤ ، ١٩٨٤/٤/٣٠

— لقاءات عديدة مع د . محمد حسن الزيات فى منزل سيادته فى ٦ يناير ١٩٨٠ ، ١٩٨٤/٣/٤

— لقاء مع د . ابراهيم بيومى مدكور ، بمبنى مجمع اللغة العربية بالجيزة ، فى ١٩٨٢/٥/٣٠

— لقاء مع الأستاذ ابراهيم الابيارى ، بمنزل سيادته فى ١٩٨٠/٨/١٣

— لقاء مع الأستاذ المرحوم : محمد زكى عبد القادر ، بمنزل سيادته فى ١٩٨٠/٩/٢٣

ب — الافرنجية :

- Adams, charles, C. Islom and modernism in Egypt, London, 1933, pp 253-259

انظر ص ص ٢٤٧ — ٢٥٢ من الترجمة العربية للكتاب الذى نشر فى القاهرة عام ١٩٣٣ ، والعبارة مأخوذة من الترجمة العربية ومراجعة على النص الانجليزى .

AQhmed, J.U : The intellectual origins of Egyptian nationalism, (London: OXFORD university presse) 1960.

Berque, J q Taha hussein, au delà du nil, gallimard, paris 1977.

: hisloir sociale de L'islam contemprain (Extrain de p'annuaire de college de francais 76. année)

: Cultures, titré a part, volume II No.

Dunne, H.J : society and politico in moderns, Egyptain litterature, middle east journal, 2, 1948.

Morriaon, s.A. : Arab nationalism and islam, middle east journal, 2, 1948.

Kitchen, H.A : Al ahram «Lavraie promesse, revue du caire, 129, 1950.

Perlmann, M : The Egyptian elections, middle Eastern affair, 1,1950.

Ziadeh, N, : Recent books on interpretation of islam, middle East journal, 5, 1951.

Cragg, K, : Then on now in Egypt the reflections of ahmed amin, 1886-1954, middle East journal, e, 1955.

Vatiliotis, P.I : The modern history of Egypt, lendon, 1909

Smith, D.E : Religion and political development (Boston: Little brown and Co.,) 1976.

Smilh, ch : The shift of Egyptian intellectuals to islamie subyects in the 1950.

: The «crisis of orentation» the shift of Egyptian intellectuals to Islamic subjects in the 1930's Int.j. middle east

stud. (4) 1973.

Cachia, p. : Taha hisayn, his plece in the Egyptain litrrary renaissance, London, 1956.

Lamourette, C : La vie et L'oeuvre de taha husayn, paris, umin-de paris, 1971.

Colombe; M. : L'evolution de L'Egypte 1924-1950, paris 1951.

Makaruis R : La jeunesse intellectuelle d'Egypte au lendemain de la deuxieme guerre modiale, paris 1960

Sibb. H.A.P : Studies on the civilizaton of the islam cambridge, (mass) 1951.

Safrain, N : Egypt in serech of political community cambridge, (mass), 1961.

Wiet, C : Notes et critique: taha Hussein, reuve de caire, 1, 4, 1938.

Guichard, L. : Sur le «Le Livre des jours» Refue de caire, 4 25, 1940.

Farés, B., : Le mouvement litteraire en Egypte, Revue du caire, 45, pp 1942.

Teymour M., : Taha Hussein, revue du caire, 31, 1953.

Extrait de L'annuaire du collége de france (76, Anneé-cours de 1976-1977). 1, 2, 3.

الفهرس

صدر
لدار المستقبل العربى عام ١٩٨٦

○ النموذج المصرى لرأسمالية الدولة التابعة ....عادل غنيم
(٤٤٣ ص ـــ ٦٠٠ ق)

○ إسرائيل وإفريقيا .... د. مجدى حماد
(٥٠٠ ق)

○ إندماج .... يوسف الحسن
(٢١٦ ص ـــ ٥٥٠ ق)

○ صناعة الأسلحة فى إسرائيل .... أمين هويدى
(٢٢٣ ص ـــ ٥٥٠ ق)

○ مذكرات محمود رياض (جزء ٢) .... محمود رياض
(٣٢٠ ص ـــ ٨٠٠ ق)

○ استراتيجية المصالحة .... (مذكرات الفريق فوزى جـ٢)
(٣٦١ ص ـــ ٨٠٠ ق)

○ وعليكم السلام (طبعة ثانية).............. محمود عوض
(٥٦٤ ص ـــ ٨٠٠)

○ المواجهة الأعداد (١ ـــ ٦) .... ١٠٠ ق

○ النزول إلى البحر .... جميل عطية
(١٦٣ ص ـــ ٢٥٠ ق)

○ ترابها زعفران .... إدوار الخراط
(٢٠٥ ص ـــ ٢٧٥ ق)

○ الظنون والرؤى .... عبد الحكيم قاسم
(١٤٦ ص ـــ ٢٠٠ ق)

○ على جناح التبريزى وتابعه قفة .... ألفريد فرج
(١١٥ ص ـــ ٢٠٠ ق)

○ وكان بكاؤك فى الحلم مريرا .... أحمد خميس
(١٨٢ ص ـــ ٣٠٠ قرش)

○ السجن دمعتان ووردة .... فريدة النقاش
(٣٥٢ ص ـــ ٦٥٠ ق)

○ حجر دافىء .... رضوى عاشور
(٢١٧ ص ـــ ٤٢٥ ق)

○ القط يحب الغناء .... عدلى رزق الله
(٢٠٠ ق)

○ الفانوس والألوان .... عدلى رزق الله
(٢٠٠ ق)

○ عن العروبة والإسلام .... عصمت سيف الدولة
(٤٧٦ ص ـــ ٥٠٠ ق)

○ سسيولوجيا العلاقات الدولية .... ترجمة د. حسن نافعة

○ أفريقيا .... كتاب غير دورى

○ أوراق عربية .... كتاب غير دورى

○ من يساعد اسرائيل .... د. جودة عبد الخالق
(١٤٨ ص ـــ ٢٧٥ ق)

○ أبحاث مختارة فى القومية العربية .... ساطع الحصرى
(٤٦٤ ص ـــ ٥٥٠ ق)

○ مع عبد الناصر .... أمين هويدى
(٢٧٠ ص ـــ ٥٥٠ ق)

○ الملاحة فى بحار صعبة .... ألفريد فرج
(٨٦ ص ـــ ١٥٠ ق)

○ مصر إلى أين .... محمد عبد السلام الزيات
(٣١٨ ص ـــ ٥٥٠ ق)

○ من بين صفوف الطبقة العاملة .... أحمد ابراهيم موسى
(١٣٩ ص ـــ ٢٠٠ ق)

○ حرب الثلاث سنوات .... مذكرات الفريق أول محمد فوزى
(٤٦٠ ص ـــ ٧٠٠ ق) طبعة ثانية

○ وثائق الحوار العربى الأوروبى .... د. أحمد صدقى الدجانى
(٥٤٤ ص ـــ ٢١٠٠ ق)

○ مذكراتى فى سجن النساء .... د. نوال السعداوى
(٣٦٠ ص ـــ ٣٧٥ ق) طبعة ثانية

○ حور محب .... حسين ذو الفقار صبرى
(١٥٨ ص ـــ ٢٥٠ ق)

○ أزمة المجتمع العربى .... د. سمير أمين
(٢١٩ ص ـــ ٥٠٠ ق)

○ الخيل والليل .... سهام بيومى
(١٣٠ ص ـــ ٢٠٠ ق)

○ عبد الناصر وثورة ليبيا .... فتحى الديب
(٤٩٦ ص ـــ ٩٠٠ ق)

إصدارات دار المستقبل العربي

توجد فى المكتبات الآتية :

مكتبات القاهرة

ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب	كورنيش النيل القاهرة
ـــ كشك عبد المعطى	بجوار جروبى ـــ طلعت حرب
ـــ مكتبة العربى للنشر والتوزيع	٦٠ ش القصر العينى ـــ أمام روزاليوسف
ـــ سيد كامل	شارع عدلى ـــ أمام حديقة جروبى
ـــ حنفى مدبولى	أمام جامعة القاهرة
ـــ مكتبةدار حراء	شارع شريف بالقاهرة
ـــ مكتبة النهضة	شارع عدلى بالقاهرة
ـــ مكتبة مدبولى	ميدان طلعت حرب
ـــ مكتبة الشروق	٢ شارع البورصة ـــ قصر النيل القاهرة
ـــ مكتبة البيادر	سور نادى الزمالك
ـــ مؤسسة الأهرام	شارع الجلاء القاهرة
ـــ دار الثقافة الجديدة	٣٢ ش صبرى أبو علم ـــ القاهرة
ـــ مكتبة بوك سنتر	روكسى ـــ مصر الجديدة
ـــ مكتبة بوك إن	٨٨ ش وادى النيل ـــ ميت عقبة
ـــ مكتبة شجرة الدر	الزمالك ـــ ش شجرة الدر
ـــ المكتبة القومية	٧٨ ش الحجاز ـــ مستشفى هليوبوليس

مكتبات الإسكندرية

ـــ مكتبة بدر السبيعى	محطة الرمل
ـــ مكتبة الرملى	محطة الرمل
ـــ مكتبة علاء الدين	ش صفية زغلول
ـــ دار ومطابع المستقبل	ش صفية زغلول
ـــ مكتبة النديم	محطة ترام سيدى جابر
ـــ دار المطبوعات الجديدة	ش سان مارك ـــ المنشية

الاسماعيلية

ـــ مكتبة عاطف البدرى

طه حسين والفكر السياسى

رقم الإيداع : ٣٠١٣ / ١٩٨٧
الترقيم الدولى : ٧ ــ ٠٥٢ ــ ٤٤٢ ــ ٩٧٧

مطبعة العروبة ٢٤٦٤٢٥٥

طه حسين والسياسة

●● هذه أول دراسة تولى الجانب السياسى عند طه حسين جانبا كبيرا من الأهمية ، وخاصة أن كثيرا من دواعى الإبداع لديه كان من ورائها دافع سياسى ، كما أن الكثير من المعارك السياسية ، التى أثيرت حوله ، كان من ورائها أيضا دافع شخصى أو فكرى . ويضاعف من هذه الأهمية أن طه حسين ارتدى مسوح السياسة حين شارك فى دروس الأدب ، وارتدى مسوح الأدب فى الجامعة حين شارك فى السياسة .

●● باختصار ، لقد كان طه حسين مثال المثقف الذى ارتبط بعلاقات وثيقة مع المؤسسة السياسية والحزبية فى وقت لم يكن يستطيع فيه أن يخلص من دواع خاصة به وبعصره ، حددت اتجاهه مع هذا الاتجاه السياسى أو ذاك .

●● طه حسين واحد من المثقفين الذين تدور حولهم المعارك وتقام المحاكمات وتنصب المشانق فى وقت لم تتعرض فيه مواقفه السياسية للبحث الموضوعى أو تلمس الوثيقة .

●● ومن أجل هذا كله كانت هذه الدراسة .

مصطفى عبد الغنى

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة

ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــــرة